الدكتور أبو الفتوح رضوان

القومية العربية

الهيئة العامة
للكتب والأجهزة العلمية

اهداءات ٢٠٠٢

الشاعر/ عبد العليم القباني

الإسكندرية

الدكتور أبو الفتوح رضوان

القومية العربية

الطبعة الرابعة
١٩٦٩

الهيئة العامة
للكتب والأجهزة العلمية

الفهـــرس

الفصـــل الأول

الأمة العربيـــة

صفحة

مفهـــوم الأمـــة ١

مراحل تكوين الأمة العربية ٥

١ ـ مرحلة الأصول الجنسية والعنصرية القديمة . . . ٦

٢ ـ مرحلة الانتشار الاسلامى ١٥

كيف حدث الانتشار العربى بعد الاسلام ؟ . . . ١٦

٣ ـ مرحلة التجانس العنصرى والثقافى فى العصور الاسلامية . ٢٨

التجانس العنصرى بالمخالطة ٢٩

انتشـــار الاســـلام ٣٢

انتشار اللغة العربية وتحولها الى لغة قومية . . . ٣٨

التجـــانس الثقـــافى ٤٠

وحدة الأهـــداف والآمال ٤٦

٤ ـ مرحلة الاتصـــال بالمدنية الحديثة ٥٠

الفصـــل الثانى

وطن الأمة العربية

خصائص الوطن العربى ٦٧

١ ـ الوطن العربى ذو موقع ممتاز ٦٨

٢ ـ الوطن العـــربى عظيم المســـاحة ٦٨

٣ ـ الوطن العـــربى ذو حـــدود فاصلة . . ٧٠

٤ ـ الوطن العـــربى متصـــل الأجزاء . . . ٧٢

٥ ـ الوطن العربى وحـــدة طبيعيـــة متكاملة . . ٧٣

٦ ـ الوطن العربى كثير الخيـــرات ٧٣

٧ ـ الوطن العربى ذو أهميـــة عالميـــة ٧٦

٨ ـ الوطن العربى منشـــأ الحضـــارات ٧٨

التكامل الاقتصـــادى للوطن العـــربى ٧٩

خصـــائص الاقتصـــاد العربى ٨٠

مظاهر التخلف فى الاقتصـــاد العـــربى ٨١

مظاهر التفكك فى الاقتصاد العربى ٨٦

من المسئول عن هذا التخلف والتفكك ؟ ٩١

ضرورة التكامل الاقتصادى ومدى امكانه ٩٤

البترول العربى كمثال للاستغلال الاستعمارى ٩٧

أجـــزاء الوطن العربى ١٠٣

الفصل الثالث
الحضارة العربية

صفحة

خصائص الحضارة العربية ١٠٨
١ ــ الحضارة العربية حضارة راقية ١٠٩
٢ ــ الحضارة العربية حضارة شاملة ١١٠
٣ ــ الحضارة العربية حضارة عامة ١١٠
٤ ــ الحضارة العربية حضارة عالمية ١١١
٥ ــ الحضارة العربية حضارة انسانية ١١١
٦ ــ الحضارة العربية ذات طابع خاص ١١٢
٧ ــ الحضارة العربية حضارة انتقائية وظيفية ١١٣
٨ ــ الحضارة العربية حضارة أصيلة ١١٣
مقومات الحضارة العربية ١١٤
الاطار الاسلامى للحضارة العربية ١١٧
نظام الحكم ١٢٦
النظم الاقتصادية ١٣٢
النظم الاجتماعية ١٣٧
العلوم عند العرب ١٤٣
العلوم الطبيعية والطب ١٤٦
١ ــ عصر الترجمة ١٤٦
٢ ــ العصر الذهبى للعلوم ١٤٩
٣ ــ عصر الاضمحلال ١٥٣
فضل العرب فى ميدان الطب ١٥٤
الرياضة والفلك ١٥٦
الجغرافيا والتجارة ١٥٨
جغرافية العرب ١٥٨
اهتمام العرب بالتجارة ١٦٠
الملاحة والطرق البحرية ١٦٠
القوافل والطرق البرية ١٦٤
مادة التجارة العربية ١٦٦
النظم التجارية ١٦٧
دورة الحضارة ١٦٩
انتقال الحضارة العربية الى الاوربيين ١٧١

الفصل الرابع
القومية العربية

ماهى القومية ؟ ١٧٧
مقومات القومية العربية ١٨١
١ ــ وحدة اللغة والثقافة ١٨٣
٢ ــ الوحدة التاريخية ١٨٦

صفحة

٣ ـ وحدة الكفاح ١٨٩
٤ ـ وحدة القيم الروحية النابعة من الأديان . . . ١٩٠
٥ ـ وحدة المفاهيم الاجتماعية والاقتصادية . . . ١٩٢
تطور مفهوم القومية العربية ١٩٣
المرحلة الأولى ـ مرحلة العروبة ١٩٥
المرحلة الثانية ـ الجامعة الاسلامية كمضمون للقومية العربية . ٢٠١
المرحلة الثالثة ـ العودة الى المفهوم العربى للقومية العربية . ٢٠٩
المرحلة الرابعة ـ التحديد الدقيق لمفهوم القومية العربية بعد ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ . . . . . . ٢٢٠
الأسس الفكرية للقومية العربية ٢٢٧
١ ـ فى المجال الفكرى ٢٢٨
٢ ـ فى المجال السياسى ٢٣١
٣ ـ فى المجال العربى القومى ٢٣٧
٤ ـ فى المجال العالمى ٢٣٩
مستقبل القومية العربية ٢٤١

الفصل الخامس

الوحدة العربية

أولا ـ الوحدة العربية حقيقة تاريخية ٢٤٧
ثانيا ـ الوحدة العربية ظاهرة تاريخية ٢٥١
الدولة العربية ٢٥١
مشروع الوحدة العربية فى القرن التاسع عشر . . . ٢٥٤
الوحدة كظاهرة فى حركات القرن العشرين . . . ٢٥٦
جامعة الدول العربية ٢٥٧
معاهدة الضمان الجماعى (١٩٥٠) ٢٦١
الوحدة العاطفية والفكرية ٢٦٢
ثالثا ـ الوحدة العربية ضرورة من ضرورات الحياة المعاصرة . . ٢٦٦
رابعا ـ الوحدة العربية ضرورية لتحقيق الأهداف العربية . . ٢٧١
الوحدة العربية فى ظل ثورة سنة ١٩٥٢ . . . . . ٢٧٣
١ ـ الجمهورية العربية المتحدة ٢٧٧
٢ ـ الدول العربية المتحدة ٢٨٠
٣ ـ الاتحاد العربى الهاشمى ٢٨٢
نظرة فى هذه الصور الحديثة من الوحدة ٢٨٥
موقف الاستعمار والرجعية من تجربة الوحدة . . . ٢٨٧
نكسة الانفصال ٢٨٩
درس الانفصال وعودة الوحدة ٢٩٠
نظرية الوحدة وصورتها ٢٩٦
طبيعة الوحدة ٢٩٩

صفحة

خطوات الوحدة ٣٠٣
أسس الوحدة ٣٠٥
أيديولوجية الوحدة ٣٠٨
بنـاء الدولة ٣١٠
نقد اتفاقية الوحدة الثلاثية ٣١٣
ما قبل الاتفاقية وما بعدها ٣١٤
نظرة واقعيـة ٣١٦

الفصـل السادس

الأمة العربية والاستعمار

ما هو الاستعمـار ؟ ٣١٩
خصـائص الاستعمـار ٣٢١
١ ــ الاعتماد على العنف وقوة السلاح ٣٢١
٢ ــ السيطرة السياسية على أدوات الحكم . . . ٣٢٢
٣ ــ الاستغلال الاقتصادى ٣٢٣
٤ ــ ندرة الخدمات العامـة ٣٢٥
٥ ــ الاسـتعلاء والتعصب ٣٢٦
٦ ــ الانفصال بين الحاكم والمحكوم ٣٢٨
٧ ــ التستر وراء الأسماء ٣٢٩
الاستعمار فى الوطن العربى ٣٣٢
أولا ــ الاستعمار الرومانى ٣٣٤
ثانيا ــ الاستعمار الصليبى ٣٣٧
ثالثا ــ الاستعمار التجارى ٣٤٦
رابعا ــ الاستعمار الفرنسى الانجليزى ٣٥٢
خامسا ــ الاستعمار الغربى الحديث ٣٥٦
الاستعمـار القـديم ٣٥٧
أسباب جديدة لاستعمار جديد ٣٥٨
أسـاليب الاستعمـار ٣٦٢
الاستعمار الغربى فى الوطن العربى ٣٦٤
تصفية الاستعمار فى الوطن العربى ٣٧٥
درس الاستعمـار ٣٨٠

الفصـل السـابع

خـلاصة عن الصهيونيـة

الصهيونية ذئب من أذئاب الاستعمار ٣٨٣
أثر الاستعمار فى قيام الدولة الصهيونية ٣٨٤
مسئولية العرب فى قيام الدولة الصهيونية ٣٨٧
الصراع مع الصهيونيـة ٣٨٨
المراجـع ٣٩٣

فهـــرس الخــرائط

صفحة

١ ــ الهجرات العربيــة ٩
٢ ــ الفتوحات الاســلامية ١٨
٣ ــ توزيع الديانات فى العــالم ٣٦
٤ ــ موقع الوطن العــربى ٦٩
٥ ــ الوطن العــربى ١٠٤
٦ ــ أهم طرق التجارة ومراكزها فى العصور الوسطى . . . ١٦١
٧ ــ التجــارة العربيــة ١٦٣
٨ ــ الاستعمار العثمانى فى الوطن العربى ٢٠٢
٩ ــ الوحدة العربية فى التاريخ ٢٥٣
١٠ ــ الاستعمار الرومانى فى الوطن العربى ٣٣٤
١١ ــ الاستعمار الصليبى فى الوطن العربى ٣٤٠
١٢ ــ تدفق قوى الاستعمار على العالم العربى فى القرن التاســع عشر وأوائل القــرن العشرين ٣٦٥

تقـــديم

اذا عددنا القوى التى يزخر بهـا العالم فى عصرنا هـذا وتؤثر فيه وتوجه سياسته ، وتشكل أحداث تاريخه فان القومية العربية فى مقدمة هـذه القوى • فالقومية العربية وان كانت تنسب الى العروبة ، وتوجـد بين الشعوب العربية ، وتسكن الوطن العربى ، وترتبط بمقومات الحياة فيـه من دين ولغـة وتقاليد وتاريخ وأهداف ومصالح ومصير ، فان أثرها قد تجاوز حـدود هـذا الوطن وتخطى دائرة هـذه الشعوب حتى وصل الى شـعوب كثيرة لا تتصل بالعروبة جنسا ، والى أوطان متعددة لا يتخـذها العرب سكنا ، ولا يربط أهلها بمقومات هذه القومية شيء • لقد تجاوز أثر القومية العربية الشـعوب الى الانسانية ، والحاضر الى المستقبل ، والأوطان الى العالم بأسره •

وليست القوميـة العربية قوة أى قوة ، ولكنها قوة هائلة أصـبح يعمـل لهـا ألف حسـاب فى سياسات الدول وفى قرارات المنظمـات الدوليـة ، ولنضرب لذلك مثلا بالاستعمار • فلا شـك أنه قوة عالمية كبيرة تقف وراءها دول ذات حول وطول • ومـع ذلك فقد ركع الاسـتعمار أمام قوة القوميـة العربية • ركع أكثر من مرة : ركع يوم اضطر الى الانسحاب من أجزاء الوطن العربى جزءا بعد جزء • وركع يوم فكر فى العودة على هيئة اعتـداء ثلاثى على مصر ، وركع يوم اضطر الى الرضوخ لقانون التصفية الذى وضعته القوميـة العربية ، فأخذ ينسحب من مراكزه فى أفريقيـا وآسـيا ، وركع أخيرا وليس آخرا عندما غزته القومية العربية ، كرائدة لغيرها من القـوى ، فى عقـر داره فاعتنقت المنظمات الدولية مبدأ اداته وتصفيته •

ومع ذلك فاذا كانت القومية العربية واضحة من حيث هى قـوة ، فانهـا ليست بهذا الوضـوح من حيث هى فكرة • واذا كانت جياشـة من حيث هى عاطفة ، فانها أقل سيطرة من حيث هى معنى • واذا كان مسلما بها من حيث هى

ماض ، فانهـا موضع نقاش من حيث هى حاضر . واذا كانت مرئيـة من حيث هى وجود عام فانهـا خافيـة من حيث هى تفاصيل . واذا كانت حقيقـة ثابتة عند أصحاب الوعى ، فانها مرض فى قلوب أصحاب المصالح .

وليس هذا التباين بين حال من أحوال القوميـة العربية وبين حال آخـر راجعا الى شىء فى طبيعة هـذه القومية ، ولكنه راجع الى أسباب أخرى خارجة عن هذه الطبيعة ، لعل أهمها ما يلى :

١ ــ ان القومية العربيـة اختلطت فى عصـور تاريخيـة مضت بأشـياء ان لم تكن غريبة عنها فانها أعم منهـا أو أخص . وكان هذا أثر الاسـتعمار العثمـانى فيهـا .

٢ ــ ان القـومية العربيـة ــ فى عصـور تاريخيـة ــ قـد تعـرضت لمؤامرات فكرية حاولت أن تمزقها طوليـا بفصلها من أصـولها التاريخيـة ، أو عرضيا بالتفرقة بين الشـعوب العربية التى تتحمـل مسئوليتها فى الوقت الحـاضر ، وجندت للوصول الى هـذه الغـاية كل وسائل العلوم التـاريخية والجغرافية والسـياسية والأنثروبولوجية ، وسخرت كل أدوات بلبلة الفكر ، وأساليب الضغط . وكان هذا أثر الاستعمار الغربى فيها .

٣ ــ ان القـومية العربيـة ابتليت ببعض أصـحاب المصالح الخاصة من المستغلين وبعض طلاب العروش من الحكام ، انحـرفوا عن سبيلها من أجـل مصالحهم وأطماعهم ، فشككوا الناس فيها وأيأسوهم من امكان تحقيقها .

ولقد تقدمت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ الصف العربى وقادته فى معـركة نضال القومية العربية فكريا ضد المفاهيم الخاطئة ، وماديا ضـد الاسـتعمار وعمـلائه . وكسبت هـذه الثورة تلك المعارك للقوميـة العربية ، حتى علت كلمتها ، وتقـررت حقيقتها ، وأصبحت من أهم معـالم العصر التى يتأثر بهـا ويعيش فيها المواطن العربى .

ومن أجل هـذا كله حق على هـذا المواطن أن يدرس القومية العـربية ، ليعرف أسسها وحقيقتهـا والقـوى المؤثرة فيهـا وما تتعـرض له من جانب الأصدقاء والأعـداء على السواء ، حتى تصح أفكاره عنهـا وتثبت عواطفـه نحـوها .

وهذا كتاب وضعناه فى القومية العربية ، جلونا فيه على حقيقتها مرتبطة بأصولها ، قائمة على مقوماتها الفكرية والمادية ، مقترنة بفلسفتها ، مشيرة الى نتائجها الحتمية . عالجنا فى الفصل الأول الأمة العربية ، وهى المجموعة من البشر التى تحل القومية العربية ماديا فى دمها ، وفكريا فى عقلها ، وعاطفيا فى وجدانها ، وبينا المراحل التى صبغت فيها القومية ذلك الدم والعقل والوجدان . وتناولنا فى الفصل الثانى وطن الأمة العربية ، وهو البيئة الطبيعية التى انبعثت منها العوامل التى أوجدت القومية العربية . وعالجنا فى الفصل الثالث الحضارة العربية ، وهى ما أنتجته الأمة العربية على مسرح وطنها العربى من الوسائل الثقافية التى مكنتها من المعيشة عليه وميزتها بين العالمين . وتناولنا فى الفصل الرابع القومية العربية من حيث هى حقيقة تاريخية ، ومن حيث هى رسالة انسانية . وتكلمنا فى الفصل الخامس عن الوحدة العربية ، وهى النتيجة الحتمية للقومية العربية ، فتتبعنا الوحدة فى الماضى وفى الحاضر ، وبينا أصولها وأشكالها والملابسات التى تحيط بها بما لا يترك مجالا للشك فى قيتها ، قصر الأمد أو طال . أما الفصل السادس فقد عالجنا فيه امتحان هذه الأمة بالاستعمار وأثره فيها . وختمنا فى الفصل السابع بخلاصة عن الصهيونية بينا فيها الوجه الحقيقى للصهيونية من حيث أنها ذنب من أذناب الاستعمار .

وليس هذا المؤلف كتابا فى التاريخ ، ولا فى الجغرافية ، ولا فى الاقتصاد ، ولا فى أى علم بمفرده من العلوم ، وان كان قد قام على دراسات عميقة فيها جميعا ، هو كتاب فى القومية العربية كموضوع مستقل للدراسة ، والغرض منه تحقيق التربية السياسية بأسلوب علمى .

ولقد حاولت تصحيح المفاهيم الخاطئة التى علقت بالقومية العربية ، كما حاولت أن أزيل الشبهات التى أثارها الاستعمار . وصورت جميع جوانب القومية العربية تصويرا صادقا قائما على أوثق المصادر ، وأبرزت ما كان لثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ من دور طليعى فى احيائها واعلاء كلمتها وجمع الكلمة حولها ، وما كان لها من مجهود فكرى فى تعميق مفاهيمها ووضع أيديولوجية لها ، حتى أحالتها الى مذهب عقائدى عميق الأثر فى توجيه حياة العرب ومستقبلهم .

وحاولت أن أجعل الكتاب خالصا من كل ما أخذ على ما سبقه من الكتابات فى القومية العربية ، فهو ليس مجرد دفاع عنها ، ولا مجرد دعوة لها ولا هو اقتصر على جانب واحد من جوانبها تبعا لمادة تخصص المؤلف ، ولكنه معالجة علمية قائمة على الوثائق ، مقرونة بالتفكير والمقارنات ، والنقد الداخلى والخارجى للحقائق ، وكل أساليب البحث العلمى فى أدق صوره ، منصبة على قدر ضخم من المادة العلمية فى جميع العلوم الاجتماعية على السواء .

وسيلاحظ القارىء أننا وقفنا فى الفصل الأول عند أحداث تغيرت فى الوقت الحاضر ، ولم نشر فى فصله الأخير لأحداث وقعت بالأمس ، وهذه من خصائص كتب العلوم الاجتماعية ، لأن المجتمعات البشرية لا توقف حركة تقدمها انتظارا للباحث حتى ينتهى من بحثه ، وهى دائما أسبق من البحث والباحثين .

ومع ذلك ، فانا لا ندعى لكتابنا العصمة من الخطأ ، ولكنا نقرر أننا عملنا على تحاشيه بقدر ما فى انسان من طاقة ، فحيث أصبنا نحمد الله على نعمة التوفيق ، وحيث أخطأنا حسبنا أننا استفرغنا الجهد ، والكمال لله وحده .

نسأل الله أن ينفع به أمتنا العربية بقدر ما أخلصنا النية فى تأليفه ، والحمد لله أولا وآخرا .

« أبو الفتوح رضوان »

الفصل الأول

الأمة العربيـــــة

مفهوم الأمة

ما الذى تقصده عند ما تتكلم عن « الأمة » أى أمة ؟ وما الذى نفهمه عندما نسمع الناس أو نقرأ لهم يتحدثون عن « الأمة » ؟ هل تقصد جماعة من الناس يتكلمون لغة واحدة ؟ أو جماعة من الناس يسكنون وطنا معينا ؟ أو جماعة من الناس تحكمهم حكومة واحدة ، أو يكونون رعية دولة واحدة أو تقصد جماعة من الناس يجرى فى عروقهم دم واحد .

وبعبارة أخرى هل اصطلاح « الأمة » مفهوم عنصرى ، أو هو مفهوم جغرافى ، أو هو مفهوم قانونى ، أو مفهوم ثقافى ؟ أو هو كل هذا جميعا ؟

الأمة جماعة من الناس لهم عادة أصل أو عرق غالب ويتكونون عادة من أصول أو عروق مشتركة متجانسة ، ولهم وطن واحد ، كما تجمعهم ثقافة واحدة ، وأهداف مشتركة . فأركان الأمة هى :

١ ــ التجانس العنصرى .
٢ ــ وحدة الثقافة .
٣ ــ الوجدان المشترك .
٤ ــ وحدة التاريخ والقيم والأهداف .
٥ ــ وحدة الوطن .

وقد تتوافر كل هذه العوامل فى أمة ، وقد لا يتوافر بعضها ، وقد يكون بعضها غير كامل ، ومع ذلك تبقى الأمة أمة بالرغم من هذا النقص الجزئى ، ما دام يتوافر لها من كل هذا قدر يكون من القوة بحيث يوجد بين

أفرادها قدرا من التماسك يشعرها بشخصيتها المتميـزة ويحقـق لها نوعا من الوحدة . وتكون الأمة قوية بقدر ما يتفق لها من هذه العوامل . وهذا الشرط الأساسى لا يتأتى الا نتيجة لعملية طويلة من التفاعل المستمر بين هذه العنـاصر على وطن يكون بوتقة يصهر هذه العناصر ويوحد بين عواطفها وأهدافها ويعطيها خصـائصها المميـزة .

فمثلا وحدة الأصل أو العنصر أو الدم قلما تتوافر بمعناها الحرفى فى أمة ، فان ظروف نشأة أى أمة وتكونها ونموها على أحقاب طويلة من الزمن يجعـل جماعتها الأم تختلط بجماعات أخرى تفد عليها اما لاجئـة أو غازية أو معايشة ، ومع ذلك فان مرور الزمن يصهر هذه العناصر بعضها فى بعض بحكم الاختلاط والمعاشرة والتزاوج ، فتختلط مميزات هذه العناصر وتصبح مجموعة متجانسـة لا تكاد تميز منها عنصرا من عنصر وبذلك تصبح أمة واحدة . فالأمة الانجليزية مثلا تتكون من جماعة « أم » هى الانجليز السكسون ، ومع ذلك فقد اختلط بهم بحكم الغزو أقوام آخرون كالفرنسيين والنورمنديين ، ومع الزمن أصـبح الكل جماعة متجانسة وأمة واحدة لها شخصيتها . وقد يحدث أن توجد عوامل تمنع الاختلاط والتزاوج كالاختلاف الشديد فى لون البشرة كما هو الأمر فى شعب الولايات المتحدة بين البيض والزنوج ، أو لأسباب أخرى كمـا هو الأمر فى شعب سويسرة بين الجرمانيين منهم والفرنسيين والايطـاليين ، وبالرغم من ذلك فالكل يكونون أمة واحدة متى توافرت لهم بقية العوامل التى من شـأنها أن تحقق الترابط والتماسك . ومع ذلك فلو لم يتفق هذا التفاوت لكل هـذه الأمم لـكان ذلك أدعى الى مزيد من القوة فيها . والمهم أن وحدة الأصل أو العنصر أو العرق ضرورية على شرط أن يكون مفهوما أن المقصود ليس نقـاوة الـدم وهى أساس النظـرية العنصرية التى ثبت خطؤها ، وانما المقصود هـو الانسـجام والتجانس العنصرى .

والوطن عامل مهم فى تكوين الأمة . اذ ان اشتراك الناس فى معيشة واحدة على وطن واحد هو الذى يوحد بين عواطفهم وطرق حياتهم وأفكارهم ومصالحهم وأهدافهم . ولذلك فمن الصعب بل قد يستحيل أن تتكون أمة بلا وطن . وقد ينقسم الوطن الى أكثر من دولة ويحكمه أكثر من حكومة ، ومع ذلك فما تزال الأمة أمة متى توافرت لها من عوامل الترابط ما يجمعها على أمر واحد أو يوحدها

حول هدف مشترك بالرغم من هذا التفرق • فالعرب الذين يعيشون فى أمريكا أو فى أى مهجر آخر ، هم من الأمة العربية وان كانوا من رعايا دول أخرى وان كانوا يسكنون أوطانا غير عربية ، وذلك لتوافر عوامل أخرى تشعرهم بهذا الترابط • والأمة الألمانية تقتسمها الآن دولتان ، ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية ، واتشق وطنها وطنين ، وبالرغم من ذلك فهى أمة واحدة • ولكن هذا حدث بعد أن كانت الأمة قد تكونت على وطن موحد ، ولم يطل افتراق شقى الأمة الألمانية بحيث يفصل بينهما ثقافيا ومصلحيا ومن حيث الأهداف ويجعل منهما أمتين • وعلى ذلك فوحدة الوطن ووحدة الدولة لو أنها توافرت لكانت من أهم العوامل التى تحفظ وحدة الأمة وتقوى شخصيتها •

وعلى هذا الأساس يمكننا أن نرى أن الصهيونيين ليسوا أمة • فهم لم يجتمعوا على وطن الا مدة وجيزة من الزمن ، فى عمر الأمم ، قبل أن يتشتتوا فى الأرض وتنتمى كل جماعة منهم الى وطن والى ثقافة والى لغة • ومن ثم فشراذمهم المتنافرة التى احتلت فلسطين لا يكونون أمة بالمعنى الصحيح •

ولعل أهم عوامل تكوين الأمة هى وحدة الثقافة ، ووحدة الأهداف والآمال • فالتماسك الاجتماعى الذى هو أساس الأمة انما يقوم على التفاهم ووحدة اللغة ووحدة طريقة النظر الى الأشياء ، ووحدة العادات والتقاليد ، ووحدة المثل العليا ، ووحدة الهدف • فهذه الأشياء هى التى تقرب بين الناس وتجمع بينهم حتى ولو فرقهم المكان أو نأى بهم طلب العيش • ولذلك كانت هى أساس أى أمة • ولعل هذا العامل بالاضافة الى عامل الوطن هو الوحيد من بين عوامل تكوين الأمة الذى لا يمكن لأمة أن تفقده من غير أن تصاب فى تماسكها اصابة بالغة ، أو لعله العامل الوحيد الذى لا يمكن أن تتكون أمة من جماعة من الناس اذا لم يتفق لهم •

وعلى ذلك فالأمة مفهوم ثقافى قبل كل شىء ، ومعروف أن الثقافة لا تقوم الا نتيجة لحياة اجتماعية تحدث على وطن • وهى متى استقام لها المقوم الثقافى أمكن أن تستغنى عن بعض مقوماتها الجغرافية والعنصرية اذا فرض عليها ذلك • والمفهوم الثقافى هو ذلك الذى يتعلق بالتقاليد والقيم والأهداف • ولعل خير ما يوضح هذا المعنى ما ورد فى تعريف « الأمة » فى قاموس علم الاجتماع وهو

كمـا يـلى :

« الأمة جماعة من الناس حققوا آخر مراحل الوحدة كما تتمثـل فى الوعى السياسى والاسـتقرار فى وطن • • وربما كانت الأمة أقـوى ما أنتجه التطـور الاجتماعى من الجماعات الانسانية الكبيرة استقرارا وتماسكا » [1] •

فأساس « الأمة » اذن هو المشـاركة على وطن واحد فى تراث واحـد من الآراء ، وطرق التفكير ، والعمل ، ومن القيم ، والأهداف ، وأنمـاط السلوك ، أى المشاركة فى أيديولوجية واحدة ، أو نظام عقائدى وفكرى ووجدانى واحد • ووجه الأهمية فى وجود نظام عقائدى مشترك هو أن هذا النظام هو العامل الذى يساعد كل فرد وكل جماعة فى داخل الأمة على أن تعطى العالم المحيط بهـا نفس التفسير ، وترى فى النظم التى تعيش عليها نفس المعنى ، كما يساعدهم على تنظيم العلاقات فيمـا بينهم وتكوين عاطفة الولاء نحو الوطن ونحو الثقافة وبعبـارة أخرى هو الذى يجمعهم على معيشة واحدة • وقد أكد أهمية هذا الأساس الثقافى كل مفكرى العلم السياسى فى كل العصور • فمكياڤلى فيلسـوف الاسـتبداد (١٤٦٩ — ١٥٢٧ م) يجعل من أميره كل شىء ويضع فى يده كل سلطة ولكنه ينبهه الى وجوب ظهوره بمظهر المقاسم لرعيته فى عقائدها المشتركة ، ويخبره أن المجتمع السياسى السليم هو ذلك الذى يؤسس على عنصر المشاركة بين كل مواطنيـه • وهوبز Hobbes (١٥٨٨ — ١٦٧٩ م) الذى يقيم نظـرية الدولـة على رغبـة الناس فى الأمن وخوفهم من الاعتداء ويجعل القوة دعامة الحكم يؤكد أهميـة وجود حد أدنى من الأصول الخلقية والفكرية المشتركة بين جميع الأفراد ، لأن قبولهم لهدف واحد يجعلهم يقبلون السلطة أو القوة التى تعمل على تحقيقـه • وكارل ماركس (١٨١٨ — ١٨٨٣ م) الذى فسر جميع الأيديولوجيات أو النظم العقائدية على أنها تبريرات لمـا يسود المجتمعات التى ظهرت فيها من عـلاقات طبقية ، يسلم ضمنا بأن وجود نظام عقائدى مسلم به من جميـع الأفـراد شرط أساسى لقيام أى مجتمع ، لأن هذا النظام العقائدى هو الذى يجعـل العـلاقات السائدة بين الطبقات قانونيـة • ويذهب ماكس ويبر Weber الى أنه وان كان من المسلم به أن القوة عنصر أساسى فى أى دولة ، الا أن القوة تعتمد قبل كل شىء

(1) Henry P. Fairchild (editor), *Dictionary of Sociology*, Littlefield, Paterson, N. J., P. 201.

على اكتسابها الصفة القانونية ، فى نظر الخاضعين لها ، فى اطار نظام عقائدى معين يجعل القوة حقا ويجعل الولاء لها واجبا .

وواضح فى كل ما تقدم من الآراء أن الثقافة المشتركة أو النظام العقائدى الفكرى الواحد هو — بعد الوطن — حجر الزاوية فى تكوين أى أمة ، ووجه الأهمية فى هذا التراث الثقافى هو أنه يكون ضمير الجماعة ووجدانها الذى هو العامل الأساسى فى احساسها بنفسها ، والتمييز بين نفسها وبين غيرها من الجماعات ، ومن ثم فهو من عوامل الاستقرار فيها .

فاذا أضيف الى هذا التراث الثقافى روابط أخرى من جنس غالب وتجانس فى العروق ، ومن دولة واحدة ، أو وحدة سياسية من أى نوع ، أو على الأقل حظوظ مختلفة من كل هذه العوامل ، فقد توافر للأمة كل ما يلزمها من العوامل لكى تكون أمة قوية ثابتة على تعاقب الأجيال .

وكل ما تقدم من عوامل قيام « أمة » من الأمم لا يمكن أن يتفق لجماعة من الناس بين يوم وليلة ، بل لابد وأن يحدث نتيجة لعملية تاريخية طويلة متصلة ، فالعقائد المشتركة والثقافة الواحدة ، ونمو الاحساس الجماعى بين الأفراد ، وقدرتهم على التمييز بين أنفسهم وبين غيرهم ، واكتسابهم لخصائص مميزة يعرفهم بها الآخرون ، ليست كلها مما يمكن أن يتحقق فى مدة قصيرة من الزمن . فلا بد اذن من تاريخ طويل وراء أى أمة مكتملة النمو . ولذلك فمفهوم الأمة لا يمكن أن يفهم الا فى ضوء التاريخ ، وحقيقة أى أمة لا تتضح الا فى ضوء تاريخها المتصل .

وبعد ، فكيف تكونت الأمة العربية فى ضوء المعايير السابقة ؟

مراحل تكوين الأمة العربية

سترى مما يلى أن الأمة العربية أمة كاملة المعالم ، وأنها تتمتع بحظ من العوامل المكونة للأمم قلما يتفق لغيرها من الأمم . فان وراء الأمة العربية تاريخا طويلا ، وعملية تاريخية متصلة على وطن واحد ، توافر لها فى أثناء هذه العملية التاريخية من عوامل الوحدة ، وعناصر التماسك ، ومقومات الثقافة الواحدة

والهدف العام ما جعل منها أمة متميزة بحكم ما تشعر به من الوعى بنفسها ، وما يعترف لها الآخرون به من خصائص التمييز .

وسترى مما يلى أن الأصول الجنسية والعنصرية للأمة العربية ترجع الى آلاف السنين وأن لهذه الأصول العنصرية وطن واحد ، وأن أصولها الثقافية المشتركة ترجع على الأقل الى حوالى أربعة عشر قرنا مضت ، وأن الجماعات البشرية التى هى النواة الأولى لهذه الأمة سميت « عربية » قبل الميلاد بعدة قرون . وأن للأمة العربية ثقافة عربية متميزة عن ثقافات الشرق والغرب عرفت بها بين كل الأمم والأقوام .

ويمكن أن نميز أربع مراحل فى خلالها تكونت الأمة العربية على أرض الوطن العربى .

وهذه المراحل هى :

١ — مرحلة الأصول الجنسية والعنصرية القديمة .

٢ — مرحلة الانتشار الاسلامى .

٣ — مرحلة التجانس العنصرى والثقافى فى العصور الاسلامية .

٤ — مرحلة الاتصال بالمدنية الحديثة .

وفيما يلى بيان موجز عن كل من هذه المراحل يمكن من متابعة الأمة العربية وهى تكون نفسها وتبنى كيانها لتخرج من بين أبعاد الزمان والمكان عملاقة بين الأمم التى عرفها التاريخ .

١ — مرحلة الأصول الجنسية والعنصرية القديمة :

لا شك أن الوطن العربى ، والذى نسميه كذلك الآن ، أقدم من الأمة العربية ، لأنه الوعاء الذى ضمها وأنضجها وأقامها بخيراته وشكل خصائصها الاقتصادية والنفسية بعوامله الطبيعية .

ولا شك كذلك أن أقواما سكنوا هذا الموطن منذ آلاف من السنين لا يمكن حصرها على وجه التحديد ، ولا يمكن رصد حركات السكان فيها على وجه الدقة ، لأنهم قطعوا تلك الآلاف من السنين فى مراحل متفاوتة من التوحش والبدائية ثم غزلوا من كدهم وعرقهم وصراعهم مع البيئة أول خيوط الثقافة ،

ثم نسجوا من هذه الخيوط أول مدنية عرفوها هم وعرفتها الانسانية كلها فى جميع بقاع كرة الأرض .

وانما بدأنا نعرف عن سكان هذا الوطن الأوائل منذ استطاع هؤلاء السكان أن يتركوا بعض آثارهم التى تدل عليهم ، أو بعض الرسوم التى توضح صورهم، أو بعض النقوش التى تروى شيئا من أخبارهم . ومع صعوبة القطع فى الأصول الجنسية التى تسكن وطنا كبيرا كالوطن العربى والتى اتصلت سكناها عليه آلاف السنين بدون انقطاع ، فمما يمكن القطع به ان هذا الوطن تعرض لأكثر من جنس وأنه اختلطت عليه أكثر من نوع واحد من الدماء ، وأنه حدثت عملية مستطيلة من الاختلاط حققت صفة التجانس والانسجام بين كل تلك الأجناس وتلك الدماء . وترتب على هذا الاختلاط الذى تم على أرض الوطن العربى فى امتداد زمن كبير تلك الأمة العربية العريقة التى تعرفها الآن .

والمسلم به الآن أن الأقوام التى تسكن الوطن العربى ترجع الى عناصر محددة . منها أقوام وفدوا الى الأجزاء الشرقية من هذا الوطن من أواسط آسيا ، وأقوام نسبهم علماء الأجناس الى ما سموه الجنس الحامى الذى وجد فى الجهات الافريقية من الوطن العربى بما فيها السودان ومصر وشمال افريقية ، وأقوام نسبهم علماء الأجناس الى ما سموه الجنس السامى وهو الذى اختلط بالحاميين وغيرهم وكون سكان الوطن العربى .

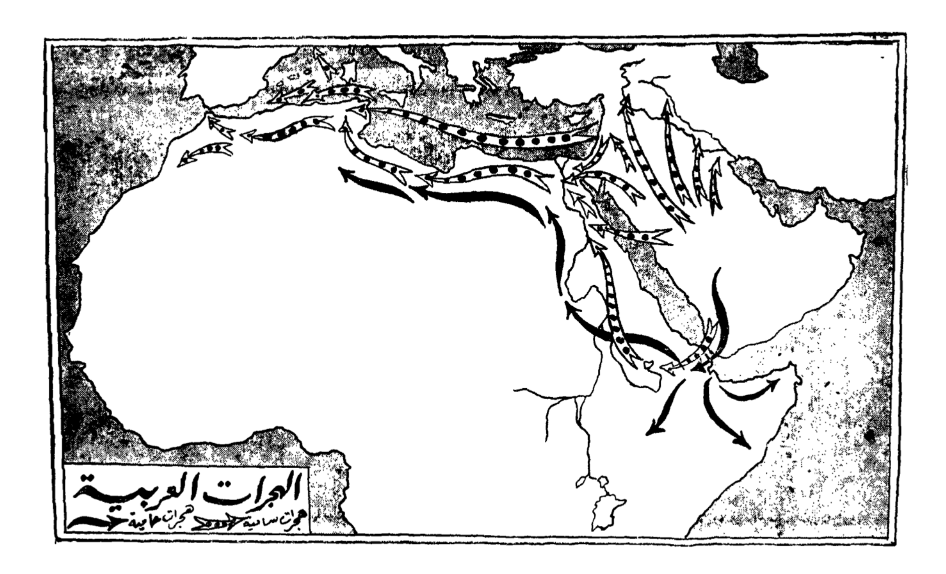
على أن العلماء قد تنبهوا أخيرا الى أن التفريق بين الجنس السامى والجنس الحامى انما هو تفريق ثقافى تم على أسس لغوية ، وأن الجنسين من الناحية البشرية جنس يكاد يكون واحدا ، أو هما من أصل واحد ، واما اذا تركنا اللغة جانبا لم يكن من اليسير أن نميز بين الجنسين . وأيا ما كان الأمر فان سكان الوطن العربى كما هم الآن ينسون الى الجنس السامى الذى غلب على ما عداه من الأجناس وأصبح العنصر الغالب فى سكان الوطن العربى .

والمسلم به كذلك أن شبه الجزيرة العربية هى الوطن الأصلى للساميين ، ومنها انتشروا فى جميع أجزاء الوطن العربى الآسيوى منها والافريقى على حد سواء . فأيا ما كان السكان الأصليون فى هذه الأجزاء من الوطن العربى فقد

تعرضوا لهجرات تلو هجرات من سكان شبه الجزيرة العربية ، نزحوا اليهم واختلطوا بهم منذ أقدم العصور .

أما سبب هذه الهجرات فهو اختلاف الأحوال المناخية فى شبه جزيرة العرب نفسها . فقد كانت شبه الجزيرة تقع فى منطقة الأمطار والخصب فى العهد الجيولوجى المسمى « البلايستوسين » وظلت كذلك الى العصر الحجرى الحديث . وهذا العهد الممطر الخصب فى شبه الجزيرة كان معاصرا لعصر الجليد فى أوروبا وأمريكا الشمالية حين كان سطحهما مغطى بالجليد وكانتا غير مأهولتين بالانسان وكان ذلك قبل ٢٠٫٠٠٠ سنة . ويستدل العلماء على خصب الجزيرة العربية فى ذلك الزمن السحيق بوجود كثير من وديان الأنهار الجافة منتشرة بها ، ووجود قيعان بحيرات قديمة فى أجزاء منها كالربع الخالى ووجود بعض الآثار البحرية فى مناطقها المختلفة . هذا الى آثار الانسان فى العصور الحجرية التى عثر عليها فى الجزيرة .

فلما تغيرت المناطق المناخية وانجاب الجليد عن مناطق الشمال وقعت شبه الجزيرة العربية فى منطقة الجفاف الشديد فانعدم الماء وانقطع الخصب واضطر سكان شبه الجزيرة الى أن تترك أفواج ضخمة منهم وطنها على دورات ، وتخرج مهاجرة الى المناطق الخصبة المحيطة بها من أجزاء الوطن العربى سواء الآسيوية كالعراق وبلاد الشام أو الافريقية كالسودان ومصر وأقطار شمالى افريقية . ومنذ هذا التغيير المناخى — أى نهاية عصر الجليد — تعرضت شبه الجزيرة العربية وما تزال تتعرض الى حقب زمنية دورية من الجدب الكثير والخصب القليل . وفى فترات الجدب تقذف شبه الجزيرة بأمواج تلو أمواج من قبائلها ، ويخرجون جماعات كثيرة العدد ويلجأون الى مناطق الخصب المحيطة بها . وكانوا يأخذون ثلاثة اتجاهات : الأول ، شمالا بشرق الى العراق ، أو شمالا الى سورية عبر الأردن . والثانى ، جنوبا ثم غربا الى الصومال عبر مضيق باب المندب ، ثم شمالا الى السودان ومصر . والثالث غربا عبر برزخ السويس الى مصر ، ومن مصر سارت موجة الهجرة ووصلت الى بلاد المغرب الافريقى . وكثرت هذه الهجرات حتى انه من المسلم به أن أصل سكان كل بلاد الوطن العربى يرجع بلا استثناء الى هذه الهجرات العربية القديمة .


الهجرات العربية
هجرات سامية
هجرات حامية

وقد بدأت الهجرات المعروفة عن سكان شبه الجزيرة العربية الى بلاد الوطن العربى فى منتصف الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد أى حوالى سنة ٣٥٠٠ ق ٠م٠ وسنة ٢٥٠٠ ق ٠م٠ ومع ذلك فليست هذه أول الهجرات ولكنها أول ما وصلتنا أخباره منها وقد سبقها الكثير من الهجرات التى لم تصلنا أخبارها تاريخيا ٠ واليك ما عرفناه من الهجرات الكبيرة التى اتجهت شمالا واستقرت فى العراق وبلاد الشام ٠

١ ـ الأكديون : وقد خرجوا من شبه الجزيرة العربية حوالى سنة ٢٥٠٠ق٠م٠ ، واستقروا فى العراق واختلطوا بسكانها السابقين وهم السومريون ، واستولوا على مدنهم وكونوا أسرة حاكمة أكدية ٠ وامتدت دولة الأكديين الى بلاد الشام ، وكانت معاصرة لعصر الأهرام فى مصر ٠

٢ ـ الآشوريون : ويرجعون الى قبائل هاجرت من شبه الجزيرة العربية فى أول الألف الثالث قبل الميلاد ، وسكنوا شمال العراق ، ثم كونوا فيما بعد دولة آشور التى حكمت شمال العراق من أوائل القرن العاشر الى أوائل القرن الخامس قبل الميلاد ، وكان لها شأن مع مصر ستأتى الاشارة اليه ٠

٣ ـ العموريون : وقد نزحوا من شبه الجزيرة العربية فى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد واستوطنوا بلاد الشام والفرات الأوسط ، وكونوا هناك دولا فى شمال الشام ووسطها بلغت أوج قوتها حوالى ١٤٠٠ ق ٠م٠ وهم أول الهجرات العربية الكبرى المعروفة الى بلاد الشام ٠ وكانوا يعاصرون الأسرة السادسة فى تاريخ مصر ، ثم نزحت جماعات منهم الى مصر ضمن غارة الهكسوس ٠

٤ ـ الكنعانيون : وهاجروا من شبه الجزيرة الى بلاد الشام بعد العموريون وسكنوا سواحل بلاد الشام ٠ وكونوا دولة كبيرة هناك ، ومنهم أقوام دخلوا مصر ضمن غارة الهكسوس المعروفة ٠

٥ ـ الفينيقيون : وهم فرع من الكنعانيين استوطنوا سواحل بلاد الشام وسماهم الاغريق بهذا الاسم ٠ وكان لهم دور كبير فى نشر حضارة الشرق ٠ ومنهم أقوام هاجروا الى شمال افريقية وبنوا مدينة قرطاجة فى تونس ٠

٦ ــ الآراميون : وهى قبائل كثيرة العدد نزحت من شبه الجزيرة الى أعالى دجلة والفرات وبلاد الشام حوالى سنة ١٥٠٠ ق٠م٠ وقد كونوا دولة وامارات هامة فى سورية منها مملكة دمشق ومملكة حماه ومملكة حلب ٠

٧ ــ الكلدانيون : وهم قبيلة من الآراميين استوطنوا جنوبى العراق وكونت آخر امبراطورية فى تاريخ العراق القديم ٠

٨ ــ المناذرة : هاجروا قبل الاسلام من شبه الجزيرة واستوطنوا العراق ٠

٩ ــ الغساسنة : هاجروا قبل الاسلام من شبه الجزيرة واستوطنوا الشام ٠ وهم والمناذرة آخر الهجرات الهامة قبل الفتوح الاسلامية ، وهى هجرات شملت عشرات من القبائل العربية معروفة بأسمائها ٠

أما الأجزاء الافريقية من الوطن العربى ، فقد وفد على سكانها الأصليين الذين كانوا من أصول افريقية ، هجرات كثيرة من سكان شبه الجزيرة العربية واختلطوا بالسكان الأصليين وكونوا شعوب تلك الأجزاء ٠

والمسلم به أن سكان مصر هبطوا اليها بعد عصر الجليد وانتشار الجفاف والجدب فى كثير من أجزاء الوطن العربى ، على نحو ما سبق ، وكان منهم أقوام من الليبيين وأقوام من الجنوب كالجالا والصومال والبيجا ثم أخذت الهجرات العربية تفد عليها من الجزيرة العربية ضمن ما انساح من قبائلها على الأقطار المجاورة كما سبق القول ٠

وقد سلكت القبائل العربية الى أجزاء الوطن العربى الافريقية طريقين : فمنهم هجرات ضخمة عبرت بوغاز باب المندب الى ساحل افريقية الشرقية ، ومنها سارت الى السودان فاختلطت بسكانه الأصليين من الزنج ثم واصلت سيرها الى الشمال فدخلت مصر فى الألف الرابع قبل الميلاد ، أى حوالى سنة ٣٥٠٠ ق٠م٠ ، وفيها اختلطوا بسكانها الأصليين ٠ ومنهم من وفد الى مصر مباشرة عن طريق برزخ السويس فدخلوها عن طريق الشرق وهو الطريق المعتاد للغزو ٠ ومن هذه الهجرات الكثيرة ــ مختلطة بسكان السودان الأصليين وسكان مصر الأصليين ــ تكون الشعب السودانى ، وكذلك الشعب المصرى الذى تعرف تاريخه القديم وحضارته القديمة ٠ ويضيف الأستاذ سليم حسن الى هذين

الطريقين طريقا ثالثا هو البحر الأحمر من جهة فقط ، ويذهب الى أن هؤلاء العرب أتوا الى مصر تدريجيا وعلى دفعات وأنهم امتزجوا بالسكان الأصليين من غير عنف وانما عن طريق المعايشة والاختلاط السلميين • ويقول سليم حسن ان هؤلاء العرب أتوا ومعهم حضارة أرقى من حضارة سكان مصر الأصليين وامتزجت الحضارتان وكانت المراحل الأولى من حضارة مصر القديمة • ويقول المؤلف ان كل المصادر التاريخية مجمعة على أن الملك مينا الذى وحد مصر من الشلال الى البحر المتوسط ينتمى الى هذه القبائل الوافدة ، وأن هذا التوحيد كان خاتمة لحركات متعاقبة لهؤلاء الأقوام •

والذى يقرأ تاريخ مصر القديم يجد أن معظم ملوك مصر على طول امتداد التاريخ الفرعونى قد قاموا بحملات لصد غزوات البدو القادمين من الجنوب أو من الشرق عبر شبه جزيرة سيناء • وهذا يدل على أن هجرة الأقوام العربية ظلت متصلة على طول ذلك التاريخ بدليل ذلك الجهد المتصل لصدهم • ولا شك كذلك فى أن القبائل العربية التى سبقت الاشارة اليها والتى استوطنت بلاد الشام وخصوصا العموريين والكنعانيين حاولوا دائما مواصلة السير الى مصر ، وضد هؤلاء كانت حملات ملوك مصر على طول الدولة القديمة المعاصرة لهم •

وفى أثناء حكم الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة وفدت الى مصر الجماعات المعروفة باسم الهكسوس ، والمقطوع به أنهم قبائل من البدو العرب الذين كانوا قد استوطنوا بلاد الشام وفلسطين فى عصور سابقة • وقد أقام الهكسوس فى مصر وتكونت منهم أسرات حاكمة لمدة قرنين من الزمان تقريبا من ١٧٣٠ ق٠م الى ١٥٨٠ ق٠م وقد دخل الهكسوس مصر جماعات متفرقة ثم تجمعوا فيها بأعداد كبيرة واستطاعوا فى النهاية الاستيلاء على الحكم ، وهم قبل كل شىء عرب اذ كان العنصر الغالب فيهم من العموريين والكنعانيين العرب المقيمين ببلاد الشام ، وقد سماهم مانيتون المؤرخ المصرى القديم بالملوك العرب •

والفينيقيون نزلوا بشمالى افريقية وكونوا دولة قرطاجنة واختلطوا بأهلها الأصليين •

ومن هـذا العـرض السريع لحركات الهجرة من بلاد العـرب الى جميـع أجزاء الوطن العربى فى العصـور القديمة نستطيع أن نرى أن الأصـل الجنسى أو العنصرى واحد فى السكان الأول لهـذا الوطن ، وأنه أصل عـربى ، موطنه الأصلى شـبه الجزيرة العربيـة ومنها انتشر فى غيرها من أجـزاء الوطن حيث اختلط بسـكانها الأصليين ، ومن هذا الامتزاج تكونت شـعوبها القديمة •

والأمر لا يقتصر فى هذا الأصـل العنصرى العـربى عند حـد الدم الذى جرى فى عروق سـكان الوطن العربى فى تلك العصـور القديمة ، وانمـا تعداه الى أمرين : الأول ، التسمية فان اطلاق اسم « عربى » و « عرب » على هـذه الأقوام وعلى البلاد التى انساحت منها ليس جديدا وانما هو قديم كذلك •

والثانى ، الثقافة والحضارة ، فقد حدث بين الشعوب القديمة القاطنة فى أجزاء هذا الوطن عملية تبادل ثقافى وحضارى واسعة النطاق •

أما عن التسمية ، فقـد ارتبط اسـم « عربى » بهـذه الأقوام من قديم • وأقدم ذكر لهذه التسمية ورد فى نقش آشورى يرجـع الى سـنة ٨٥٣ ق•م وفيه وصف لبعض هذه القبائل بأنها عربية ، ووصف شيخهم بأنه عربى • ثم تتـكرر فى النقوش الآشيورية الاشارة الى «العرب» (بفتح العين والراء) و«العرب»(بضم العين وتسكين الراء) و « عربى » ، ومن النقوش ما ورد فيه رسم العرب وجمالهم •

وفى كتب الاغريق القديمة نجد شبه الجزيرة العربية وقد أشير اليهـا باسم « بلاد العرب » • واسـتعمل هيرودوت المؤرخ الاغريقى القـديم لفظ بـلاد العرب بالاشارة الى شبه الجزيرة ، كمـا اسـتعمل وصف « عربى » لسـكانها ، وكذلك أشـارت النقوش العربية الجنوبية (اليمنية) القديمة الى العـرب بهذا الاسم ، كما ورد فى الكتابات العربيـة الشمالية كلمة العـرب ، وفيهـا وصف امرؤ القيس الذى مات قبل الاسلام بأنه ملك العرب جميعـا • ومن هذا يتضح أن الأقوام التى دخلت فى تكوين أهل الوطن العربى من قـديم الأزمان بنسـبة كبيرة كانوا عربا جنسا وموطنا وتسمية •

أما عن التبادل الثقافى والحضارى فان علمـاء الآثار والمؤرخين قد أثبتوا أن كل هذه الأقوام التى سـكنت العراق والشام قد تبادلت الثقـافة واقتبست من بعضها الحضارة ، كما أثبتوا حدوث هذا التبادل بين شـعوب الأجزاء الآسيوية وشعوب الأجزاء الافريقية وبخاصة المصريين •

فالعموريون اقتبسوا حضـارة العراق القديمة ، ثم بعد أن استوطنوا بلاد الشام عاد فرع منهم الى العراق بحضارته وكون مملكة بابل وكان فهـم الملك حمورابى المشرع المشـهور • والكنعانيون تأثروا بحضـارة مصر • والعموريون حاربوا الآشـوريين زهاء مائتى سنة واختلطوا بهم ، والأكديون الذين أقامـوا حضارتهم فى العراق وسـعوا حدودهم فى سوريا ونقلوا اليها الحضارة العراقية • والآشـوريون غزوا مصر وحكموها مدة قصـيرة تركوها بعـدها وتركوا فيها آثارهم الثقـافية ، والهكسـوس أدخلوا الى مصر الخيل والعربات الحربيـة ، والسيف المقوس المصنوع من الحديد ، وحسـنوا صناعة التعدين • وبعـدما طرد المصريون الهكسـوس من مصر تبعوهم ودخلوا سوريا واختلطوا بأهلهـا وتبادلوا معها الحضـارة • ودخلت الشعوب العربية القديمة فى دور جديد كل الجدة من العلاقات الدبلوماسية والمعاهدات والمراسلات ، تجـد نموذجا جيـدا منها فى رسائل تل العمارنة • وحققت هذه الشـعوب فى تلك المناسبة وحـدة حضارية لأول مرة فى التاريخ ، حتى لقد أصبحت اللغة البابلية المسـمارية لغـة رسمية عامة للعـلاقات الدبلوماسية والتجـارية • وذهب تحتمس الثالث الملك الفلاح المصرى لصـيد الفيلة فى أعالى الفرات • والفينيقيون نزحوا الى المغـرب العربى وأقاموا لهم دولة فى القـرن التاسع قبل الميلاد أدخلوا بهـا الدم العربى والحضـارة الشرقية الى هنـاك •

هذه الاشـارات العابرة انما قصـد بها تأكيد حقيقة الاختـلاط الجنسى والعنصرى ، والتبادل الثقافى والحضـارى الذى تم بين تلك الشـعوب ، فضمت الوحدة الثقافية والحضارية الى الوحـدة الجنسية والعنصرية ووحدة الوطن فى تلك الحقبة المبكرة من تاريخهـا ، الى أقصى حـد كان يدخل فى حدود الاستطاعة فى تلك العصور الأولى التى تميزت ببدائية الانسان ، وبطء وسائل المواصلات •

هذا هو مغزى هذه المرحـلة من مراحـل تكوين الأمة العربية • وظـاهر أنها مرحلة ابتدائية نكتفى منهـا فى تاريخ هذا التـكوين بالاشارة الى وحـدة أصل الأمة العربية ، والى أنها كانت أسـاسا قويا صـالحا لأن تقوم عليـه أمة عربية عملاقة عند ما تصل اليهـا أمدادا جديدة من الدماء العربيـة بعـد ظهـور الاسـلام ، وأقباس ثقافية جديدة من حرارة الايمان ، ونور القـرآن وبلاغة اللغـة العربيـة •

٢ ــ مرحلة الانتشار الاسلامى :

وهذه هى المرحلة التى أعطت الأمة العربيــة كل خصــائصها المميزة ، من النواحى الجغرافية والجنســية والثقافيــة • ومن ثم فهى أساس مرحلة الأمــة العربية الحقيقية بخصائصها التى عرفت فى التاريخ وما زالت •

كانت دول الشرق العــربى القديمة وشعوبه التى أشرنا اليهــا فى المرحــلة الســابقة من بابليين وآشوريين ومصريين وفينيقيين وكنعانيــين وغــيرهم قــد ضعفت وانحلت وفقــدت استقلالها وطغت عليهــا ثقافات أجنبيــة تحت سيطرة الحكومات الأجنبية ، قرونا عدة قبل ظهور الاســلام •

فبلاد الشــام ومصر وقعت تحت حــكم اليونانيين والرومان زهــاء عشرة قرون من ٣٣٢ ق•م الى ٦٤١ م ، ونزلت بها دماء جــديدة من الفرس واليــونان والرومان ، وثقافة جديدة هى الثقــافة اليونانية ، ودين جــديد هــو الــدين المسيحى الذى اعتز باعتناق المصريين له فى أواخر القــرن الأول من ظهــوره ، ثم منــذ أصبح دينا رسميا للدولة فى عهد الامبراطور قســطنطين (٣٢٣ م) ، وزحفت عليهما لغة جديدة هى اللغة اليونانية كلغة ثقافة ودين •

وبلاد العراق وقعت فى قبضــة الفــرس زهاء ألف ســنة من ٤٤٠ ق • م الى ٦٤٠ م وزحفت اليها ثقافة الفرس ولغتهم •

وبلاد المغرب وقعت فى قبضة الرومان وبقيت كذلك حوالى ثمانيــة قــرون ، منذ أســقطوا دولة قرطاجنة الفينيقية سنة ١٤٦ ق•م• الى أن فتحهــا العــرب بعد فتحهم لمصر فى سنة ٦٤١ م •

وهكذا انهارت حضارات الشرق العــربى وكيــان أهله الســياسى • ومع ذلك فقــد بقى فى عروقهم ذلك الدم العــربى القــديم الذى يجمــع بينهــم • واستمرت طوال هذه الحقب الزمانية هجرات القبــائل العربيــة الى جميع أجزاء الوطن العربى ، فعشرات القبائل ظلت تهاجر الى أطــراف الشام والعــراق الى وقت ظهور الاســلام ، وتاريخ الرومان فى مصر ملىء بحوادث تصديهم للقبــائل العربية التى كانت تحاول دائمــا دخول مصر من جهة الشرق والجنــوب • ومن أمثلة ذلك ما قام به الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ ــ ٣٠٥ م) من صــد بعض هــذه الهجــرات •

ومغزى هذا أن الانهيار الثقافى بين سكان الشرق العربى ، كان يعوضه دائما أمداد جديدة من الدماء العربية ، وكان على أهله أن ينتظروا حتى يأتى الاسلام ، فيجعل منهم أمة عربية عن طريق تدعيم الدم العربى من جديد ، ثم عن طريق الوحدة الثقافية والحضارية ٠

كيف حدث الانتشار العربى بعد الاسلام ؟

خرج العرب المسلمون من جزيرتهم العربية مدفوعين بحماستهم لنشر دينهم الجديد ، وفرض أنفسهم على العالم وعلى التاريخ أمام الفرس والروم الذين كانوا يقتسمون فيما بينهم الشرق العربى ، وتصدوا لتخليص أجزاء هذا الشرق من أيديهم ٠

خرجوا على شكل جيوش منظمة بيدها أسلحتها وعتادها وعليها قوادها وانساحوا فى أجزاء هذا الوطن مستخلصين له من أيدى الأجانب من روم وفرس ، حتى اذا فتح الله عليهم جزءا وفدت اليه القبائل العربية للمعيشة والاستيطان مكونين لبنات قوية فى بناء هذه الأمة العربية ٠

كان أول ما اتجهوا اليه بلاد الشام ، وخرج اليها أربعة جيوش : الأول بقيادة شرحبيل بن حسنة ووجهته وادى الأردن ، والثانى بقيادة عمرو بن العاص ووجهته فلسطين ، والثالث بقيادة أبى عبيدة بن الجراح ووجهته حمص ، والرابع بقيادة يزيد بن أبى سفيان ووجهته دمشق ٠ وتبعهم خالد بن الوليد على رأس جيش خامس ٠ وانضمت بلاد الشام كلها الى الدولة العربية فى سنة ٦٣٩ م ٠

وفى نفس الوقت اتجهوا الى بلاد العراق ، وتولى جيشها سعد بن أبى وقاص ، وانضمت العراق الى الدولة العربية ، ومن ورائها بلاد فارس كلها فى سنة ٦٤٢ م ٠

ثم اتجه العرب بقيادة عمرو بن العاص الى مصر فاستخلصها من يد الروم فى سنة ٦٤١ م وأصبحت جزءا من الدولة العربية ، ثم شمال السودان فى عهده ثم فى عهد خلفه من الولاة ٠ وقد أعاد الروم الكرة على الاسكندرية مرارا فهزمهم العرب وطردوهم المرة بعد المرة ٠

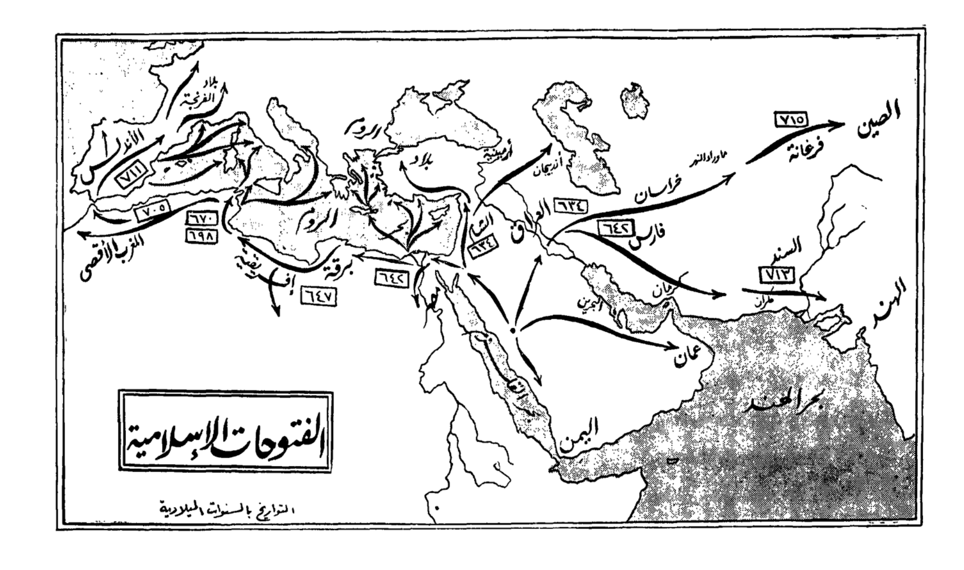
وما لبث العــرب أن اتجهوا الى المغرب ، ففتح عبــد الله بن ســعد بن ابى سرح وعرب مصر بلاد افريقيــة أو تونس الحالية ، ثم عاود فتحها عقبة بن نافع سنة ٦٧٠ م ، ثم سار موسى بن نصــير خطوة ثالثة ففتح بلاد المغرب ومد حدود الوطن العربى والدولة الاسلامية الى المحيط الأطلسى فى سنة ٧٠٩ م .

ولم يكن استخلاص هذه الأجزاء من الوطن العربى للأمة العربيــة أمرا يسيرا فقد انطوت سلسلة الفتوح التى أشرنا اليها فى الفقرات القليلة السابقة على تضحيات ومغانم ، وعلى هزائم وانتصارات ، وعلى خســائر فى أرواح أبطال عرب فى نظير كسب الملايين من صفوف الأمة العربية ، وعلى صــفحات من البطولة قل أن يجود بها التاريخ . واستغرقت تلك الفتوح زهاء ثمــانين سنة ، تلك التى قرأت نتائجها فى دقائق معدودات .

ولكنا لا نحب أن نزحم الصورة بالتفاصيل ، وغاية ما نريد هو أن نبين فى ايجاز أنه لم تمض ثمانون سنة على وفاة النبى صلوات الله عليه فى ســنة ٦٣٢م الا وكان الوطن العربى كله فى قبضة أصحابه العرب بعــد أن طردت منه قوات الاحتلال من الفرس والرومان ، وكانت هذه مقدمة ضرورية لتكوين الأمة العربية الحالية .

بل ونريد أيضا أن ننبه الى أن انتشار العرب بعد الاســلام لم يقتصر على ما سبق بيانه من أجزاء الوطن العربى ، بل جاوز هــذا الوطن شرقا وغربا ، الى أقطار غير عربية امتدت الى نهر السند وحدود الصين وبلاد ما وراء النهر ، ثم الى بلاد الأندلس وجنوب ايطاليا وجزر البحر الأبيض كصقلية .

ففى سنة ٦٥٢م فى خــلافة عثمان بن عفان تم فتح بلاد فارس شرقا ، ثم سقطت بلاد طبرستان على ساحل بحر قزوين وبلاد الخزر وأذربيجان وأرمينية، وفى نفس الوقت حارب معاوية بن أبى ســفيان والى الشام الدولة البيزنطيــة وتوغل فى آســيا الصغرى حتى عمــورية ، وبنى أســطولا استولى به على جزيرتى قبرص ورودس ، وفى خلافة معاوية بن أبى سفيان وصلت الفتــوح العربية الى نهر السند ، كما جاوزت نهر سيحون الى سمرقند ، ثم الى حدود الصين فى عهد الوليد بن عبد الملك . وفى عهده أيضا عبر العرب بوغاز جبــل طارق بقيادة موسى بن نصير وفتحوا الأندلس التى أخذت تسقط فى أيديهم



الفتوحات الإسلامية
التواريخ بالسنوات الميلادية
الصين
٧١٥
فرغانة
ما وراء النهر
خراسان
فارس
٦٤٢
العراق
٦٣٤
الشام
٦٣٤
أذربيجان
أرمينية
بلاد
الروم
الروم
برقة
٦٤٢
إفريقية
٦٤٧
٦٧٠
٦٩٨
٧٠٥
المغرب الأقصى
الأندلس
٧١١
بلاد الفرنجة
السند
٧١٣
مكران
كرمان
البحرين
عمان
اليمن
بحر الهند
الهند

مدينة تلو أخرى الى أن وصلوا الى جبال البرانس ، بل وتخطوها الى فرنسا واستولى على مدينة ليون ، (٧٣٣ م) •

وهكذا بعد مائة سنة تماما من وفاة النبى صلى الله عليه وسلم كان فى يد العرب امبراطورية واسعة تمتد من حدود الصين الى حدود سويسرا وفرنسا • ومن أرمينية شمالا الى بحر العرب جنوبا •

وتشمل ضمن ما تشمل مدن الشرق القديمة : دمشق والاسكندرية وبيت المقدس ، ويحكمها خليفة واحد من دمشق • ومع ذلك لم يكتف العرب بذلك بل بدءوا فى غزو صقلية وجنوب ايطاليا فى يونية سنة ٨٢٧ م •

وبعد ما استولوا على كل الجزيرة وكذلك على جزيرة مالطة عبروا الى جنوب ايطاليا فاستولوا على سالرنو وبارى ثم هاجموا روما ذاتها •

وكانت النتيجة الأولى لهذه الفتوح أن أصبح الشرق العربى وطنا للعرب ، فقد استخلصته الجيوش العربية من يد الغاصبين الأجانب من فرس وروم • وكانت هذه الفتوح أول خطوة فى سبيل بناء الأمة العربية بمفهومها الحديث ، فقد زودتها أولا بالوطن الذى سيكون المسرح الذى عليه تنمو هذه الأمة وتبنى حضارتها ، كما سيكون البوتقة التى ستصهر فيها كل الدماء المكونة لسكانه مع الدم العربى القديم والطارىء فتظهر الأمة العربية التى عرفها التاريخ وما زال يعرفها •

وكانت النتيجة الثانية لهذه الفتوح فريدة فى التاريخ• فالسوابق التاريخية ، بل واللواحق أيضا ، تنطوى على تخليص الوطن العربى من أيدى الغاصبين والمستعمرين ، أما الفتوح العربية فقد قضت على هؤلاء المستعمرين وقضت على دولهم فأزالت خطرهم الى الأبد • وذلك أن الجيوش العربية لم تكتف بطرد الفرس والروم من الوطن العربى ، بل تعقبتهم كما سبق بيانه الى أوطانهم الأصلية فقضت عليهم كدول تطمع وحكومات تضع السياسة وجيوش تغزو • فدولة الفرس قضى عليها تماما فانتهت الدولة الساسانية وتفرق أفرادها وتزوج العرب من نسائها ، ودخلت بلاد الفرس فى حوزة الدولة العربية ، وطوى بساط الأكاسرة بل وقطعه الجنود العرب قطعا وزعوها فيما بينهم على سبيل التذكار • والروم طاردتهم جيوش العرب وأساطيلهم ، وانكمشوا حول

عاصمتهم يدفعون الجزية للخليفة ، وكلما تباطئوا فى دفعها سارت الجيوش العربية والأساطيل فأدبتهم وأعادتهم الى دفع الجزية صاغرين . فلما تولى نقفور عرش الروم قطع الجزية وأرسل خطابا الى هارون الرشيد يهزأ به ويتحداه ، فرد الرشيد اليه رسالته وعلى ظهرها توقيعه المشهور :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من هارون أمير المؤمنين الى نقفور كلب الروم ، قد قرأت كتابك والجواب ما تراه دون أن تسمعه » .

وتقدم الرشيد على رأس جيشه وهزم الروم وفرض عليهم الجزية مضافا اليها جزية شخصية على الامبراطور نقفور وابنه .

وكان من أثر القضاء على المستعمرين أنفسهم أن سلم الوطن العربى من اعتداء المعتدين واستعمار المستعمرين مدة أربعة قرون ونصف قرن ، كانت فرصة ذهبية أمام العرب مكنتهم من تكوين أمة عظمى فى التاريخ .

والنتيجة الثالثة للفتوح العربية أنها كانت مقدمة لنشر الدين الاسلامى واللغة العربية وهما العاملان الثقافيان الأساسيان اللذان أقاما الأمة العربية على أساس تتضاءل أمامه كل عوامل التفكك والضعف . كما كان هذان العاملان حجر الزاوية فى الحضارة العربية التى تعد من أهم مقومات الأمة العربية . وسيأتى بيان ذلك بعد قليل .

والنتيجة الرابعة للفتوح العربية أنها أقامت دولة عظمى فى هذا الوطن العربى تجمعت حولها الأمة العربية ونمت فى كنفها وحمايتها ، وبها فرضت نفسها على الأمم ، وفرضت حضارتها على التاريخ ، وقد كانت هذه الحكومة العربية هى التى صدت عن الأمة العربية اعتداءات وراء اعتداءات ، من الروم الى الصليبين الى المغول .

والنتيجة الخامسة للفتوح العربية أنها كانت بداية حركة انسياح جديدة للقبائل العربية ، وصل بها ما كاد أن ينقطع فى ظل سيطرة الفرس والروم . فاستأنف العرب بها هجراتهم الى جميع أجزاء الوطن العربى حتى اصطبغ أخيرا كما اصطبغ أولا بالصبغة العربية ووصل الى عروق أهله مدد جديد من الدم العربى الأصيل .

والأمر فى هذه الهجرات التى صاحبت الفتوح العربية وأعقبتها لم يقتصر

على الآلاف العـديدة من الجنـد العرب الذين أشخصوا الى أجـزاء الوطن العربى مخلصين اياه من براثن الاسـتعمار الفارسى والبيزنطى ، وانمـا نغداهم الى آلاف مؤلفـة من العرب انسـاحوا جمـاعات وبطـونا وقبائل من شـبه الجزيرة الى كافة أنحاء الوطن العـربى من الخليج الى المحيط مجددين عهد أهل هـذا الوطن بهجرات العـرب العمـوريين والآراميين والكلدانيين والكنعانيين وغيرهم ممن لم يحفظ التـاريخ أسماءهم وان حفظ دماءهم فى عروق الأجيـال المتعاقبة من أبنـاء هذه الأمـة .

أما الصورة التى تم بهـا تحرك هـذه الهجـرات الاسلامية الجديدة ، فقد كان كثيرون من قبائل القواد والجند يلحقـون بهم حيث يسـتقر بهم مقام الفتح والمرابطة فى أنحاء الوطن العربى . ثم ان أخبـار المدينة والثراء ووسـائل المتعـة من مال وحلى وأقمشة مما أفاء الله على المجاهدين بالفتح فى الشـام والعـراق ومصر ، كانت تشجع أبدا مزيدا من القبائل على الهجرة الى كل مـكان ارتفعت عليه راية الاسلام . وبذلك انتقلت قبـائل برمتهـا أو بطون منها ، رجالا ونساء وأطفالا ، من شبه الجزيرة واسـتقرت فى كل مكان من الوطن المسترد . وقـد قدر المؤرخون أن حـوالى النصف مليون من العـرب هاجروا الى هـذه الجهات فى السنوات القليلة التى أعقبت وفاة النبى عليـه السـلام ، وأن هـذا العـدد تضاعف بسرعة بعـد قليل .

ولسـنا نريد أن تتتبـع هذه الهجرات فهذا من المسـتحيل ، أو أن نذكـر أسـماء القبائل التى هاجرت فالمجهول منها أكثر من المعـروف ، ولكنـا نكتفى بذكر مثـال واحد يوضح الصـورة التى تمت بهـا هـذه الهجرات العربيـة الاسـلامية وهو مثال قبيلة قيس واسـتيطانها جهة بلبيس من أعمـال مصر . يقول المقريزى : « ان عبد الله بن الحبحاب لمـا ولاه هشـام بن عبـد الملك مصر قال ما أرى لقيس فيهـا حظـا الا لناس من جديلة وهم فهم وعدوان (بطنان من قبيلة قيس) . فكتب الى هشام : أن أمـير المؤمنين أطال الله بقاءه قـد شرف هـذا الحى من قيس ونعشـهم ورفـع من ذكرهم وانى قدمت مصر ولم ار لهم حظا الا أبياتا من فهم وفيها كـور ليس فيها أحد وليس يضر بأهلها نزولهم معهم ولا يكسر ذلك خراجا ، وهى بلبيس . فان رأى أمير المؤمنـين أن ينزلهـا هذا الحى من قيس فليفعـل . فكتب اليـه هشـام : أنت وذاك . فبعث الى البـادية

فقدم عليه مائة أهل بيت (أسرة) من بنى نصر ، ومائة أهل بيت من بنى سليم فأنزلهم بلبيس وأمرهم بالزرع • ونظر الى الصدقة من العشور فصرفها اليهم فاشتروا ابلا فكانوا يحملون الطعام الى القلزم ، وكان الرجل يصيب فى الشهر العشرة دنانير وأكثرهم • ثم أمرهم باشتراء الخيول فجعل الرجل يشترى المهر فلا يمكث الا شهرا حتى يركب ، وليس عليهم مؤونة فى علف ابلهم ولا خيلهم لجودة مرعاهم • فلما بلغ ذلك عامة قومهم تجمعوا اليهم فوصل اليهم خمسمائة أهل بيت من البادية فكانوا على مثل ذلك ، فأقاموا سنة فأتاهم نحو من خمسمائة أهل بيت ، فصار ببلبيس ألف وخمسمائة أهل بيت من قيس • حتى اذا كان زمن مروان بن محمد ، وولى الحوثرة بن سهيل الباهلى مصر مالت اليه قيس فمات مروان وبها ثلاثة آلاف أهل بيت ، ثم توالدوا وقدم عليهم من البداية من قدم »[1] •

ويؤخذ من كلام المقريزى فى الرواية السابقة الافتراضات الآتية :

١ — أن هجرة القبائل لم تكن فوضى وانما كانت تتم باذن من الدولة ، فابن الحبحاب والى مصر يستأذن هشام بن عبد الملك فى هجرة بعض أسر قبيلة قيس ، ولا تهاجر حتى يأذن •

٢ — أن معظم القبائل كان قد هاجر منها ناس وعلى هذا الأساس يستغرب ابن الحبحاب أن قيسا لم يكن لها نصيب من الهجرة •

٣ — أن فى زمن هشام بن عبد الملك (٧٢٤ — ٧٤٣ م) أى بعد مائة سنة من فتح مصر كانت القاعدة أن كل كورة من كور مصر فيها عرب استوطنوا بها ، وكان الشاذ أن تبقى بلبيس بلا أحد منهم •

٤ — ان مصلحة أهل البلاد كانت موضع اعتبار ولذلك حرص ابن الحبحاب على القول بأن نزول قيس لن يضر أهل بلبيس •

٥ — ان الهجرة كانت تتم على شكل أسر ، رجل وزوجته وأولاده حتى يحدث استقرار ، مع الحركة الجماعية للأسر على شكل بطن أو قبيلة •

---

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، مطبعة النيل ، ١٣٢٤هـ ، ج ١ ص١٢٨، ١٢٩ • وللمقريزى كتاب آخر مستقل عن العرب الذين نزلوا مصر منذ الفتح العربى • هو : «البيان والاعراب عما نزل مصر من الأعراب » •

٦ — ان العرب المقيمين بمصر كانوا يعولون العرب الوافدين ، على الأقل فى أول وصولهم ، فقد قدمت المساعدات لقيس عندما وفدت من الزكاة ، وهى ضريبة يدفعها المسلمون وحدهم .

٧ — ان العرب لم يقيموا فى البلاد المنضمة للدولة عالة على غيرهم أو لم يكونوا طبقة من الارستقراطية العاطلة ، وانما كانوا يعملون ويعيشون من كدهم ، فقيس عمل أهلها فى نقل المتاجر والحجاج الى القلزم (السويس) .

٨ — ان الهجرة كانت باعداد ضخمة ، فهذه قيس هاجر منها فى عشرين سنة (بين هشام بن عبد الملك ومروان بن محمد) ثلاثة آلاف أسرة ، فاذا كان لكل أسرة ولدان فى المتوسط ، فالأسرة أربعة أنفس ، فيكون قد هاجر منها ١٢٫٠٠٠ نفس فى تلك المدة الوجيزة « ثم توالدوا وقدم عليهم من البادية من قدم » كما يقول المقريزى . فهذا العدد الضخم من قبيلة واحدة .

وقد بدأت الهجرات الى الشام والعراق أولا لقربهما من شبه الجزيرة ، ثم اتجهت الهجرات الى مصر ، ومنها جنوبا الى السودان ، وغربا الى المغرب العربى — الآن برقة وطرابلس وتونس والجزائر والمغرب . ومن أمثلة ذلك قبيلة جهينة التى أتت من الحجاز الى مصر فى أثناء الفتح العربى ، واستقرت غالبيتهم فى الصعيد ، وتقدمت جماعات منهم الى السودان حيث أقاموا ؛ ومثل هذا حدث فى حالة قبائل كنانة وبنى جذام وبنى طىء وربيعة ، وغيرهم مئات القبائل والبطون . ومن القبائل التى استقرت فى بلاد المغرب بنو هلال وبنو سليم . واستمرت هذه الهجرات على طول التاريخ الاسلامى تنشط حينا وتتراخى حينا ، لكنها مع ذلك مستمرة حتى القرن الثامن عشر حين استقرت قبائل شمر وغزه فى الشام والعراق .

وقد تعددت أسباب الهجرة كلما امتد التاريخ الاسلامى ، فالأحزاب السياسية المنهزمة والفرق الدينية المضطهدة ، وبقايا الدول المغلوبة على أمرها ، وجدوا جميعا فيما ترامى من أجزاء الوطن العربى مأمنا لخوفهم ومقر لنشاطهم ومن ذلك هجرة الخوارج والشيعة الى المغرب ، وهجرة فلول الأمويين ومن بعدهم بقايا العباسيين الى مصر .

وهكذا كانت الفتوح العربية فاتحة موجات عربية استقرت فى الوطن العربى واختلطت بالتدريج مع أهله ، بيولوجيا ودينيا ولغويا وثقافيا ،

وبالتـدريج امتزجت الدماء بالدمـاء وتوحدت الأفكار واتحـدت العادات والتقاليد وتقاسم الجميـع العقيدة الواحدة واللغة المشتركة والثقافة المتكاملة ، وقامت الأمة العربية •

وربما كان تكوين هذه الأمـة العربية على وطنهـا العربى من أهم دوافع الفتـوح العربية منذ البداية • ولقـد أرجع المؤرخون تلك الفتـوح ، وتلك الهجرات الى أسـباب عـدة فقالوا انهـا أرسلت لنشر الدين الاسلامى بحـد السـيف ، أو أنها تمت اضطرارا أمام جـدب الجزيرة العربية وقلة مواردها وازدياد سكانها بالقياس الى خيراتها الضئيلة ، أو أنها كانت مظهرا خارجيا لقوة نفسية وحماسة داخلية أوجدتهـا العقيدة الجديدة وحولت نزعـة الحـرب فى نفوس البدو من وسيلة للحصول على مكان فى مرعى ، الى وسيلة للحصول على مكان فى الجنة ، أو أنها كانت اعلاء لنزاع القبائل العربية المتنافسة بعضها مع بعض وتوجيها لهذا النزاع ضد عدو مشترك خارج الجزيرة • وهكذا أعطيت الفتوح العربية والهجرات التى تلتها تفسيرات دينية أو اقتصادية أو اعتدائية أو أخروية حسب مذاهب المؤرخين •

ولكنا لم نصادف مؤرخا يعطى هـذه الفتوح العربية تفسيرا سياسيا أو قوميا فيقول ان هذه الفتوح كانت محاولة ناجحة من أمة تريد لم شعثها المبعثر وجمعه تحت راية واحدة وضعها الاسلام فى يدها ، وتريد استخلاص وطن هو مجالها الحيوى من أيدى مغتصبين أجانب ألقوا عليه ظلهم المظلم الكثيف قرونا عـديدة •

هذه هى نظريتنا فى الفتوح العربية • ففى نظرنا ان الدافـع الأول الذى حدا عرب الجزيرة بعد الاسـلام الى فتح أجزاء الشرق العـربى ، هو شعورهم بصلات القرابة بينهم وبين سكان هـذه البـلاد ، ورغبتهم فى أن يشاركوهم تجربتهم الاسلامية الجديدة ، ودولتهم العربية الناشئة • فالدافـع كان أولا انجـذاب الدم الى الدم ، وانعطاف القريب الى القريب ، والرغبة فى بناء وطن كبير يكون مسرحا لأمة عظيمة ترفرف عليها راية الاسلام •

فبالرغم من سيطرة الفرس والروم على هذه البلاد قبل الاسلام ظـل عرب الجزيرة يعتبرونها مجالهم الحيوى فكانت التجـارة متصلة بينهم وبـين أهـل

العراق والشام ومصر • ومن ذلك رحلتا الشتاء والصيف التجاريتان بين اليمن والشام ، ومنه التجارة المستمرة مع مصر حتى انه يقال ان عمرو بن العاص زار مصر تاجرا قبيل الاسلام • وكان طريق التجارة يبدأ من مراكز العطور فى أقصى جنوب الجزيرة ويسير الى صنعاء ثم يتجه شمالا الى الحجاز مارا بمكة فالمدينة حتى العقبة وهنا يتشعب الطريق ، ففرع يذهب الى دمشق وفرع يسير الى سيناء ومصر وفرع ثالث يسير شرقا وينتهى فى العراق • فصلة عرب الجزيرة بأهل العراق والشام ومصر لم تنقطع حتى وقت ظهور الاسلام ، وهم يتعاملون معهم ويعرفون صلتهم العنصرية القديمة بهم •

وأنشأ العرب دويلات ومسالك لهم فى داخل تلك البلاد على طريق القوافل فى خط التجارة الذى سبق وصفه مثل مملكة تدمر فى بادية الشام ، وملك المناذرة على حدود العراق ، وملك الغساسنة على حدود الشام ، وكانت كلها دويلات عربية يعتبر أهلها أنفسهم جزءا من الحياة العربية بالرغم من خضوعهم للنفوذ الفارسى أو البيزنطى ويرسلون ممثلين عنهم الى الأسواق العربية فى الحجاز •

وهكذا فانه من الواضح أن مظاهر الوحدة لم تنقطع بين عرب الجزيرة وأهل العراق والشام ومصر حتى ظهور الاسلام • فكان من طبائع الأشياء أن يلتفت العرب بعد أن قضوا على المرتدين ووحدوا الجزيرة العربية تحت راية الاسلام الى أبناء عمومتهم خارج الجزيرة •

وفى هذا الضوء لا يبعد اطلاقا أن ينظر عرب الجزيرة المسلمون الى أهل العراق والشام على وجه الخصوص على أنهم عرب تحت حكم أجنبى ، فيوجهون حميتهم العربية وحماستهم الاسلامية ، وقوة النصر الدافعة بعد القضاء على الردة وتوحيد الجزيرة ، الى تخليص هؤلاء الأقرباء من أيدى الفرس والروم ، وضمهم الى الأمة التى كانت قد اكتشفت نفسها فى نور الاسلام ، وجمعت نفسها تحت راية القرآن •

وفى حوادث الفتح ما يدل على أن هذا الشعور بالقرابة كان متبادلا ، فقد كان يشعر به عرب العراق والشام على وجه الخصوص نحو عرب الجزيرة الفاتحين • ولذلك انضم كثير من أهل العراق والشام فى أثناء الفتح العربى

الى الجيوش العربية وكانوا أدلاء لهم وحاربوا فى صفوفهم ضد عدوهم المشترك من الفرس والروم •

وفى هذا المعنى يقول بعض المؤرخين أن الجديد فى الفتوح العربية كان انتشار العرب فى شمال أفريقية وبلاد فارس : « أما العراق والشام ومصر فقد كانت مأهولة بالعرب قبل الفتح ولا سيما الهلال الخصيب ولكن موجة الفتح الأخيرة حملت اليها جزءا كبيرا من عرب الجزيرة أحلتهم محل الأقوام الأجنبية فيها وبذلك أصبحت من صميم البلاد العربية »[1] •

فهل بعد هذا لا يكون المنطق الصحيح معنا عند ما نقول ان الدافع الأول للفتوح العربية كان الشعور الداخلى الأصيل بوجوب تكامل أمة وتوحيد وطن ؟ وهل يستبعد أن هذا الشعور كان متبادلا بين العرب الفاتحين والمفتوحة بلادهم مع ما نعرف من سوء أحوال أولئك تحت حكم الفرس والروم من ارهاق بالضرائب واضطهاد فى المعاملة ، وحرمان من حقهم المشروع فى العقيدة نظرا لاختلافهم فى المذهب مع الدولة الحاكمة ، وتضحيات بالأنفس والمال والاطمئنان فى سبيل صراع مستمر بين الدولتين الحاكمتين لا ناقة لهم فيها ولا جمل ؟

وربما كان هذا المذهب فى تفسير الفتوح الاسلامية هو فى الوقت نفسه التفسير الوحيد المعقول لما يصادفنا من حوادث مساعدة العرب المسيحيين فى أطراف الجزيرة والعراق والشام للجيوش الاسلامية فى أثناء الفتح •

ففى فتح فارس كاد العرب ينهزمون فى موقعه الجسر (٦٣٦ م) فاذا بزعيم مسيحى من بنى طىء ينضم للعرب ويقيل عثرتهم ، ثم انضمت قبيلة بنى النمر النصرانية التى تقيم فى داخل أراضى الدولة البيزنطية الى الجيش العربى ، على أساس أنهم عرب صراحة • فمما يروى أن المثنى القائد العربى توجه على فرسه الى القائد المسيحى وقال له : « انك أمرؤ عربى فاذا حملت فأحمل معى » ••• ووجد القائد المسيحى الحق فيما قاله المثنى فحمل معه وكسب المسلمون معركة بويب ، ويروى أن الذى قتل المرزبان قائد الجيش الفارسى

---

(١) عبد العزيز الدورى وآخرون : تاريخ العرب ، ص ١٠٤ . والغريب أنه بالرغم من ايراد المؤلفين لهذه الحقيقة الرائعة يصرون على مجاراة المؤرخين الاجانب فى القول بأن أسباب الفتوح كانت لرغبة العرب فى دخول الجنة وايمانهم بأن الموت حق وغنى مصر والهلال الخصيب مع جدب بلادهم . راجع نفس الصفحة من الكتاب .

فى تلك المعركة كان شابا مسيحيا من بنى تغلب وهى قبيلة عربية مسيحية انضمت للجيش العربى أيضا بدافع من وحدة الدم •

ولما ذهب خالد بن الوليد لفتح الحيرة على نهر الفرات ، وقاوم أهلها ، أهاب خالد بدمهم العربى وقال لسفرائهم : « ما أنتم ؟ عرب ؟ فما تنقمون من العرب ؟ أو عجم ؟ فما تنقمون من الانصاف والعدل ؟ » • قال له متحدثهم : « بل عرب عاربة وأخرى متعربة وليس لنا لسان الا العربية » • قال خالد : « لو كنتم كما تقولون لم تحادونا وتكرهوا أمرنا » •

وكل هذا يظهر انجذاب الدم العربى الى الدم العربى بين العرب المسلمين الفاتحين والعرب المسيحيين فى تلك الأقطار ، ويدعم نظريتنا فى الفتوح الاسلامية من حيث هى حركة توحيد أمة وضم وطن •

وهل انتصار العرب وتوحيدهم لأمتهم ووطنهم فى حاجة الى قوى خارقة كالطمع فى الجنة أو المال أو حطام الدنيا من مأكل ومشرب ، مع ما نعرفه من اجتماعهم على هدف واحد وعقيدة واحدة وانبثاقهم أمة واحدة من ضباب المعركة بين الوحدانية والشرك ، وما نعرفه من تهالك كل من الفرس والروم من طول ما تحاربوا وتناحروا واقتتلوا ، ومن طول ما اقتسم الشعبان داخليا بسبب الخلافات المذهبية والمتناقضات الاقتصادية والمظالم الاجتماعية ؟

ولعل من أهم ما يؤيد هذا التفسير القومى للفتوح العربية أنه بالرغم من أن هذه الفتوح قد شملت أقطارا كثيرة فى الشرق والغرب ، فانه لم يبق محتفظا بعروبته ولم يبق الى الآن جزءا من الأمة العربية والوطن العربى دينا ولغة وثقافة وعاطفة ، الا تلك الأقطار التى اصطبغت بصبغة العروبة قبل الفتح العربى بقرون ، وهى العراق والشام ومصر والسودان والمغرب العربى • أما غيرها من الأقطار كالهند وخراسان وايران فلم يبق لها الا الاسلام مجردا من العروبة ، فأهلها لم يتعربوا ، لا باتخاذ اللغة العربية لغة قومية ، ولا بالاختلاط مع العرب بالزواج •

هذه هى المرحلة الثانية من مراحل تكوين الأمة العربية ــ مرحلة الانتشار العربى فى أثناء الفتوح العربية ــ وقد رأينا أنها أمدت الأمة العربية بالمقومات الأساسية لقيام أمة متماسكة ، وهى الوطن الموحد ، والعقيدة الواحدة ،

واللغة المشتركة ، وفى هذا الاطار تركتهم للمرحلة التالية لتحدث عملية الانصهار والتجانس والوحدة الثقافية •

٣ ــ مرحلة التجانس العنصرى والثقافى فى العصور الاسلامية :

رأينا كيف أن أساس الأمة العربية قد وضع فى المرحلة السابقة ــ مرحلة الانتشار الاسلامى ــ حين هاجرت جحافل العرب من جنود ومهاجرين فى أثناء الفتوح الاسلامية وبعدها ، ونزلت فى أرجاء الوطن العربى الذى استخلصته الجيوش العربية من أيدى المغتصبين من فرس وروم• وحين أقامت هذه الجحافل بين سكان هذه البلاد الأصليين ممن كانوا عربا صرحاء دما واسما وشعورا كما كانت الحال فى بعض جهات العراق والشام ، أو كانوا عربا بحكم الدماء التى تجرى فى عروقهم وان اختلف الاسم وقل الوعى كما كان الحال فى مصر • وحين اصطحبت هذه الجحافل معها دينها الاسلامى ولغتها العربية واضعين بذلك أساس الثقافة المشتركة التى ستصبح فيما بعد روح هذه الأمة العربية •

والى هذا الحد لم تكن الأمة العربية قد تكونت بمفهومها العلمى الذى سبق عرضه فى مقدمة هذا الفصل • وانما كان تكوينها يحتاج الى ثلاث عمليات ضرورية لتكوين الأمم وهى :

١ ــ التجانس العنصرى بالاختلاط البيولوجى بين الوافدين والسكان الأصليين •

٢ ــ الوحدة الثقافية بالتبادل الثقافى بين العنصرين •

٣ ــ وحدة الأهداف والآمال بالمشاركة المستطيلة فى السراء والضراء •

وهذه العمليات حدثت فى هذه المرحلة الثالثة وهى مرحلة التجانس العنصرى والثقافى فى العصور الاسلامية التى تبدأ من قبيل منتصف القرن السابع الى أواخر القرن الثامن عشر • وفى هذه الحقبة الطويلة تتكون المدنية العربية بجميع عناصرها الفكرية والعقائدية والفنية والعلمية والمادية على يد أمة يتزايد تجانسها وتماسكها مع الزمن حتى يتحد دمها وتتحد ثقافتها وتتحد مصالحها وأهدافها وتخرج بعملية تاريخية طويلة ذلك العملاق الذى تدين له الانسانية الحديثة بالأستاذية فى جميع ميادين الحضارة بدون استثناء •

وقد انطوى هذا التجانس الشـامل على أكثـر من مظهر ، فقـد كان فيه الاختلاط بين العنصرين بالزواج والمعايشة ، وكان فيـه اعتنـاق أهل البـلاد الأصليين للدين الاسلامى ، واتخاذهم اللغة العربية لغة قومية . ومن الصـعب أن يحدد الباحث أى هذه المظاهر كان أسـبق ، اذ الواقع أنها تمت جميعـا فى وقت واحد وصاحبت كل منها الأخرى ، بل وتفاعل كل مظهر منها مع سـائرها فأثر فيها وتأثر بها . ومن ثم فمن الصعب أن نعرض هـذه المظاهر عرضا زمنيا فيه سابق منها ولاحق ، أو عرضا منطقيا فيه علة منها ومعلول أو سبب وتيجة . وانما لا بد من عرضها جميعا كعملية واحدة معاصرة تمت فى زمن على أسـاس التفاعل الديناميكى والنمو المتـكامل . فالأمة كائن حى ينمو كوحـدة ويعيش ككل متكامل .

التجانس العنصرى بالمخالطة :

عندما فتحت الأقطار على العرب لم يجدوا من الحكمـة أن ينسـاحوا فى البـلاد ويختلطوا بأهلها ويعملوا فيما كانوا يعملون فيه من أسباب المعايش من زراعة وصناعة وتجارة حتى لا يفقدوا خصائصهم الحـربيـة واسـتعداداتهم النضـالية فى وقت لم تكن تلك البـلاد قـد سلمت لهم ، وانما كانوا ما زالوا مهددين بمحاولات الفرس والروم لاسترداد تلك البـلاد . ونحن نعـرف أن الروم قد انقضوا على الشـام والاسكندرية مرارا وتكرارا ونجحوا فى بعض محاولاتهم .

لذلك فقد كان من الحكمة ما أمر به عمـر بن الخطاب من تحريم امتـلاك الأرض والاشتغال بالفلاحة على العرب فى البلاد المفتوحة حتى يحتفظوا بروحهم الحربية ويبقوا على أهبة الاستعداد لداعى الدفاع عن البلاد اذا حزب الأمر . وتنفيذا لهـذه السـياسة سكنت القبائل العربية البلاد على ما كانت عليـه من التماسك القبلى ، كل قبيلـة بمحلة ، كالذى حـدث فى مصر عنـدما اختطت مدينة الفسطاط واتخذت عاصـمة للبلاد وسكنت كل قبيلة عربية فى خطة خاصة بها . وكذلك فعـل من كان يعيش بالاسكندرية وغـيرها من كـور الاقليم . وكذلك فعل عرب العراق عندما عسـكروا فى البصرة والكوفة ، وفى الشـام ، وفى القيروان بتونس ، وفى بعض مراكز المغرب .

وسجل هؤلاء العرب الوافدون فى الديوان ، وكانت تصرف لهم أعطياتهم من الدولة على شكل رواتب • وكلما وفدت قبيلة قيدت فى الديوان وصرفت رواتبها كالذى حدث عندما قدمت الى مصر قبيلة قيس فى عهد هشام بن عبد الملك كما مر بك • وكذلك كان اذا ولد لأسرة ولد أو بنت قيد ذلك بالديوان وصرف للمولود راتبه ، واذا مات فرد اقتطع عطاؤه من قبيلته • يقول المقريزى : « وجعل على كل قبيلة رجل يدور بالمجالس ويقول هل ولد الليلة فيكم مولود وهل نزل بكم نازل (أى هبط عليكم مهاجرون جدد) فيقال ولد لفلان غلام ولفلان جارية فيكتب أسماءهم ويقال نزل بهم رجل من أهل كذا بعياله فيسميه وعياله ، فاذا فرغ من القيل أتى الديوان حتى يثبت ذلك فتصرف الأعطيات » •

ومعنى هذا أن العرب عاشوا فى أول عهد الفتح كطبقة قائمة بذاتها ، يأتيها رزقها وفيرا دون عمل من قبيل الحرف التى كان يعمل بها الأهالى ، فى نظير انفرادهم بمسئوليات الدفاع عن البلاد وما أثقلها من مسئولية •

ومع ذلك فقد اختلط العرب بأهل البلاد المفتوحة فى تاريخ مبكر بعد الفتح عن طريقين : الأول طريق السبى ، فقد وقع فى يد الجيوش العربية آلاف من السبايا من أهل البلاد ، كما يحدث فى الحروب فى كل عصر ، وقد اعتنقت كثيرات من هاتيك النسوة الاسلام • وسواء أسلمن أم لم يسلمن ، فقد أنجبن أولادا وبنات من الرجال العرب وولدت ذراريهن من دم عربى وعلى دين الاسلام بحكم كون آبائهم عربا مسلمين • والطريق الثانى زواج الرجال العرب من نساء كتابيات وهو مشروع فى الاسلام • كان المهاجرون الأول جندا بلا نساء ، وكانت الهجرات الأولى غالبها من الرجال ، فتزوجوا من كتابيات من أهل البلاد وأنجبوا منهن ذرية من دم عربى وعلى دين آبائهم • أضف الى هذا ما كان لتعدد الزوجات من أثر فى زيادة عدد نساء البلاد المفتوحة فى البيوت العربية ، وضياع ذرياتهن والأجيال الناسلة منها على الدم المحلى ، ودخولها فى الدم العربى ، وفى الدين الاسلامى واللغة العربية • وأضف الى ذلك نظام التسرى وفيه مزيد من أشباه الزوجات بالاضافة الى الزوجات الشرعيات ، وفى كل هذا فرص متكاثرة لزيادة النسل الذى يجرى فى عروقه الدم العربى وفى قلبه العقيدة الاسلامية ، وعلى لسانه اللغة العربية • وقد اعتبر الرجال العرب

فى العصـور الأولى من الاسـلام كل هذه الرخص امتيازات مشروعة لهم لم يشـاءوا تضييع فرصها على أنفسهم ، فأمعنوا فيها استكثارا لأنفسهم وتزيدا فى جنسهم • ثم زاد الاختلاط الجنسى بالزواج بعـد أن أخرج العرب من الديـوان واختلطوا بأهل البلاد وتعاطوا حرفهم من زراعة وصـناعة وتجارة ، وتوغلوا فى القرى والمدن ، وخصوصا بعد أن انتشر الاسـلام ، واختفى كل حرج أو ترخص من ميدان العلاقات الأسرية بين العنصرين •

وظل أمر العرب فى الأمصـار على هذا النحو مدة الخلفـاء الراشـدين وظل غالبا فى عهـد الخلفـاء الأمويين مع بعض التسامح والاستثناء ، حتى اذا قامت الدولة العباسية (٧٥٠ م) ، أخذ خلفاؤها يعتمدون على الفرس بالتدريج وأخذ العرب يقصون عن المناصـب وعن العطـاء شـيئا فشـيئا ، وشيئا فشيئا أخذوا يختلطون بأهل البـلاد بالمعايشة والمشاركة فى وسائل الاحتراف والكسب، حتى اذا ولى الخلافة المعتصم العباسى أخذ يعتمد على الأتراك فى الجيش وأبعد العرب نهائيا وأسقطهم من الديوان وقطع عنهم العطاء وكان عليهم أن يكسبوا عيشـهم بالعمل فأنساحوا فى البلاد والقرى واختلطوا بأهل البلاد وأثروا فيهم بالاسـلام واللغة العربية من حيث اشتغلوا بالزراعة والحرف اليدوية • وانقطع نهائيا وجودهم كطبقة متميزة ، وأصبحوا جزءا من أهل البلاد •

يقول المقريزى : « ولما بويع المعتصم بالخلافة (٨٣٣ م) كتب الى كندر بن نصر الصـفدى أمير مصر يأمره باسـقاط من فى ديوان مصر من العـرب وقطع العطاء عنهم ففعل ذلك •• فانقرضت دولة العرب من مصر وصـار جندها العجم والموالى » • أى انتهى عهد العرب كطبقة حاكمة ولكن ليبدأ عهـد آخـر بهم كمواطنين عاديين يختلطون بأهل البلاد ويزيد تأثـيرهم الدينى واللغوى فيهم ويكونون معهم أمة واحدة لا تمتـاز فيها طبقة من طبقة ولا ينضـح على وجوه أهلها أكثر من دم ، وبطلت نسـبة العرب الى قبائلهم وأصبحوا ينسـبون الى الاقاليم التى يعيشـون فيها فيقال فلان الأسيوطى أو السكندرى أو المصرى عموما مثـل « ذو النون المصرى » ، المتصـوف المشـهور ، و « يزيد بن حبيب المصرى » الفقيه المعروف • وهكذا لا يمضى قرنان من بداية فتح العرب لمصر ، أى فى منتصف القرن التاسـع ، الا وكانت مرحلة الامتـزاج التام قد بدأت ، وبعد قرن آخر أى فى القرن العاشر يظهر أثر ذلك فى دين أهـل مصر ولغتـهم

كما سيجيء . أما العراق والشام فقد بدأت مرحلة الامتزاج وظهر أثرها قبل مصر بكثير نظرا لعوامل خاصة أسرعت بهذا الامتزاج ، وان كان عصر المعتصم يعتبر حدا حاسما فى جميع أجزاء الوطن العربى على السواء .

وثمة عامل آخر ومرحلة أخرى فى الامتزاج الاجتماعى بين العرب وأهل البلاد المفتوحة أزالت ما كان باقيا من مظهر التقابل والتفاوت بين العرب وغيرهم . وذلك عندما استولى الأتراك على مقاليد الأمور بدار الخلافة فى بغداد بعد وفاة الخليفة الواثق (٩٤٦ م) وعندما استبدوا بولاية الأقاليم حوالى ذلك التاريخ أو قبيلة . واذ أصبح الحكام من الأتراك ، وخضع لهم العرب كما خضع أهل البلاد على قدم المساواة من الرعوية والطاعة ، انتهى كل سند للتفريق بين العرب الخلص الوافدين وبين أهالى البلاد ، وأصبح الجميع رعية دولة واحدة وزاد تأثير العرب فى غيرهم بالدين الاسلامى واللغة العربية فانتشروا ، وذاب العرب كعنصر متميز فى سائر أهل البلاد من الناحية العنصرية ، وذاب أهل البلاد فى العرب من الناحية الدينية واللغوية والثقافية ، وأصبح الجميع أمة واحدة من الناحية العنصرية ومن الناحية الثقافية على السواء .

هذه هى صفة التجانس الاجتماعى على وجه العموم كما حدثت بين العرب وأهل البلاد المفتوحة فى قرنين من الزمان ، من منتصف القرن السابع الى منتصف القرن التاسع . وقد سايرها ثلاثة عناصر أخرى من هذا التجانس : تجانس بيولوجى بالزواج وانجاب الذرية المتكاثرة . وتجانس دينى بدخول أهل البلاد فى الاسلام أفواجا . وتجانس لغوى باضمحلال اللغات المحلية تدريجيا ثم موتها نهائيا واتخاذ الناس اللغة العربية لغة حديث ولغة دين ولغة أدب وعلم . ولا شك أن ديمقراطية الاسلام وتسامحه ودعوته بالمساواة بين جميع البشر « لا فرق بين عربى أو أعجمى ولا بين أبيض وأسود » قد كان لها أثر كبير فى اتمام التجانس العنصرى .

انتشار الاسلام :

أما عن انتشار الاسلام بين أهل البلاد المفتوحة فليس عندنا تفصيلات كثيرة عن الأحداث والمناسبات التى تم فيها تحول معظم هؤلاء الناس الى الدين الاسلامى حتى أصبح المسيحيون أقلية ضئيلة فى البلاد ، بل حتى اختفت

المسيحية تماما من بعض أجزاء الوطن العربى كالمغرب العربى . ولكن انعدام هذه التفاصيل فى كتابات المؤرخين ، وطول المدة التى استغرقها هذا التحول يدلان على أن هذه العملية قد تمت ببطء شديد وباختيار أهل البلاد أنفسهم .

ففى العراق دخلت قبائل برمتها وجماعات كثيرة جدا فى الاسلام بعد الفتح مباشرة . فبنو غسان تحولوا الى الاسلام بعد الفتح كجماعة واحدة . وبعد موقعة القادسية فى أول الفتح (٦٣٨ م) تحولت كل قبائل الفرات الى الاسلام دفعة واحدة وأثر عنهم أنهم قالوا أن القبائل الذين سبقونا الى الاسلام كانوا أصوب رأيا منا . كما أسلمت قبائل أخرى من القبائل التى كانت تسكن بين النهرين مثل بنى النمر وبنى قضاعة . وكذلك حدث فى الشام ففى أول الفتح دخلت جموع هائلة من أهل البلاد الى الاسلام . ويمكن أن تتبين سرعة انتشار الاسلام فى تلك الفترة الأولى من التاريخ الاسلامى اذا عرفنا أن الضرائب التى جمعت من العراق كانت فى عهد عمر بن الخطاب بين مائة ومائة وعشرين مليون درهم ، ثم هبطت الى أربعين مليونا فى عهد عبد الملك بن مروان أى بعد حوالى خمسين سنة . ولا شك فى أن السبب الأساسى لهذا النقص فى الجباية كان راجعا الى تحول أهل البلاد الى الاسلام وسقوط الجزية عنهم نتيجة لهذا التحول ، وقد اتخذ التحول الى الاسلام أحيانا شكل اعتناق الأساقفة أنفسهم للدين الجديد ومن ثم ينتقل جمهور الكنيسة كلها الى الاسلام بعدما يعتنقه الأسقف . وبالتدريج دخل أهل العراق والشام فى الاسلام عن طريق التحول السلمى البطىء . وكانت الدولة تحرص على ايفاد المعلمين باعداد متزايدة ليرشدوا الناس الى أصول العقيدة الاسلامية .

وفى مصر نصادف نفس الصورة فبعد الفتح مباشرة ، بل وفى أثنائه انتقلت جموع كبيرة من جماهير الشعب المصرى الى الاسلام أفواجا ، بل انه قبل اتمام الفتح كان كثيرون قد اعتنقوا الدين الجديد ، فقبل أن يتم فتح الاسكندرية وهى عاصمة البلاد فى ذلك الوقت كان ناس كثيرون قد تحولوا الى الاسلام ، وتظهر السرعة التى تم بها تحول المصريين الى الاسلام من أن حصيلة خراج مصر كانت فى عهد عثمان بن عفان ١٢ مليون دينار ، على حين هبطت الى ٥ مليون فى عهد معاوية بن أبى سفيان أى فى سنوات قلائل ،

بسبب كثرة من دخلوا فى الاسـلام من أهل البـلاد . وزاد الدخول فى الدين الجديد سرعة وانتشـارا فى عهد عمر بن عبد العزيز ، وقد ذكر بعض المؤرخين أن أربعـة وعشرين ألفـا من المصريين اعتنقوا الاسـلام فى مناسـبة واحـدة عنـدما وعد حفص بن الوليد والى مصر فى أواخر عهـد الدولة الأموية (٧٤٤ م) باعفاء كل من يدخل فى الاسـلام من الجـزية . وتبـدو السرعة الهائلة التى تم بها تحول المصريين الى الاسـلام من أن والى مصر من قبـل عمر بن عبد العزيز هاله تدهور حاصـل الضرائب فطلب من الخليفة ابقـاء الجزية على من يسلمون حتى لا يتـأثر بيت المال أو الخزينة فرفض عمـر وأرسـل الى واليه يقول له : « قبح الله رأيك ان الله بعث محمدا داعيـا ولم يبعثه جابيا » . وفى عصر الدولة العباسـية أى فى منتصف القرن الثانى الهجرى (منتصف القرن التاسع الميلادى) كان عدد قليل من أهـل مصر هم الـذين لا يزالون على الديانة المسيحية ، أما غالبيتهم فقـد كانوا تحولوا الى الاسـلام . واذا كان خراج مصر قد هبط الى ٥ مليـون دينار فى عهـد معاوية فقد هبط الى ٤ مليون فى عهد هارون الرشيد ، والى ٣ مليون دينار فى أواخر عصر الدولة العباسية .

ومعنى هذا أن حـركة انتشـار عرب مصر فى الريف واشتغالهم بالزراعة والصـناعة والتجارة قد اقترنت أيضـا بتحول غالبية المصريين الى الاسـلام . واستمرت حركة التحـول الدينى بعـد ذلك على طول التاريخ الاسـلامى فى مصر . فحدثت حركات تحـول كثـيرة فى عهد المستضىء العباسى وهو من أواخر خلفاء الدولة العباسية ، كما حدثت مثل هذه الحركات فى القرنين الثـانى عشر والثالث عشر .

وعلى هذا النحو أيضـا انتشر الاسـلام فى بلاد المغرب العربى ، بل لقـد كان التحول للدين الاسـلامى فى المغرب أسرع بكثير منـه فى مصر . وربمـا كان ذلك راجعا الى أن المسيحية لم تكـن تأصـلت فى بلاد المغرب كما تأصلت فى مصر حيث كان سكانها من أشد الأمم القديمة اخلاصا للمسيحية نظرا لأنهم كانوا من أسبق الامم اعتناقا للمسيحيـة ثم لانهم قد التفـوا حول كنيسـتهم فى أثنـاء النضـال ضد الاستعمار الرومانى . وبلغ من سرعة انتشـار الاسلام بين المغاربة أن غالبيتهم كانت قد أسلمت قبـل نهاية القـرن الثامن الميـلادى

(الثانى الهجرى) ، وسرعان ما اختفت المسيحية تماما من البـلاد ، وهى ظاهرة لم تحدث فى غير المغرب العربى من الأقطار العربية .

كانت المسيحية محدودة الانتشـار بين المغاربة ، بل كادت تختفى من بلاد المغرب قبـل الفتح الاسـلامى ، لما لقيته من اضـطهاد الوندال وسـيطرتهم على بلاد المغرب قرنا من الزمان تقريبـا ، شردوا فيـه الأسـاقفة وحرموا على الناس الجهر باقامة شـعائر المسيحية . وبعد أن تخلصت الكنيسة المسيحية من الوندال تعرضـت لاضطهاد البربر ،حتى لم يأت القرن السـابع الميـلادى وهو وقت الفتح الاسـلامى الا وكانت المسـيحية قد انهارت بالفعل ماديا من حيث عدد الأتبـاع ومعنويا من حيث تأصلها فى النفوس .

واذا كانت الكنيسة المسيحية فى مصر قد ناضلت الزحف الاسـلامى فان كنيسة المغرب قد استسلمت للعقيدة الجديدة فى سهولة ويسر . وفى منتصف القرن الحـادى عشر لم يكن فى بلاد المغرب الا خمسـة أساقفة لا غير ، وبعـد قرنين من الزمان لم يعد فى بلاد المغرب الا أسقف واحد هـو أسقف مراكش . وفى القرن الرابـع والخامس عشر اختفت المسيحية تماما من بلاد المغرب .

واذا كان الاسلام قد انتشر بهذه السرعة بين المسيحيين من أهـل المغـرب فقد كان أسرع انتشـارا بين قبائل البربر الوثنية ، الذين كانوا أسرع اعتنـاقا له من سـكان الجهات الساحلية المسيحيين . فما كاد حسان بن النعمان فاتح افريقية يمنح البربر الذين أيـدوه حق المسـاواة مع العرب ، حتى أقبلت قبائل البربر تدخل فى الدين أفواجا . وكان انتشار الاسلام فى المغـرب يسـير مع الفتـح العربى جنبا الى جنب . وكان نجـاح العـرب فى فتح الأندلس من عوامل انتشار الاسـلام بين البربر ، فقد أشركهم العرب فى الفتح ، وساووهم معهم فى الغنائم والأفياء ، علاوة على مخالطتهم من أول الأمر للعـرب مما سـهل عليهم اقتباس الدين .

وقد كانت مصر دائما طريق الدين والثقـافة الى السـودان . فأثر الحضارة الفرعونية تعدى السـودان الى نيجيريا ، وعن طريق مصر دخلت المسـيحيـة الى السـودان . وصـلة بلاد المغرب بالسودان الغربى وثيقة أيضـا . ولذلك فقد انتقل الاسـلام الى أهل السـودان عن طريق مصر وبلاد المغرب معا . وقد


توزيع الديانات فى العالم
مسلمون
كاثوليك وبروتستانت
أرثوذكس
ديانات أخرى

تأخر انتشـــار الاســـلام فى السودان قليلا ، فقد حدث أكثره ابتداء من الدولة الفاطمية (القرن العاشر الميلادى) ثم فى عصر المماليـــك • ففى العصر الفاطمى زادت هجرة القبائل العـــربية من صـــعيد مصر الى السودان وأخذت تنشر معها الدين الاسلامى ، وبدأت تقوم ممالك اسلامية فى أنحائه • وعندما فتحت مصر بلاد الســـودان فى القرن التاســـع عشر انتشر الاســـلام فى أنحاء من السودان لم يكن قد دخلها الاسلام من قبل •

ومن الثابت تاريخيـــا أن تحـــول أهل البلاد العربيـــة الى الدين الاسلامى تم بمحض اختيـــارهم على وجـــه العمـــوم دون ارغام من جانب الحكومات الاسلامية • فكما انضم هؤلاء الناس الى الدين المسيحى وقت ظهوره لعدالته وسمو مثـــله ، فقـــد انضـــموا الى الدين الاسلامى كذلك لنفس الأســـباب والخصائص التى تجلت لهم بالقياس الى ما كانوا يجدونه من حكامهم المسيحيين من ظلم واضطهاد وما كانوا يرون فى سلوكهم من انحطاط ورذيلة •

ويقول سير توماس أرنولد ان حـــالة الكنيسة الشرقيـــة وتدهورها من الناحيتين الخلقية والروحية فى ذلك الوقت بالذات لا بد أن تكون قـــد دفعت كثيرين الى أن يلتمسوا جوا روحيـــا أسلم وأصح فى الدين الاسلامى • فقـــد كانت الفرق الدينية المسيحية تضطهد بعضها بعضـــا ، وكان رجال الكنيســـة يتنازعون فيما بينهم فى مســـائل الدين والعقيـــدة ، وخلطوا الدين بمســـائل ميتافيزيقية معقـــدة ، وتركوا اقامة الشـــعائر الى الجدل الدينى العقيم ، حتى تزعزعت عقائد الناس فى المسيحية ، وتعطلت أو كادت حيـــاتهم الروحية فكان من طبائع الأشياء أن يلتمسوا فى الدين الاسلامى ذلك الاطمئنان الروحى الذى فقدوه فى المسيحية •

يضـــاف الى هذا أن اللغة العربية أصبحت لغـــة رسمية فى دواوين الدولة فى عهدى عبد الملك بن مروان والوليـــد بن عبد الملك ، ومن الخلفاء من حرم تعيين غير المسلمين فى وظائف الدولة وبذلك فقد موظفو الدولة من أهل البلاد مراكزهم فى الحكومة فدفعهم ذلك الى اعتناق الاسلام وتعلم اللغـــة العربية • هذا الى ما كان اعتناق الاسلام يستتبعه من الامتيازات الاجتماعية والاقتصادية والمعنوية كالاعفاء من الجزية ، واكتساب الحق فى التنقل فى أنحاء الامبراطورية

العربية ، وتولى الوظائف العامة والخدمة فى الجيش . وكل هذا دفع كثيرين الى الدخول فى الاسلام رغبة منهم فى الحصول على هذه المزايا .

ولا شك أن انتصار الاسلام السريع واكتساحه أعداء هذه الشعوب من فرس وروم وسيطرته السريعة على امبراطورية مترامية الأطراف ونجاحه فى بسط الامن والطمأنينة فى قلوب الشعوب ، كان من أسباب تحول الناس الى الدين المنتصر ، وهو قانون اجتماعى صحيح فالناس يميلون الى اقتباس ثقافة المنتصر كما يقول ابن خلدون .

أضف الى كل هذا بساطة العقيدة الاسلامية ، فأركان الاسلام خمسة وهى فى غاية البساطة وخالية من التعقيد حتى لتستطيع أبسط الأفهام وأقل مراتب الذكاء أن تفهمها ، ثم انسانية الشريعة الاسلامية وعدالة المثل الاسلامية فى الحرية والمساواة فلا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى . كل هذه كانت عوامل جذبت الناس الى الاسلام ، وشجعهم خلو الاسلام من طبقة الكهنوت التى استغلت الناس فى الماضى أسوأ استغلال .

انتشار اللغة العربية وتحولها الى لغة قومية :

أما انتشار اللغة العربية بين أهل البلاد فقد كان أمرا طبيعيا مع انتشار الاسلام ، فلا شك أن اللغة العربية مرتبطة بالدين الاسلامى أوثق ارتباط . فاذا أضفنا الى ذلك أنها لغة الحكام ولغة الدولة فهمنا السر فى انتشارها الى الحد الذى اختفت معه اللغات القديمة كلها وأصبحت هى اللغة القومية للجميع .

ففى العراق ظلت اللغة الرسمية هى اللغة الفارسية الى عهد عبد الملك بن مروان ، وفى الشام بقيت اللغة اليونانية هى اللغة الرسمية الى عهده أيضا ، وفى مصر ظلت اللغة الرسمية هى اما اللغة اليونانية أو اللغة القبطية ، الى عهد الوليد بن عبد الملك . وقد قرر عبد الملك أن تنقل الدواوين الى اللغة العربية فنفذ هذا فى عهده فى العراق والشام ، ونفذ فى مصر والمغرب فى عهد ابنه الوليد .

وبذلك أصبحت اللغة العربية لغة رسمية للدولة ، وهذا من غير شك جعل تعلمها من وسائل كل انسان يريد أن يخدم الدولة أو يكسب عيشه من احتراف الكتابة . ولذلك لا نعجب اذا وجدنا أهل البلاد المفتوحة يقبلون على تعلم

اللغة العربية رغبة فى استبقاء وظائفهم فى الدواوين أو الحصــول على مثل هذه الوظائف ، وفى عهد الدولة الأموية ترجم الانجيل الى اللغة العربية ، كما نقلت اليها كل الكتب الدينية المسيحية الهامة ، فكانت هذه ثانى خطوة فى ســبيل انتشار اللغة العربية بين طبقات الشعب • وفى نفس العصر نجد قطعا من النسيج والخزف عليها كتابات عربية مما يدل على أن اللغة العربية بدأت تغــزو ميادين الصناعة والفن أيضا •

ومع ذلك ، فلم تصبح اللغة العربية لغة تخاطب بين جمهور هؤلاء الأهلين فى حياتهم اليومية ، ويحدثنا المؤرخون أن المأمون العباسى (٨١٣ — ٨٣٣ م) عندما زار مصر استصحب المترجمين وهو يطوف بأرجائها ، ومعنى هذا أنه الى نهاية الثلث الأول من القرن التاسع الميلادى ، لم تكن اللغة العربية قد أصبحت لغة الحياة اليومية بعــد • على أن انتشار اللغة العربيــة قد صاحب انتشار الاســلام • واذا كان الاسلام قــد أصبح دين الغالبية فى آخر القرن التاسع الميلادى ، فقد أصبحت اللغة العربية لغة الغالبية المسلمة فى نفس الوقت •

وفى أثناء القرن العاشر تصبح اللغة العربية لغة الحياة اليوميــة للمسيحيين أيضا • ففى ذلك الوقت أخذ مؤرخو الكنيسة القبطية يكتبون مؤلفاتهم باللغة العربية • فسعيد بن البطريق ألف كتابه فى التــاريخ باللغــة العربية فى القرن العاشر ، وكذلك ساويرس بن المقفع جمع وثائق تاريخ البطارقة وترجمها الى اللغة العربية ، ويثبت فى مقــدمة كتابه أن اللغــة العربية أصبحت لغة الشعب القبطى ، اذ يقول : « فاستعنت بمن أعلم استحقاقهم من الاخــوان المسيحيين وسألتهم نقل ما وجدناه منها بالقلم القبطى واليونانى الى القلم العربى الذى هو الآن معروف عند أهل الزمان باقليم ديار مصر لعدم اللسان القبطى واليونانى» •

ومعنى هذا أن اللغة العربية قد أصبحت فى القرن العاشر لغة قوميــة فى مصر ، تكتب بها دواوين الحكومة ، وتؤلف بها الكتب ، حتى الكتب الدينيــة القبطية ، ويتحدث بها الناس فى حياتهم اليوميــة واختفت اللغــة القبطية فى الاستعمال اليومى كمــا يقول ساويرس • ولذلك نجد أن قساوسة الكنيسة كانوا يستعملون اللغة العربية فى خدماتهم الكنســية ، وهــذا دليــل على أنها أصبحت لغة الشعب القومية •

وفى عصر الأمويين والعباسيين كذلك حلت اللغة العربية محل اللغة الفارسية فى العراق فى الاستعمال اليومى ، كما حلت محل اللغة الاغريقية فى الشام ، وربما كان انتشارها فى هذين القطرين أسرع منه فى مصر • بل وجاوزت اللغة العربية حدود الوطن العربى فأصبحت لغة دين ولغة علم وتأليف عند الفرس • أما فى المغرب فقد انتشرت بين المسلمين هناك من المغاربة ربما بأسرع مما انتشرت فى مصر أيضا نظرا لسرعة انتشار الاسلام هناك ، وتعلمها البربر أيضا مع احتفاظهم بلهجاتهم الخاصة • أما فى السودان فقد تأخر انتشار اللغة العربية قليلا ، اذ سار مع انتشار الاسلام • ثم أصبحت اللغة العربية هى اللغة القومية لجميع أهل السودان الشمالى والشرقى والغربى حيث انتشر الاسلام ، على حين بقى أهل الجنوب على وثنيتهم ولهجاتهم الزنجية •

واذا كان الدم العربى الذى انتشر فى أجزاء الوطن العربى بعد الفتح واختلط بالأهالى الأصليين قد كان عاملا فى تكوين الأمة العربية من الناحية العنصرية ، واذا كان الاسلام بانتشاره قد ربط هذه الأمة من الناحية العقائدية والدينية ، فان انتشار اللغة العربية قد كان أهم العوامل التى ربطت بين عناصر الأمة من مسلمين ومسيحيين ويهود ، فعلى اللغة العربية تلاقى الجميع واختفى فى استعمالها كل ما بقى من فروق بين الناس من ناحية الدم أو العقيدة • ولذلك فقد كانت اللغة العربية من أهم العوامل فى بناء هذه الأمة العربية •

التجانس الثقافى :

ويلحق بالدين واللغة وانتشارهما وحدة الثقافة •

ويقصد بالثقافة ما يشارك فيه أفراد أمة واحدة بل وما تشارك فيه أجيالها المتعاقبة من عادات وتقاليد ، وقيم وأخلاق ومثل عليا وآداب تعامل ، وما تستخدمه فى التعبير عن نفسها من الوسائل كالأدب والفن والعمارة •

أما عن العادات والتقاليد والقيم فهى من غير شك متصلة بالدين والعقيدة واللغة • فأسلوب التعامل بين الناس ونظرتهم الى أنواع السلوك ، والفضائل والرذائل ، والمحرم والمباح ، أمور متصلة بالدين أوثق اتصال ، ولذلك فقد انتشرت التقاليد والآداب الاسلامية مع انتشار الاسلام • وقد ساعد على هذا أن الدين الاسلامى ليس كغيره من الأديان يقتصر على جانب العقيدة والعبادات ، ولكنه طريقة حياة متكاملة تعنى بالعادات وقواعد التعامل من

بيـع وشراء ووزن وكيل وربح واقراض وبشـئون الأسرة من زواج وطـلاق وميراث ، ومعاملة بين أفراد الأسرة وبين الرجل وزوجته ، وبين الأبناء والبنات ووالديهم ، وبآداب السلوك حتى الاستئذان قبل الدخول على الناس • عنى الاسلام بكل هذا عنايته بالعقيدة والعبادات ، فحـدد لكل موقف من مواقف الحياة أصوله التى يجب ألا يتعداها ، ولم يفرط فى شىء من دقائق الحياة اليومية للناس • ولهذا كان الدين الاسلامى وثيـق الصلة بالعادات والتقاليد والآداب وطرق التعامل والقيم والمثل والقوانين والحدود ؛ ولهذا أيضـا كان انتشـار الاسلام كافيا لتوحيد الناس فى كل هـذه العنـاصر الثقافية التى هى من أهم ما يربطهم بعضهم الى بعض ويكون منهم جماعة واحدة متجانسة •

ويضاف الى هذا أثر اللغة فى كل هذه الأمور • فليست اللغة ألفاظا وكلمات ، ولكنها معـان وأفكار وعواطف • فالذى يتعلم الكلمـة لا يتعلم حروفها أو جرسها ولكنـه يتعلم أيضا معناها وينفعل عاطفيـا بهذا المعنى • ثم ان آداب اللغة من شـعر ونثر انمـا هى تعبير عن خبرات هـذه الأمـة ، وقراءتها تعم هذه الخبرات وتساعد على تذوقها • لذلك فقد كان انتشار اللغة العربيـة من أهم وسائل توحيد الثقافة أيضا • بل وتوحيد العاطفة والمزاج والفكر بين جميع الناس حتى الأقليـات التى بقيت على دينهـا أو تحامت الاختلاط بالعـرب • ولذلك فان الانسجام تام بين جميع عنـاصر الأمة العربية على اختلاف هـذه العنـاصر والأديان ، فى العـادات والتقاليـد وآداب السـلوك والمفـاهيم والاتجاهات العقلية وعادات الأكل والشرب والزواج والصحبة ، فاذا أضفت الى ذلك ما اتصـف به الاسلام من التسـامح وحرية العقيدة وخلوه من طبقة الكهنوت وعـدم اعترافه بالوسـاطة بين الانسـان وربـه ، واعتقـاده أن العلاقة مباشرة بين الانسان والله لا سـلطان لأحد عليها ، عرفت السر فى ذلك التماسك الشـديد بين جميع عنـاصر الأمة العربية ، بل عرفت أيضـا السر فى ذلك التسامح الذى يلقـاه أهل الأديان الأخرى والجنسـيات الأخرى من النـازلين فى بلاد العـرب • وقـد لفت هذا نظر جميع السياح الأجانب الذين زاروا الوطن العربى على طول العصور • وفى ذلك يقول سـير هنرى لا يارد (Henry Layard) ، وقـد زار الشرق العـربى ونشر كتاب رحلته فى سـنة ١٨٨٧ ، انه صادف مخيما من العرب المسيحيين فى مدينـة الكرك ، شرقى البحر

الميت ولاحظ أنهم لا يختلفون فى شىء عن العرب المسلمين سواء فى الزى أو فى العادات ، بل أنه لا يحدث أن يسهم مسيحيون فى بناء مسجد أو يسهم مسلمون فى بناء كنيسة الا فى الأمة العربية وفى الوطن العربى ، وقد لاحظ كثير من السياح حالات كهذه وسجلوها ، وما زالت تحدث أمام أعيننا الى الآن • والى هذا الحد وصل التجانس الثقافى فى الأمة العربية •

أما عن الأدب والعلم ، فقد وفد الى الأقطار العربية فى أول الفتح نفر من الصحابة والفقهاء ليعلموا الناس أصول الدين •

هذا الى أن كثيرين من الصحابة والتابعين قد هاجروا هم أنفسهم الى الأمصار وبذلك بدأ العلم الاسلامى يجد سبيله الى الناس • وأثر الصحابة فى البلاد التى نزلوها ، وكونوا لهم أصحابا بها ، أخذوا عليهم العلم ، ورووا عنهم الحديث • وأخذت تتكون بالتدريج مدارس حول الفقهاء من الصحابة والتابعين فى الأمصار • وتميز فى كل بلد أمام مثل عبد الله بن عمرو بن العاص فى الفسطاط ، وسعيد بن المسيب فى المدينة ، وعطاء بن أبى رباح فى مكة ، وابراهيم النخعى فى الكوفة •

وكانت المدينة موطن العلم ومرجع العلماء لما تجمع لها من تقاليد الأيام الأولى للاسلام ، وسنة النبى ، وعلم الصحابة • وكانت دمشق ومن بعدها بغداد أقرب الى موطن الاسلام الأول ، وفيهما كانت حاضرة الخلافة وعاصمة الدولة ، فتهيأ لهما من أسباب العلم ما لم يتهيأ لغيرهما من الأمصار • فأخذ مسلمو مصر وغيرها يرحلون الى المدينة ودمشق وبغداد يطلبون العلم على أهله ويعودون الى أمصارهم بالمزيد منه • وقامت بهذا السبب حركة علمية أخذت ترقى تدريجيا فى مختلف جهات الدولة • حتى بدأ أهل الأمصار يستقلون بالتفكير والتأليف والتصدر للتعليم • وفى أواخر عهد الدولة الأموية استقرت الحياة الثقافية حتى فى الأقطار البعيدة عن حاضرة الخلافة كمصر والمغرب • وكانت مصر هى طريق العلم الى المغرب والسودان ، واذا كان مذهب الامام مالك قد ساد فى المغرب والأندلس فقد أخذه أهلهما عن علماء مصر حيث كان جامع عمرو بن العاص مقصد الدارسين وموئل الطالبين •

وسارت الثقافة العربية فى الأمصار جنبا الى جنب مع انتشار الاسلام واللغة العربية • وتنقل العلماء والأدباء والشعراء بين أجزاء الدولة ، وبدأ أهل

الأمصار يشاركون فى حركة الترجمة والتأليف وكتابة الشعر والنثر • وكلما انتشر الاسلام واللغة العربية زاد القراء ونشطت الحركة العلمية ، حتى أصبحت كل عاصمة قطر من أقطار الدولة قاعدة علمية وأدبية ، وأخذت هذه الحواضر – بغداد ودمشق والفسطاط والقيروان تتنافس فى الدرس والتأليف وتنشيط الحركة الثقافية •

ففى القرن التاسع الميلادى كانت مصر مركزا هاما من هذه المراكز الثقافية • ففيها عاش الامام الشافعى وعلم وألف • وظهر فيها أحد أئمة القراءات وهو عثمان بن سعيد المصرى المشهور باسم ورش صاحب المذهب المعروف باسمه فى قراءة القرآن وهو قبطى اعتنق الاسلام واشتغل بالعلم وبرز فيه • وفيها أيضا عاش ذو النون المصرى المتصوف المشهور وواضع أصول التصوف الاسلامى ، وفى نفس القرن اشتغل بالحديث والفقه والتفسير كثير من علماء مصر منهم عبد الله بن وهب المصرى صاحب كتاب الجامع فى الحديث • وبالرغم من ذلك فقد كانت الحركة العلمية بمصر أقل منها فى بغداد ودمشق مما يدل على انتشار الثقافة الاسلامية فى البلاد العربية كلها •

وعندما تدهورت الدولة العباسية فى أواخر عهدها واستقلت الولايات المختلفة وقامت فيها دول شبه مستقلة ، أصبحت كل منها مركزا لحركة علمية خاصة وظهرت شخصياتها الثقافية المتميزة ، وعمل كل أمير أو حاكم على اجتذاب العلماء الى مصره • وفى هذه المرحلة انتشرت الثقافة العربية بين عامة الناس • وتميز العلم والأدب لكل ولاية من الولايات وكل مصر من الأمصار • وتوطن العلم الاسلامى والثقافة الاسلامية فى جميع أجزاء الوطن العربى ، وعرف كل جزء بعلمائه وأدبائه وشعرائه • وانتشرت القبائل العربية فى القرى والمدن فانتشرت معها الثقافة العربية ، فلم تعد مركزة فى بغداد ودمشق والقاهرة والقيروان بل ظهرت مراكز لها فى البلاد الصغرى ، سواء منها ما كان ذا سابقة فى العلم كالبصرة والكوفة ، أو ما استحدث فيه العلم كأسيوط وقوص وأدفو وأسوان •

وليس معنى هذا أن الوحدة الثقافية العربية قد تحطمت ، أو أن الثقافة العربية اكتسبت صفة محلية ، ولكن معناه أن مراكز نشاطها قد زادت وأن أمدادا جديدة قد طعمتها بدم جديد • فما زال الفقه هو فقه الاسلام ، وما زال

الأدب من شعر ونثر هو أدب عربى اللسان عربى الخصائص ، وما زال كل ما يكتب فى مصر من الأمصار يجد قراء له فى كافة البلاد من الخليج الى المحيط ، وما زال الناس يتبادلون الكتب والمؤلفات ودواوين الشعر من أقصى الشرق الى أقصى الغرب ، وما زال العلماء والأدباء والشعراء يتنقلون بين أرجاء الوطن العربى ، بحيث لا تجد كتابا واحدا أو ديوان شعر واحد نظم أو ألف فى قطر واحد من أقطار العروبة ، أو استقل به القراء فى مصر معين •

وابتداء من القرن الثانى عشر الميلادى ينتاب العالم الاسلامى عدد متلاحق من الكوارث • فتسقط مدن الشام فى أيدى الصليبيين ، وتتفرق كلمة المسلمين فى الأندلس ، ويتزايد ضغط الأسبان على أهلها ، ويتقلص نفوذ الخليفة العباسى ويغتصب الأتراك سلطانه ، ثم تهب عاصفة المغول فتسقط الخلافة (١٢٥٨ م) وتضهد الناس وتلقى بالكتب العربية فى نهر دجلة ، وتعم الفوضى أرجاء المغرب العربى • ومع ذلك لم تذهب الثقافة العربية ولا قضى على العلم الاسلامى ، فقد هاجر العلماء والأدباء من المشرق ومن المغرب على السواء والتجأوا الى مصر ، فاجتمع بها العلماء العراقيون والشاميون والأندلسيون والمغاربة ، وأصبحت القاهرة تموج بالعلماء وتزخر بحلقات الدرس ، وتفيض بالانتاج العلمى والأدبى ، وشجع السلاطين المماليك العلم وأهله ، وازدهر التراث العربى فى قطر من أقطار العروبة الى أن ينتشر منها بعد ذلك بعد أن ينحسر مد العدوان وتنجاب جحافل الظلام • وهذا كله يشير الى الوحدة الثقافية التى أصبحت من أهم دعامات الأمة العربية •

فاذا انتقلنا الى ميدان الصناعات والفنون وجدنا أن ما عرف منها جميعا ما هو الا تراث مشترك • نشأ بالتدريج من عملية تبادل ثقافى طويلة بين العرب وبين شعوب الأقطار العربية الذين نزلوا بينهم • واذا كان العرب قد أعطوا هذه الأقطار دينهم ولغتهم فقد أخذوا عنهم الصناعات والفنون المختلفة • فلم يكن العرب فى الجاهلية أصحاب صناعة وفن وان كانوا أصحاب لغة وأدب • وفى ذلك يقول ابن خلدون : « ان المبانى والمصانع فى الملة الاسلامية قليلة بالنسبة الى قدرتها والى من كان قبلها من الدول•••والسبب فى ذلك أن العرب أعرق فى البداوة وأبعد عن الصنائع •• وليس كذلك غيرهم من الأمم ، فالفرس طالت

مدتهم ...وكذلك القبط والروم .. طالت آمادهم ورسخت الصنائع فيهم فكانت مبانيهم وهياكلهم أكثر عددا وأبقى على الأيام أثرا » .

فقد شجعت الحكومة العربية أصحاب الحرف والفنون والصناعات بتلك البلاد وتركت هذه المجالات فى أيديهم لا ينازعهم فيها العرب ، على حين أخذ العرب خصوصا بعد انسياحهم فى القرى والمدن واختلاطهم بالشعب واحترافهم الأعمال اليدوية يتعلمون هذه الصناعات والفنون . وحيث نزل العرب تعلموا فنون أوطانهم الجديدة وصناعاتها ، واذ كان التنقل حرا بين أجزاء الدولة فقد انتقلت التأثيرات الفنية المختلفة من أقصى الشرق الى أقصى الغرب .

وكما لاحظنا مراحل متميزة فى انتشار الاسلام واللغة العربية ، فهناك أيضا مراحل مقابلة لتبادل الفنون والصناعات وانسجامها جميعا فى فن عربى له طابعه وله مميزاته . ففى العصر الأول تشكل الفن العربى على أنماط الفنون فى أجزاء الدولة المختلفة . ثم أخذ العرب يتعلمون هذه الحرف والفنون ويسبغون عليها روحهم وروح دينهم . ومر الفن الاسلامى نتيجة لذلك فى فترة تحول طويلة تخللها كثير من التبادل والتأثير والتأثر فالفن الفارسى والفن البيزنطى والفن المصرى ظل مسيطرا طول عصر الأمويين كل فى وطنه ، وفى العصر العباسى أخذ التبادل يحدث وبدأت عملية الانصهار . فنقل الطولونيون الى مصر الفن العراقى خصوصا فى طرز العمارة وأساليب الزخرفة . كما نقل الفن المصرى القبطى الى دمشق وبغداد كثير من الصناع الأقباط الذين طلبوا الى هناك للاشتراك فى الأعمال المعمارية والفنية . ومن أمثلة ذلك ما عمله عمر ابن عبد العزيز عندما أعاد تشييد الجامع النبوى فى المدينة فانه عهد بينائه الى عمال من الأقباط استقدمهم من مصر فبنوا فيه أول محراب مجوف فى الاسلام كما يقول المؤرخان ابن دقماق والمقريزى .

وقد تأثرت العمارة الاسلامية بالعمارة المصرية الى حد كبير وكذلك صناعة المنسوجات العربية ، واقتبس العرب فى فنهم استخدام الوحدات الهندسية والنباتية من الفن المصرى القبطى . ونفس الشيء حدث فى صناعة النجارة ، وفن تجليد الكتب وزخرفتها وصناعة المعادن والعاج . هذا على حين اقتبس العرب فى مصر التصوير من سوريا ومن العراق ، وصناعة الخزف وفنونه من العراق خصوصا الخزف ذا البريق المعدنى . وكان ظهور فن عربى

اسلامى متميز فى مصر فى العصر الفاطمى ، ثم ازدهر هذا الفن المتميز فى عصر الأيوبيين والمماليك .

ومثل هذا حدث فى ميدان الصناعات والفنون فى جميع أجزاء الوطن العربى حتى نشأ ذلك الفن العربى الواحد بخصائصه ومقوماته المعروفة .

ولا شك أن هذا الامتزاج بين العرب وأهل البلاد المفتوحة وافساح الدولة العربية صدرها لكل ما وجدت فيه خيرا من حضارة هذه البلاد ، سواء أكان فى نظام الحكم أو فى الصناعات أو فى الفنون ، أو حتى فى التقاليد والعادات ، كان سببا فى تحقيق الانسجام بين جميع أفراد الأمة حاكمين ومحكومين ، وافدين وأصليين ، اذ رأى أهل البلاد أن الحضارة العربية ليست غريبة عنهم ، وانما هى حضارتهم ، ورأوا صور أنفسهم منعكسة فى كل ميدان من ميادين هذه الحياة المشتركة .

وحدة الأهداف والآمال :

أما عن وحدة الأهداف فقد كان من الطبيعى أن تنشأ من طول المشاركة فى وطن واحد . ومن طول المعاشرة على طريقة حياة واحدة ، خصوصا بعد أن ساد الاسلام وانتشرت اللغة العربية ، وعمت الحضارة العربية بجميع مظاهرها .

ولا شك أن المشاركة بين العرب وأهل البلاد المفتوحة فى كل مجالات النشاط القومى كان له أعمق الأثر فى توحيد الأهداف وتوحيد الأمانى والآمال فلم تكن الانتصارات العربية ولا الهزائم العربية ملكا للعرب دون غيرهم من أهل البلاد المفتوحة ، ولم يكن ما تعرض له الوطن العربى من أخطار وما أحرزه من مكاسب خاصا بالعرب أو بأهل البلاد ، وانما كان كل نشاط وكل خبرة هى مقاسمة بين جميع العناصر . ومن تعدد هذه الخبرات المفرح منها والمحزن ، اللذيذ والمؤلم ، المطمئن والمزعج ، الرابح والخاسر ، وما تضمنته كلها من تعاون الجهود وتكافل العناصر والوقوف صفا واحدا فى وقت الخطر كما فى وقت اقتسام الأفياء والمغانم ، انسجمت عواطف الناس وتكونت لهم مجموعة واحدة من العقائد الوطنية والسياسات القومية ، والأهداف المشتركة.

فعند ما ساد الأتراك وتغلبوا على العرب وأقصوهم عن الجيش والمناصب فى بغداد سرعان ما انتقلوا بعدها الى الأمصار وقاسى العراقيون والسوريون والمصريون وغيرهم على السـواء من جهلهم وظلمهم وغطرستهم ورجعيتهم • وكان العربى المسلم والقبطى المصرى سواء أمـام ذلك الظلم ، فوحدت بينهم المصـائب •

وعنـد ما أغار الصليبيون على الشام ومصر لم يقصروا اعتـداءهم على المسلمين وانما تساوى المسلمون العرب والمسيحيون العرب أمام هذا الاعتداء • وعند ما اجتاح المغول الدولة العربية ، لم يفرقوا بين القرآن والانجيل ولا بين علوم المسلمين وعلوم المسيحيين بل أحرقوها جميعا ، ولم تفرق سيوفهم بـين رقبة المسلم ورقبة المسيحى أو اليهودى• وكان الجميع أمة واحدة أمام الخطر • وعندما انتصرت الجيوش العربية على الصليبيين والمغـول كانت ثمار النصر دانية قطوفها لجميع العناصر على السـواء • ولمـا نشطت التجارة بين الشرق والغرب عن طريق الوطن العربى نال رواجها جميع العناصر • وعنـدما حول البرتغاليون طريق هذه التجارة فى آخر القرن الخامس عشر عم الفقـر والكساد جميع العناصر أيضا • وعندما دهمها العثمانيون فى القـرن السادس عشر كان المصير واحدا •

والخلاصة أن هذه الأمة بجميع عناصرها اجتازت عملية تاريخية واحـدة ، ثقافيا وجغرافيا واجتماعيا واقتصاديا حتى اتحـدت أهـدافها واتحدت آمالها وأمانيها ، من طول ما وقفت بجميع عناصرها ، ثم بعنصرها الغالب أمام نفس الأعـداء ، وبجوار نفس الأصدقاء ، من أول هذه العملية التاريخية الى آخرها ومن طول ما اقتنعت بأن المبدأ واحد والمصير واحد •

وهكذا تخرج الأمة العربية من هذه المرحلة الثالثة وقـد تحقق لها ما كان ينقصها فى نهاية المرحلة الثانية من مقومات الأمة • فهى فى المرحلة السابقة كانت قـد توافرت لهـا كل العناصر الأولية لبناء أمة ، ولكن الأمـة لم تكن قـد بنيت بعد ، كان فيها دم عربى قديم ابتعد حقبا طويلة عن الصلة بالدم العربى ، وأمـدها الفتح العربى بدماء عربية جديدة تصلح لوصـل ما انقطع • وكان يسود أجزاء الوطن العربى عقائد متعددة ، فأمدها الاسـلام بعقيـدة واحدة

ستقضى على الوثنية ، وتمتزج فى يسر وتفاهم مع بقية العقـائد الكتابية ، اما بالتحول أو بالتعاون والتعايش ، ولكن هذا لم يتم بعد فى المرحلة الثـانية . وكان يسود هذا الوطن لغات متعددة ، من فارسية واغريقية وسريانية وقبطية ، فأمده الفتـح بلغة واحدة ستختفى أمامها كل هـذه اللغات . وكان الوطن العربى تتقاسمه دولتان استعماريتان كبيرتان ، فأمده الفتـح بدولة فتية ردت عنه هذا الاستعمار المزدوج ووحدته تحت ادارتها .

ومعنى هذا أن العناصر اللازمة لتكوين الأمة قد توافـرت فى المـرحلة الثانية ، وكان من نصيب هذه المرحلة الثالثة أن تكونت الأمة بالفعل ؛ فاتصل اتحـاد الوطن تحت حـكومة واحدة ، وامتزجت الدمـاء حتى تجـانست فى أمة واحـدة ؛ وعم الاسـلام فأصبح دين الغالبية ، وكان من اتساع أفقه وسمو روحه أن عايش الأديان الأخرى حيثما رفضت أقلية من أصحابها الدخول فى الدين الجديد ، وأصبحت اللغة العربية لغة قومية للجميع ، وطالت العملية التاريخية التى اجتازتها الأمة معا فاتحدت أهدافها واتفق مزاجها . وتبلورت طريقة الحياة العربية وعمت كل أرجاء الوطن وشاركت فيها جميـع العنـاصر المكونة للأمة سـواء الأقلية أو الأغلبية .

وكان لهذه المرحلة أهمية خاصـة هى أنها فرقت بين الأمة العربية وبين غيرها وفرقت بين الوطن العربى وبين غـيره . ففى المرحلة السابقة دخل تحت سلطان الدولة العربية أجزاء كثـيرة من الأرض وأنواع عـديدة من الأمم ، امتدت من حدود الهند الى المحيط الأطلسى ، ومن أرمنية الى بحـر العرب ، وشاركت كل هذه الأوطان والأمم فى الدين الاسلامى ، وفى الخضوع لحكومة واحدة . ولكن فى أثناء هذه المرحلة الثالثة تحدد الوطن العـربى وتحـددت الأمة العربية بحدودها التى نعرفها الآن . فما كادت كارثة المغول تحـدث فى القرن الثالث عشر حتى عدل الفرس عن استخدام اللغة العربيـة فى الكتـابة والتأليف واقتصروا على اللغة الفارسية وجعلوها لغة قومية لهم ، وأنشـأوا لأنفسـهم زعامة سياسية مستقلة . والأتراك لم يكونوا قد انتقلوا الى اللسان العربى فثبتوا على لسانهم ، هذا على حين ثبتت الأقطار العربية على اللسـان العربى وعلى الدين الاسلامى ، وعلى الحضارة المشتركة . وهكذا تبلور الوطن العربى وتميـز وعرف من ذلك الوقت بحدوده التى لم تتغير للآن ، وناسـه

الذين لم تتأثر عروبتهم ولا تماسكهم بالرغم مما اتفق لهم من تفكك سياسى ، وتبعية لغير العرب من الحكام •

نعم ، لقد خضع العرب فى أثناء هـذه المرحلة ابتـداء من سنة ١٥١٦ م لحكم الأتراك العثمانيين ، ومن قبلها لأنواع أخرى من الأتراك هم السلاجقة • ولم يكن يجمعهم بالعرب من عناصر الثقافة الا الدين الاسلامى • وكان العثمانيون شؤما على العرب من ناحية أخرى فوافق اعتداؤهم على الوطن العربى كشف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح وتحول التجارة عن وطنهم وفقدانهم أهم مصادر ثروتهم • فلا غرابة اذن أن تدهورت الثقافة العربية نظـرا لعجمة الأتراك وجهلهم واقتصار مداركهم على الحرب والغزو ، ونهبهم لثروة الأمة العربية من مال ورجال • ومع ذلك فقد كان للأتراك فضل واحد على الأمة العربية لم يتنبه اليه الباحثون بعد • ذلك أن الأمة العربية كانت قد ظهرت فيها مذاهب دينية ونحل مذهبية تقوم فى جملتها على الزيغ والانحراف ، من يوم دخل الفرس والموالى عموما فى الاسلام بعقائدهم السابقة التى كانت أقرب الى الفلسفة منها الى الأديان • بل ان كثيرا من تلك المذاهب والنحل قام بدافع الشعوبية التى ما فتئت تعمل للقضاء على العرب سياسيا عن طريق الفرقة وبث بذور الخلاف • ولذا نشئت فرق المعتزلة والراوندية والمقنعية والزندقة والبابكية وغيرها • وكلها حركات دينية ذات أهداف سياسية غير عربية • وانتشرت هذه الحركات فى عهد الخلفاء العرب الذين كانوا لثقتهم فى قوة دينهم وايمانهم بأهميـة حـرية الفكر يتركون لأصحاب هذه المذاهب حرية الجدل والعمل ومنهم من بلغت غفلتـه أن سخر الدولة لمساعدتها • فلما سيطر العثمانيون على الوطن العربى تعصبوا للسنة وضربوا بيد من حديد على كل هـذه الفرق فاختفت أمام قسـوتهم وتعصبهم • وبذلك أنقذ الأتراك الاسلام من الفرقة وتشتت الكلمة بين المذاهب، وهو ما قاست منه المسيحية وكان من أهم أسباب ظهور الاسلام عليها •

وهكذا الأمة العربية ، اذا كانت قد ضعفت ثقافيا فى أواخر هذه المرحلة ، فانها عوضت عن ذلك بالوحدة المذهبية فزادت تماسكا • واذا كان المؤرخون ينعون على الأتراك دائما اضعاف الثقافة العربية والفكر العربى فانه يجب أن يذكروا لهم دائما فضل القضاء على الزندقة والزيغ فى العقيدة واقرارهم للسنة ، وهذا هو فضلهم الوحيد على الأمة العربية ، ورب ضارة نافعة •

وتنتهى هذه المرحلة الثالثة ــ مرحلة التجانس العنصرى والثقافى فى العصور الاسلامية وقد أصبحت الأمة العربية أمة بالمعنى العلمى اذ توافر لها كل مقومات الأمة التى سبق عرضها فى مقدمة هذا الفصل • وبهذه الوحدة الثقافية تتحرك الأمة العربية نحو التطور على الخطوط الحديثة للمدنية ابتداء من القرن التاسع عشر عندما أخذت تقتبس المدنية الحديثة التى تقوم على العلوم الطبيعية والصناعات والنظم الديمقراطية •

٤ ــ مرحلة الاتصال بالمدنية الحديثة :

مع أن الأمة العربية قد تكونت فى المرحلة السابقة ، الا أنها لم تبق على حالها كما خرجت من هذه المرحلة ، بل تغيرت فى المدة من نهايتها فى أواخر القرن الثامن عشر الى وقتنا الحاضر • تغيرت مقومات الأمة العربية فى أثناء هذه المدة من حيث النوع والدرجة • فدخلت فى مقوماتها خصوصا الثقافية عناصر جديدة ، واتفق لها من الأهداف اتجاهات جديدة قوتها وأضافت اليها •

فابتداء من القرن السادس عشر يقع الوطن العربى تحت سيطرة الاستعمار العثمانى ، ولا يسلم منه الا مراكش (المغرب الآن) • وكان من طبيعة الأشياء أن تتخلف الثقافة العربية فى عهد السيطرة التركية • وذلك نظرا الى أن الأتراك وان كانوا مسلمين الا أنهم لم يتعلموا اللغة العربية فبقوا بعيدين عن روح الثقافة العربية ، وحتى عن روح الاسلام • ثم لأن هذا الاستعمار هبط بالعرب الى أمة تابعة فهد ذلك من معنوياتها ، وأنقص من ثروتها وصرفها عن تيار التقدم الذى لا ينشط الا فى ظلال السيادة والحرية • أضف الى هذا أن سلاطين آل عثمان ما فتئوا ينقلون العلماء ومهرة الصناع والفنانين الى قصبة ملكهم حتى أفقروا الوطن العربى من أفذاذ رجاله فى مختلف الميادين • بل نستطيع أن نقول ان من أهداف الحكومة العثمانية كان اهمال الوطن العربى وجره الى التأخر والتدهور المادى والمعنوى حتى لا يتطلع الى الاستقلال • ويكفى أن نعرف أن تلك الحكومة لم تجد بأسا من أن تضع للولايات العربية حكومات قائمة على النزاع والمنافسة والسلب واقتسام الغنيمة ، ومن ذلك سيطرة أمراء المماليك على مصر فى العهد العثمانى بكل رذائل هؤلاء الأمراء وتخلفهم الفكرى والخلقى •

لذلك لا نعجب اذا سجل التاريخ هبوطا فى مستوى المدنية العربية ، فى العصر العثمانى ، حتى زحفت العجمة على اللغة ، واختفت البحوث الفلسفية والعلمية ، وأغلق باب الاجتهاد فى الفقه ، وانعدم التأليف الا من الملخصات والمختصرات للمؤلفات التى ألفت فى العصر الذهبى السالف ، وانحط الفن الحربى وانحصر فى مجرد مهارات اللعب بالسيف والكر والفر على ظهور الخيل ، وانعزل العرب عن مجرى المدنية الانسانية فجهلوا حتى مجرد وجود أمم خطت فى مضمار المدنية خطوات فسيحة ، ولولا الأزهر الشريف لأصيبت اللغة العربية والعلوم الدينية بأضرار ولغلبت عليها اللغة التركية •

ولا شك كان لكل هذا التدهور الثقافى أثره السيىء فى تماسك الأمة العربية وحيويتها . اذ لا شك أن قوة الأمة وتركيبها يتأثران بكل ما يطرأ على العوامل المكونة لها من تغير قوة كان أو ضعفا • ولعل الجهل بهذا التخلف وعدم شعور العرب بأنهم كانوا متخلفين كان أخطر من التخلف ذاته • فاذا كان تخلف الانسان مصيبة فلا شك أن جهله بأنه متخلف أمعن فى معنى التخلف • والظاهر أن العرب فى تلك الحقبة من تاريخهم كانوا قانعين بما كانوا فيه ، واختفت الحركات الاصلاحية تماما الا من بعض أحداث المقاومة التى كان يبديها بعض العلماء للحكام الفاسدين ، كما كان الحال بين علماء الأزهر فى مصر وأمراء المماليك • أما السيطرة التركية فقد استسلم لها العرب على اعتبار أن السلطان العثمانى كان خليفة المسلمين • وربما كان من أخطر ما تعرضت له الأمة العربية فى ذلك العصر اختلاط مفهوم العروبة عندهم بمفاهيم أخرى كالخلافة وامارة المؤمنين وقبولهم الخضوع للسلطان العثمانى باسم الدين • وقنع العرب من دهرهم بأن يكونوا أدوات انتاج فى حكومات غريبة عنهم •

وكان هذا التخلف فى أحوال الأمة العربية حادثا فى بعدين : بعد حقيقى وبعد نسبى • فهو تخلف فى حد ذاته بالدرجة التى وقع بها ، وهو كان ظاهريا أكبر مما كان على حقيقته بالنسبة الى ما كانت أمم الغرب قد حققته من التقدم الحضارى فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، فان دول الغرب ما فتئت ترقى أحوالها وتنهض بحضارتها منذ اقتبس أهلها حضارة العرب فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، حتى بلغت شأوا بعيدا من التحضر فى الوقت الذى كان تخلف العرب تحت الحكم العثمانى قد جاوز الحد المعقول • ومن

هنا أتت الصـــورة الســـيئة التى كانت عليها الأمة العربية فى ذلك الوقت تحت الحكم العثمانى •

واستيقظ الشـــعب العربى فى مصر والشـــعب العربى فى بلاد الشـــام من سباتهم على مدافع نابليون بونابرت الذى قاد الحملة الفرنســـية على القطرين معا فى سنة ١٧٩٨ م • يقـــول عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ المعـــاصر انه عندما بلغت المماليك أخبار قدوم الحملة الى الاسكندرية « لم يهتموا بشيء من ذلك ولم يكترثوا به اعتمـــادا عـــلى قوتهم وزعمهم أنه اذا جاءت جميـــع الأفرنج لا يقفون فى مقابلتهم وأنهم يدوسونهم بخيـــولهم » • وهـــذا هو الجهل بعينه من جانب الحكام • أما الشعب العربى « فقد كان العلماء يجتمعون بالأزهـــر كل يوم ويقرأون البخارى وغيره من الدعوات وكذلك مشايخ فقراء الأحمدية والرفاعية والبراهمة والقادرية والسعدية وغيرهم من الطوائف وأرباب الأشاير ويعملون لهم مجالس بالأزهر ، وكذلك أطفال المكاتب ويذكرون الاسم اللطيف وغيره من الأسماء » • ولمـــا وصل الجيش الفرنسى الى انبابة : « خرجت الفقراء وأرباب الأشاير بالطبول والزمور والأعلام والكاسات وهم يضجون ويصيحون ويذكرون بأذكار مختلفة ، وصعد السيد عمر أفندى نقيب الأشراف الى القلعة فأنزل منها بيرقا كبيرا سمته العامة البيرق النبوى فنشره بين يديه من القلعـــة الى بولاق وأمامه وحوله ألوف العامة بالنبابيت والعصى يهللون ويكبرون فى الصياح ومعهم الطبول والزمور » • و « كأنهم يقاتلون ويحاربون بصـــياحهم وجلبتهم » ، ويعلق الجبرتى المؤرخ على هذا التخلف المادى والمعنوى والفكرى الذى وصفه بقوله : « ان الرسول والصحابة والمجاهدين انمـــا كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب لا برفع الأصوات والصراخ والنباح » •

لقد كانت الحملة الفرنسية على الوطن العربى من الناحية السياسية حربا استعمارية ومحاولة اعتدائية • ولكنها من الناحيـــة الفلسفية كانت صراعا بين ثقافتين وحربا بين مدنيتين • الأولى مدنية العصـــور الوسطى ممثلة فيما كان سائدا فى الأمة العربية من اقتصـــار على علوم اللغـــة والدين ، وانعـــدام فى التفكير العلمى وجهل بالعـــلوم الحديثة وانتشار الخرافات والوقوف بالفـــن الحربى عن حد السيف والرمح ، وما ساد الاقتصاد العربى من اقطـــاع وفقر ، وما خضعت له سياسة البلاد من استبداد واستغلال ، الى آخـــر تلك النتائج

التى ترتبت على حكم الأتراك للوطن العربى • أما الثانية فكانت المدنية الحديثة التى ظهر بها الفرنسيون والتى تتمثل فى العلوم الطبيعية والاختراع والصناعة وأسلحة الحرب الحديثة • ومن الناحية الفلسفية كانت الحملة الفرنسية على مصر والشام لقاء بين مدنيتين تمثل احداهما العصا ، ودواوين الشعر ، وكتب الفتاوى ، ويبارق الطرق الصوفية ، ويمثل الأخرى المدفع ، ومعامل البحث ، والمصانع ذات الآلات الحديثة والقوانين العلمية والرياضية التى تضبط الكون وتزيد سيطرة الانسان على الطبيعة •

وكانت نتيجة هذا الصراع واضحة فما هى الا جولة أو جولتان حتى انهزمت ثقافة الأتراك فى الوطن العربى وانتصرت المدنية الحديثة • وبعد ثلاث سنوات انتهت كل آثار الحملة الفرنسية من الناحية الحربية اذ طرد الفرنسيون من البلاد • ولكن أثرها الفسلفى والاجتماعى والحضارى بقى ، بل انها كانت نقطة تحول فى الأمة العربية وفى تكوين حضارتها • فقد تبين العرب تخلفهم تحت الحكم التركى ، وعرفوا أن وسيلة العيش فى العصر الحديث هى المدنية الحديثة ، وأيقنوا أنه لا حياة للأمة العربية الا باقتباس الحضارة الحديثة ومسايرة ركب التقدم ونفض غبار الرجعية والركود الذى نشره الأتراك على الوطن العربى • وقد تبين العرب هذه النتائج من انتصار الفرنسيين وفرار المماليك ، ثم مما رأوه من معاملهم ومخابرهم وورشهم ومطابعهم ومكتباتهم وما شاهدوه من تجاربهم العلمية ، فقد صاحب الجيش الفرنسى نحو من مائة وثلاثين من خيرة علماء فرنسا فى ذلك الوقت وكونوا المجمع العلمى • يقول الجبرتى فى وصف ما رأى من ذلك :

« وعند توت الفلكى (يقصد نوى Nouet رئيس شعبة الفلك فى المجمع العلمى) وتلاميذه فى مكانهم المختص بهم الآلات الفلكية الغربية المتقنة الصنعة وآلات الارتفاعات البديعة العجيبة التركيب الغالية الثمن المصنوعة من الصفر المموه (يقصد النحاس الأصفر) ، وهى تركب ببراريم مصنوعة محكمة • كل آلة منها عدة قطع تركب مع بعضها برباطات وبراريم لطيفة بحيث اذا ركبت صارت آلة كبيرة ، وبها نظارات وثقوب ينفذ النظر منها الى المرئى • وكذلك نظارات للنظر فى الكواكب وأرصادها ومعرفة مقاديرها وأجرامها وارتفاعاتها واتصالاتها ومناظراتها • • • ويأخذون الحيوان أو الحوت

الغريب الذى لا يوجد ببلادهم فيضعون جسمه بذاته فى ماء مصنوع حافظ للجسم فيبقى على حالته وهيئته لا يتغير ولا يبلى ولو بقى زمنا طويلا . . . ووضع الحكيم رويا (لعله يقصد روزيير Roziere الجيولوجى) آلاته ومساحقه وأهوانه فى ناحية ، وركب له تنانير وكوانين لتقطير المياه والأدهان واستخراج الأملاح ، وفوق الرفوف القدور المملوءة بالتراكيب والمعاجين والزجاجات المتنوعة . . . وأفردوا مكانا فى بيت حسن كاشف جركس (مكان المدرسة السنية الثانوية الآن ، بالسيدة زينب) لصناعة الحكمة والطب الكيماوى (الصيدلة) . وبنوا فيه تنانير مهندمة وآلات تقطير عجيبة الوضع وآلات تصاعيد الأرواح وتقاطير المياه وخلاصات المفردات وأملاح الأرمدة المستخرجة من الأعشاب والنباتات واستخراج المياه الجلاءة والحلالة (يقصد الأحماض) وحول المكان قوارير وأوان من الزجاج البلورى المختلف الأشكال والهيئات على الرفوف وبداخلها أنواع المستخرجات . . . » .

ويواصل الجبرتى وصفه لأجهزة العلوم الطبيعية وتجاربها فيقول فى معمل الكيمياء :

« ومن أغرب ما رأيته فى ذلك المكان (يقصد المجمع العلمى بمنزل حسن كاشف) أن بعض المتقيدين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة فصب منها شيئا فى كأس ثم صب عليها شيئا من زجاجة أخرى فعلا الماء وصعد منه دخان ملون حتى انقطع وجف ما فى الكأس وصار حجرا أصفر ، فقلبه حجرا يابسا أخذناه بأيدينا ونظرناه . ثم فعل كذلك بمياه أخرى فجمد حجرا أزرق . وبأخرى فجمد حجرا أحمر ياقوتيا . وأخذ مرة شيئا قليلا جدا من غبار أبيض ووضعه على السندال وضربه بالمطرقة بلطف فخرج له صوت هائل كصوت القربانة انزعجنا منه فضحكوا منا . . وغير ذلك أمور كثيرة وبراهين حكيمة تتولد من اجتماع العناصر وملاقاة الطبائع » .

ثم يدخل الجبرتى معمل الطبيعة فيصف ما رآه فيه قائلا :

« ومن ذلك الفلكة المستديرة التى يديرون بها الزجاجة فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقاة أدنى شىء كثيف ويظهر له صوت وطقطقة . . وإذا مسك علاقتها شخص ولو خيطا لطيفا متصلا بها ، ولمس آخر الزجاجة الدائرة

أو ما قرب منهـا بيده الأخرى ، ارتج بدنه وارتعد جسمه ، وطقطقت عظـام أكتافه وسواعده فى الحال برجة سريعـة ، ومن لمس هذا اللامس أو شيئا من ثيابه أو شيئا متصلا به حصل له ذلك ولو كانوا ألفـا أو أكثر . ولهم فيه (أى فى تجارب علم الطبيعة) أمـور وأحـوال وتراكيب غريبة ينتج منهـا نتائج لا يسعها عقول أمثالنا » .

وتستطيع أن تلمس مشـاعر العجب الذى وقع فيـه المصريون أمام هذه العلوم الجديدة عليهم بعـد أن أنساهم اياها الأتراك فى أثناء حكمهم ، حتى أصبحت العلوم الطبيعية غريبة فى وطنها العربى ، مغلقة على أحفاد الفخر الرازى وجابر بن حيان والحسن بن الهيثم . وتستطيع أن تتصـور التأمل الذى وقـع فيه هؤلاء الناس وهم يقفون فى المجمع العلمى الذى كان يشغل أربعـة قصور كبيرة (كانت قائمة مكان المدرسة السنية الآن وما حولها من المبانى) . واذا كان هذا هو مبلغ عجب الشيخ عبد الرحمن الجبرتى الذى لا بد وأنه كان قد رأى كثيرا من الأجهزة الفلكية والكتب العلمية والرياضـية فى منزله ، اذ كان أبوه الشيخ حسن الجبرتى أكبر عالم فى الرياضيات والفلك فى عصره ، فـكم يكون عجب غيره من المشايخ والقادة المصريين ممن لم يروا الا كتب الفقـه والأوراد ودواوين الشعر ومجموعات النوادر ، وكتب البخت والطوالع .

كانت الفكرة التى توصل اليهـا العرب فى ذلك الوقت من آخـر القـرن الثـامن عشر هى أنه لا بـد من اقتباس المدنية الحـديثة بعلومها ومعارفهـا واختراعاتها ، وينسب المؤرخون هـذا الاتجاه عادة الى محمد على باشا الذى ولى مصر فى ذلك الوقت . والصـواب أنها فكرة زعماء العرب من المصريين . فلم يكن محمد على باشا قـد وصل مصر بعد عندما زار الجبرتى المجمع العلمى وعجب لما فيه ووصفه بما تقدم . ولـم يكن محمد على باشا قد وصل الى مصر بعد عند ما قال الشيخ حسن العطار شيخ الأزهر : « أن بلادنا لا بـد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها » . وعلى ذلك فان فكرة تجـديد الثقافة والسير فى موكب المدنية الحديثة هى فـكرة العـرب أنفسهم بعـد أن اطلعوا على اتجاه التاريخ ، وبعد ما تبينوا أنه لا معدى لهم عن ذلك اذا أرادوا أن يواجهـوا التحدى الذى فاجأهم به الاستعمار الغربى ، خصـوصا وأنهـم

رأوا الأسطول الانجليزى يرابط على السواحل العربية بمصر والشام بعد خروج الفرنسيين ، متربصا الفرص للنزول بالبلاد .

ويظهر أن هذا الاتجاه الثقافى لم يقتصر على طبقة العلماء والمستنيرين من أمثال الشيخين الجبرتى والعطار ، بل كان عاما بين أفراد الشعب . فالجبرتى يروى أن عامة الشعب كانوا يزورون المجمع العلمى ويطوفون به ويقفون على ما فيه .

يقول الجبرتى : « واذا حضر اليهم (أى الى العلماء الفرنسيين) بعض العرب ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول الى أعز أماكنهم ، ويتلقونه بالبشاشة والضحك واظهار السرور بمجيئه اليهم ، وخصوصا اذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعا للنظر فى المعارف ، بذلوا مودتهم ومحبتهم ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير ، وكرات البلاد والأقاليم (يقصد خرائط الكرة الأرضية) ، والحيوانات والطيور والنباتات وتواريخ القدماء وسير الأمم ... مما يحير الأفكار » . وعبارة « مما يحير الأفكار » فى كلام الجبرتى المؤرخ لها دلالة كبيرة فلا بد وأن « حيرة الأفكار » دفعت هؤلاء الناس من عامة الشعب الى التفكير فى حالتهم ومستوى ثقافتهم والمقارنة بينها وبين ما رأوه فى المجمع العلمى الفرنسى . ولذلك فهناك أساس قوى لمذهبنا فى أن تجديد الثقافة والأخذ بأسباب المدنية الحديثة كان اتجاها قوميا عاما فى أثناء الحملة الفرنسية على مصر والشام (١٧٩٨ ــ ١٨٠١ م) وما بعدها .

وقد قوى هذا الاتجاه أن المستنيرين من العرب من أمثال الشيخ رفاعة رافع والشيخ حسن العطار والشيخ الجبرتى وغيرهم كانوا يعرفون أن هذه العلوم الطبيعية والصناعات هى فى الأصل علوم عربية . وأن اقتباسها ليس الا استعادة العرب لشىء أسهموا فى عمله وشاركوا فى امتلاكه . ولذلك يقول الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى فى معرض الدفاع عن العلوم الطبيعية : « خصوصا وأن هذه العلوم علومنا أخذها الغربيون عنا » وهكذا فصل الى مفهوم آخر وهو أنه اذا كان العرب قد أخذوا يتعلمون علوم الغرب ، فان ذلك لم يكن بدءا لشىء جديد ، ولكن كان استعادة لعلوم عربية وثقافة عربية كان قد تعلمها الغربيون عن العرب ، ثم أتى الأتراك فقضوا عليها لجهلهم بها وخوفا منها .

بدأت مصر حـركة تجـديد المدنية العربية فى أوائـل القرن التاسـع عشر ، التقى على هـذه السياسة المحكومون والحـاكم • أما المحكومون فقد رأينا اتجاههم الفكرى نحو التجديد فيما سبق• أما الحاكم فقد كان محمد على باشا• أراد أن يستخلص مصر لنفسـه ولأسرته ، من السلطان ، ومن المماليك ، ومن الانجليز المتربصين حـول الشواطىء ، ومن أهل البلاد المصريين أيضا • ووجد أن الوسيلة الى ذلك اقتباس أسلحة الغرب واقامة جيش حديث بكل ما يحتاج اليه الجيش من العلوم الطبية والكيماوية والصـناعات • وهكـذا كانت الرغبة فى تحقيق القوة المـادية دافعا لمحمد على نحـو الأخذ بالمدنية العلمية الحديثة •

وسارت مصر الى آخر مـدى فى ذلك الاتجـاه • فاسـتقدمت العلمـاء الفرنسيين وغيرهم ، من أمثال كلـوت بك والدكتـور بيرون ، وسـيجيرا ، والكولو نيل سـيف • وفتحت المدارس الحـديثة كمدرسة الطب ، ومدرسـة المهندسـخانة ، والمدارس الحربية ، ومدرسة الزراعة ، ومدرسة الطب البيطرى • وأرسلت البعوث الى أوربا تلو البعوث وعـاد أعضاؤها الذين نقلوا العـلوم الحديثة الى اللغة العربية وأصـلوا المدنية الحديثة فى البـلاد ، من أمثال رفاعة رافع الطهطاوى أمام حـركة الترجمة ، ومحمد بيومى الرياضى ، ومحمد ندا الزراعى ، ومـحمد على البقلى وابـراهيم النبراوى الطبيبين ، وعلى مبـارك المهنـدس المربى ومئات غير هؤلاء • وأنشـئت مطبعـة بولاق ونشرت مئـات الكتب المترجمة فى الصـناعة والعلوم الحديثة ، بل كان فى كل مدرسة مطبـعة تطبع الكتب المترجمة ، وكان كل معلم مترجما ومؤلفـا ، وأجزلت الدولة العطاء للمترجمين والمؤلفين ورواد الفكر • حتى لقد نال الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى ثلاثمائة فدان عن ترجمة كتاب فى الجغرافيا ، ومات عن ثمانمائة فدان من أجود الأراضى نالها بجدارة لقاء ما ترجم وما ألف من الكتب ، وما نشر من أسـباب الفـكر الحديث •

ومع سبق مصر فى هـذا المضمار فقد كان فى لبنان شيء من هـذا الاتجاه بسبب نشـاط الآباء المرسلين والمبشرين فيهـا • كما أن هذه الحـركة الفكرية الحديثة بمصر أسـهم فيها كثير من عـرب الشـام اذ كان منهم أول المترجمين للكتب العلمية مثل أوغسطين سكاكينى ويـوحنا عنحورى وغيرهمـا كثيرون •

واتصل تجديد الثقافة وتعلم العلوم الحديثة وترجمتها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر • وزاد فيه أن التجديد والاقتباس تجاوز الجانب المادى والعلمى من المدنية الحديثة الى جانبها السياسى والخلقى • ففى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، كان سفه اسماعيل وسوء سياسته واستبداده قد أوقعت البلاد فى قبضة الأجنبى الدخيل • فبدأ التدخل الأجنبى السياسى والمالى فى شئون مصر • وأرجع المفكرون المصريون هذه الكارثة الى استبداد الخديوى وانفراده بتصريف الأمور • ومن هنا اتجهت الأنظار الى وجوب ايجاد نوع من الحكم الديمقراطى تحديدا لسلطة الحاكم المستبد • وطالب زعماء الشعب بايجاد مجلس نيابى ، ومن ثم بدأت الحركة الدستورية • وقواها أيضا أن المصلحين وجدوا الصلة بينها وبين تقاليدنا العربية فى الحكم • وقد ظهر هذا فى الوثائق المتصلة بالاصلاحات الدستورية الأولى ففيها اشارات كثيرة الى قواعد الشورى فى الاسلام •

هل كان هذا الاتجاه مضادا للثقافة التى اجتمعت حولها الأمة العربية ، وكانت من عوامل تماسكها وبنائها كأمة واحدة متميزة ؟ يرى السطحيون من المفكرين والمؤرخين أن الأمر كان هكذا بمعنى أن اقتباس المدنية الغربية أضعف الثقافة العربية الأصيلة وأوجد اتجاهات جديدة أبعدت المسافة بين أجيال الأمة العربية • ولكن واقع الأمر كان غير ذلك تماما ، ذلك أن العلوم الطبيعية والنظم الديمقراطية وهما أهم ما أخذناه من الغرب فى العصر الحديث ، ليست اطلاقا غريبة عن ثقافتنا العربية الأصيلة التى تجمعت حولها الأمة العربية • فقد اشتغل العرب بهذه العلوم ولهم فيها ابتكارات ولهم عليها فضل ستقرأه فى فصل تال • وكانت الديمقراطية أو الشورى بالاصلاح العربى جزءا لا يتجزأ من نظم الحكم عند العرب • وانما كان ضعف الشورى وتأخر العلوم حالة مرضية أصابت العرب فى وقت التأخر بفعل الاستعمار التركى • فأخذ العلوم الحديثة والنظم الديمقراطية فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، لم يكن خروجا عن الثقافة العربية يضعف الأمة العربية ، معنويا على الأقل ، بل كان رجوعا الى تلك الثقافة فى أقوى صورها • ولا يؤثر من أين أتى مصدر الأخذ أن كان من كتبنا القديمة ، أو من كتب الغرب التى تضمنت

خير مـا فى الكتب العربية مضافا اليها تجديدات هى من تـراث الانسانية العامة التى نحن العـرب جزء منهـا .

على أن المشكلة فى تعـارض الثقافة العربية والثقافة الجـديدة لم تكن فى الحقيقة فى الثقافتين بقـدر ما كانت فى عقـول المجددين من العرب أنفسـهم . فعندما بدأت حركة أخذ المدنية الحـديثة فى القـرن التاسع عشر ، كان يهيمن على الحركة محمد على فبدأ هذه المعارضة بين الثقافتين لجهـله بالثقافة العربية ، بل وباللغة العربية نفسها . فأخذ المدنية الحديثة كحركة قائمة بذاتهـا وأهمـل ثقافتنا القديمة ، حتى أنه اسـتولى على أوقاف الأزهـر وعاق الحركة العلمية فيه بسبب هـذا الاستيلاء . وفى النصف الثانى من القـرن التاسع عشر ذهب الخديوى اسماعيل نفس المـذهب فقال أنه يريد أن يجعل مصر قطعة من أوربا ، وبذلك أكد هذا التعارض ، ولـم يكن من طبيعة عقليته أن يفهم أن العـرب يستطيعون أن يسايروا ركب المـدنية الحديثة ، ومع ذلك يكونون أكثر عروبة ممـا كانوا .

على أن زعماء الاصـلاح من العرب أنفسهم تنبهوا الى هذا الخطأ فأخذوا يقربون بين الثقافتين من الناحيـة الفـكرية فى الوقت الـذى أمعنوا فيه فى المطالبة بالأخـذ بأسباب التجديد ، فالشيخ محمد عبده (١٨٤٩ — ١٩٠٥ م) . وهـو امام المجددين العرب نادى بوجوب تخليص الثقافة الاسـلامية العربية مما علق بهـا من البدع والخرافة والتخلف على يد الأتراك ، ثم الأخذ بأسباب العلوم الحديثة . وصرف همـه الى اثبات أنه لا تعارض بين الاسلام فى صورته النقية وبين العلم الحديث .

يقول الشيخ محمد عبده :

« أننا لا نجد سـببا لرقيهم (الأوربيين) فى الثروة والقـوة ، الا ارتقـاء المعارف والعلوم فيما بينهم ... فأول واجب علينا هو السعى بكل جهد واجتهاد فى نشر هـذه العلوم فى أوطاننا » .

ويقول : « أن المسـلمين اذا تهذبت أخـلاقهم بالدين سابقوا الأوربيين فى اكتساب العلوم وتحصيل المعارف ولحقوا بهم فى التمدن » .

ويقـول :

« انه ينبغى مباراتهم فى هذا العصر ، بعمل المـدافع والبنادق ، والسـفن البحرية والبرية والهوائية ، وغير ذلك من الفنون والعـدد العسكرية ، ويتوقف ذلك كله على البراعة فى العلوم الرياضية والطبيعية ، فهى واجبـة على المسلمين فى هذا العصر لأن الواجب من الاستعداد العسكرى لا يتم الا بها » .

ويقابل الشيخ محمد عبـده فى مصر الوزير خـير الدين باشا فى تونس . فقد ألف كتابه « أقوم المسالك فى معرفة أحـوال الممالك » فى سنة ١٨٦٧ م ، وكتب له مقدمة تقع فى حوالى مائة صفحة لعـله أراد أن يقلد بهـا مواطنه ابن خلدون عندما كتب مقدمته المشـهورة بين يدى تاريخه . والمقدمة كلها حـض للعرب على الأخـذ بأسباب العلوم الطبيعية الحـديثة والنظـم الديمقراطية ، واثبات أن كلا منهما لا يعارض الدين الاسـلامى ولا الثقافة العربية الأصيلة وانما هما من صميمها .

يقول خير الدين باشا فى مقدمته السابقة :

« وانما بلغوا (الأوربيون) تلك الغايات والتقـدم فى العلوم والصـناعات بالتنظيمات المؤسـسـة على العـدل السياسى وتسهيل طرق الثروة واستخراج كنـوز الأرض ... ومـلاك ذلك كله الأمن والعـدل اللذان صارا طبيعة فى بلدانهـم » .

ويقـول :

« وقد كانت الأمة الاسلامية وقت احترامهـا للأصـول الشرعية بالمـكانة التامة من الثروة والشـوكة المحروستين بسـياج حسن تدبير أمرائها وعدلهم واستجلابهم رضـاء الله تعالى بتعمير أرضـه . نقل صاحب كشف الظنون أن بعض العلماء قال لو علم عباد الله رضاء الله فى احيـاء أرضـه لم يبق على وجه الأرض موضـع خراب » .

وهكذا يربط خير الدين دائما بين العـدل الذى يجعل الشـورى أساسه وبين التقدم المـادى والعمرانى . ويدعم الاتجاهين بالثقـافة العربية الأصيلة ويؤكد أن العلوم الحديثة والديمقراطية الأوربيـة أشـياء اقتبسها الأوربيون

من العــرب ومن ثم فلا تعــارض اطلاقا فى اقتباسها منهم وينقــل خــير الدين فى هذا المعنى ما قاله المؤرخون الفرنســيون من أمثال ســوليو الذى يقول فيما ترجمــه عنه خير الدين : « ان العرب كانوا فى القــرون المتوســطة مختصين بالعلوم من بين ســائر الأمم وانقشعت بسببهم ســحائب البربرية التى امتدت على أوربا ••• ولقــد ثبت عندنا (عنــد المؤرخ الفرنسى الــذى ينقــل عنه خير الدين) بمــا صنعه العــرب واخترعوه رجحــان عقولهم الغريب فى ذلك الوقت ••• وهــذا حجة على أنهم (أى العــرب) ــ كمــا قال غيرنا ونــحن (الأوربيين) نعترف به ــ أساتذتنا ومعلمونا » •

على أن حــكمة هــذين المصلحين العربيين قــد ضــاعت بين المحــافظين والمتطرفين من المجددين العــرب فى العصر التالى لهمــا • ومن أمثلة المحافظين الشيخ رشيد رضــا الذى اتجه نحــو التجديد ولــكن لا عن طــريق اقتباس المدنية الغربية بل عن طــريق الرجــوع الى الثقافة العربية الاسلامية وتخليصها مما علق بهــا من عوامل التخلف • وكان يقول أن الاســلام فيه الحــل الوحيد الكافى لكل تجديد فى ميادين الاجتمــاع والسياسة فى العصر الحديث ولا حاجة بنــا الى غيره •

أما المتطرفون من المجددين فمن أمثلتهــم كتاب الســياسة الأســبوعية فى العقدين الثالث والرابع من هذا القــرن ، وقد اندفعوا فى اقتباس الغرب بــل تقليده لدرجة أنهم قللوا من شــأن الثقافة العــربية وانصرفوا عنها بل وتحيفوا مقدساتهــا أحيانا • ومن أمثلة ذلك كتاب « مســتقبل الثقافة فى مصر » تأليف الدكتور طه حسين وقــد ذهب فيه الى أننا أقرب الى المدنية اليونانية والمدنيــة الغربية منا الى المــدنية العربية • وأننــا ننتمى الى جنــوب أوربا لا الى بحــر المشرق •

وأغلب الظن أنهــم لم يكونوا جادين فيمــا ذهبوا اليه وانما كانوا طلاب شهرة ، بدليل أنهم جميعا ثابوا الى عروبتهــم فى مســتقبل أيامهم وكفروا عمــا أسلفوا بكتب ومقالات وضعتنا فى موضعنا الصحيح من الثقافة العربية •

وعلى كل حال فان كلا من المحافظين والمتطرفين قد أظــهروا المدنية الغــربية على أنها معارضة للثقافة العــربية ، وساعدوا على اقتناع الناس بأنه كان علينــا

أن نختار بين المدنية الغربية أو الثقافة العربية ، وهو فهم خاطىء كما سبق القول .

والمهم هو أن الأمة العربية أخذت منذ القرن التاسع عشر تسير فى ركب المدنية الحديثة ، وتساير التطور الحضارى الحديث . ومع ذلك فقد اختلفت الشعوب العربية فى حظها من هذا الاتجاه . فقد كانت مصر أسبق الأقطار العربية ، بل أن أهلها ساروا شوطا كبيرا فى التجديد على حين كانت المذاهب المحافظة أو المعادية للتجديد تسيطر على كثير من أقطار الشرق العربى الأخرى ، كالحركة الوهابية فى جزيرة العرب ، والحركة السنوسية فى المغرب .

على أن أفكار الشيخ محمد عبده قد انتشرت فى جميع أنحاء الوطن العربى وكان موضع اعجاب الجميع حتى راسلته دعاة التجديد والمصلحون من كل قطر عربى . فقد راسل مولاى عبد الحفيظ سلطان مراكش ، والشيخ ابراهيم اليازجى من علماء الشام ، ومولاى ادريس بن عبد الهادى قاضى فاس بالمغرب ، وراسل كثيرين من علماء دمشق وحلب ، فضلا عن علماء الهند والدولة العثمانية . وقدم الى مصر ناس كثيرون من أنحاء الوطن العربى ليتصلوا به ويحضروا دروسه ويتتلمذوا عليه ، ومن أمثلة هؤلاء الشيخ رشيد رضا . فقد قدم من الشام ليسمع منه وبقى بها وكان من أئمة الاصلاح .

كما انتشرت أفكار خير الدين باشا حتى بلغ صيته الهند والآستانة .

ويظهر أن مقومات المدنية الحديثة التى بدأنا فى اقتباسها فى أول القرن التاسع عشر كانت حركة عامة فى كل البلاد العربية فى أوائل القرن العشرين وكانت قد أصبحت جزءا لا يتجزأ من ثقافة الأمة العربية . ومن أدلة ذلك أن السلطان عبد الحميد عندما أراد أن يستجلب ود العرب وتأييدهم له استدعى خير الدين باشا فيلسوف التجديد فى تونس ومؤلف المقدمة التى سبقت الاشارة اليها وعينه صدرا أعظم بالآستانة ، مما يدل على أن موقفه فى التجديد وهو شبيه بموقف الشيخ محمد عبده كان يمثل رأى غالبية العرب .

وتأثرت العادات والتقاليد والفنون والقيم بحركة الاقتباس من الغرب . فتغيرت أزياء العرب فى كثير من طبقات مجتمعاتهم ، وعادات أكلهم ، ومعيشتهم وهندسة العمارة عندهم ، وتطورت نظرتهم الى الأشياء كمركز المرأة ومكانتها فى المجتمع ، ودخلت وسائل المواصلات الحديثة كالسكك الحديدية والترام الكهربائى والسيارات والطائرات ، وأدى هذا كله الى مزيد من تطور الثقافة العربية ، ومزيد من الاتصال بين العرب . ومع ذلك فهناك فروق فى درجة هذا كله بين الشعوب المختلفة ، وبين طبقات المجتمع العربى فى كل مكان .

والخلاصة أنه طرأ فى هذه المرحلة من تكوين الأمة العربية تطور كبير فى الثقافة العربية ، فزادت العناصر الثقافية التى تجمعوا حولها ، وزادت وسائل الاتصال بينهم ، وكان للمناقشات والجدل الذى دار بين القديم والجديد أثر فى زيادة التفاهم وزيادة الاندماج . ومهما كان الأمر فان تغير لون الثقافة التى تجمع الأمة العربية أمر يستحق التسجيل ما دامت الثقافة من أهم العوامل المميزة للأمة .

وتأثرت وحدة الهدف بين العرب فى هذه المرحلة أيضا . ففى هذه المرحلة منذ أوائل القرن التاسع عشر ، تعرض الوطن العربى للاستعمار الأوربى . وأخذ كل قطر عربى ينسلخ من الامبراطورية العثمانية بفعل اعتداء أوربى عليه ينضم بعده الى دائرة نفوذ دولة أوربية مع اختلاف فى التسمية ؛ فمن احتلال الى حماية الى انتداب الى استعمار . والمعنى واحد وان اختلف الوضع القانونى . . وكان لهذا العامل الجديد أثر كبير فى تماسك الأمة العربية . فقد وجد هدف جديد جمع بينهم وهو مقاومة الاستعمار الغربى ثم تصفيته . وهكذا يصل وحدة الهدف مدد جديد من القوة .

وفى هذه المرحلة أيضا يقع حادث جديد على أكبر جانب من الأهمية فى تاريخ تكوين الأمة العربية ، وهو قيام ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ بمصر ، وأهمية هذه الثورة من زاوية نظر تكوين الأمة العربية أنها بلورت فلسفة وحدة هذه الأمة وأضافت قوة كبيرة الى قوتها .

فالثورة أولا أحيت فى العرب الاحساس بقوميتهم ، ومعروف أن القومية العربية هى من أهم أركان فلسفة الثورة ، وبذلك قضت الثورة على كل آثار الاستعمار التركى والاستعمار الغربى من اضعاف هذه القومية فى احساس العرب أفرادا وجماعات • وغير خاف أن الاستعمار بنوعيه قد عمل على طمس معالم القومية العربية حتى بهتت صورتها فى عقول العرب • وغير خاف أيضا الى أى حد أصبحت القومية العربية مناط هذه الأمة نتيجة لجهود الثورة •

والثورة ثانيا أحيت فكرة الوحدة العربية • فقد عمل الاستعمار على اقناع العرب بأنهم أمم لا أمة واحدة ، وأوطان لا وطن واحد ، وأن المصالح الوهمية التى أقامها بينهم وبين الاستعمار أقوى من رابطة الدم الذى يجمع بينهم • وأتت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ فبددت كل هذه الشبهات واقتنع العرب جميعا أنهم أمة واحدة تسكن وطنا واحدا وأن ما يقتضيه ذلك من التضحيات هو ألزم وأكرم من كل المصالح التى تربطهم بالاستعمار ومن كل المنافع التى تأتى لهم من ناحيته •

والثورة ثالثا أوجدت نظرية ثقافية جديدة قضت بها على الخلافات التى نشأت حول المحافظة والتجديد فى ميدان الثقافة • فقد سبق أن بينا أن علة حركة التطور والتجديد العربية أنها حدثت فى غير اطار الثقافة العربية ، واتخذت شكل اقتباس من الغرب كان أحيانا هادما لكثير من القيم العربية • ولذلك كان التجديد من عوامل الانقسام والتفكك • وأتت الثورة العربية بنظرية ثقافية جديدة وصحيحة وهى أننا نستطيع أن نسير فى التطور الى أبعد مدى وأن نلاحق أكثر الأمم تقدما ولكن فى اطار قيمنا ومثلنا العربية الصميمة • فنحن نستطيع أن نجدد حياتنا دون أن نخرج من جلدنا أو نغير من طبيعتنا ، ودون أن نخرج من اطار العروبة لنقترب من أى حياة أجنبية • فنحن نستطيع أن نتجدد وأن نتطور ومع ذلك نكون أكثر عروبة مما كنا • فنحن نطور ثقافتنا ونسير بها الى الأمام فنحييها ونقويها بهذا التطوير ، لا نهملها لنأخذ بثقافة غيرها • ومن هنا زال التناقض من ميدان الثقافة العربية •

والثورة رابعا أمدت الأمة العربيـــة بأيديولوجية عربية صميمة ولكنها مع ذلك تقدميـــة الى أبعـــد الحـــدود • تـــلك هى الأيديولوجيـــة الاشـــتراكية والديمقراطية • فنحن الآن لا نقتبس النظم الســياسية والاقتصادية الأجنبيـــة ولكنـــا نبدأ من قيمنـــا الثقافيـــة فننتقى أحســـن ما فيها ونكفيهـــا فى ضـــوء مشـــكلاتنا وظروفنا • وفى هذا الاطار الثقافى العربى نستطيع أن نســتفيد من خبرات جميع الأمم والعصـــور بلا استثناء طالمـــا أننا نأخذ منهـــا وندع على قدر حاجتنا وبهدى من قيمنا الأصـــيلة •

والثورة خامســـا قد أمدت الأمة العربيـــة بطريقـــة تفكير مفيـــدة • هى طريقة التفكير العلمى • ففترة القـــرن ونصف القرن الأخـــيرة قد وزعتنـــا بين طريقتين خاطئتين من طرق التفكير • فجماعة اصطنعوا دجماطيقيـــة التفـــكير فجعلوا من أنفســـهم عبيـــدا للماضى وحرموا أنفسهم من مزايا الذكاء وحقـــه فى العمـــل وأثره فى حل المشـــكلات • وجمـــاعة حـــرروا الفكر من كل قيـــد وانســـاقوا مدفوعين بمركب النقص الى اقتبـــاس كل ما هو غربى وكل ما هو أجنبى حتى ولو أخرجهم من قوميتهم • وبين أولئـــك وهؤلاء انعـــدم كل معيار للتفكير السليم وكل أساس صحيح لعملية التطور • وأتت ثـــورة ٢٣ يوليـــه سنة ١٩٥٢ فردت العقـــل الى طريق العلم • فهى تبدأ من مشـــكلات النـــاس الحاضرة وتســـتخدم فى حلها كل المصـــادر وتجعل معيارها أمرين : قدرة الفكر على حل المشكلة وازالة المتناقضات ورفع مســـتوى الحياة ، ووقوعها فى اطـــار الثقافة العربيـــة الأصيلة • وبذلك لم يعـــد الأمر أمر محافظة وتجديد ولكن أمر حل مشـــكلات فى اطـــار ثقـــافة وقيم •

وبثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ وتجربتهـــا فى الخمس عشرة ســـنة الماضـــية نصل الى أحدث طور من أطـــوار تكوين الأمة العربيـــة ، وهو طور التماســـك المادى والمعنوى ، عن طريق وحـــدة الثقافة المتطـــورة على أسس من العـــلم والطريقة العلميـــة فى التفكير • ثم عن طريق الوعى القـــومى بعروبة الأمـــة العربية ووحدتهـــا • ثم عن طريق اجمـــاع الأمة من الخليج الى المحيط عـــلى أهـــداف واحدة واضحة لا تقبل الترخص ولا المساومة •

وفى ضوء فلسفة ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ وتجربتها نستطيع أن نجد التطبيق الكامل لكل مقومات المفهوم العلمى للأمة فى أمتنا العربية . فالطبيعة أوجدت لها وطنا ، والتاريخ وحد عنصرها وصهره وأوجد لها ثقافة تجتمع عليها ، ووحد بين أهدافها . وثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ أزالت ما كان لا بد منه من متناقضات الزمن ، وقضت على ما كان لا بد منه من انحراف المفاهيم وأمدتها بأهداف جديدة وتطلعات منعشة وآمال مشجعة ، وخطة عمل موصلة .

ويكفى دليلا على قوة هذه الأمة العربية أن لها طريقة حياة ومثلا وقيما تتفق فيها جميع عناصر الأمة من مسلمين ومسيحيين ، لا تستطيع أن تفرق بينهم بأى شيء مما يستعلن من مظهر الفرد وسلوكه . وأن المبشرين نجحوا فى كل مكان الا الوطن العربى فطالت اقامتهم فيه وكثر نشاطهم ولم يستطيعوا أن يفتنوا أحدا فيه عن دينه واعترفوا فى مؤتمراتهم وتقاريرهم بالعجز أمام عروبة العربى . وأن الاستعمار نجح فى كل مكان فى تفريق العناصر المختلفة المكونة للأمم الا فى الأمة العربية فلم يستطع أن يفتن أحدا عن وطنيته . وأن الاستعمار بكل ما يدفع من مال وما يبذل من وعود وما يختلق من مصالح ، وما يستخدم من أسلحة العلم والقوة والذهب لا يسمع من أى عربى فى أى مكان من الوطن العربى الا كلمة « أخرج » ، وأن الشعوب العربية الآن قد اجتمعت على شيء واحد هو « الوحدة » .

الفصل الثانى

وطن الأمة العربية

خصائص الوطن العربى

الوطن العربى يكون وحــدة متميزة ، من حيث الموقع ، ومن حيث التكوين ، ومن حيث المنــاخ ، ومن حيث الغلات ، ومن حيث الاقتصــاد . فهو اقليم واحد متميز من حيث الخصــائص الجغرافية ، يمتــد من الخليج العــربى الى المحيط الأطلسى .

ولعل من أهم خصــائص الوطن أن تكون أجزاؤه وحــدة واحدة متميزة تستطيع الاستقلال بنفسها الى حد كبير . متميزة عن الأجزاء المحيطة بها ، ومتكاملة بين نفسها بحيث تستطيع النهوض كوحدة مستقلة . والوطن العربى هكذا ، فهو متميز متــكامل فى نفس الوقت .

ولا يدخل فى مفهوم وحــدة الوطن أن تكون كل أجزائه متشــابهة أو أن يســوده نوع واحد من السطح ، ونوع واحد من المناخ ، ونوع واحد أو أنواع محدودة من الغلات . بل أن هذا التشابه الشديد بين أجزاء الاقليم ينقص أهميته كوطن ويضعف كيانه كوحدة قائمة بذاتها ، تستطيع القيام بما تنتج من خيرات .

وانما أساس الوطن الواحد هو التكامل بين أجزائه ، وبين خصــائص هذه الأجزاء ، وبين خيراتها . ولهــذا فان المقصود بوحدة الوطن العربى ليس التشابه التام بين أجزائه ، أو التطابق التام بين ظروفه ، وانما المقصــود هو سيادة أنواع من التشابه فيه مع اختلافات تسمح بتكامل الأجزاء ، واكتفاء الكل . والاختلاف فى اطار الوحــدة وعلى أساس من التشــابه هو المهم فى تكوين الأوطان . وبهذا

المعنى يكون الوطن العربى وحدة متميزة متكاملة ، جغرافيا ، واقتصاديا ، وفى غير ذلك من جوانب الحياة البشرية •

وخصائص الوطن العربى توضح وحدته وتكامله وتميزه • واليك أهم هذه الخصائص :

١ ـ الوطن العربى ذو موقع ممتاز :

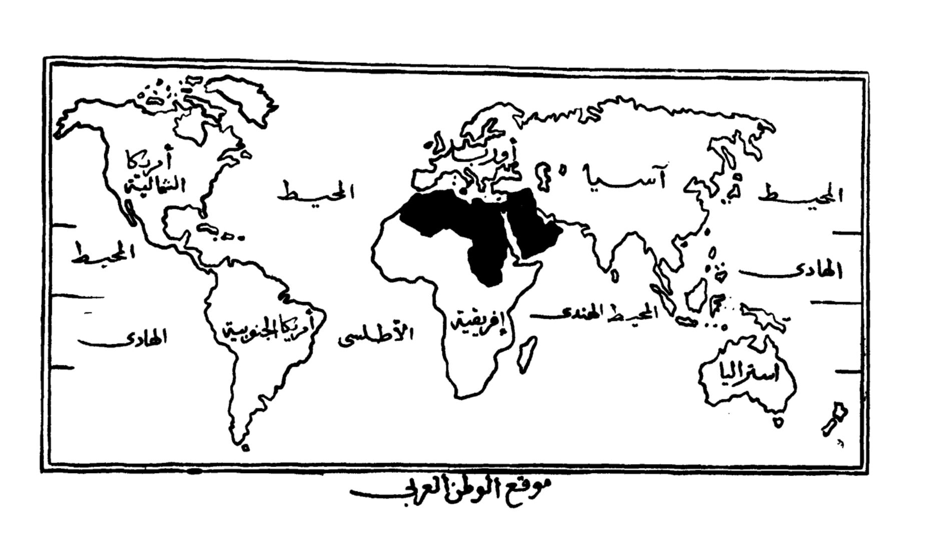
يشغل الوطن العربى رقعة من سطح هذا الكوكب تمتد تقريبا بين خطى عرض ١٠° و ٣٧° شمالا ، وبين خطى طول ١٥° غربا و ٦٠° شرقا • وحدوده الشمالية تتكون من البحر المتوسط فى قسمه الأفريقى وهضاب الأناضول وأرمينيا فى قسمه الأسيوى • وتتكون حدوده الجنوبية من الهضبة الاستوائية فى جنوب السودان ثم المحيط الهندى • أما بين الشرق والغرب فيحده خليج العرب شرقا والمحيط الأطلسى غربا •

وتقع هذه الرقعة التى تكون الوطن العربى عند التقاء قارات الدنيا القديمة الثلاث : آسيا وأوربا وأفريقية • فهى تشغل غرب آسيا وجنوبها الغربى ، وشمال أفريقية وتواجه أوربا من السواحل الشرقية للبحر المتوسط ، ومن سواحله الجنوبية • ولذلك فهو نقطة ارتكاز هامة فى العلاقات بين هذه القارات سواء أكانت هذه العلاقات بشرية أو اقتصادية أو حربية أو حضارية •

وأكد هذه الأهمية لموقع الوطن العربى حفر قناة السويس التى أصبحت أقصر الطرق وأكثرها اقتصادا بين الشرق والغرب • ويكفى أن نعرف أن قناة السويس توفر مسيرة أربعة آلاف ميل على السفن المسافرة من انجلترا الى الهند ويمر فى قناة السويس ١٥٪ تقريبا من مجموع التجارة العالمية ، كما يمر منها ٦٠٪ من بترول الشرق • وهذا جعل موقع الوطن العربى حيويا للتجارة العالمية والاقتصاد العالمى ، لما يعود على التجارة التى تسلكه من وفر فى المال والوقت وزيادة فى السلع المنقولة ، ومن ثم فى عائد هذه السلع •

٢ ـ الوطن العربى عظيم المساحة :

ليس الوطن العربى صغيرا بين الأوطان ، اذا نظرنا اليه كوطن واحد يضم أمة واحدة • وانما الصغير فيه هى تلك الأجزاء التى خلقها الاستعمار بلا سند



موقع الوطن العربي

من حدود طبيعية أو خصائص بشرية أو مصالح قومية . ومهما انقسم الوطن العربى الى أجزاء صغيرة فان نظرتنا اليه يجب أن تشمله كوحدة متماسكة ، لأن انقسامه لا يرجع الى طبيعته بقدر ما يرجع الى قوى خارجة عنه ، ولا يتفق مع مصالحه وانما تم لخدمة مصالح معادية له .

والوطن العربى كوحدة يشمل مساحة كبيرة ، فهو يمتد من الشرق الى الغرب على مساحة تبلغ ستة آلاف كيلو متر . أما امتداده من الشمال الى الجنوب فيتراوح طوله فى مختلف أرجائه ، ولكنه يبلغ ثلاثة آلاف كيلو متر فى بعض هذه الارجاء .

وتبلغ مساحة الوطن العربى ١١ مليون كيلو مترا مربعا : وهو لهذا يأتى فى الترتيب الثانى بعد الاتحاد السوفيتى من حيث المساحة . ثم هو أكبر مساحة من كل قارة افريقية كما أنه أكبر من كل قارة أوربا التى تبلغ مساحتها ١٠ مليون متر مربع . وهو مجتمعا أكبر مساحة من الولايات المتحدة .

٣ — الوطن العربى ذو حدود فاصلة :

والوطن العربى ليس وطنا مكشوفا من أطرافه ، انما تحيط به حدود واضحة المعالم منيعة الجانب تميزه عن غيره من الأوطان المحيطة به ، وتحميه من اغارات جيرانه بدرجة تكفى لاستقرار ساكنيه .

ومن الحدود ما هو منيع يقوم بوظيفة الحماية كالحدود البحرية والحدود الصحراوية والحدود الجبلية ، ومنها ما هو مستباح يشجع على الاعتداء أو يهيىء أسبابه ، كالحدود السهلية والحدود النهرية ، أو الحدود التى تتكون من خطوط وهمية .

وتكفى نظرة الى خريطة العالم العربى لبيان أنه محاط بحدود منيعة حامية — بحرية ، أو صحراوية ، أو جبلية . فالوطن العربى محاط من معظم جهاته بمساحات مائية شاسعة . فالمحيط الأطلسى هو حده الغربى ، والبحر المتوسط حده الشمالى والمحيط الهندى حده الجنوبى ، والخليج العربى حده الشرقى . وهكذا نجد حدودا من معظم الجهات تتكون من محيطات وبحار متميزة السواحل واضحة المعالم تفصل فصلا واضحا بين الوطن العربى وما جاوره .

وفى غير ذلك من الجهات نجد حدودا صحراوية للوطن العربى . فهناك

الصحراء الكبرى تفصله جنوبا عما يليه من الأوطان الأفريقية • ومع تقدم المواصلات الحديثة وتغلبها على الصحراء قامت بوظيفة الحماية للوطن العربى على طول التاريخ ، وما زالت الصحراء صعبة المراس •

ثم حدود جبلية تتكون من سلسلة من الهضاب والجبال ، هى هضبة كردستان وهضبة الأناضول فى الشمال ، ومعها جبال طوروس ، وهضبة ايران فى الشرق ومعها جبال زجوراس • ثم هضبة الحبشة فى الجنوب • ولا تخلو هذه المرتفعات من ثغرات سهلية من ناحية ايران وتركيا لا تقلل من أهمية الصفة الغالبة عليها •

فهذه الحدود صنعت من الوطن العربى ذلك الوعاء المناسب الذى منه تكون الوطن العربى ، وفيه انصهرت الأمة العربية المتميزة ، وفى اطاره تمكنت هذه الأمة من بناء حضارتها العريقة •

وفى ضوء هذه الحدود تبطل الادعاءات الاستعمارية والأطماع التوسعية التى تعرض لها العرب نتيجة لمؤامرات الاستعمار ومصالحه فى المنطقة • فلواء اسكندرونة الذى اغتصبه الاستعمار من الوطن العربى وضمه لتركيا ، فوق ما هو عربى بسكانه وثقافته وتاريخه ، هو عربى أيضا بدخوله فى دائرة الحدود العربية التى لا تخطئها العين أمام المرتفعات التى تحد تركيا من ناحية الجنوب فهذه الحدود نفسها هى التى تكذب ادعاء تركيا عندما تترك حدودها الطبيعية وتنزل الى السهل الذى يجمع بين اسكندرونة وحلب ، وتحرم هذا السهل من منفذه الطبيعى على البحر •

ووضوح حدود الوطن العربى دامغة أيضا فى ابطال ادعاءات الاستعمار عند ما جلب شرذمة من غير العرب وأقام لهم دولة مصطنعة هى اسرائيل على السهل الذى يوصل بين الاقليم الداخلى من فلسطين وبين ثغوره الطبيعية •

والحدود العربية الواضحة تفرض على كل من تركيا والشراذم الصهيونية الشعور الأكيد بأنه نتوء لا موضع له فى داخل هذه الحدود ، وتثبت أنهما مخلبا قط للدول الاستعمارية التى هى المنتفعة الحقيقية بهذه المواقع الاستراتيجية المغتصبة ، وبوجود هذا النتوء فى صدر الوطن العربى •

٤ ـ الوطن العربى متصل الاجزاء :

مع اتســاع رقعة الوطن العربى وعظــم مساحته ، وامتــداده على جزءين كبيرين من قارتى آسيا وافريقيا ، ومع وجود حدود فاصلة حوله ، فان اتصــال هذا الوطن مستمر فى داخل حــدوده من الخليــج الى المحيط • لا يقطع هــذا الاتصــال جبال عالية أو حواجز طبيعية تعوق حركة السكان أو الأفكار أو الثقافة بين أجــزائه •

وقــد كان لهذا الاتصال الميســور آثار هامة فى حياة الأمة العربية ونمــو مدنيتــها •

فهــو من جهة ســهل الاتصال بين الشعوب العربية على مر التاريخ ؛ فانساح الجنس العربى عبر وطنه مشرقا ومغــربا بلا معــوق ، وســهل عليه الاختــلاط والامتزاج والانســجام فى جنس واحد تشرب مــا سقط عليه من الدماء الغربية عبر الــزمن • فتجانس الأمة العربية كان من عواملها ســهولة الاتصال ووحدة الرقعــة •

وهو من جهة أخرى ســهل تبادل الثقافة بين سكان هــذا الوطن منذ أقدم العصور وجعل من ثقافتهم ثقافة واحدة ومن مدنياتهم مدنية واحــدة • تبادلت الحضــارات المصرية القديمة والبابلية القديمة عناصر المعرفة والصناعة • ونقل الفينيقيون الأبجدية من جزء الى جزء فيما نقلوا حتى خارج الحــدود • وعندما ظهــر الاسلام بأضوائه الروحية واستحداثاته الفكرية وانتصاراته الحضــارية ، سهل الاتصال المباشر بين شعوب الوطن العربى تكامل أصولها الحضارية المتعددة واندماجها فى كل واحد هو المدنية العربية التى سادت فى كل أجــزاء الوطن ، بل وتجاوزته الى أوربا •

وهــذه الوحدة المكانية وما ترتب عليهــا من وحدة جنسية ووحدة ثقافية تظهر بوضــوح شذوذ موقف اسرائيل المصطنعة الدخيلة على المكان وعلى ناسه • وتبين بجانب هــذا خطر وجودها فى هذا المحيط المنسجم من الناس والثقافة • وهــذا يشير الى الحــل الوحيد وهو وجوب القضاء عليها وطرد شراذمها ، كما يشير الى حتمية هذا الحل أسرع أو أبطأ •

٥ ـ الوطن العربى وحدة طبيعية متكاملة :

ليس من المعقول أن تتطابق الخصائص الطبيعية فى وطن كبير كالوطن العربى يمتد على ٢٥ درجـة عرضية . وعلى ذلك فهـو لا يخلو من اختلاف الظروف الطبيعية بحيث يمكن تقسيمه الى عدد من الوحدات المتميزة . ومع ذلك فهناك تشابه عام بين جميع أجزائه . وهذا التشابه يخلق منه وحـدة طبيعية ذات اطار عام من التشابه يقع فى داخله الاختلاف ، ويتم به تكامل الأجزاء المتفاوتة فى وحدة طبيعية ظاهـرة .

وفى هذا الاطار العام من الوحـدة والتشابه تختلف أقاليم الوطن العـربى بين مناخ البحر المتوسط فى الشمال وهو المعتدل ذو المطر الشتوى ، ومناخ الاقليم السـودانى بمطره وحرارته الصـيفيتين فى شـمال السودان ، ومنـاخ الاقليم الاسـتوائى الممطر الحار العام فى جنوب السودان ، ومناخ الصـحراء بجفافه وحـرارته .

وعلى هذا التنوع المناخى تتنـوع الحاصـلات النباتية من الغابات الحـارة فى أقصى الجنـوب الى غابات الصـنوبر والبلوط والجـوز واللوز فى أقصى الشمال ، ومن قصـب السكر والمـوز ، الى الحبوب من قمح وذرة ونحوهما . ومن الزيتون الى الفـواكه من تفاح ومـوالح وكروم ، ومن المراعى الخضراء الى الصـحراء المجـدبة ، ومن الورود والـرياحين أزهـار الربيـع من نرجس وآس .

وفى هـذا التفاوت فى اطار الوحـدة الطبيعية ، ما يؤكـد ضرورة التكامل بين أجزاء الوطن العربى ، وضرورة التبادل التـجارى بينها ، ومن هـذا يحدث الاكتفاء الذاتى والانتعاش الاقتصـادى وهما من أهم مظاهر اسـتقلال الوطن .

٦ ـ الوطن العربى كثير الخيرات :

من الطبيعى أن يكون مثل هـذا الوطن العظيم المساحة الممتد الأرجاء كثير الخيرات موفور الموارد . وقـد يكون من غير الممكن الآن استقصاء خيراته لأن معظمها لم يكشف عنه بعد ولم يستغل بعد . ومع ذلك ففيمـا تعرفه من خيرات الوطن العربى ما يكفى للدلالة على تنوع مصادر ثرواته وعظم أهميتها الاقتصادية وما تبشر به من امكانيات عمرانية .

فمن الثروة المعدنية يوجد فيه كميات ضخمة من البترول فى الكويت والعراق والجزائر والمملكة السعودية وليبيا والمملكة المغربية والجمهورية العربية المتحدة وامارات الجنوب العربى • وينتج الوطن العربى ٢٣٫٥ ٪ من بترول العالم وبه ٦٠ ٪ من احتياط البترول فى العالم •

ويوجد به الحديد فى مصر وفى المغرب ولبنان والسودان ، وفى الجزائر . وبها وحدها من الحديد ضعف ما تنتجه مناجم اللورين ، وينتج المغرب العربى ٤ ٣/٤ مليون طن من الحديد سنويا •

ويوجد به المنجنيز فى مصر والمغرب والأردن والسودان •

ويوجد به الفوسفات فى تونس والمغرب وفى الأردن ، وينتج المغرب العربى وحده ٧ ١/٢ مليون طن أى ٣٥ ٪ من فوسفات العالم ، وتبلغ سمك طبقات الفوسفات أحيانا خمسة أمتار فى المغرب •

ويوجد به النحاس فى مصر وفى السودان •

ويوجد به الفحم والرصاص والزنك والكوبالت فى المملكة المغربية •

ويوجد به القصدير فى مصر •

ويوجد به الذهب فى مصر والسودان •

ويوجد به الكبريت فى مصر وفى لبنان •

ومن الثروة الزراعية ينتج الوطن العربى أجود الأنواع وأضخم الكميات من حاصلات هامة كالقطن فى مصر والسودان ، خصوصا القطن طويل التيلة وتنتج مصر والسودان ٩٠ ٪ من هذا النوع من القطن فى العالم • وقصب السكر فى مصر والسودان ، والقمح فى مصر وسوريا والعراق ، والذرة فى السودان والعراق ومصر ، والشعير فى مصر والجزائر والعراق • والفواكه والكروم فى مصر ولبنان وسوريا ، والبلح والتمور فى العراق التى تنتج وحدها ٨٠ ٪ من تمور العالم • والتين والزيتون فى تونس والجزائر والمغرب ، وتنتج تونس وحدها ٣٠ ٪ من الزيتون وزيته من الانتاج العالمى ، والتبغ فى المغرب وسوريا ، والفول السودانى والسمسم فى مصر والسودان والأردن ، والبن فى اليمن والصمغ العربى وينتج السودان منه ٧٠ ٪ من الانتاج العالمى ، وغير ذلك من أنواع الحاصلات الزراعية من أشجار الغابات الى الزهور •

وفى الوطن العربى قــدر كبير من الثروة الحيوانية تتمثل فى ملايين الرؤوس من الماشية والغنم والجمال وهى منتشرة فى جميع أرجائه خصــوصا فى السودان وليبيــا •

وتقدر ثروة الوطن العربى من الحيوان بحوالى ١٦ مليون رأس من الماشية ، ٧٨ مليون رأس من الأغنام والماعز ، ٤ ملايين رأس من الابل •

وفى الوطن العربى مصـادر كبيرة للثروة تـكمن فى جمال منـاخ كثير من أرجائه خصوصا لبنان ومصر والمغرب ، مما يجعل به أجمل المشاتى خصــوصا فى أســوان وأجمل المصايف خصوصا فى لبنان • والذى يزور لبنان والمغرب ويرى مناظر الجبال فيهما تكسوها الثلج أحيانا والغابات دائما يتأكــد من أن فى الوطن العربى من جمال الطبيعة ما يستطيع به أن ينافس سويسرا • والذى يزور أسوان فى فصل الشتاء يعرف أن بالوطن العربى من المشاتى ما يمكن أن ينافس ما يوجد منها فى كان ونيس • وشواطىء الاسكندرية وبور سعيد والرباط من أجمــل مصايف الدنيا •

وحيث لا يتوافر جمال المناخ فى بعض أجزاء الوطن العربى تــوجد المزارات المقدســة التى تهفوا اليها قلوب الملايين من البشر من جميع الأديان • ففى مكة والمدينة مزارات المسلمين وفى بيت المقدس مزارات المسيحيين •

وفى الوطن العربى ثروة ضخمة من الآثار التى تجمــع بين دفتيهــا تاريــخ البشرية وتعبر بأحجارها الصامتة أبلغ تعبير عن قصة التطور البشرى على هــذا الكوكب • ففيه آثار المصريين والبابليين والفينيقيين التى تصــور بداية المعركة الهائلة بين الانسان وبين الطبيعة ، وبينه وبين نفسه • وهى معركة تحــول بها من مرحلة البداوة الى مرحلة الاستقرار ، ومن مرحلة الجمع والالتقاط الى مرحــلة الزراعة ، ومن مرحلة الفردية الى مرحلة الجماعة المنظمة ، ومن مرحلة الخوف حتى من نفسه الى مرحلة الأمن حتى بينه وبين نفسه ، ومن مرحلة الفوضى الى مرحلة الحكومة المهيمنة •

وفيه الآثار الرومانية والمسيحية التى تصــور أولى معــارك التدين ضــد الكفر فى المجتمع ، وأولى مظــاهر الصراع بين الايمــان وبين الالحــاد فى داخل نفس الانسان • وهى معارك انتهت بانتصار شعوب هذا الوطن بايمانهم وحده على

الأمبراطور الرومانى بجيوشه وجبروته ، حتى سلم وآمن معهم .

وفيه الآثار العربيـة الاسلامية التى تصـور من جهـة المعركة بين التوحيد وبين الشرك بكل أنواعه وتتمثل فى المآذن التى تغطى أديم المـدن العربية مشيرة الى السـماء كأنها تقول « الله واحـد » . كما تصـور من جهـة أخرى صراع الانسان العربى فى سبيل استرداد ملـكه الثقافى والحضارى الذى كان قد انتقل الى الاغريق والرومان حقبـة من الدهـر . وتصـور من جهة ثالثة معركة الأمة العربيـة فى سبيل استرداد استقلالهـا وحريتها قسرا من يـد الرومـان الذين سيطروا على الوطن العربى زهاء سبعة قرون .

وفيه منشـآت الانسان العربى الحـديث من المصانع والقناطر والسـدود ومنها السـد العالى وكلها تشير الى وثبة الانسان العربى لكى يلحق الركب الذى كاد يفوته عليه الاستعمار .

وكل هـذه المعالم والآثار مصدر هام من مصادر ثروة الوطن العربى لأنهـا أساس طيب لنشاط سياحى مثمر .

لكل هـذا كان الوطن العربى وطنـا كثير الخـيرات . على أن كثيرا من مصادر الثروة فى هذا الوطن لم يكشف بعد وما زالت كنوزه مخبأة فى تربتـه . وقد عمل المستعمر على هـذه النتيجة من يوم تحكموا فى مصائر الأمة العربية ، وبذلك ضـاعت عليها ثمرة عصر العلم والصناعة الذى ما كاد يسـطع فجره حتى التفت ظلمات الاستعمار حـول هذا الوطن .

وفى كثير من هـذه الثروات امكانيات هائلة للتصـنيع فى الوطن العربى . ونحن نعرف أن التصنيع من أهـم دعائم الغنى والقـوة للأمـم . وهذه هى السياسة التى اتخذتها الجمهورية العربية المتحدة .

وهـكذا تتعدد الثروات فى وطننا العـربى وهى ثروات مادية وروحانيـة وانسـانية .

٧ ــ الوطن العربى ذو أهمية عالمية :

وهـذا الوطن العربى بما سبق من خصائصـه على غاية الأهمية فى الاعتبار العـالمى . وأهميته العالمية معروفة لكل منا بأسبابها وحقائقها . وقـد كان هـذا

الوطن كذلك دائما بقدر ما كانت خصائصه ومميزاته تغنى البلاد الأخرى وتثير مطامع الأمم والحكام ، وكان هذا الاهتمام ايجابيا أو سلبيا بقدر ما كان يتمتع به العرب من قوة أو ضعف .

ففى العصور الاسلامية الأولى كان العرب يتمتعون بقوة روحية وقوة مادية كبيرة ، وكان اهتمام العالم بهم مرجعه الى هذه القوة التى تخيف وتردع والتى مكنتهم من فرض الجزية السنوية على الامبراطورية الرومانية الشرقية ، ومن بسط سلطانهم على الأندلس وجنوب ايطاليا وجزيرة صقلية ، وأخذوا يجتاحون فرنسا . كما كان الاهتمام بهم من حيث هم أصحاب مدنية وناشرو حضارة وبما كانوا أمة منها الأطباء والفلاسفة والعلماء والقواد والملاحون .

ولما اشتد تنافس الدولتين الاستعماريتين الكبيرتين انجلترا وفرنسا على الهند فى القرن الثامن عشر بعد ما كانت انجلترا قد نجحت فى طرد فرنسا منها ، كان استيلاء الفرنسيين بقيادة نابليون بونابرت على مصر فى سنة ١٧٩٨ م ومحاولته الاستيلاء على الشام ، من وسائله الى استخدام هذا المعبر بين أوربا وآسيا فى الوصول الى الهند .

وواصلت الدول الاستعمارية اهتمامها بالوطن العربى فاستولت فرنسا على الجزائر سنة ١٨٣٠ . وفى نفس الوقت وضعت انجلترا امارات الجنوب العربى فى دائرة نفوذها . فلما افتتحت قناة السويس فى سنة ١٨٦٩ م زادت أهمية الوطن العربى كطريق موصل بين أوربا والهند ، وبينها وبين مصادر المواد الخام التى كانت الصناعة الأوربية الناشئة فى أشد الحاجة اليها ، بل وكان الوطن العربى نفسه من هذه المصادر ، ولذلك عملت فرنسا على الاستيلاء على تونس فى سنة ١٨٨١ م ، كما عملت انجلترا على الاستيلاء على مصر فى سنة ١٨٨٢ م .

وبدأت كنوز البترول تكشف فى الوطن العربى فى مطالع القرن العشرين فزاد هذا من الاهتمام العالمى بالوطن العربى . وانتهزت الدول الاستعمارية فرصة انهيار تركيا فى الحرب العالمية الأولى فاقتسمت بقية الوطن العربى فيما بينها بالاحتلال أو الحماية أو الانتداب .

وفى أثناء الحرب العالمية الثانية ظهرت أهمية الوطن العربى كنقطة ارتكاز ،

وكمحطة تموين ، وكمركز للمواصلات • وبعد هذه الحرب ظهرت ، فى ضوء الحـرب الباردة بين المعسكرين الشرقى والغربى ، أهمية الوطن العربى فى تطويق الاتحاد السوفييتى واحكام الحصار حوله •

ومن كل هـذا يتضح ما قلناه من أن الوطن العـربى وطن له أهمية عالمية كبيرة • وأن هـذه الأهمية ليس لها من دافع الا ما ذكرناه من خصائص الوطن العربى ـ موقعه الممتاز ، وموارده الخام ، وثرواته ، وبتروله ، ووقوعه على طريق المواصلات الرئيسى بين جميع أجزاء العـالم •

فاذا أضفنا الى هذا كله ما يشتمل عليه من الأماكن المقدسـة عند جميـع أمم العـالم ومذاهبـه مما يجعله قبلة روحية للناس جميعا ، عرفنا أى وطن من الأوطان وطننا هذا العربى •

٨ ـ الوطن العربى منشأ الحضارات :

نشأت الحضارات الانسانية أول ما نشأت فى أحواض الأنهـار العظيمة من هذا الوطن العربى • فقد واجه الانسان قوة الطبيعة المدمرة أحيانا الشحيحة أحيانا أخرى ، كما واجه قوى غيره من البشر أعـزل خالى الوفاض من العـلم والخبرة والأدوات والنظم والقوانين •

وفى سياق محاولته للتغلب على مشـكلاته المعيشية مع البيئة ومشـكلات علاقاته مع الآخرين ، كشف بالتدريج حقـائق العلم ، وبنى المهـارات ، وصنع الآلات والأدوات • ووضع النظم والقوانين ، وتوصل الى القيم والأخلاق ، أى تحضر وتمـدن •

واذا كانت هذه العملية قد استغرقت آلاف السنين فقد كان هـذا الوطن العربى مسرحها الأول • ظهرت فيه أقدم حضارات عرفها الانسان ـ الحضارة المصرية القديمة فى حوض النيل ، والحضارة البابلية فى وادى الرافدين ، وغيرها من الحضارات التى نشأت فى سوريا ولبنان •

ونضيف الى هذه الفتوح الحضـارية تلك الحقيقة الخالدة وهى أن الوطن العربى كان مهبط الوحى ومبعث الديانات السماوية • به ظهر الأنبياء والرسل ، وفيه قاموا بالدعوة الى الحق والخير ، ومنه انتشرت هـذه الدعوات الروحية السامية فى جميع أجزاء العالم وبين كل الأمم •

من كل هذه الخصائص تبدو حقيقية أساسية واحدة لم نسق كل ما سقناه الا لابرازها . هذه الحقيقة هى أن الوطن العربى من الخليج الى المحيط وحدة متكاملة . ومعنى التكامل هو أن هذه الخصائص والمميزات تسهم فيها كل أجزاء هذا الوطن ، وأنها تنهار لو اقتصر الأمر فيها على جزء دون جزء . وأن أى جزء من هذا الوطن هو لازم لتتوافر له خصائصه ومميزاته بحيث ينقص الكل اذا غاب جزء ، ولا يكون لجزء كبير أهمية بنفسه من غير بقية الأجزاء . فلا أقل من المكان برمته ، والموقع بعمومه ، والمساحة بكل شبر فيها ، والحدود باتصال حلقاتها ، والغلات والمنتجات بجميع أنواعها ومقاديرها يكفى لأن يخلق وطنا عظيما .

والمغزى الثانى لما تقدم هو أن كل هذه المزايا يجب أن تكون للعرب دون غيرهم . والمستعمرون يبغون الخير لأنفسهم عندما يطمعون فى خيرات هذا الوطن ومزاياه ، وأولى بأصحاب الوطن أنفسهم أن يحتفظوا بما فى أيديهم وما هو حق طبيعى لهم ، من خيرات بلادهم .

التكامل الإقتصادى للوطن العربى

قلنا ان الوطن العربى وطن متكامل أو يجب أن يكون متكاملا . ولكن كيف يحدث هذا التكامل ؟ وفى أى شىء ؟ والجواب أن تكامل الوطن العربى يجب أن يكون عاما ، ويجب أن يحدث فى كل شىء :

يجب أن يتكامل فى أمور الانتاج والتوزيع ، وهو التكامل الاقتصادى .

ويجب أن يتكامل فى أمور الفكر والبحث العلمى والتعليم ، وهو التكامل الثقافى .

ويجب أن يتكامل فى موقفه من القضايا القومية والعالمية ، وهو التكامل السياسى .

ويجب أن يتكامل فى مسائل الدفاع ، وهو التكامل العسكرى .

ويجب أن يتكامل فى الفلسفة وطريقة الحياة ، وهو التكامل الأيديولوجى .

ويجب أن يتكامل فى العواطف والروابط والتفاعل ، وهو القومية العربية .

ويجب أن يتكامل فى العمل لتحقيق أهداف مشتركة ، وهو وحدة الهدف .

يجب أن يتكامل فى تنظيم سياسى متماسك ، من أى نوع ، يكفل تحقق كل ما سبق من أنواع التكامل ، وهذا هو الوحدة العربية •

كل هــذه الأنواع من التكامل مطلوبة وضرورية ، ويمكن أن تتم فــرادى أو مرة واحدة ، وجماعها كلهــا هى وحدة عربية شاملة ، ولذلك فالوحدة هى غاية الغايات ، وسياسة السياسات ، وهدف الأهداف لكل الشعوب العربية •

وسيأتى فى الفصول القادمة تفصيل الكلام عن أكثر من جانب من هــذا التكامل ، وسيأتى الكلام عن الوحدة العربيــة • وانما نقــدم الآن الكلام عن التكامل الاقتصادى لأنه بسبيل مما نعالجه فى هــذا الفصل من حقائق الوطن العربى وما ينطوى عليه من خــيرات وثروات • ثم لأن التكامل الاقتصادى هو أساس غيره من أنواع التكامل لأنه أساس القوة المادية التى تمكن من كل شيء عداها لأنها عصب الحيــاة •

خصائص الاقتصاد العربى :

يجمع الاقتصــاد العربى كله خاصيتان عامتان • واحــدة هى التخلف ، والثانية هى التفكك ، فالاقتصاد العربى متخلف • ومعنى هــذا أنه اقتصاد فقير أو يميل الى الفقر ، فلا يجد فيه كل جزء من أجزاء هــذا الوطن ، وكل فرد من أفراد الشعوب التى تســكنها كفايته من وسائل المعيشة بالمستوى اللائق • قد يكون ذلك لسوء الانتــاج أو لسوء التوزيع وقد يكون بسببهما معا ، ولكنه تخلف على كل حال • وقد عالجت الجمهورية العربية المتحدة مشكلة التخلف بما استحدثته من الأخــذ بالنظام الاشتراكى ، وما سنته من القوانين الاشتراكية ، وما حققته من حركات التصنيع والنهوض بالزراعــة ، وما خططته من خطط التنمية ــ وبعبارة أخرى بما حققته من أصول الــكفاية والعدل ، الكفاية فى الانتاج والدخل والعدالة فى التوزيع • وبذلك تغلبت الجمهورية العربية المتحدة على كثير من مظــاهر التخلف الاقتصادى • ولــكنها لم تقض بعــد على كل مظاهره لأنه أثر لعوامل قديمة متغلغلة ، ولا بد من بعض الوقت لتحل المشكلة حلا نهائيا • وكذلك عملت بعض الدول العربية الأخرى على تخفيف حدة هــذا التخلف ولكنهــا فى البداية بعــد • ومع ذلك فما زال التخلف الاقتصادى هو السائد وهو العام فى معظم البلاد العربية ، وما زال هو المشكلة •

أما التفكك فهو وان كان اقتصادا خاصا باقليم واحـد هو الوطن العـربى الذى عرفنا خصائصه وتكامله الا أنه اقتصـاد مفكك غير مترابط ولا متناسق ولا متكامل ، لكل قطر اقتصاده الضيق المحدود ، بكل رذائل الاقتصاد الضيق المحـدود •

مظاهر التخلف فى الاقتصاد العربى :

يمكن أن نلمس التخلف الاقتصادى العربى فى المظاهر الآتية :

١ ــ الاعتماد على الزراعة :

فاقتصاد البلاد العربية اقتصاد زراعى يعتمد على الزراعـة والرعى • فمعظم الانتاج منصب على الزراعة بحيث يشغل نسبة عالية من الانتاج العام لا تقـل عن ٦٠٪ فى كثير من الحـالات • ويعمـل فى النشاط الزراعى معظم السـكان ، فالذين يعيشون على هـذا النشاط يتراوحون بين ٦٠٪ من السـكان كمـا فى العراق ، و ٧٥٪ كما فى سـوريا ، و ٨٠٪ كما فى ليبيا ، ٨٥٪ كما فى الأردن •

ومعروف أن الاقتصـاد الزراعى فقير على العمـوم ، ولا يشذ عن هـذه القـاعدة الا دول قليلة كالدنيمرك واستراليا • والقاعدة أن كل البـلاد المتخلفة اقتصاديا هى بلاد زراعية • وذلك لأن الانتاج الزراعى فى معظمه انتاج استهلاكى فهو لا يضـيف الى الدخل بدرجة الانتاج الصناعى ، ثم لأنه انتاج المواد الأولية وثمنها دائما أقل بكثير من أثمـان المصنوعات ، ثم لأنه غالبا ما يكون اعتماده على غلة وحدة رئيسية ، فهو قليل التنوع ومن ثم فهو قليل الفرص فى الأسواق ، ثم لأن انتاجه محدود برقعة الأرض التى لا يكون من السهل زيادتها فى كثير من الحالات ، أو بخصبها ، أو بمقدار الماء ، أو بدرجة التعرض للآفات ، أى أن القدرة على الانتاج الكبير فيه أقل نسبيا عما هو فى ميدان الصناعة •

ثم ان الاقتصـاد الزراعى فى البـلاد العربية اقترن بسـوء توزيع الملكية العقارية وبسوء توزيع الدخـل بين الأفراد وبالاقطاع • فمثلا كان توزيع ملكية الأراضى الزراعية فى مصر فى سنة ١٩٥٢ بحيث أن ٤ر٪ من الملاك كانوا يمتلكون ٥ر٣٤٪ من الأرض المزروعة ، على حين أن ٩٤٪ من المـلاك كانوا يمتلكون

نفس النسبة من الأرض أى ٣٥٪ منها ٠ والصـورة أسوأ بكثير من هذا فى بقية البلاد العربية كالعراق وسوريا قبل الوحدة وبعد الانفصال ٠ والاقطاع أدى الى أن أعدادا كبيرة من المشتغلين بالزراعة لا تمتلك أرضا على الاطلاق وانما تعمل كاجراء ٠ وهـذه الحالة هى التى عالجتها الثورة المصرية بقوانين الاصلاح الزراعى ٠ وزاد حالة الزراعة سوءا فى بعض البلاد العربية أنها ما زالت تتبع نظام العشائر ، أى أن شيخ القبيلة يتحكم فى العمليـة الزراعية انتاجا وتوزيعا للدخل بين أفراد القبيلة ولا دخل للحكومة فى ذلك ٠ وهذا أدى الى انخفاض مستوى الانتاج الزراعى لعدم قدرة هذه القبائل على الأخذ بأسباب العلم الحديث وتطبيقاته فى الزراعة ، ثم للظلم الاجتماعى فى توزيع الدخل اذ يستأثر بمعظمة شيخ القبيلة والمقربون اليه ٠

٢ ـ تأخر الصناعة :

ونقصد الصناعة الحديثة التى تقوم على الآلات الحديثة والانتاج الكبير ، وهذه متخلفة فى معظم البلاد العربية ، على حين أن الصناعات العربيـة القديمة قد اندثرت تقريبا أو كادت ٠ وحيث توجد الصناعة فانها تتميز بأمرين يضعفان أثرها فى انعاش الاقتصاد : الأمر الأول أنها صناعات استخراجية كعصر الزيوت وصناعة الحلوى ٠ والأمر الثانى ـ أن ماله قيمة اقتصادية منها ، أما أنه يقف عند استخراج المواد الخام دون تصنيعها كالبترول ، واما أنه فى يد احتكارات أجنبية فمعظم فائدته تذهب الى أيدى الأجانب ٠ وكلا الأمرين يحكم أحوال الصناعة فى السودان حيث لا توجد الا الصناعات الاستخراجية ، والأردن حيث لا توجد الا صناعة الخشب والصوف والحلى الفضية والتطريز ، والعـراق حيث تقتصر الصناعة على صنع المواد الغذائية كتعبئة التمر أو صناعة الزيت والصابون ٠ والحالة أسـوأ من هـذا فى بقية البلاد العربية ـ اذا استثنينا مصر التى قفزت الصناعة فيها بعد الثـورة بحيث أصبحت تصـنع معظم الأشـياء من الابرة الى الصاروخ ٠ وما زالت مشروعات التصنيع مستمرة ٠ وحيث توجد نهضات صناعية فى بعض البلاد العربية فهى ما زالت فى بدايتها ، وما زالت رؤوس الأموال تحجم كثيرا عن دخول مضمار الصناعة ، وما زالت الكفاية الفنية والمهـارة الصناعية على مستوى غير كاف ٠

ومعروف أن الصناعة هى التى تحدث الرخاء والتقدم الاقتصادى ، والقاعدة أن البلاد المتقدمة والقوية هى البلاد الصناعية .

٣ ــ الاعتماد على محصول واحد :

فمع غلبة الزراعة على الاقتصاد العربى . يعتمد كل بلد فيــه على محصول واحد لاغير ، حتى حيث يكون عماد الاقتصاد على صناعة كالبترول مثــلا فانه يغلب اقتصار الدولة على ناتج واحد أيضا . وفى أحسن الحالات يكون الاعتمــاد على غلة رئيسية وعدد ضئيل من الحاصلات الثانوية . فمثلا فى مصر كان القطن هو المحصول الوحيد الرئيسى وما زال كذلك فى القطاع الزراعى ، وكان يكون ٧٥٪ من الصادرات ، وفى العــراق يكون الحبــوب والبلح حوالى ٨٤٪ من الصــادرات . وفى الســعودية يكون البترول ٨٥٪ من الصــادرات وفى بعض الحالات يخرج المحصول الواحد من حســاب التجارة الخارجية للبلد كالبترول فى العراق والسعودية وغيرهما اذ أن الشركات الأجنبية هى التى تقــوم بتصديره نظير ما تدفعه من أتاوة للدولة . ولا شك أن الاقتصــار على غلة واحدة وناتج واحد قد تسبب فى تخلف الاقتصاد العربى اذ يعتمــد الدخــل القــومى على محصول واحد فقط ؛ وقد يصاب هذا المحصول الواحد بنكبة لسبب أو لآخر فينهار الاقتصاد .

٤ ــ الاقتصار على تصدير المواد الأولية :

فالبلاد العربية تعتمد على انتــاج المواد الأولية . ولا تصــدر الا هــذه المواد الأولية دون أن تستخدمها فى الصناعة ودون أن تصدر منتجات مصنعة . لتصنع فى الخارج . والبترول فى العراق والسعودية يصدر خاما الى الخــارج ومصر لا تصنع الا ٣٠٪ من محصــولها من القطن ويصدر الباقى مادة أوليــة لتصنع فى الخارج . والبترول فى العراق والسعودية يصــدر خاما الى الخــارج حيث يكرر ويصنع ، وكذلك زيت الزيتون فى المغرب العربى .

ويترتب على تصدير المواد الخام أن يكون الاقتصــاد العربى تحت رحمــة اقتصــاد البلاد الصناعية التى تطلب هذه الخامات وتحدد أسعارها ، فيصــاب بتقلبات عنيفــة نتيجة لذبذبة الطلب . ثم نتيجــة لأن أثمان المواد الأولية أقــل استقرارا من أثمان المواد المصنعة . كما يقرن بالتخلف الاقتصادى نتيجة لانخفاض الأسعار وقلة الدخل .

ويقابل الاقتصار على تصدير المواد الأولية استيراد البلاد العربية للمـواد المصنوعة . ومعلوم أن أثمان المواد المصنوعة أعلى بكثير من المواد الأوليـة . فثمن قنطار القطن الخام لا يقاس الى ثمن ما زنته قنطار من المنسوجات القطنية ، وثمن طن البترول الخام لا يقاس الى ثمن طن من البنزين أو غيره من مشـتقات البترول ، وزيت الزيتون الذى يباع خاما أنظر ثمنه وهو معلب فى علب صغيرة مستوردة . ولهذا كان الميزان التجارى فى غير صالح البلاد العربية .

٥ ــ غلبة الصفة الاقطاعية على الاقتصاد العربى :

والاقتصاد الاقطاعى يتميز بخضوعه للظروف المحليـة وانعـدام التخطيط العام فيه ، كما يتميز بالانفرادية أى بسيطرة صاحب رأس المال فى حالة الصناعة وصاحب الأرض فى حالة الزراعة على العملية الاقتصادية دون تدخل من الدولة. والفلسفة فى هذا الاقتصاد هو الحرية الاقتصادية والمفهوم الخاطىء عن حـرية الفرد وأن البقاء للأصلح . والواقع أن هذه فلسفة خاطئة لأن الحرية فيها لا تقوم على أساس تكافؤ الفرص ، وعندما يقف العامل الأعزل الذى لا يملك الا بعض المهارة فى أصابعه أمام صاحب المصنع الذى يحتكر فرص العمل أمام هذا العامل لا يكون البقاء للأصلح ولكن يكون للأقوى . وحين يقف الزارع الذى لا يملك الا فأسه وأسرة كبـيرة تنتظر الطعام فى المنزل أمام الاقطاعى الذى يملك آلاف الأفدنة أو مئاتها فان البقاء لا يكون الا للأقوى .

ويضاف الى هذا أن قوة الاقطاعى وقوة الرأسمالى تتحول دائما الى سيطرة سياسية على أداة الحكم فتتجـه التشريعات لصـالح الأقـوياء فيتفشى الظلم الاجتماعى والصراع الطبقى ويؤثر ذلك على الانتاج تأثيرا سيئا .

ولم تتخلص من هـذه الخاصية الاقتصادية الا الجمهورية العربية والفضل للأخذ بالنظام الاشتراكى وللقوانين الاشتراكية العـديدة التى صدرت بناء على هذا النظام ، ومع ذلك فما زالت آثار الاقطاع القـديمة باقية لتزول بالتدريج نتيجة لكل الآثار المتراكمة لهذه القوانين .

٦ ــ انخفاض مستوى المعيشة :

فمثل هذا الاقتصـاد المتخلف لا ينتج الا دخلا قوميـا قليلا يترتب عليـه انخفاض متوسط دخل الفرد ومن ثم انخفاض مستوى المعيشة . ويتضـح من

احصــاء نشرته الأمم المتحدة فى سنة ١٩٥٤ أن متوسط دخل الفرد فى السعودية واليمن ٤٠ دولارا ، وفى العراق ٨٥ دولارا ، وفى كل من مصر وســوريا ١٠٠ دولار ، وفى لبنان ١٢٥ دولارا • على حين أن دخل الفــرد فى البــلاد الصناعية المتقــدمة يبلغ أضعاف هذا القدر فهو مثــلا فى الســويد ٧٨٠ دولارا ، وفى الولايات المتحــدة ١٥٠٠ دولار • ولا يشــذ عن القاعــدة الا الكويت حيث تتضخم عائدات البترول مــع قلة فى عــدد السكان • ومع أن هناك من البلاد الآسيوية والأفريقية ما هــو أقل من البلاد العربيــة فى مستوى المعيشة ، الا أن مستوى بلادنا ما زال دون المســتوى اللائق ، وبه يرتبط ما يســود فيهــا من مشكلات اجتماعية كالجهل وسوء الأحوال الصحية •

ومــع ذلك فان الحالة ما زالت أسوأ بكثير بما يتضح من هذه الأرقام عن مستوى دخل الفــرد فى معظم الدول العربية • فان سوء توزيع الدخــل الذى يســير على نمط اقطاعى يجعل أقليــة تستأثر بمعظم هذا الدخل لينخفض دخل ملايين من الأفراد كثيرا عن هذا المتوسط الذى ذكر • هذا فيما عــدا الجمهورية العربية المتحــدة حيث أدت النهضــة الصناعية والاصلاحات الزراعية الى القفز بالدخل القومى درجات كبــيرة الى أعلى . كما أدت القــوانين الاشتراكية الى كثير من الاعتدال فى ميزان التفاوت بين الدخول•وقد ارتفع متوسط دخل الفرد فى مصر من ٣٦ جنيها فى سنة ١٩٥٢ الى ٥٠ جنيهــا فى سنة ١٩٥٩ الى ٦٣ جنيها فى سنة ١٩٦٤ • ويقابل هــذا ارتفاع فى أعــداد المشتغلين بأجر وأعداد أصــحاب الأعمال ، وارتفــاع فى مستوى الأجور • ومع ذلك فما زلنا فى بداية الشــوط من تطورنا الاقتصــادى والنموى •

فاذا أضفنا الى ما تقدم من انخفاض مســتوى الدخل ارتفــاع معدل تزايد السكان فى البلاد العربية بنسبة لا يتمشى معها معدل زيادة الدخل ، عرفنا مدى انخفاض مستوى المعيشة فى هذه البلاد ، ومعروف أن مستوى الدخل ومستوى المعيشة مرتبطان بزيادة عدد السكان ، واذا كان هناك مشكلة سكانية فى البلاد العربية فان التعبير المتبقى عن هــذه المشكلة ليس للقول بأن هناك سرعة فى معدل تزايد السكان ولكن بأن هناك انخفاضا فى مستوى استغلال الموارد الطبيعية • ونحن هنا فى مصر بعد كل ما حققنــاه من تقدم اقتصادى لم نستغل الا ٥٪ من

مساحة أراضي الجمهورية ، ويجب أن تستغل مصادر الثروة أحسن استغلال قبل أن نقرر أن هناك مشكلة سكانية •

٧ ـ وجود مشكلة بطالة :

فهناك مشكلة تعطل فى الأيدى العاملة فى بعض البلاد العربية نظرا لعدم تعدد فرص العمل وتأخر الصناعة • وليس ضروريا أن يكون التعطل بوجود أعداد من الناس لا عمل لها ، فقد يكون التعطل مستترا أو ضمنيا باحتواء العمل على أعداد من العمال يزيدون على حاجته الحقيقية من الأيدى ، فمثلا فى مصر تبلغ البطالة الضمنية فى القطاع الزراعى حوالى ٣٠٪ من العمال الزراعيين ، بمعنى أننا نستطيع أن نقلل عدد هؤلاء العمال بهذه النسبة دون أن يتأثر الانتاج الزراعى ، وهذا هو ما حاولنا اصلاحه بنهضتنا الصناعية التى امتصت أعدادا ممن كانوا يعيشون على الأرض الزراعية ، وكذلك باستصلاحنا للأراضى بحيث تمتص أعدادا أخرى أى كما حدث فى مديرية التحرير ويحدث فى الوادى الجديد •

مظاهر التفكك فى الاقتصاد العربى :

ونلمح التفكك فى هذا الاقتصاد فيما يلى :

١ ـ صعوبة التسويق :

فلا يوجد بلد عربى واحد ينتج من الحاصلات والسلع ما يغطى حاجاته ، ولا يوجد بلد عربى لا يجد صعوبة فى تصريف فائضه من الحاصلات • ومع أن حاجات قطر عربى هى بنفسها فائض قطر آخر الا أن تبادل الحاجات والفائض لا يتم بين هذه الأقطار انما يلجأ المحتاج منها الى شراء ما ينقصه من الأسواق الخارجية ، ويلجأ صاحب الفائض منها الى توزيع فائضه فى الأسواق الخارجية أيضا ، وبكثير من العنت والارهاق فى الحالتين •

فسوريا كانت تنتج ٨ ١/٢ مليون أردب من القمح وهو ما يزيد على حاجتها كثيرا وكانت تجد صعوبة فى توزيع هذا الفائض على حين أن مصر تنتج عشرة ملايين أردب من القمح وهو ينقص عن حاجتها بمقدار أربعة ملايين أردب تستوردها مصر من الخارج • وتستورد مصر من ايطاليا حوالى ١٢٠٫٠٠٠ طن من القمح الصلب ذى العرق الذى يصلح للمكرونة والفطائر بسعر مرتفع ،

على حين أن قمح سوريا هو من هذا النوع وتجد صعوبة فى توزيعه نظرا لمنافسة القمح الأمريكى . ولدى المغرب فائض من القمح أيضا يصدره الى أوربا .

والقطن السورى قصير التيلة ويصلح للخيوط والمنسوجات السميكة ، على حين أن القطن المصرى طويل التيلة ويصلح لصناعة المنسوجات الرقيقة ، وتستطيع سوريا أن تشترى من مصر ما تستورده من الخارج من هذا النوع من المنسوجات وتدفع فيه ٢٠ مليون ليرة سنويا ، فى نظير أن تشترى مصر من سوريا حاجتها من القطن قصير التيلة وتستطيع بذلك أن تصنع منسوجات قطنية رخيصة تقف بها فى سوق المنافسة بالبلاد العربية ، وتحل مشكلة تصريف القطن . وتستورد كل البلاد العربية المنسوجات القطنية من أوربا وفى مصر ما يسد هذه الحاجة .

وسوريا تزرع الدخان بنوعيه الشرقى والفرجينى ، وقد زاد ما تستطيع أن تصدره منه فى أيام الوحدة الى عشرين ضعفا تقريبا ، ومصر تشترى حاجتها من الدخان من الأسواق الخارجية لأنها لا تزرعه ، وكذلك الجزائر والعراق عندها فائض من الدخان .

وتستورد الجمهورية العربية المتحدة اللحوم المثلجة والأصواف الخام من الخارج ، على حين أن فى بعض البلاد العربية فائضا من اللحوم ، كالسودان وليبيا .

ويجد لبنان صعوبة فى تصريف محصوله من التفاح مع احتياج أغلب البلاد العربية اليه . على حين تستورد لبنان ثلاثة أرباع حاجتها من الحبوب من الخارج وهى متوافرة فى البلاد العربية الأخرى كالمغرب وسوريا والعراق .

وتستورد الجمهورية العربية المتحدة حاجة صناعاتها الصوفية من الصوف الخام من الأسواق الأوربية مع غنى الوطن العربى بثروته الحيوانية .

وتستهلك البلاد العربية بن البرازيل وفى اليمن فائض من البن .

ومثل هذا يقال فى المصنوعات الحديدية ، وعن قريب يصبح لدى الجمهورية العربية المتحدة فائض منها ، وكذلك فى اطارات السيارات والجمهورية العربية

تصدرها من زمن ، وكذلك النظائر المشعة التى تستخدم فى الأغراض السلمية ، وعن قريب تنتج مصر منها ما يكفى الوطن العربى كله •

وهكذا توجد مشكلات اقتصادية فى الوطن العربى نتيجة لصعوبة التسويق ، نتيجة للتفكك وانعدام التوافق بين الحاجيات والفائض فى الحاصلات •

٢ ـ صغر حجم التبادل التجارى نسبيا بين البلاد العربية :

ففى ضوء ما تقدم كان يجب أن يكبر حجم المبادلات التجارية بين أجزاء الوطن العربى على حساب حجم المبادلات مع العالم الخارجى • ولكننا نجد الأمر على العكس من ذلك • فصادرات الجمهورية العربية المتحدة الى البلاد العربية كانت الى وقت قريب لا تزيد على ١٠٪ من مجموع صادراتها ، كما تقل وارداتها من هذه البلاد عن ٥٪ من مجموع وارداتها • وتبلغ هذه النسبة مع العراق ٣٩٪ فى حالة الصادرات و ٣٫٥٪ فى حالة الواردات ، ومع السودان لا تتجاوز الصادرات ٢٫٥٪ ولا تتجاوز الواردات ١٪ ولقد زادت هذه النسب قليلا فى الوقت الحاضر •

ومعنى هذا أن الاقتصاد العربى مفكك غير متكافل ، وأنه مقسم الى عدد من الاقتصادات المستقلة تذهب فائدة عملياتها للأجانب •

٣ ـ التفاوت النسبى فى الأيدى العاملة :

فنحن نجد أن كثيرا من مجالات الانتاج معطلة فى العراق بسبب قلة الأيدى العاملة • ففى العراق أكثر من عشرين مليونا من الأفدنة الصالحة للزراعة ولكنها غير مستغلة لعدم توافر العمال الزراعيين ، وكذلك الحال معها فى ميدان الصناعة فامكانياتها معطلة لنفس السبب • وكذلك تشكو سوريا قلة فى الأيدى العاملة مما يعطل استغلالها لمواردها الطبيعية ويعوق نموها الصناعى • وفى السودان حوالى مائة مليون فدان لم تستغل بعد نظرا لقلة الأيدى العاملة • ويقوم بزراعة القطن زارعون يستجلبون من غرب أفريقية • وعندما يحين موسم جنى القطن تغلق المدارس ليعمل التلاميذ والمعلمون فى جنيه بالاضافة الى العمال والجنود والمساجين لقلة الأيدى العاملة •

ولو تحقق التكامل الاقتصادى لأمكن أن تزود الجمهورية العربية المتحدة هذه البلاد ببعض حاجتها من الأيدى العاملة . وما ذلك لأن فى الجمهورية العربية المتحدة فائضا من هذه الأيدى فان مشروعاتها الضخمة ما تلبث أن تمتص كل ما لديها من العمال ، ولا لأن فيها من يحب الهجرة من أهلها فما أحد من المصريين يحب أن يترك بلده ، ولكن على سبيل ايثار الانسان لغيره بالخير وبه خصاصة كما يحدث فى حالة اعارة المعلمين وأساتذة الجامعات والفنيين من الأطباء والقضاة والمهندسين ، ومسلم بأن عندنا نقصا كبيرا فى كل هؤلاء .

٤ ــ التفاوت فى رأس المال المطلوب للتنمية :

فبعض البلاد العربية بدأت فيها النهضة الاقتصادية وحركة التصنيع وبرامج التنمية من زمن ليس بالقصير ، وهى لكثرة مشروعاتها وبعد أهدافها تحتاج دائما الى مزيد من رأس المال الذى يمكن من تحقيق الخطط . وفى مثل هذه البلاد تضيق مواردها مهما عظمت عن طموحها الاقتصادى والاجتماعى فتكون دائما فى حاجة الى مزيد من رأس المال . هذا على حين أن بعض البلاد العربية الأخرى تتكدس فيها رؤوس الأموال دون أن تستغل فى شىء من الاستثمار أو التنمية . وبذلك يتعطل نمو شعوب عربية على حين لا تستطيع شعوب أخرى أن تفيد بما أفاء الله عليها من مال .

فالسعودية مثلا تتدفق عليها ثروة البترول ، ويضيع معظمها عبثا وسفها فيما لا يعود على شبعها بالنمو ، أو تكدس بلا استثمار فى أية مشروعات انتاجية ، ويبقى الشعب السعودى فقيرا مهضوم الحقوق منخفض مستوى المعيشة ، على حين أن الجمهورية العربية المتحدة تنفق كل مليم من ايرادها الضخم وكل ميزانيتها الهائلة فى المشروعات الانمائية ، وتقصر هذه الموارد عن هذا الطموح . وكذلك الحال فى السودان على حين أن الكويت فيها رؤوس أموال مكدسة تعجز عن استثمارها لصغر مساحتها وقلة سكانها ، والاجدر أن تستخدم فى تنمية الوطن العربى ــ أى جزء من أجزائه . وغنى عن البيان أن ايرادات البترول العربى وحدها تكفى لتغطية كل نفقات المشروعات الانتاجية والصناعية فى الوطن العربى كله . فالوطن العربى ليس فقيرا فى رؤوس الأموال ولكنه مفكك ، وقد بلغت ايرادات الحكومات العربية من عائد البترول فى سنة ١٩٦٠ نحوا

من ١٥٠٠ مليون دولار ، ومع ذلك فالانتاج والنمو معطلان فى معظم البلاد العربية لعدم وجود ما يكفيهما من رأس المال ، مع أن نقل المال داخل الوطن العربى أسهل بكثير من نقل أى مقوم آخر من مقومات الانتاج الاقتصادى •

٥ ــ التفاوت فى الخبرات الفنية :

فالنمو الاقتصادى فى حاجة دائمة الى علوم ومعارف وخبرة فنية ، وكلها غير متوافرة فى معظم البلاد العربية • فالسودان لم تقم به بعد أى حركة تصنيع جدية ، والسبب ، ضمن أسباب أخرى ، هو قلة المهارة الفنية • والمملكة الليبية متعلقة باستنباط البترول من أراضيها وهو محتاج أيضا الى علم وخبرة فنية • والأراضى الزراعية المعطلة فى العراق وسوريا محتاجة فوق كل شىء الى علم وخبرة بمشروعات الرى ، هندستها واقامتها ، وتوزيع الماء المترتب عليها • والبترول العربى فى أيدى الأجانب لأن الشعوب العربية التى يقع فى أراضيها لا تملك العلم ولا الخبرة الفنية •

والعلم والخبرة الفنية متوافران فى الجمهورية العربية المتحدة وتستطيع أن تقدمها لشقيقاتها ، وتستطيع أن تدرب لهذه الشقيقات الاخصائيين والفنيين من أبنائها أنفسهم ليخدموا مواطن رؤوسهم • ولكن التفكك هو المسئول عن ضياع هذه الفرص كلها على الاقتصاد العربى •

٦ ــ المنافسة بين اقتصاديات البلاد العربية :

وهذه من أغرب الخصائص الاقتصادية فى الوقت الذى فيه يكون التكامل من أشد الضرورات • فضعف الراوبط الاقتصادية بين البلاد العربية يجعلها كلها تتجه شطر الأسواق الخارجية بحاصلاتها المتشابهة فتستحيل العلاقة بين اقتصادياتها الى علاقة تنافس شديد • ومن الأمثلة على ذلك أن القطن السودانى ذا التيلة الطويلة هو أكبر منافس للقطن المصرى فى السوق العالمية • وزيت الزيتون التونسى أقوى منافس لزيت الزيتون المغربى •

ويقوى هذه المنافسة الضارة أن الاقتصاد العربى يسير بطريقة عشوائية مما يسبب تشابه الحاصلات وتشابه المصنوعات ، وتجزئة رؤوس الأموال ، وبذلك ترتفع التكاليف ويزيد العرض للسلعة الواحدة فتنخفض الأسعار وتستفيد الدول الاستعمارية التى ترحب بهذا التنافس •

من المسئول عن هذا التخلف والتفكك ؟

لا شك أن الاستعمار هو المسئول الأول عن كل ما سبقت الاشارة اليه من مظاهر التخلف والتفكك فى الاقتصاد العربى • أن الاستعمار العثمانى مسئول أولا عندما نشر الاقطاع فى الوطن العربى منذ استولى عليه فى أوائل القرن السادس عشر ، وقضى على الصناعة فيه بعد أن نقل جميع الصناع الى القسطنطينية • ثم باهمال المرافق الاقتصادية طول مدة حكمه الطويل ، حتى لم يأت القرن التاسع عشر الا وكان الاقتصاد العربى مجرد حطام اقتصادى أو شبه خراب • ففى ذلك الوقت كانت الترع قد ارتطمت وهجمت الصحراء على الأراضى الزراعية وأكلتها ، وفر الفلاحون من الأرض اذ كان التسول وجمع فتات الحقول ومضايف الاتراك أجدى من العمل ، وأغلق التجار حوانيتهم فرارا من جنود الانكشارية الذين كانوا يجلسون على أبواب الحوانيت يفرضون حمايتهم على أصحابها ويقاسمونهم فى الربح ورأس المال معا •

وفى نفس الوقت تقريبا – أى فى آخر القرن الخامس عشر – أدت أطماع الاستعمار التجارى الغربى الى كشف طريق رأس الرجاء الصالح وتحويل تجارة الشرق اليها ، وفقد الوطن العربى أغزر مصادر دخله • فاجتمع على العرب خرابان ، خراب الرأسمالية التجارية الغربية ، وخراب الاستعمار العثمانى •

وفى القرن التاسع عشر حدث تقدم العلوم الطبيعية وتوصل الغربيون الى سلسلة من الاختراعات أدت الى الانقلاب الصناعى وقيام صناعة الانتاج الكبير • وأصبحت الرأسمالية الصناعية فى حاجة الى مواد خام للمصانع الحديثة والى أسواق لتصريف منتجاتها ، والا ارتطم الانقلاب الصناعى وأفلست الرأسمالية • ولهذا عمل الاستعمار الغربى على احتلال الوطن العربى واقتسامه ، ثم ظهر البترول فى هذا الوطن فى أول القرن العشرين فزادت قبضة الاستعمار قوة على رقبة الاقتصاد العربى •

ترتب على هذا أن عمل الاستعمار الغربى على جعل الاقتصاد العربى تابعا له ومجرد عامل مساعد يسخر لخدمته وانتعاشه • أصبح الاقتصاد العربى تابعا للاقتصاد الغربى فى الانتاج ، وفى التبادل ، وفى الاستهلاك ، وفى الأسعار • وتتضح هذه التبعية الاقتصادية من بعض الأمور :

فالاستعمار الغربى هو الذى فرض عــلى اقتصـــاد الوطن العــربى ذلك التخصص الضيق • فحصر الاقتصـــاد المصرى فى دائرة انتاج القطن لكى تكون مصر مزرعة قطن لمصانع لانكشير •

والاستعمار الغربى هو الذى حـــارب الصناعة فى الوطن العــربى ، فشغل رؤوس أمواله كلها فى المشروعات الزراعية دون الصناعيـــة ، واحتـــل المناطق التى بها المعادن وحرم على أهل البلاد السفر اليها أو التنقيب فيهـــا كما حـــدث فى مصر فقد كانت مناطق الحدود أى الصحراء محرمة على المصريين حتى لا يتخذوا منها مجالا لنشاطهم الاقتصــــادى وكان محافظو الحـــدود دائمـــا من الانجليز لأســـباب منها هذا • وقد عثرت بعثـــات البحث عن البترول فى مصر عـــلى آبار غنية جدا فى الأماكن التى سبق أن تظاهرت الشركات الاســـتعمارية بالتنقيب فيها واعلان خلوها من البترول ، كما حاربو التعليم الصناعى •

والاســـتعمار الغربى ربط النقـــد العربى بالنقد العربى ، فـــكانت البـــلاد العربية تتداول نقد البلد الاســـتعمارى المحتـــل لها ، ففى الجزائر كان الفـــرنك الفرنسى هو المستعمل ، وفى الكويت الروبية الهندية ، وكان نقـــد العراق هـــو النقد الانجليزى منذ الاحتلال البريطانى الى سنة ١٩٣١ ، وكانت ليبيـــا تتعامل بالليرة الايطالية • واتخذت هذه السيطرة النقدية أحيانا شكل ربط النقد العربى بالنقد الاستعمارى على شـــكل جعل النقد الأجنبى غطاء للنقـــد الوطنى • وقد ربط الجنيه المصرى بالجنيه الانجليزى على هذا النحو من سنة ١٨٩٨ الى ســـنة ١٩٤٧ • وارتبط النقد السورى بنفس الطريقة بالنقـــد الفرنسى من سنة ١٩٢٤ الى ســـنة ١٩٤٩ •

دائما لجأ الاســـتعمار الى هذه الحيلة تسهيلا لتجارته ، وتحقيقا لأمن رؤوس أمواله فيمكنها أن تشغل فى الوطن العربى دون تعرض لتقلبات فى سعر النقد • والاستعمار الغربى احتكر حاصـــلات الوطن العربى ، فمثلا القطن كانت انجلترا تحتكر شراءه ، فتشتريه منا بالثمن الذى تراه ثم تبيعه لغيرها والربح لهـــا • ومثل هذا كان فى العراق وفلسطين وسوريا •

والاستعمار الغربى احتكر وظيفة البنـــوك فى المجتمعـــات العربية ، فـــكان

ينشىء البنوك الأجنبية : البنك الأهلى وبنك باركليز والكريدى ليونيه والبنك العثمانى . وهذه تجمع المدخرات الوطنية وتوجهها لتمويل الحاصلات الزراعية أو التجارة الخارجية التى هى فى مصلحة الاستعمار ، وتمنع استخدام أموالها فى الأغراض الصناعية . وكانت تستورد رؤوس الأموال الأجنبية وتوظفها ثم تصدرها هى وأرباحها الى الخارج . بل أنها كانت برؤوس أموالها الضئيلة تحتكر أرباح جميع المدخرات الوطنية . ففى سنة ١٩٥٦ وجد أن رؤوس أموال المصارف الأجنبية فى مصر تبلغ ٥٫٢٠٠٫٠٠٠ جنيه على حين أنها كانت تستثمر لصالح نفسها ودائع وطنية تبلغ مائة مليون جنيه .

وهكذا كان الاستعمار يتحكم فى الاقتصاد العربى ويوجهه لمصالحه الخاصة وقد كانت هذه السياسة تعمل على احداث الرخاء عندنا فى عهود الوزارات الضالعة مع الاستعمار ، على حين كانت تختلق الأزمات الاقتصادية وتحدث الضائقات المالية فى عهد الوزارات الوطنية ، وكانت تضغط بهذه الوسيلة لتحقيق أهدافها السياسية . ولهذا قامت جمهوريتنا بتمصير المصارف الأجنبية فى سنة ١٩٥٧ ، كما حدث نفس الشىء فى سوريا فى عهد الوحدة .

ثم أن الاستعمار هندس المواصلات فى الوطن العربى بحيث تسهل اتصاله للدول الاستعمارية ، وتعرقل هذا الاتصال بين أجزاء الوطن . فالسكك الحديدية كانت توصل مناطق الانتاج بموانىء التصدير فى كل جزء من الوطن العربى على حدة دون أن تصل الى الأقطار العربية المجاورة . فخطوط السكك الحديدية المصرية لا تتصل بخطوط السودان ، بل وجعلت مقاسات القضبان مختلفة فى القطرين . وأقيمت اسرائيل لتقطع صلة المواصلات بين مصر وبلاد الشام بل وقطعت خطوط المواصلات الجوية فكان المسافر من القاهرة الى الرباط فى بلاد المغرب لا يجد طائرة تسير به على خط الساحل المستقيم ، بل يجب أن يسافر أولا الى روما أو الى باريس أو الى مدريد ثم من هناك يطير الى الرباط .

والآن عرفت المسئول عن تخلف الاقتصاد العربى وتفككه . وقد كانت هذه السيطرة الاستعمارية على الاقتصاد العربى وسيلة للسيطرة السياسية ،

بل كانت أخطر منهـا ، وقد بقى الاستعمار الاقتصـادى موجودا فى بعض البلاد العربية حتى بعد أن تخلصت من الاستعمار السياسى •

ضرورة التكامل الاقتصادى ومدى امكانه :

تبين مما سبق أن دولة من الدول العربية لا تملك بمفردها من الموارد ما يسد احتياجاتها ، أو يمكنها من أن تحقق للشعب العربى الذى يسكنها مستوى لائقا من المعيشة ، أو يقدرها على تحقيق الاكتفاء الذاتى أو الاستقلال الاقتصادى لنفسها • ثم أن هـذا الضعف الاقتصادى يجعـل كل دولة عربية غنيمة سـائغة لدولة استعمارية تستغل اقتصادها لمصلحتها الخاصة •

من هنا تظهر الحاجة الى التـكامل الاقتصادى فى الوطن العربى كله • ويظهر أن هـذا التكامل هو الحل الوحيد لـكل من الاستقلال الاقتصادى والاكتفاء الذاتى والانتعاش والنمو •

وهـذا التكامل ممكن جدا من الناحية الموضـوعية لأن انتاج الوطن العربى من كل المواد يكفيه ويفيض بعضه للتبادل الخارجى •

فالوطن العربى ينتج حوالى ٤٦٢ مليون أردب من القمـح وهـو ما يعادل حوالى ٥ر٣٪ من الانتاج العالمى ، على حين أن مجمـوع سكان الوطن العربى يبلغ حوالى ٣٪ من مجموع سكان العـالم ، ومعنى هـذا أن نصيب الفرد فى الوطن العربى من القمـح يزيد على متوسط نصيب الفـرد فى العالم كله • ونحن اذا قابلنا ما تصدره المغرب وسـوريا والعـراق من القمح بما تسـتورده مصر ولبنان والأردن والسعودية لكانت صـادرات الوطن العربى من القمـح أكثر بكثير مما يستورده منه ، ومثل هـذه الحقائق تصـدق فى غير ذلك من الحبوب الغذائية كالذرة والأرز ، فالجمهورية العربية المتحدة تستطيـع أن تسد بمفردها حاجة كل الوطن العربى من الأرز ، هـذا وان كان الاكتفاء الذاتى يصـدق أيضا على محصـول الفواكه فى البـلاد العربية ، فمحصول الوطن العربى من الكروم يبلغ ١/٤ ٣ مليون طن أى يساوى ٨٪ من الانتاج العـالمى ، ومن الموالـح ٥ر١ مليون طن أو ما يعـادل ٩٪ من الانتاج العالمى ومن البـلح ٨٥٪ من الانتـاج العالمى • ونفس الحقيقة تصدق على الزيـوت النباتية ، وعن الثروة الحيوانيـة

وقد سبقت الأرقام الخاصة بها ، وهى أرقام قابلة للزيادة الكبيرة اذا بذلت عناية كافية بالثروة الحيوانية .

أما امكانيات الاكتفاء الذاتى فى ميدان الصناعة فى حالة تكامل الاقتصاد العربى فتتضح من أن البترول العربى لا يستهلك منه فى الوطن العربى الا بنسبة ١٠٪ فقط والباقى يستهلك فى الخارج يضاف الى ذلك ما يوجد عندنا من الفحم ومساقط المياه . والقطن المصرى لا يصنع منه داخل الجمهورية الا نسبة ٣٠٪ من محصوله ، على حين أن ما يصنع من المنسوجات القطنية فى البلاد العربية كلها لا يزيد على ١٣٠ ألف طن من خيوط الغزل ، ونحو ٩٠٠ مليون متر من المنسوجات ، وهى نصف ما تستهلكه الشعوب العربية ، وليس من تكامل الاقتصاد ، وليس من الحكمة الاقتصادية أن يباع القطن العربى خاما بالثمن الرخيص ليعود فيستورد من الخارج مصنعا بأغلى الأثمان ، وبالوطن العربى كثير من المعادن وبوفرة تكفى احتياجاته أو أنها صنعت فى داخله ولم تصدر خامات الى الخارج .

وقد سبقت الاشارة الى توافر رؤوس الأموال العربية ، والى أن السوق العربية تستطيع أن تستوعب الانتاج الكبير لو أنه تحقق للعرب . ولم يعد العلم والمهارة الفنية سرا الآن فى مختلف أنواع الصناعات .

ان التكامل الاقتصادى العربى هو الحل الوحيد للاكتفاء الذاتى وللاستقلال الاقتصادى الذى هو دعامة الاستقلال السياسى ، ولا خير فى استقلال سياسى يكون أصحابه تحت رحمة الاستعمار يستطيع أن يجوعهم متى أراد ، لأن الجوع هو أساس الذل ، سواء أكان ذلا واقعا على الفرد أو كان ذلا واقعا على الجماعة .

ولقد أدركت الأمم الغنية المتقدمة أهمية التكامل الاقتصادى فعملت على تحقيقه بينها . وهذه هى « السوق الأوربية المشتركة » التى وقعت اتفاقيتها بروما فى ٢٥ من مارس سنة ١٩٥٧ بين ألمانيا الغربية وفرنسا وايطاليا وهولندا وبلجيكا ولوكسمبرج . وتعمل انجلترا على الانضمام اليها الآن ولكن فرنسا تعارض فى ذلك أشد المعارضة ، كما تفكر دول كالدانيمرك والنمسا وسويسرة والسويد فى الانضمام اليها .

وهدف هذه السوق تنسيق النشاط الاقتصادى بين الدول المشتركة فيها

بوضع النظم التى تكفل حرية حركة رءوس الأموال والسلع بينها • وهو تنسيق يضر بالاقتصاد العربى من غير شك لأن من شأنه أن يضيق فرص أسواق هذه الدول أمام السلع العربية •

فاذا كانت البلاد المتقدمة قد لجأت الى فكرة السوق المشتركة بكل ما يتبعها من تعديل النظام الجمركى بينها ، وحصص الصادرات والواردات وتبادل الخدمات والمهارات ، ألا يجدر بالبلاد المتخلفة أن تحقق تكامل اقتصادياتها بتنظيم من هذا النوع ؟

وقد تنبه العرب الى أهمية مثل هذا التكامل ، ولكن هذا التنبه لم يبلغ بعد مرتبة الوعى أو العقيدة ، ولم يلق ما هو جدير به من الاخلاص لقضية الاقتصاد العربى • ومن الأدلة على هذه القضية بشطريها أن اللجنة السياسية بالجامعة العربية أصدرت قرارا فى ٢٢ مايو سنة ١٩٥٦ بتشكيل لجنة من الخبراء العرب لوضع مشروع الوحدة الاقتصادية • ووضعت اللجنة مشروعا لتحقيق الوحدة ، تقحته « لجنة الشئون الاقتصادية والوحدة » وأحالته الى المجلس الاقتصادى فوافق على المشروع فى ٣ يونية سنة ١٩٥٧ ، وأحاله الى اللجنة السياسية ، وما زال الى الآن حبرا على ورق • وقد تضمن المشروع كثيرا من الاقتراحات النافعة كتحرير العلاقات الاقتصادية بين الدول العربية من حيث الجمارك ، وانتقال الأشخاص ورءوس الأموال أو السلع ، وحرية العمل والاقامة وممارسة النشاط الاقتصادى واستعمال وسائل النقل والموانىء والمطارات المدنية ، وتلافى ازدواج الضرائب ، الى آخر ذلك من الاجراءات •

ومن المحاولات أيضا انشاء بنك عربى للانشاء والتعمير ، وصدر به قرار المجلس الاقتصادى فى ٣ يونية سنة ١٩٥٧ ويقوم المشروع على انشاء مؤسسة مالية برأس مال يبلغ ٢٠ مليون من الجنيهات المصرية تسهم فيه كل من الدول العربية ، ويتولى تمويل مشروعات التنمية بالاقراض أو بضمان القروض • ومع ذلك فقد رفضت بعض الدول العربية الاسهام فيه كالعراق والكويت — هذا المشروع هزيل من أساسه فان رأس ماله لا يكاد يزيد على رأس مال مصنع واحد كمصنع الحديد والصلب فى الجمهورية العربية المتحدة •

ومن هنا نرى أن تكامل الاقتصاد العربى ليست المشكلة فيه مشكلة ضرورة

أو امكان فهذا من المسلمات الآن ، ولكنها مشكلة وعى وضمير وخلوص نية قبل كـــل شىء •

والتكامل الاقتصـــادى للوطن العربى لا يتم الا اذا اتخذت بعض الاجراءات المتوصـــلة اليه مثـــل :

١ ـــ ازالة الحواجز الجمركية بين الأقطار العربية •

٢ ـــ وضع تخطيط شامل للنشاط الاقتصادى العربى يحقق التكامل والتعاون ويقضى على مظاهر التنافس •

٣ ـــ وضع نظام يســـهل تبادل الانتاج كرأس المال والخبرة الفنيـــة والعلم والأيدى العاملة بين جميع أجزاء الوطن العربى •

٤ ـــ انشاء شىء من نوع السوق المشتركة بين الدول العربية •

٥ ـــ توحيد طرق المواصلات بين البلاد العربية ووصلها ، وتوحيد مقاساتها •

٦ ـــ وضع نظام موحد للنقد •

٧ ـــ توحيد الموازين والمكاييل •

٨ ـــ ويستلزم الامر فوق هذا كله أن توضع سياسة اقتصادية تجعل خيرات هذا الاقتصاد العربى للعرب لا للاجانب ولا للدول الاستعمارية ، وتجعل فائدته تعود على الشعوب العربية لا على حفنة قليلة من المستغلين تحتكر خيرات الاقتصاد فى معظم البلاد العربية • الاشتراكية هى العلاج ! !

وهناك جهـــود كبيرة مبذولة الآن فى اطار جامعـــة الدول العربيـــة لتحقيق الوحـــدة الاقتصـــادية •

البترول العربى كمثال للإستغلال الإستعمارى

البترول العربى مثال لاستغلال الاستعمار لمـــوارد الاقتصاد العربى ، ومثال لتعبئة هذا الاقتصاد الغربى • وهو أيضا مثال يبين كيف أن العرب يملكـــون من الموارد ما يكفى لانعاش الاقتصاد العربى لو تحقق التكامل الاقتصادى المنشود

وربما كان أول مغزى لتاريخ استخراج البترول من الوطن العربى هــو أنه بدأ واســتمر ، لا كضرب من البحث العلمى أو التنقيب الكشفى أو الاســتثمار الاقتصــادى ، ولكن كمعركة استعمارية قائمة على التنافس والمؤامرة والضغط والتهديد وكل ما ينعطف على ذلك من أساليب الاستعمار •

فمثلا فى أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها اشتد التنافس الاســتعمارى على اقليم المــوصل بالذات لأن البترول كان قــد كشف فيه بواســطة الشركة التركية ، وهى شركة انجليزية • ووجهت انجلترا حملة خاصة لاحتــلال الموصل ولما عقدت الهدنة أصرت انجلترا على جــلاء الجيوش التــركية عن الموصــل واحتلتهــا هى فى نوفمبر سنة ١٩١٨ • ثــم وقفت فرنسا وانجلترا بالمرصــاد فى الموصــل وذهب كليمنصو رئيس وزراء فرنسا الى لندن ينازع فيهــا الانجليز ولم يعــد الا وقد وقعت معه انجلترا اتفاق لندن (سبتمبر ١٩١٩) الــذى أعطى فرنسا الحق فى ربع أسهم الشركة التى ســتكون لاستثمار بترول الموصــل • وهنــا ثارت مطامــع الولايات المتحدة فدخلت معــركة التنافس على بتــرول الموصل فأنذرت انجلترا وطالبتها بأن تكون طــرفا فى كل مفاوضــات خاصــة بالبترول ، وضغطت ولــم تســكت حتى حصلت على ما حصــلت عليه فرنسا ، وهــو حق الربع فى شركة بترول الموصــل • ولما طالبت تركيــا بالموصــل فى سنة ١٩٢٣ على اعتبار أنها جزء من أملاكهــا ، وفى نفس الوقت ثــار العراق ضد الاحتلال البريطانى لوطنه ، هــددت انجلترا العــراق بتسليم الموصــل الى تركيا اذا لم توقع حكومته عقــد امتياز مــع شركة البترول التركية باســتغلال بترول الموصــل ، وتوافق أيضا على مــد أجل معاهدة الانتداب بين انجلتــرا والعراق ٢٥ سنة ، واضــطرت العراق الى قبول المعاهدة وامتياز الشركــة معا • وهنــا استصدرت انجلترا قرارا من مجلس جــامعة الأمم ببقــاء الموصــل جــزءا من الوطن العربى العراقى • أمــا أسهم الشركة فقد اقتســمتها انجلتــرا وأمريكا وفرنسا ، ولم يأخــذ العراق الا الحق فى أربع شــلنات أى عشرين قرشــا عن كل طن بترول تســتنبطه الشركة واتاوة سنوية قدرها ٢٠٠٠٠٠ جنيه • قاسمتها فيهــا تركيا فيما بعد لمدة سنة • ثم توسعت هذه الشركة الاستعمارية فأنشــأت شركتين مرتبطتين بها نالا حق استغلال بترول البصرة ومنطقة خانقين ، وغــيرت اسمها فأصبحت شركة بترول العراق •

ولما حصلت انجلترا على امتياز استنباط بترول الكويت فى سنة ١٩٣٤ نافستها أمريكا ودخلت شريكة معها بحق النصف فى سنة ١٩٤٦ بعد الحرب العالمية الثانية ، وأنشئت شركة بترول الكويت على هذا الأساس .

ولم يكن سر تمسك فرنسا باحتلال الجزائر ، ثم محاولتها اقتطاع الصحراء منها الا طمعا فى بترول الجزائر .

وهكذا نجد أن مسألة بترول الوطن العربى هى مسألة استغلال استعمارى قبل كل شيء .

والمغزى الثانى لمسألة البترول العربى هو أن الأجانب المستعمرين هم الذين يجنون أكبر نصيب من أرباحه ، فهو يقوم على احتكارات أجنبية مستغلة .

فالشركات الأمريكية تحتكر ٦١٪ من انتاج البترول العربى ، والشركات البريطانية والهولندية تحتكر ٢٣٪ منه ، والجزء الباقى منه تحتكره شركات أجنبية أخرى ألمانية ويابانية .

وبترول الكويت وهى أولى الدول العربية انتاجا للبترول يحتكره شركة بترول الكويت وهى أمريكية وبريطانية بحق النصف .

وتليها فى الانتاج المملكة السعودية ويحتكر بترولها شركة الزيت العربية الأمريكية (أرامكو) وهى أمريكية خالصة .

والثالثة فى الانتاج هى العراق وشركتها مرابعة بين أمريكا وبريطانيا وفرنسا وهولندة . ومثلها شركة بترول قطر وبنفس النسب ، ويضاف اليها امتياز آخر لشركة شل مناصفة بين انجلترا وهولندة .

وشركة البحرين أمريكية خالصة . وتتقاسم أمريكا وانجلترا وفرنسا شركات الاستغلال فى بقية أجزاء الوطن العربى من الخليج العربى الى اليمن الى ليبيا وتونس ، أما المغرب فتولى بترولها شركة ايطالية .

ولا يشذ عن هذا النمط الاستغلالى المطلق الا اليمن فشركتها يمنية بنسبة ٧٥٪ وألمانية بنسبة ٢٥٪ ، والجمهورية العربية المتحدة فمع وجود شركات أجنبية كشركة شل وشركة موبيل أويل ، فهناك الشركة الشرقية للبترول وهى

مصرية بنسبة ٥٠٪ وأجنبية بنسبة ٥٠٪ ، وشركة آبار الزيوت المصرية وهى مصرية بنسبة ٦٧٪ وأجنبية بنسبة ٣٣٪ ، كما توجد الجمعية التعاونية للبترول وهى مصرية ١٠٠٪ ، والشركة العامة للبترول وهى مصرية ١٠٠٪ • ثم أن جميع الشركات خاضعة لتخطيط الدولة ورقابتها ممثلة فى المؤسسة العامة للبترول •

ثم أن هذه الثروة لا ينتفع العرب بها كثيرا ، فالعالم العربى لا يستهلك الا ١٠٪ من انتاجه من البترول ، ويذهب الباقى كله الى أوربا خاما رخيصا ليكرر هناك وتباع منتجاته بأغلى الأثمان •

والشركات الأجنبية كانت تستولى على معظم ايراد البترول ولا تعطى البلاد العربية التى تستخرجه من أراضيها الا نسبة ضئيلة جدا حتى سنة ١٩٥١ عندما أمم الدكتور محمد مصدق بترول ايران فخافت الشركات الأجنبية التى تستغل البترول العربى فرفعت بعد الحاح نصيب الدول العربية الى نصف العائد بعد استيفاء التكاليف • ومع ذلك فان هذه الشركات تتحلل من هذا المبدأ فتنظم حساباتها بحيث تدفع ما تريد أن تدفعه بحجة ما تدعيه من الانفاق على الصيانة والاصلاح والاحتياطى •

والمغزى الثالث لموقف البترول العربى هو أن الدول العربية بالرغم من هذا الاجحاف بحقوق شعوبها قد ربطت نفسها بهذه الشركات الأجنبية لمدد طويلة ، فشركات بترول العراق لا تنتهى امتيازاتها الا بين سنة ٢٠٠٠ وسنة ٢٠١٣ • وامتياز شركة بترول الكويت ينتهى سنة ٢٠٠٩ ، وامتياز شركة أرامكو ينتهى سنة ١٩٩٩ ، وامتياز شركة بترول قطر ينتهى سنة ٢٠١٠ ، ومعنى هذا أن هذا الاستغلال مستمر لمدة نصف قرن فوق ما سلف •

ويضاف الى كل هذا أن ما تتقاضاه بعض الحكومات العربية من عائد البترول لا يستثمر فى التنمية والانعاش الاقتصادى الذى يعود على عامة الشعوب العربية بالرفاهية ، وانما يبقى بعضه فى البنوك الأجنبية حيث يستثمر لصالحها ، أو يستولى على أكثره قلة من الناس تستأثر به دون أصحابه الحقيقيين من عامة الشعوب وتنفقه جزافا وسفها على شهواتها الخاصة •

والمغزى الرابع هو أن للوطن العربى مركزا خاصا من حيث الأهمية فى عالم البترول •

فانتاج الوطن العربى من البترول انتاج ضخم اذا قيس بالانتاج العـالمى • ففى سنة ١٩٦٠ أنتج الوطن العربى ٢٣٢ مليون طن من البترول أى ما يعـادل حوالى ٢٢٪ من الانتاج العالمى • وكان ترتيب الدول العربية فى هذا الانتـاج هو الكويت ٣٦٪ ثم السعودية ٢٨٪ ثم العراق ٢١٪ • وترتيبها بين الدول المنتجة للبترول فى العالم هو الرابعة والسادسة والسابعة على التوالى •

وبالوطن العربى غالبية احتياطى العالم من البترول فـلا يقل ما تحتـويه تربته من هذا المعدن النفيس عن ٦٠٪ من الاحتياطى العالمى على حين أن أمريكا ١٦٪ منه فقط • وقد قدر أن البترول العربى يمتد الى ١١٠ سـنة قادمـة فى المتوسط ، على أساس المستوى الحالى من الانتاج ، وقد استنبطت أمريكا ٦٠٪ من مخزونها من البترول على حين أن الوطن العربى لم يستنبط للآن الا ٧٪ من مخـزونه •

ويدير البترول العربى ٩٠٪ من مصانع أوربا أى أنه عصب الحياة الصناعية والاقتصادية فى هذه القارة ، حتى أنه عندما انقطع فيض البترول العربى عن أوربا فى أثناء الاعتداء الثلاثى على بور سعيد أغلقت المصانع الأوربية وتعطـل العمال وكاد الاقتصاد الأوربى ينهار •

والبلاد العربية تسيطر على البترول الأوربى سـيطرة تامة • فبعض البـلاد العربية تنتجه وتصدره كالكويت والسعودية والعراق ، وكلها تسيطر على طرق مواصلاته ، فهناك خمسة خطوط من أنابيبه تمر كلها فى الوطن العربى وهى تنقل ٤٠٪ من بترول الشرق الى أوربا ، على حين يمر الباقى منه وقدره ٦٠٪ بقنـاة السويس المصرية • وعندما حطمت الشعوب العربية هذه الأنابيب وتوقفت قناة السويس فى أثناء الاعتداء الثلاثى انقطع البترول عن أوربا وحدثت الأزمة التى سبقت الاشارة اليها •

ومن كل ما تقدم تظهر أهمية البترول العربى :

أولا : بما هو مصدر هام لرأس مال ضخم يكفى ــ بالاضافة الى غيره من المصادر ــ لأحداث أضخم برامج التنمية فى الوطن العربى •

وثانيا : بما هو عامل هام فى تكامل الاقتصاد العربى بكل ما يحتاج اليه هذا التكامل من مشروعات ومنتجات •

وثالثا : بما هو قوة فى يد العرب يستطيعون بها أن يضغطوا على الدول الاستعمارية لنيل حقوقهم على الأقل • أو احداث برنامج ضخم من التسلح لردع الصهيونية والدفاع عن الوطن العربى وعن الأمة العربية •

فاذا كانت قوة الوطن العربى ومنعته واستقلاله وتحرره تأتى فى مقدمة الأهداف العربية القومية ، فان التحرر الاقتصادى والاستقلال الاقتصادى والتكامل الاقتصادى والقوة الاقتصادية هى الوسائل الناجحة لتحقيق هذه الأهداف• ولا بد للحصول على هذه الوسائل من الاعتماد على كل مصادر الثروة العربية كعائد البترول ودخل قناة السويس وغير ذلك •

وقد بدأ فعلا هذا الاتجاه • وأتى هذا البدأ من ناحية جامعة الدول العربية منذ سنة ١٩٥١ حين دعت الى تشكيل لجنة من خبراء البترول ؛ تكونت واجتمعت وقررت اتخاذ سياسة بترولية عامة للدول العربية • وأنشىء بناء على اقتراحها مكتب دائم للبترول ألحق بالأمانة العامة للجامعة فى يونية سنة ١٩٥٤ مهمته العناية ببحوث البترول وجمع احصاءاته والعمل على تعريبه بانشاء معامل التكرير وشركات التوزيع •

وعقد المؤتمر العربى الأول للبترول بالقاهرة فى أبريل سنة ١٩٥٩ وناقش السياسة البترولية العربية • وكان من أهم قراراته رفع نسبة الأرباح التى تستولى عليها البلاد المنتجة له ؛ والعمل على انشاء شركات عربية وطنية تمارس كل عمليات صناعة البترول ، وتشجيع البحوث البترولية والتعاونى العربى فى مجال البترول • وعقد مؤتمر البترول العربى الثانى فى بيروت •

ثم أتى التحرر العربى فى ميدان البترول من ناحية الجمهورية العربية المتحدة ، وهى الدولة العربية الوحيدة التى نفضت عن نفسها غبار التخلف الاقتصادى ، وسارت خطوات جبارة فى سبيل التحرر الاقتصادى • فقد أنشأت الجمهورية « الهيئة العامة للبترول » فى سنة ١٩٥٨ للعناية بشئون البترول ورعايتها وتخطيط السياسة البترولية والسهر على تنفيذها • وقد وضعت الهيئة مشروعات لمدة خمس سنوات بعد دراسات مستفيضة لكل ما يتعلق بهذه الصناعة الهامة ، وبذلك تكون الجمهورية العربية المتحدة أول دولة عربية تدخل الصناعات البترولية ولا تكفى بمجرد استنباطه ، وقام فنيوها وخبراؤها

بالتنقيب عن البترول بأجهزتها الخاصة كما قامت بتصنيعه وتسويقه ، وبذلك تقوم جمهوريتنا بدور ريادى فى هذا المجال • وعلى هذا النحـو سارت العراق الآن فأنشـأت صناعة بترول وطنيـة عراقية تابعـة للدول وحطمت بذلك الاحتكار الاستعمارى لبترول العراق •

أجزاء الوطن العربى :

الوطن العربى ، ذلك الوحدة الجغرافية ، والوحدة الاقتصـادية ، مقسـم سياسيا الى أجزاء كثيرة ، تكون كل منها دولة أو دويلة أو لا دولة ولا دويلة فى ميزان الدول ، وان سميت كذلك •

وهذا التقسيم هو حالة مرضية أصابت هذا الوطن بفعل جرثومة اسـمها الاستعمار ، فالأصل فى الوطن العربى أنه وحدة سياسية واحدة ، أو وحدات معقولة العدد ولكنها مرتبطة ببعض مظاهر الوحدة • اما التفكك واما الانقسام الكلى الذى نراه الآن فمن فعل الاستعمار الغربى •

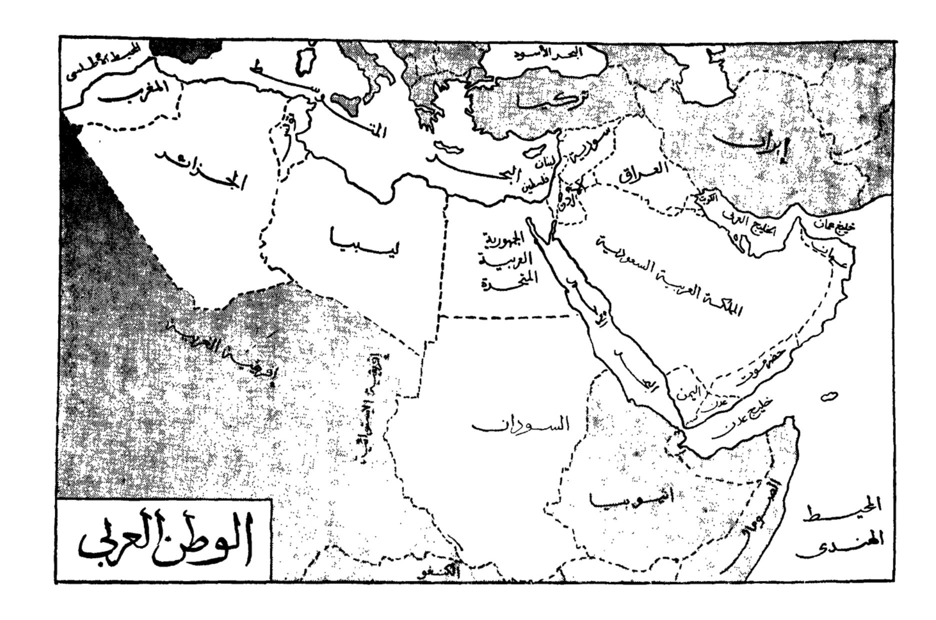
فعندما طمعت الدول الاستعمارية فى الوطن العربى ، كان عليها أن تقسمه الى أجزاء ، أولا ليسهل توزيعه بينها ، وثانيا لاضعافه فلا يقوى جزء منهـا على النهوض بنفسه ويطالب باستقلاله •

ففى افريقية قسم الاستعمار هـذه الوحدة المترابطة دائما الى خمسة أقسام منفصلة هى تونس ، الجزائر ، مراكش الفرنسية ، مراكش الاسبانية ، وطنجـة الدولية • وقسم وادى النيل الى مصر والسودان وفصلهما •

وقسم الاستعمار بلاد الشام ، تلك الوحدة المتميزة على مر التـاريخ ، الى أربع وحدات منفصلة هى سورية ، لبنان ، الأردن ، فلسطين •

وقسم الجزيرة العربية الى مملكتين هما اليمن (كانت) والسعودية ، والى عشرات من الامارات والمشـيخات ، حتى حضرموت قسـمها الاسـتعمار الى امارتين منفصلتين •

وهكذا انقسم الوطن العـربى الى أقسام لا تفرق بينها المظاهر الطبيعيـة أو المقومات الثقافية أو الفلسفات وطرق الحياة أو المصالح ، ولكن حدودا وهمية



الوطن العربي
المحيط الأطلسي
المغرب
الجزائر
تونس
ليبيا
البحر المتوسط
البحر الأسود
تركيا
إيران
سورية
لبنان
فلسطين
الأردن
العراق
الكويت
الخليج العربي
خليج عمان
عمان
المملكة العربية السعودية
الجمهورية العربية المتحدة
البحر الأحمر
اليمن
عدن
حضرموت
خليج عدن
السودان
أثيوبيا
الصومال
إفريقية الاستوائية
إفريقية الغربية
الكنغو
المحيط الهندي

مفتعلة تقطع استمرار مظاهر الوحدة المتوافرة • وأدى هذا التقسيم المفتعل الى تشتيت الاقتصاديات والامكانيات ، وجلب الضعف للجميع • وأوجد الاستعمار أسرات من الحكام ، وطبقات رجعيـة من المنتفعين والرجعيين تحالفت معه على الوطن • فاجتمع عليه جشع المحتل الغريب وخيانة المواطن المارق •

فالحدود بين هذه الأجزاء اما حدود فلكية وهمية لا يمكن لمسها أو التعبير عنها الا برقم لا وجود له كخط طول ٢٥° شرقا الذى يفصل بين مصر والمملكة الليبية ، أو خط عرض ٢٢° شمالا الذى يفصل بين مصر والسودان • واما حدود هندسية عبارة عن خطوط مستقيمة لا وجود لها الا بالقلم الأحمر على خريطة مطوية ، كتلك الحدود التى تفصل بين أقسام بلاد الشام ، وبين بلاد الشام والعراق وبينهما وبين السعودية ، أو التى تفصل بين اليمن وامارات الجنوب العربى ، واما مناطق محايدة تقع بين بلدين عربيين لمجرد الفصل بينهما ، كالمنطقة المحايدة بين السعودية والكويت •

وترتب على هـذا أن كثيرا مما يسمى دولا عربية لا يملك مقومات الدولة من الناحية الجغرافية • فالعراق ليس لها منفذ على البحر الا منفذ الخليج العربى الذى يباعد بينها وبين الدول التى تتعامل معها ، ولذلك ينقل بترولها فى أنابيب يمر بسوريا ولبنان • وسوريا لا تطل على البحر الا بمسافة صغيرة وفقدت أصلح موانيها وهى الاسكندرونه ، ومن ثم تضطر الى أن تتاجر عن طريق بيروت التى تتبع دولة أخرى هى لبنان • ولبنان حرمت من الأرض الزراعية التى تكفى لانتاج حاجيتها من الحبوب • والأردن قطر حبيس لا منفذ له تقريبا •

وترتب عليه ان كثيرا مما يسمى دولا عربية لا يملك مقـومات الدولة من الناحية الاقتصادية • فالعراق وسوريا ليس بهما من السكان ما يكفى لاستغلال مواردهما • والكويت ليس به منبع ماء صالح للشرب • والأردن صحراء ليس بها موارد ثروة حتى ضمت الضفة الغربية • ولبنان لا تمكنها مساحتها وامكانياتها من شىء الا هجرة نصف سكانها •

والمغزى الوحيد لكل هذا هو أن تكامل الوطن العربى ضرورى ، ووحدته حيوية • وان التكامل والوحدة هما الوضع الطبيعى فيه • وأن انقسامه هو أمر ضد طبيعته ، وضد مصالحه ، وضد تاريخه • ولولا الاستعمار الغربى لتحققت

الوحدة للوطن العربى عقب الحرب العالمية الأولى بعد انهيار الدولة العثمانيــة . ولقد كان من مزايا الاستعمار العثمانى للوطن العربى انه لم يضــع حواجز من أى نوع ، وانما احتفظ للوطن العربى بوحدته تحت الحكم العثمانى ، مما جعل الوحدة هى الأساس فى معاملاته وفى مفهوم مواطنيه .

هــذا هو الوطن العربى الواحد الذى كان مسرحا للأمة العربية الواحدة ، عليــه نشأت وفيه عاشت ونمت ، وفى سياق تفاعلها مع بيئته كونت حضــارتها العريقــة .

الفصل الثالث

الحضارة العربية

عرفنا كيف أن قيام الأمة العربية على أرض الوطن العربى . قد صحبته عملية ثقافية ، ترتب عليها وجود ثقافة عربية واحدة مشتركة ، كانت نتيجة لمعيشة الأمة العربية معا ومواجهتها لظروف الوطن الواحد ، وكانت فى نفس الوقت سببا فى تجانس هذه الأمة وتكاملها ووحدتها .

فالثقافة العربية اذن نتيجة وسبب ككل ثقافات الأمم والشعوب . الثقافة العربية نتيجة للمعيشة المشتركة للعرب فى مواجهة مواقف بيئية واحدة ، وسبب لتماسك العرب أيضا كأمة واحدة .

وقد عرضنا فى الفصل السابق بشىء من التفصيل لأثر الدين الاسلامى واللغة فى تكوين هذه الأمة ، وأشرنا الى العناصر الثقافية الأخرى من عادات وتقاليد وفنون مما ترتب على المعيشة الجماعية التى عاشها العرب معا وكانت من عوامل وحدتهم وتكوينهم كأمة واحدة ، جمعت بينهم على اختلاف منازلهم من الوطن العربى الشاسع ، وعلى اختلاف العقيدة التى عرفوا بها ربهم وعبدوه .

وقد أقام العرب حضارة عظيمة فوق هذا الوطن ، عرفت بهم فهى الحضارة العربية . وضربوا بسهم وافر فى كل جانب من جوانب الحياة الانسانية ، وابتكروا فيها جميعا مستحدثات من الأفكار والنظم والاجراءات والمنشآت والتآليف والآلات والمنتجات ، كان لها فضل كبير فى توحيدهم كأمة ، ورفع مستوى معيشتهم كجماعة بشرية ، وغلبتهم على غيرهم فى مضمار التنافس الأممى والقومى والدولى . وبهذه الحضارة فرض العرب أنفسهم على أقوام وأمم ماكانت لتتحضر كما تحضرت وحين تحضرت الا باتصالها بهم .

لقد أقام العرب لأنفسهم حضارة كاملة وافرة ، حضارة واحدة سادت فى جميع ربوع الوطن العربى من الخليج العربى الى المحيط الأطلسى ، ومن أرمينية

الى بحر العرب منذ أربعة عشر قرنا ، بل وسادت فيما وراء حدود هـذا الوطن حيث نزل العرب من حدود الهند الى أسبانيا والبرتغال وجزر البحر المتوسط وجنوبى ايطاليا لمدد تفاوتت بين قرن ونصف قرن فى ايطاليا وصقلية وبين سبعة قرون ونصف قرن فى الأندلس ، بل وما زالت آثارها باقية فى حضارة تلك الأقطار • ولقد كانت الحضارة العربية حضارة تامة المعالم • ففيها نظم الحكم والقانون ، وفيها الفلسفة والنظم الاقتصادية والاجتماعية ، وفيها الفنون والآداب ، وفيها الرياضيات والعلوم ، وفيها الزراعة والصناعة والتجارة • وكان للحضارة العربية فتوح رائعة فى كل هذه الميادين •

وتمام معرفة الانسان بالأمة العربية أن يعرف حضارتها وقدر هذه الحضارة • اذ من هم العرب ؟ انهم الوطن والأمة والحضارة ــ الوطن العربى والأمة العربية والحضارة العربية •

خصائص الحضارة العربية

الحضارة العربية حضارة عظيمة ، وانما سميت عربية لأن لها خصائصها المميزة التى تجعل منها حضارة قائمة بذاتها ، وحضارة متميزة بين الخطوات الأساسية التى اجتازتها البشرية من البدائية الى التحضر الحديث • فاذا ذكر المؤرخون الحضارة المصريةالقديمة والحضارة البابلية والحضارة الفينيقية ، واذا ذكروا الحضارة الاغريقية والحضارة الرومانية ، واذا ذكروا الحضارة الحديثة ، فانهم لا بد وأن يذكروا الحضارة العربية ، كحضارة قائمة بذاتها . وكحلقة من الحلقات المتصلة التى تسلق عليها الانسان من حضيض التوحش الى أوج الرقى •

وليست كل ثقافات حضارة • فما أكثر الأقوام الذين لهم ثقافة غنية متنوعة ، ومع ذلك لم يستطيعوا أن يحضروا هـذه الثقافة وأن ينهضوا بها الى مرتبة الحضارة • فهم لهم عقيدة لم تصل الى حد الوحدانية ، ولهم قانون لم يبلغ درجة التسوية بين الناس ، ولهم حرف لم ترتفع الى مرتبة الصناعة أو الفن ، ولهم أدوات ولكنها تحرك باليد أو بالدواب ، ولهم وسائل تنقل ونقل ولكنها دواب تمشى وألواح من الخشب تطفوا ، ولهم علم ولكنه لم يرتفع عن الخرافة أو لم يتخلص منها ، يحسبون ولكن على أصابعهم أو على حبات البذور لأنهم لا يعرفون

جدول الضرب . ويتزوجون وينجبون ولكن من غير قيم تقيم الأسرة . ولهم حكومة ولكن بغير قانون . ان لهم مهارات ووسائل فى مواجهة بيئتهم ولكنها مهارات ووسائل بدائية غير مهذبة وغير راقية وغير شريفة أحيانا ، وهى لهذا كله لا تمكنهم من استغلال البيئة لدرجة تجعل منهم جماعة قوية ، ولا تمكنهم من التغلب على نزوات أنفسهم لدرجة يمكن وصفهم معها بالتمدن . ان لهم ثقافة ولكن ليس لهم حضارة . لهم ثقافة تنفعهم فى أمور دنياهم ولكن أحدا لا يحب أن يستعيرها منهم أو يمارس الحياة التى هذه الأمور من وسائلها .

ان الحضارات الانسانية التى تصلح أن تسمى حضارات قليلة العدد فى تاريخ الجنس البشرى الذى يرجع تاريخه على كرة الأرض الى آلاف السنين ، ان هذه الحضارات من القلة بحيث يعدها الانسان على أصابعه . ولقد كانت الحضارة العربية احدى هذه الحضارات القليلة ، لأنها قد اجتمعت لها نفس الخصائص التى جعلت هذه القلة من الحضارات — سواء أكانت قديمة و حديثة — معالم فى طريق التطور البشرى الذى جعل الانسان الحديث على ما هو عليه اليوم من حيث السيطرة على مصائر نفسه فى هذا الكون . بل وتميزت الحضارة العربية بخصائص لم تعرفها كثير من تلك الحضارات ولم تسم اليها ، أو لم تبلغ منها مبلغ الحضارة العربية .

ما خصائص الحضارة العربية ؟

١ — الحضارة العربية حضارة راقية :

وربما كان معيار رقى الحضارة أمرين : العدالة الاجتماعية وسيادة القانون من جهة ، والسيطرة على موارد الطبيعة من جهة أخرى . ووسائل الأمر الأول هى القيم الروحية والقانون ، وقد وجدهما العرب فى قيم الاسلام وتسامحه وفى الشريعة الاسلامية التى استمدت من القرآن والسنة والتى طورها الخلفاء والأئمة والفقهاء بحيث كانت من عوامل التطور والنهوض والرقى . ووسائل الأمر الثانى هى العلوم الطبيعية والمهارات الصناعية والانتاجية ، وقد نبغ فيها العرب أيما نبوغ وانتفعوا بها فى السيطرة على الطبيعة واستنباط خيراتها أيما انتفاع . وبجانب القيم الروحية بجدها والقانون بصرامته والعلم بماديته والصناعة بشقتها حفلت الحضارة العربية بالأدب والفن وغيرهما من ملطفات الجو

ومجملات الخشونة • ومن هنا ارتفعت الحضارة العربية الى درجة عالية من الرقى والسمو قياسا بهـذين المعيارين • وهل أدل على سيادة القـانون والسيطرة على موارد الطبيعة من امتداد الدولة التى أقامت هذه الحضارة الى ما لم تمتـد الى مساحته دولة أخرى فى التاريخ ، ووصول تجارتها الى المحيط المتجمـد الشمالى والى فيافى الصين ؟

٢ ـ الحضارة العربية حضارة شاملة :

فبعض الحضارات دينى ، وبعضـها فلسفى . وبعضـها ادارى ، وبعضـها تجـارى ، وبعضها فنى ، وبعضـها مادى . وهكذا كانت الحضـارة المصرية القديمة . والحضارة الاغريقية : والحضارة الرومانية ، والحضـارة الفينيقية ، والحضارة الحديثة . غلبت صفة على كل منها وتضاءلت بجـانبها بقية الصفات • والا فأين الجانب الروحى فى المدنية الحـديثة ، وأين جانب العلم فى المدنيـة الرومانية ، وأين غـير جانب التجارة فى المدنية الفينيقية ؟ أما الحضارة العربية فحضـارة شاملة . بلغت ذروة المجد الروحى بالاسلام ، وبلغت غـاية الفصاحة باللغـة العربية ، وبلغت نهاية الروعـة بالمآذن والقبـاب والمشرفيات . وبلغت أعلى درجات الرخاء المـادى بقوافلها ونقـودها وجباياتها • وجمعت أطراف العـلم والفلسفة فى وقت سماه المؤرخون بعصر الظلام من طول ما انطفأت فيـه مصابيح الفكر • هى حضارة شاملة لم تترك كبـيرة ولا صـغيرة من النشاط الانسانى الا دفعته الى أمام ورفعتـه الى أعلى • حضارة يمثلها هارون الرشيد الذى كان يحج عاما ويخرج للجهاد عاما ، والذى كان بلاطه يموج بالشـعراء والأدباء والفلاسـفة . ويعـج بالموسيقيين والمغنـين ، وفى نفس الوقت يكتب لامبراطور الروم يقـول له : سـترى ردى عليـك دون أن تسمعه ، فتـأتى الرجل جيـوش الرشـيد فتدك حصونه وتفرض عليه الجزية السنوية ، وكان ينظر للسـحابة مسرعة تشـق أجواز الفضـاء فى كبرياء وترفع ، ويقـول لها « اذهبى حيث شئت فسيأتينى خراجك » • هل بعد هذا فى الحضارة الانسانية شـمول ؟

٣ ـ الحضارة العربية حضارة عامة :

فالحضارة العربية لم تكن فى يوم من الأيام حضـارة محليـة اقتصرت على أمة بعينهـا ، أو على اقليم بعينـه ، بل أنهـا قد غطت حدود الوطن العـربى

الشاسع وتجاوزته الى معظم الأمم العظمى المعروفة حينئذ ، وأثرت فى الأمم الباقية فأجبرتها على اقتباسها ، وانتشرت فى جميع أجزاء العالم المعروف فى ذلك الوقت • الحضارة العربية امتدت الى الصين والهند ، والى المحيط الأطلسى ، وحتى أولئك الذين لم يدينوا لها بحذافيرها جعلوا دينها دينهم ولغتها لغة العلم عندهم كالفرس ، ودنانيرها نقودهم كبلاد الشمال الأوروبى والنورمانديين فى صقلية وايطاليا ، وآلاتها على سفنهم كملاحى البرتغال والأسبان وهم يكشفون الطرق حول القارات ، وجعلوا مصنوعاتها نماذج لمصانعهم كالفرنسيين والايطاليين والألمان ابان الحروب الصليبية ، ومقاعد مدارسها وجامعاتها معاهد لعلمائهم كأهل أوربا فى القرن الثالث عشر ، وكتبها مادة لمطابعهم وغذاء لعقولهم كأهل أوربا الى عصور قريبة ، ثم حمل الأسبان هذه الحضارة معهم الى العالم الجديد فى الأمريكتين • وهكذا هى حضارة عامة •

٤ ــ الحضارة العربية حضارة عالمية :

فالحضارة العربية لم تقتصر على عصر معين ملأته ثم زال أثرها واضمحل تأثيرها ، ولم تقم لتقض على مدنيات قائمة ، ولم تختف لتفسح المجال لمدنيات غيرها أكثر قدرة على البقاء • بل انها تفاعلت مع المدنيات السابقة فشملتها وأبقت على أحسن ما فيها ، وتفاعلت مع المدنية اللاحقة لها فأوجدتها من العدم أولا ، ثم بقيت فيها بخير ما وصلت اليه من فتوح • لقد استوعبت مدنيتى الفرس والروم السابقتين لها ، وأنقذت مفاخرهما من جهل أصحابهما • ولقد كانت فلسفة الاغريق يتيمة مضيعة فى وطنها حتى تبناها العرب • ثم بعد أن نضجت هذه المدنية العربية وجاوزت مرحلة الشباب منحت خيرا ما فيها لناس بعدها حفظوها ونموها للانسانية • والحضارة العربية بهذا الوضع العالمى خطوة بارزة فى مجرى التحضر الانسانى ، وهى بهذا المعنى خالدة خلود الانسانية ، وهى فصل لا يمكن لمؤرخ مهما بلغ به مرض الهوى أن يتجاهله وهو يروى قصة النهوض البشرى •

٥ ــ الحضارة العربية حضارة انسانية :

فبعض الحضارات تعصبت لجنسها قديما وحديثا • فالرومان اعتبروا كل ما هو رومانى متمدنا وكل ما نسب الى غير الرومان بربرى متوحش •

والألمان المحدثون أدخلوا فى دائرة الحضارة العناصر الجرمانية فقط ، وقالوا ان الحضارة تموت اذا أصبحت فى يد أى جنس غير جرمانى . والغربيون المحدثون يتحدون التاريخ ولا يرون من أصول مدنيتهم الا العناصر الاغريقية والمسيحية ، وقصة البشرية تبدأ عندهم بالاغريق وتتوسط بالمسيحية وتختتم بمدنيتهم الحديثة ، ولا يعترف بالأصول المصرية القديمة والأصول البابلية والأصول العربية الا علماؤهم الذين يستحون من الحق . وكل هذه سمات غير انسانية . أما العرب فقد وضعوا الحضارة فوق الجنس وفوق الدين وفوق اللغة . اقتبسوا علوم الوثنيين وفلسفتهم ، وأرخصوا فى سبيلها غاليات الأثمان ، وسمحوا للمسيحيين واليهود بأن يتصدروا مجالس التعليم فى المساجد ، وللعرب المسلمين بأن يتحلقوا حول هؤلاء يتلقون عنهم العلم . ورحبوا بالمسيحيين واليهود أن يتعلموا علوم العرب ؛ وأجزلوا العطاء لكل صاحب علم وكل صاحب معرفة وكل متقن لمهارة مهما كان جنسه أو كان دينه . ولقد كانت أسرة بختيشوع وأسرة حنين وأسرة ماسوية وأسرة سلموية من أعيان الأسر فى العصر العباسى وكلها من أسر مترجمى العلوم . لقد اقتنعت الحضارة العربية بأن عناصر المدنية لا يمكن أن توصف بدين أو جنس لأنها بشرية انسانية قبل كل شىء ، ومن حق الانسان ، بل من واجبه أن ينتفع بخبرة أسلافه فى الانسانية مهما كانت صفتهم ، وألا يضن بنعمة المدنية على من يأتون بعده مهما كانت صفتهم أيضا .

٦ ـ الحضارة العربية ذات طابع خاص :

ومع كثرة ما اقتبست الحضارة العربية من حضارات الماضين ، ومع عظم الحرية التى مارستها فى هذا الاقتباس فانها لم تترك شيئا مما اقتبسه على حاله ، بل صبغته بالصبغة العربية حتى ما تكاد تميز أصله . وهى لم تبق هذه العناصر المقتبسة بعضها الى جانب بعض بل داخلت بعضها فى نسيج بعض ، وكاملت بين أشتاتها ، وجمعتها فى سياق واحد من العروبة ؛ وفى روح واحدة من الاسلام ، حتى عادت كلها عربية المسحة ، اسلامية الطراز . ومهما كان أصل العنصر الحضارى المقتبس فانك لن تراه الا عربيا خالصا من كثرة ما تمثله العرب وطبعوه بطابعهم ، وأعادوا صياغته بأسلوب عربى . والأمر هنا

هو كما يتمثل الجسم قطعة الغذاء فيحيلها الى دم وقوة ، فما هى كسرة خبز أو قطعة لحم ولكنها طاقة •

٧ ـ الحضارة العربية حضارة انتقائية وظيفية :

فالعرب لم يقتبسوا الحضارة بقصد الاقتباس أو التشبه ، بل كانوا دائما يستهدون بحاجاتهم ويستضيئون بمصالحهم ، ثم انهم كانوا يقتبسون فى اطار قيمهم الروحية فلم يتزيدوا فى الاقتباس ولم يترخصوا فى النقل • فهم اقتبسوا منطق اليونان لما احتاجوا اليه فى الدفاع عن عقيدتهم أمام ملاحدة الشعوبية ، وهم أخذوا رياضيات الهنود لضبط حسابات الدولة المتسعة ، وهم أخذوا النظم المالية الساسانية كجزء من تنظيم الدولة ، وهم قبلوا النظم الادارية الرومانية حتى لا يحدثوا انقلابا فى البلاد المضمومة ، ونقلوا موسيقى الفرس استكمالا لأسباب الترف بعد طول الشظف والجهاد • ومع ذلك فانهم لم يقتبسوا صناعة التماثيل والتصوير خصوصا فيما يخص مسائل الدين وأماكن العبادة ، ولفظوا فلسفة الزنادقة ، ولم يترخصوا فى أنوثة المرأة وقدسيتها • ومن ثم فهى مدنية انتقائية ذكية ، تأخذ وتدع من الأشياء فى ضوء حاجة أهلها وفى حدود قيمها ومثلها • والحضارة عند العرب أدوات للتغلب على مشكلات الجماعة لا حلية تلتمس بقصد الاقتناء •

٨ ـ الحضارة العربية حضارة اصيلة :

فمهما قلنا عن حريتها فى الاقتباس فان الحضارة العربية لم تقف عند حد النقل والاستعارة ، بل بدأت بهما فقط ، وأخضعت ما استعارت وما نقلت لخصائص الأمة العربية ومقتضيات ثقافتها ، ثم أضافت اليه وجددت وابتكرت ما شاءت لها عبقريتها حتى اختفى الأصل الدخيل فى الناتج الأصيل • فالحضارة العربية قفزت بالعلوم والفنون والآداب والاختراع والزراعة والصناعة والتجارة ، وكافة جوانب الحياة الانسانية خطوات جريئة وواسعة وسريعة الى أمام والى أعلى • ومن هنا كانت الحضارة العربية حضارة أصيلة فى عروبتها •

فأنت ترى اذن أن الحضارة العربية قد اتفق لها من الخصائص ما يساعد على قيام حضارة عظيمة ، وهكذا كانت الحضارة العربية •

مقومات الحضارة العربية

قلنا ان الحضارة العربية حضارة شاملة ومدنية كاملة • ومعنى هـذا أنهـا استكملت كل مقومات الحضـارة • ولمـا كانت حضارة أى قوم هى وسـائلهم فى المعيشـة على البيئـة وأدواتهم فى التغلب على مشكلاتهم مع الطبيعـة وعلى ذوات أنفسهم كان معنى ما تقدم أن الحضـارة العربية قد اتسعت حتى شـملت كل جوانب الحيـاة الانسـانية •

فاذا كان من الممكن أن نسمى مدنية المصريين القـدامى مدنيـة زراعيـة ، ومدنية الفينيقيين مدنية تجارية ، ومدنية الأغريق مدنية فنيـة ، ومدنية الرومان مدنية قانونية ادارية ، ومدنية الهنود مدنية أخروية ، ومدنية العصـور الوسطى الأوربية مدنيـة دينية ، والمدنيـة الحـديثة مدنية علميـة مادية ، فان المدنيـة العربية هى هذا كله وأكثر • هى مدنية روحيـة لغـوية علميـة قانونية صناعية مادية فنية • هى مخلوق كامل خلق ليعيش وليفرض نفسه على التاريخ •

فالدين من مقـومات الحضـارة العربيـة اذ هى حضـارة متدينة • ولقـد بدأت الحضـارة العربيـة من ثورة على الوثنيـة ، ثم رفعت راية التوحيـد فى كل مكان • وتسامحت مع الوحدانيـة والعقيدة الالهية تحت أى اسم ومن أى مذهب • وفى ظلالها عاش المسـلمون والمسـيحيون واليهـود عيشـة بلغت من المساواة والحرية والتبادل حدودا عجزت عن بلوغها الحضارة الحديثـة فى أوربا وأمريكا الى الوقت الحـاضر • واذا كانت الولايات المتحـدة ، الديموقراطيـة المتحضرة ، قد قامت وقعدت فى سـنة ١٩٥٦ لأن فتـاة أمريكيـة لا تعرف لهـا وطنـا غير أمريكا ولا دينا غير المسـيحية أرادت أن تلتحق بجامعـة هنـاك فى مسقط رأسـها من مدن أمريـكا ، لا لشىء الا لأنها زنجيـة ، واذا كان رئيس الولايات المتحدة قد اضـطر لأن يسـير جيشا ضد ولاية مسيسبى من أعمـال دولته فى سنة ١٩٦٢ لأن الجامعة هناك رفضت أن تقبـل طالبا بهـا لأنه زنجى ، اذا كان هذا يحدث فى أمريكا فى النصف الثـانى من القـرن العشرين ، فان العلماء والأطبـاء المسيحيين واليهـود كانوا يلقون دروسهم فى المساجد الاسلامية فى القرن الثامن مشـكورين مأجورين • وفى اطار سـماحة الاسـلام وقيمـه

الروحية والانسانية ، تكونت الحضارة العربية ومن ثم كان الدين من مقومات الحضارة الاسلامية .

واللغة العربية من مقومات الحضارة العربية . اللغة العربية التى بدأت بالصحراء والنياق والدلاء ونجوم السماء ، ثم انتهت بعد مسايرة الحضارة العربية الى القدرة على تصوير أدق الأحاسيس ، وأرق العواطف ، وأعقد النظريات العلمية ، وأشق القضايا الفلسفية والفقهية . ولقد نمت اللغة العربية بنمو المدنية العربية ، لأنها كانت الوسيلة الوحيدة للتعبير عن هذه المدنية ، ثم كانت وسيلة لنشرها بين الأمم . فما دخل العرب قطرا الا انتشرت لغتهم فيه ، وانتشرت بانتشارها حضارتهم .

والتاريخ العربى مقوم ثالث من مقومات الحضارة العربية . التاريخ العربى الذى يصور كيف بدأ العرب من أصحاب خيام وانتهوا الى مهندسى مدن . وكيف تحولوا من رعاة ابل الى صناع كل أصابعهم فن ومهارة . وكيف انتقلوا من شعراء يمدحون للاشىء ويهجون من لا شىء ويفتخرون بلا شىء ، الى أطباء فى المستشفيات وعلماء فى المعامل ، وكيف استحالوا من قبائل متحاربة مترحلة الى أمة موحدة ، وكيف تطوروا من قبائل تجمعها العقيدة الدينية الى حكام لأكبر أمبراطورية ، وكيف قفزوا من شعب مجهول الى قوة من قوى العالم الوسيط والحديث . هذا التاريخ العربى الذى يقص هذه الحكايات هو من أهم مقومات الحضارة العربية .

والعلوم الطبيعية مقوم رابع من مقومات الحضارة العربية . تلك العلوم الطبيعية التى بدأها أسلافهم على أرض الوطن العربى فى مصر والجزيرة . ثم تسلموا هم شعلة هؤلاء الأسلاف ولكن من يد الأغريق ، فضربوا فيها بسهم وافر ، واستخدموها فى صد المعتدين ، وفى استخراج خيرات الأرض والسير فى مناكبها ، والأكل من رزقها . فالعرب وان كانوا قد بدأوا بالجانب الروحى والخلقى الذى كانوا فى مسيس الحاجة اليه ، الا أنهم سرعان ما وسعوا أفقهم حتى شملت العلوم الطبيعية وما يتصل بها من صناعة واختراع على قدر زمانهم ، وأحرزوا بسبب هذا تقدما ماديا نتيجة لما فتحه العلم أمامهم من كنوز الطبيعة . فالعلوم الطبيعية من أهم عناصر المدنية العربية .

هذه هى المقومات الأساسية للحضارة العربية : الدين واللغة والتاريخ

العربى والعلوم الطبيعيــة • ومع ذلك فهناك ثلاثة مقــومات أخــرى اضافية : واحد منهما كان ســياجا للمقومات السابقة ، والثــانى كان مشجعا لها ، والأخير كان تتيجة حتمية لكل المقومات أصــلية واضافية •

أما المقوم الذى كان سياجا للحضارة العربية كلهــا فهو حرية الفكر • فلقــد اتسمت الحضارة العربيــة بحرية الفكر الى أقصى حــدود الحرية • فلم نعرف فى التاريخ أمة جمعت العلماء وشجعتهم وأنفقت عليهم من الأموال العامة وأسكنتهم القصور ، وأجلســتهم مع الخلفاء والســلاطين ، دون أن تملى عليهم ما يقــولون كما فعلت الأمة العربية • ولم نجد من علماء أى أمة من أصر على قول الحق كمــا فعل العلمــاء العرب • والامام أحمــد بن حنبل مثال عالمى لهــذه الحرية عنــدما رفض موافقة الخليفــة المــأمون على القــول بخــلق القــرآن • ولقــد جمعت العواصم العربية فى عصورها الذهبية ، قبل سيادة الأتراك ، بين فقهــاء الشريعــة والباحثين فى المادة ، والمناقشين فى الفلســفة ، وضمتهم جميعا مجالس الخلفــاء ، واتسعت لهم وظائف الدولة ، وتبــادلوا الحجج والجــدل فى اطــار قيم الجماعة ، وفى حمــاية الدولة •

أما المقــوم الذى كان مشــجعا لتقدم الحضارة العربية فهو اعتبــار الدولة نفسها مسئولة عن تقــدم العلوم والفنــون ، والانفاق عليها من الأموال العامة • ويكفى أن نعلم أن الدول الحديثة لم تعتبر نفســها مسئولة عن البحث العــلمى والتعليم وتمويلها من الميزانية العامة الا فى أواخر القــرن التــاسع عشر وهــذا القرن العشرين ، بل وبعضــها ما زال متلــكئا فى هذا الاعتبــار • ولكن الدولة العربية اعتبرت نفســها مسئولة عن البحث العلمى منذ أواخــر القــرن الثــامن وأوائل القرن التاســع • فقــد كان الخلفــاء يرســلون البعوث العلميــة لتجمع الكتب من جميع الأنحاء حتى من الدولة البيزنطيــة ، وينفقون بســخاء عــلى المترجمين حتى يترجموها • ومن الخلفــاء من فتح مدارس خاصة بترجمة العلوم كالخليفة المتوكل العباسى الذى أنشأ مدرســة للترجمــة فى بغــداد • بل وأنشأ الخليفة الرشــيد فى سنة ٧٩٤ م مصنعا للورق فى بغداد انعاشا لحــركة الترجمــة والتــأليف • وكان المترجم يطوف بأقطــار كثيرة طلبــا لكتاب واحد بلغ للخليفة خبره وقرر استحضاره وترجمته • وفى الوقت الذى كان حــكام أوربا يحــرقون فيه من يقــول بكروية الأرض ، كان الخليفــة المأمون يؤجر العلمــاء على قياس

محيط الكرة الأرضية • ومن هـذا التشـجيع ، ومن اضـطلاع الدولة بالبحث العلمى وتمويله من الأموال العامة ، تقدمت العلوم العربية وقفزت حضارة العرب الى الأمام خطوات فسيحة •

أما المقوم الذى كان نتيجة لكل هـذه المقومات فهو القوة • فلقـد امتازت الحضارة العربيـة بالقـوة ، وهـذا أثر من آثار كل المقومات السابقة — قوة الايمان ، وقوة الفكر ، وقوة السلاح • فتاريخ الحضارة العربية تلخصه كلمـة « الجهاد » • الجهاد فى سبيل المبدأ ، والجهاد فى سبيل الله ، والجهاد فى سبيل الوطن ، والجهاد فى سبيل العـلم • خرجوا من ديارهم مهاجرين فى سبيل المبدأ ، وخرجوا من أوطانهم مجاهدين فى سبيل العقيدة ، ينشرونها بالاقناع ويدافعون عنها بحد السيف ، ومروا كالصاعقة على البيزنطيين ، والتفوا كالأعصار حـول الفرس ، وعصفوا بالمغول ولم يرهبوا جحافلهم ، وجاهدوا قرنين من الزمان حتى أجلوا الصليبين عن الشام • وجاهدوا حتى تعلموا من كل ذى علم علمه ، ومن كل ذى فن فنه • الحضارة العربية تتصف بالقوة قبل كل شىء — القوة فى خدمة الله والحق والوطن •

الاطار الاسلامى للحضارة العربية

لا توجد حضـارة يمكن أن تنسب بكل حذافيرها الى قـوم معينين أو أمة معينة أو دين معين • فالحضارات من صنع البشر ، والبشر يختلطون ويموجون ويتبادلون الثقافة والمنافع • ولذلك فنحن عندما نقـول « الحضارة العربيـة » لا نعنى انها عربيـة خالصة لم يتأثر العرب فيها بأحد ، وعندما نتكلم عن الاطار الاسـلامى للحضارة العربية لا نعنى أن الحضارة العربية حضـارة دينية أو أن أهل الديانات الأخرى لم يسهموا فى بنـائها • والواقع أن العـرب وعـوا كل الحضـارات السابقة لهم ، من حضارة الهند ، الى حضارة الفرس ، الى حضارة الاغريق ، والواقع أيضا أن أقواما كـثيرين منهم المسيحيون ومنهم اليهود ومنهم الصابئة قد أسهموا مع العرب فى بناء حضارتهم •

ولكن الذى نقصده هو أن هذه الحضارة انما قامت أساسا على يد العرب وشـجعتها وأنفقت على عمليـة تكوينها الدولة العربية من الأموال العربيـة العـامة • كما نقصـد أنها حضارة نشأت فى كنف الاسلام ، فكل من أسهم فيها

كان يحترم القيم الاسلامية وكان عربى اللســـان • ومن هذه الناحية تستطيع أن تتبين ما نريد أن نقـوله وهو أن الاسلام كان عاملا هاما فى تكوين هــذه الحضارة ، وأنها تكونت كلها فى اطـاره وفى داخل حـدود مبادئه وبرخصة من مثله وقيمــه ، ولولا أن الاسلام قد اتســع لهذه الحضارة العظيمة المتشـعبة الجوانب الكاملة الخلقـة ما كانت هــذه الحضارة قد قامت ولو أن الاســلام ضاق بها أو حرم على أبطـالها ولوج بعض أبوابها ، وطـرق بعض نواحيها ، لبقيت مغلقة ولما وصلت الحضارة العربية الى ما وصلت اليه •

ومعنى هذا أن الدين الاســلامى بكل خصائصه ومقوماته وطبيعته كدين ، كان له الفضل الأكبر فى الفتوح الحضــارية التى قام بها العــرب • ومن هنا فاننا لا نســتطيع أن نفهم كل خصائص الحضارة العربية التى سـبق أن عرضناها ، ولا نستطيع أن نفهم مستحدثات الحضارة العربية التى سنعرضها فيما يلى الا اذا فهمنا الاطار الاسلامى الذى تمت فيه ، والا اذا عرفنا طبيعــة الاسلام كدين ، على اعتبــار أن هــذه الطبيعة كانت العامل الأساسى الذى جعــل بناء هــذه الحضــارة ممكنــا •

ليس الدين الاسلامى مجرد نظام من العقائد والعبادات تقرر علاقة الانسان بخالقه فحسب ، ولكنه بالاضافة الى هذا قانون ينظم علاقات النــاس بعضهم ببعض فى حياتهم على هذه الأرض • فالاسلام يتكون من ثلاثة عناصر رئيسية ، ففيه أولا مجموعة من العقائد توجه ضمير الفرد نحــو خالقه ، وتوثق صــلته الروحية به ، وتجعله يراقب ربه ويتجــه نحوه فى السر والعلن فى كل موقف من مواقف حياته • وفيه ثانيا تقرير لعبادات هى التعبير الظاهر عن الايمان بالعقائد المتقدمة ، ورمز لاقتناع الانسان عقليا بها ، وهى المذكر اليومى للانسان بهــذا الخالق الذى منه يأتى كل خير وتنبع كل بركة • وفيه ثالثا شريعة تتــكون من مجمــوعة من القوانين تنظم علاقات الأفراد بعضهم ببعض ليتكون منهم مجتمع فاضل منظم ناجح يجد الفرد فيه سعادته وأمنه •

فاذا كان الاسلام دينــا يعنى بالعقيدة والعبادة ، فهو أيضا فلســفة حيــاة وقوانين مجتمع توجه حياة الجماعات البشرية فى هذا العالم وعلى هذه الأرض • ولذلك احتوى الاسلام فى كتــابه المنزل وأحاديث نبيه محمد صلى الله عليــه وسلم على مجموعة كاملة من القــوانين التى تتنــاول كل كبــيرة وصــغيرة من

حياة الناس ، فيه القوانين المنظمة للحكم على أنه ادارة شورية لشئون العباد ، وفيه القوانين المنظمة للاقتصاد على أنه عمل منتج يجلب ثروة تكون شركة بين الجميع ، وفيه القوانين المنظمة للمجتمع على أنه منظمة الجميع فيها سواء أمام القانون كما هم سواء أمام الله ، وفيه القوانين المنظمة للمعاملات من بيع وشراء ووزن وكيل واقراض ، وفيه القوانين المنظمة لأحوال الأسرة من زواج وطلاق ونفقة وميراث ، وفيه القوانين الخلقية الموجهة لسلوك الفرد من صدق فى القول وأمانة فى التصرف وتأدب فى التعامل ، وغض للطرف عن المحارم ، وسعى بين الناس بالسلام والخير ، وبر الوالدين ورعاية لحرمة الجار ، وتعفف عن الصغائر ، وامساك عن الفضول ، بل لقد عنى القرآن بآداب السلوك فى أدق مواقف الحياة وأقلها خطرا كالتأدب فى الحديث ، والاستئذان على الناس قبل الدخول .

ومن شمول الاسلام على هذا النحو أتى شمول الحضارة العربية . فكما اهتم الاسلام بكل جانب من حياة البشر ، اهتم العرب أيضا بهذه الجوانب جميعا ، فالاسلام لم يحرم ميدانا من ميادين الحياة على الانسان ، ولم يغلق جانبا منها على الفكر الانسانى ، ووسع آفاق الحياة ، فاتسعت آفاق الحضارة التى وضعها أصحابه لمواجهة هذه الحياة ، ولو قصر الاسلام اهتمامه بالعقيدة وحدها ، أو العبادة بمفردها ، لاتجه الجهد الانسانى فى ظله الى هذين الجانبين ، ولأهمل بقية الجوانب ، ولظهر ذلك فى الحضارة التى ما هى الا تعبير عن هذا الجهد .

والاسلام دين عنى بالروح ولكنه لم يحتقر الجسم ، واهتم بصلاح الآخرة ولكنه لم يهمل الدنيا . فالقرآن يقول فى سورة القصص : « وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد فى الأرض ، ان الله لا يحب المفسدين » . وقال : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » . وقال : « هو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » . وبلغ النبى أن عبد الله بن عمرو ابن العاص يصوم النهار ويقوم الليل فقال له : « بل قم ونم ، وصم وأفطر ،

فان لبدنك عليك حقا » . وأباح الاسلام للفرد أن يمتنع عن العبادة من صلاة وصوم اذا كان جسمه لا يحتمل القيام بها أو خشى على جسمه الضرر ، وكانت القاعدة دائما هى أن « صحة الأبدان مقدمة على صحة الأديان » . وقال النبى فى هذه الرخص : « ان الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه » ، أى أنه يحب أن يستجيب الانسان للأعذار المقبولة فى أمر العبادة فيمتنع فى حالتها عن القيام بالواجبات .

والاسلام فرض الايمان ولكنه لم يلغ العقل والتفكير ، وحض على التوكل على الله ولكنه نهى عن التواكل ، وحض على بذل الجهد ، واستحسن من الفرد أن يأخذ مصيره فى يديه . وهكذا وفق بين القدر وحرية الارادة . فالله يقول : « وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا » ، ولكنه يقول أيضا : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . ويقول : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » . وقال : « وقل أعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » .

وهكذا فان الاسلام اذا اتصف بالشمول فانه يتصف كذلك بالتكامل ، فهو لا يضع شيئا ضد شىء وانما يوحد بين الأشياء فى نظام ويزاوج بينها فى انسجام ويضمن للانسان الحسنيين عن طريق القصد ونبذ المغالاة . فالاسلام دين الوحدة كما هو دين الوحدانية ، ودين التكامل كما هو دين الكمال ، ودين الدنيا كما هو دين الآخرة ، ودين الفرد كما هو دين المجتمع،ودين الانسان كما هو دين الله . هو طريقة حياة شاملة متكاملة ، لا توجد فيه حدود ولا فواصل . ولذلك كان الطريق الوحيد الى الآخرة فيه هو طريق سلوك الخير فى الدنيا . وطريق الكسب عند الله هو طريق الانتاج على الأرض ، وطريق القبول عند الله هو الاحسان الى الناس . ولذلك كان خير الناس عند الله هو من عمل لدنياه كما عمل لدينه ، ومن اتخذ الدنيا وسيلة الى الآخرة وتوسل برضاء الناس الى رضاء الله . ولذلك فمن آداب الاسلام أن الدين المعاملة ، وأن حب الناس من حب الله ، وأن الانسان عليه أن يعمل لدنياه كأنه لن يموت أبدا وأن يعمل لآخرته كأنه ميت لساعته وأن السعادة هى سعادة الدارين ،وأ ن الله حق يحب الحق وجميل يحب الجمال .

وفى هذا الاطار الرحب الشامل المتكامل نشأت الحضارة العربية رحبة

الأرجاء متعددة الجوانب شاملة العناصر متكاملة الأصول • ففيها فتوحات حضارية فى الحكم وفى الاقتصاد وفى السياسة ، وفى الاجتماع وفى القانون ، وفى العلم وفى الفن وفى الأدب ، وفى كل شىء •

وبالرغم من طبيعة الاسلام الشاملة المتكاملة الموحدة فانه لم يترك الأمر للانسان حتى يتفقه من تلقاء نفسه أو يستنبط المغزى بمفرده ، بل انه وجهه بشكل ايجابى الى مغزى هذا الشمول وثمرة هذا التكامل ، ووضعه صراحة أمام ما تفرضه هذه الخصائص عليه من واجبات العمل والبحث والاطلاع وطلب العلم •

فالاسلام حض على طلب العلم والتفكير فى آيات الكون والتوصل الى قوانينه ، طالب الانسان بأن يتناول هذا الكون بايجابية فكرية وطموح استطلاعى ، ونزعة نفعية ، فالانسان خليفة الله فى الأرض ، والكون كله بما فيه مسخر لفائدة الانسان ، وهو كتاب مفتوح أمامه بلا مغاليق ولا أسرار•والقرآن مملوء بأفعال الأمر مثل : « أنظر » و « فكر » و « اقرأ » و « تعلم » و « هاتوا برهانكم»•بل وتشدد فى هذا فلجأ الى أسلوب التبكيت فقال : «أفلا تعقلون» ، « أفلا يتذكرون » ، « لعلكم تتفكرون » • فالملاحظة والتفكير والاستدلال والتوصل الى القوانين والحقائق ، أى الطريقة العلمية بكل مراحلها هى من حق الانسان بل من واجبه ، وهى من الأصول التى يقوم عليها الاسلام لأنها الأداة الوحيدة التى يستطيعها الانسان للوصول الى الحقيقة واستغلال الكون لصالح نفسه •

والاسلام حرر العقل البشرى من التقليد الأعمى ، أو المتابعة من غير اقتناع حتى فى الدين ، فلا ايمان بغير اقتناع عقلى • وحرر العقل البشرى من الخضوع لتفكير الغير ، وكل فرد عليه واجب التفكير لنفسه يقول القرآن • « وقالوا حسبنا ما وجدنا عليه أباءنا أو لو كان أباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون » • ولذلك ليس فى الاسلام طبقة كهنوت أو رجال دين يفكرون للناس • وجعل الاسلام العقل أعلى سلطة فى الدين والدنيا ، وأزال من أمام العقل البشرى كل العقبات ، حتى النص الدينى اذا تعارض مع ما يثبته العقل وجب أن يأخذ الانسان بحكم العقل • وقد جعل الشيخ محمد عبده ذلك من أصول الاسلام حيث قال ان الأصل الثانى للاسلام هو :

« تقديم العقل على ظاهرة الشرع عند التعارض : اتفق أهل الملة الاسلامية على أنه اذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دلّ عليه العقل وبقى فى النقل طريقان : طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه ، وطريق تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل » •

وحض الاسلام من جهة أخرى على طلب العلم فقد ورد فى القرآن : « وقل رب زدنى علما» ، وفيه : «هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون» وفيه : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » ، وفيه : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » ، ومهما زاد علم الانسان فواجبه الاستزادة من العلم ، « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » لأن الله « يخلق مالا تعلمون » • ومن أقوال النبى : « أطلبوا العلم ولو بالصين » ولم يكن بالصين مسلمون ولا علم دينى فى أيام النبى • ومن أقواله أيضا : « خذ الحكمة ولا يضرك من أى وعاء خرجت » أى مهما كان دين قائلها • وقال : « طلب العلم فريضة » ، ومن أمثال العرب : « فقيه واحد أفضل عند الله من ألف عابد » • و « فكر ساعة خير من عبادة ستين سنة » و « الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها » • والمسلم يتعلم من المهد الى اللحد ، ويأخذ الحكمة ولو من أفواه المجانين •

وفى ضوء هذا الاتجاه العقلى العلمى الأصيل فى الاسلام تستطيع أن تفهم السر فى التقدم العلمى الكبير الذى تم على يد العرب • فمن كشوف جغرافيه الى كشوف علمية فى ميدان المادة ، الى كشف فى القوانين الرياضية ، الى فتوح فى ميادين الطب•ولو كان الاسلام حرم الاشتغال بهذه العلوم ، أو حصر اهتمامه فى مجال العلم الدينى ، لما قامت عند العرب هذه النهضة العلميـــة التى كانت أساس التقدم العلمى فى عصرنا هذا •

والاسلام لا يعرف للرقى ولا للتقدم حــدا فهو دين تقدمى • ولم يحارب الاسلام شيئا قدر ما حارب ضيق الأفق والرجعية • ومن أقوالهم : « من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة » • ولذلك لم ينص الاسلام على صورة جامدة لأى نوع من أنواع النشاط البشرى يعد غيرها خطأ أو حراما • وانما اكتفى الاسلام دائما بوضع القواعد العامة والقيم التى تضبط النشاط والأهداف التى يجب أن يتجه نحوها ، ثم ترك لذكاء الانسان ليضع لنفسه من النظم والتفاصيل فى كل عصر ما يناسبه • ومن هنا كان الاسلام يتسع

للتطور والرقى فى كل ميـدان ، وكان يستطيع أن يجارى كل نظام تثبت فائدته فى اطار القيم الاسلامية . ولهذا جعل فقهاء الاسلام المصالح المرسلة — أى المصلحة العامة — معيار كل اجراء ومقياس كل قانون ، وكان الاجتهاد أصلا من أصـول التشريـع .

حتى انتشـار الحضارة العربية وما ترتب عليه من تمدين لـكثير من الشعوب من بينهم أهل أوربا ، انما تم بهدى الدين الاسـلامى وفى اطاره . فالاسلام ليس دين أمة بعينها وانما هو دين عام للبشرية جميعا . « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » . « قل يا أيها الناس انى رسـول الله اليكم جميعـا » . وقـد انتشرت الحضـارة العربيـة مع انتشـار الاسلام . واذا كنا نجـد الاستعمار الانجليزى يخفى الحضـارة عن الشعوب التى ابتليت به ويمنعهم عن تحصـيل العلوم واكتسـاب المهارة الصـناعية ويحاول حصرهم فى دائرة ثقافتهم القديمة ، فان العـرب كانوا ينشرون التحضر فى كل مكان ذهبوا اليه ، فدينهم ولغتهـم وعلومهم ومهاراتهم الزراعية والصناعية ملك لجميـع البشر .

ولقد كان من أثر اتجاه الديانة المسـيحية بكليتها نحو الجـانب الروحى فى الانسان ، وأنها حضت على احتقـار الدنيا والزهد فى متـع الحيـاة ، أن اضطر أصحابها الى فصـل الدين عن الدنيا ، وربطوا بين الدين وبين الكنيسة ورجالها ، على حين اندفعوا فى حياتهم الاجتماعيـة والاقتصادية نحـو المادة فأغرقوا فيهـا واقتتلوا عليها ، وكانت حضارتهم مادية لا موضع فيها للروح وحربية لا موضـع فيها للسـلام . ولذلك أيضا اقترنت حركة تقدم العلوم الطبيعيـة عندهم بأحداث جسام من اضطهاد العلماء وتعذيبهم ومحاربة العلم واعتباره منافيا للدين ، وكـان على من يريد أن يشتغل بالعلوم الطبيعية أن يمرق من الدين ويكتب اسمه فى قائمة أعدائه (١) . وهذه القاعدة تصـدق من أيام الرومان الذين اضطهدوا العـلوم والفلسـفة الاغريقية ، الى الأوربيين الذين اشتغلوا بالعلوم الطبيعية فى العصور

---

(١) راجع فى هذا المعنى :

John W. Draper, *History of the Confict between Religion and Scidce*. New York 1898.

Andrew D. While, *A Hesrory of the Warfare of Science with Theology in Christendom*. New York, 1898.

وفى الكتابين كلام مشرف عن فضل العرب على العلوم الطبيعية .

الحديثة وارتبطت عندهم بمحاربة رجال الدين ومراسيم الزندقة والحرق بالنار واستعباد البشر باسم الاستعمار ومنعهم من الأخـذ بنصيبهم من تراث الانسانية المتمدنة وادعاؤهم أن العلم والصناعة وقف على الغربيين المستعمرين ، وذهـاب فلاسفتهم الى أن أهـل الشرق لا يمكن أن تستقيم العـلوم والصناعة فى أيديهم لأنهم متمسكون بدينهم الاسـلام • ولو قد تنبهوا الى الفـارق الأساسى بين الاسلام كدين شامل متكامل وبين المسيحية كدين روحانى لما ضلوا هذا الضلال ، الذى أفحمهم فيه مفكروا المسلمين من أمثال محمد عبده ، ومحمد فريد وجدى ، وعباس محمود العقـاد •

لم يحـدث مثل هـذا فى الاسلام ، بل سارت الحضارة يدا بيد مـع الدين وكان خلفاء المسـلمين وأمراء المؤمنين حمـاة العلم والعلماء ، وعملوا على نشر الحضـارة فى كل مكان ولم يضنوا بها حتى على أعـدائهم • ومـا ذلك الا لأن الحياة فى نظر الاسـلام وحدة متكاملة ، الله فى طرفها العلوى والانسان فى طرفها السفلى ، والطريق بينهما مفتـوح ، يستطيع كل فرد أن يصل ولـكن عن طريق العمل المنتج والنية الخالصـة • والدنيا فى طرفها القريب والآخرة فى طرفها البعيد، ولكن الدنيا هى طريق الآخرة والطريق بينهما موصول ، وليس للمنزلة الرفيعـة فى الآخرة الا حسن أداء الفرد لدوره الانسانى فى الدنيا • والعبـادة هى الطرف الروحى لهـذه الحياة ، والتعامل هـو طرفها المادى ولكن مراعاة الله فى التعامل المادى مـع الناس هو جزء أساسى من العبادة •

فمفهوم الدين فى الاسلام يشمل الدنيا ، ومفهـوم الله يشمل الناس ، ومفهوم العبادة يشمل المعـاملة ، ومفهوم الروح يشمل الجسم ، ومفهوم الايمـان يشمل التفكير ، ومفهوم التـوكل على الله يشمل العمـل والسعى ، ومفهـوم الانسان يشمل الروح كما يشمل الجسم ، ومفهوم العقيدة يشمل الذكاء •

ولذلك كان أهـم عوامل الحضارة العربية أن الاسلام احترم المادة وأسبابها والتفكير ومقتضياته ، والانتاج ونزعاته ، واحترم غرائز الانسـان ، ولـكن كل هذا فى اطار من القيم الروحية الاسلامية التى أساسها الأصيل أن يحترم الانسان ولكن كفرد فى جماعة ، وتتحقق سعادة الفرد ولكن كوحدة فى الكون ، وينشط الانتاج ولكن على أن يعم خيره وتمتـد بركته عن طريق التـكافل الاجتماعى والتضامن الانسـانى •

وعندما حطم الاسلام الحواجز بين الدين والدنيا ، فجعل كل ما يجلب الخير للناس عبادة ، فطلب العلم عبادة ، والاحسان الى الناس عبادة ، والامتناع عن الأذى عبادة والعمل عبادة ؛ فتح باب التحضر على مصراعيه ومهد الطريق لقيام حضارة عظيمة على يد العرب ، لأن بناء الحضارة هو بسبيل من هذا كله .

هذا هو الاطار الفلسفى أو الجو الفكرى الذى قامت الحضارة العربية على أساسه . وتستطيع أن تفسر كل حقائق هذه الحضارة فى هذا الضوء ، ويصعب جدا فهم الحضارة العربية من غير فهم هذه الفلسفة .

وبعد فاننا موردون فيما يلى بعض جوانب الحضارة العربية لنعرف أولا تراثنا الثقافى الذى يجب أن نسترشد به فى مرحلتنا الحالية من التطور العظيم الذى يجتازه المجتمع العربى ، ولنعرف ثانيا الى أى حد أسهم العرب ، الذين هم نحن ، فى بناء التمدن الانسانى ، ولنقف ثالثا على أن التجديد هو من تقاليدنا القومية الأصيلة وأن الرجعية والمبالغة فى المحافظة وكره التغير والخوف من التطور كلها آفات فكرية ليست من تقاليدنا فى شىء ، ولنتأكد رابعا من أننا اذا كنا انتفعنا بمدنية غيرنا ، وما زلنا ننتفع ، فانها مدنية انسانية عامة أسهمنا فى بنائها فى الماضى فهى ملك لنا كما هى ملك لكل البشر .

وللحضارة العربية ، كما لكل حضارة أخرى ، جانبان : جانب انسانى وجانب مادى . فالجانب الانسانى هو ما يتعلق بعلاقات الناس بعضهم ببعض وبمركز الفرد فى الجماعة ومستوى الرفاهة التى يعيش عليها المجتمع . والجانب المادى هو ما يتعلق بالوسائل المادية التى هى أدوات الانسان فى معالجة البيئة الطبيعية والانتفاع بخيراتها .

والحضارة العربية ، ككل حضارة عظيمة ، متعددة الجوانب قد يكون من المستحيل أن نلم بها جميعا الا اذا اقتضبنا الكلام فوقعنا فى الغموض واختفت المعالم . ولذلك فاننا سنقتصر على أهم جوانب هذه الحضارة ، فنتكلم من الجانب الانسانى على نظام الحكم والنظام الاقتصادى والنظام الاجتماعى . ونتكلم من الجانب المادى على العلوم الطبيعية والطب والتجارة .

وقد مر بك عند الكلام عن الاطار الاسلامى للحضارة العربية كثير عن فلسفة الجانبين معا .

نظـــام الحكم

لم يــكن العلم الســياسى الذى يقسم أشــكال الحــكم الى ديموقراطية ودكتاتورية ونحوهما قد ظهر وقت أن ظهر الاسلام بفلسفته فى نظم الحكم . وعلى ذلك فنحن لا نجد اسما من الأسماء الحديثة عرف به نظام الحــكم عند العــرب ولكنا اذا أردنا أن نختار مصطلحا حديثا لما وضعوه من نظم ســياسية فاننا نجد أن اصطلاح « الحكم الديمقراطى » أقرب المصطلحات الى نظام الحــكم العربى .

والنظام الديموقراطى يتميز ببعض الخصائص يجمعهــا قولهم أنه حــكم الشعب بواسطة الشعب ومن أجــل الشعب . ويتحقق ذلك اذا توافر فى الحــكم عــدة خصائص :

١ ــ أن يكون للشعب حــق فى ابداء الــرأى فى المسائل العــامة وتوجيه الحكومة ونقــدها .

٢ ــ أن يكون للشعب حق اختيار حكامه .

٣ ــ أن يكون الصالح العام للشعب هو هدف الحكومة .

٤ ــ أن يتمتع الفرد المواطن بحريات تمــكنه من المشــاركة وابداء الــرأى فى حرية . وأن يضع نفســـه فى خدمة الدولة عن طــريق قيامه ببعض الواجبات فى نظير هــذه الحقوق .

ولقــد نص الاسلام على حق الشعب فى المشاركة والتوجيه ، وعبر عن ذلك بكلمة « الشورى » وقــد وضع القرآن هــذا الدستور اذ قال الله تعالى فيه : « وأمرهم شورى بينهم» . ويأمر النبى صلى الله عليه وسلم فيقول له : «وشاورهم فى الأمر » . ويقول له : « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » . واذا كان الأمر يصــلح فى حــق النبى الذى لا ينطق عن الهوى فهو دستور الحكم عندما يكون غيره فى منصب الحكم ممن لا يبلغون درجته من الحكمة ، ولا يشاركونه فيما تمتع به من العصمة .

ولقد سارت الحكومة الاسلامية الأولى على هــذا الدســتور اذ كان النبى يستشــير الصحابة ، وكان الخلفاء الراشدون يطبقون نفس المبدأ . وكان العرب حريصين جد الحــرص على المشاركة فى المســائل العامة ، وكانوا يشاركون فيها

فى اخلاص وشجاعة • ولكن الاسلام لم ينص على القواعد التنظيمية ، والنظم الحكومية ، التى تتم الشورى عن طريقها ، فبقى الأمر فى يد الخليفة يديره بطريقته الخاصة • ولا غرابة فى ذلك فالاسلام وضع الأصول والقواعد العامة وترك وضع التفاصيل التنظيمية لأهل كل جيل يضعونها فى ضوء ظروفهم وحاجاتهم وطبيعة عصرهم •

أما عن كيفية تعيين الحاكم فقد رجع فيها العرب الى تقاليدهم العربية الأصيلة فقد كان شيخ القبيلة تختاره بطونها المختلفة من أكبر الأفراد سنا وأرجحهم عقلا • ولم ينص الاسلام على طريقة لاختيار الحاكم ، وانما اكتفى بوضع أصول الحكم وطبيعته وأغراضه والزم بها الحاكم كائنا من كان • والمستعرض للطريقة التى اتبعت فى اختيار الخلفاء الراشدين يجد أنها كانت تقوم على مبدأ اختيار الشعب للحاكم وان كان ذلك قد تم بأشكال متعددة • فأبو بكر اختاره الناس فى عملية اختيار مباشرة • وعمر ، استشار أبو بكر الناس فى شأنه فزكوه ووافقوا عليه فاستخلفه من بعده • وعثمان ، لم يجد عمر عندما حضرته الوفاة من يجمع المسلمون عليه وقد استشارهم ، وفى ضوء آرائهم رشح ستة من زعماء المسلمين ، وترك أمر اختيار واحد منهم للناس بعد وفاته واختاروا عثمان بطريقة ما • وبعد عثمان اختار الناس عليا •

ولم يخل الأمر من تنافس على الحكم وخلاف على من يختار له ، ولكن يظهر فى كل الأحوال أن الناس كان لهم حق اختيار الخليفة وأن فكرة الوراثة لم تظهر اطلاقا فى الجو • فالحكم جمهورى انتخابى لا موضع للوراثة فيه ، وهذه هى التقاليد العربية الأصلية وقد عبر العرب عن ذلك بكلمة «البيعة» • وكان الخليفة متى اختير فى عاصمة الخلافة وبويع بالخلافة طير النبأ الى الأقاليم كلها ، فتأتى البيعة ، ولا تكون الخلافة صحيحة الا اذا وصلت بيعة الأمصار كلها تأكيدا لحق الشعب كل الشعب فى اختيار حكامه • فهذه أصل ثان من أصول نظم الحكم العربية •

وحتى عندما أهمل هذا الأصل فى زمن الخلفاء الأمويين وأخذ كل خليفة يعهد بالخلافة لابنه على سبيل الوراثة ، لم يهمل مبدأ البيعة ، ولم ينس حق الشعب فى اختيار الحاكم ، فكان الخليفة يأخذ البيعة لابنه من الناس ويرسل الى الأمصار فتأتيه البيعة له • فكأن حق الشعب فى الاختيار بقى معترفا به من

ناحية المبدأ وان كان اعتدى عليه من حيث الواقـع • حتى اذا صادفنا خليفـة أصوليا كعمر بن عبد العزيز صحح الوضـع بعـد اذ تولى بالطريقة المتقدمة ، فخطب الناس قائلا : « انى قد ابتليت بهذا الأمر (بالخـلافة) من غير رأى كان منى فيه ، ولا طلبة له ، ولا مشورة من المسلمين ، وانى قد خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى فاختاروا لأنفسكم » • فاختاره الناس اختيارا حرا •

بل ذهب العـرب فى حـق اختيار الشعب للخليفة الى أبعد مدى ، فجعلوا للشعب حق رد الخليفة دائما الى جادة الصواب اذا انحرف • وهـذا أبوبكـر يخطب الناس فيقول لهم : « لقـد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان أحسـنت فأعينونى ، وان صـدفت (أى انحرفت) فقومونى » • فاذا حـاد الخليفة عن طريق الصواب والخير وانقطعت كل وسـيلة فى اصلاحه كان للشعب أن يعزله • وفى ذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم : «لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق» • ويقول أبو بكر من خطبته السـابقة : « أطيعونى ما أطعت الله ورسـوله ، فاذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم » • ولقد قام الشعب لعزل عثمان بن عفان لما اعتقد فيه ، بحق أو بغير حـق ، الانحراف • وقال أبو الحسـن الماوردى (توفى سنة ١٠٧٥ م) أحد أصـحاب علم السياسة فى كتابه « الأحكام السلطانية » : « واذا أقام الامام بما ذكرناه من حقوق الأمة فقد أدى حـق الله تعالى فيما لهم وعليهم ، ووجب له عليهم حقان : الطاعة والنصرة ، ما لم يتغير حاله • والـذى يتغير به حاله شيئان : أحدهما جرح فى عدالته ، والثانى نقص فى بدنه » •

أما روح الحـكم فهو أن تدار الحكومة لمصـلحة الشعب ، ويكون الصالح العام هو الموجه الوحيد والمقياس الوحيد لتصرفات الحـاكم ، حتى يكون حكم الشعب من أجـل الشعب • وقـد عبر الاسلام عن هذا المعنى بكلمة «العدل» فالعدل هـو روح الحكم • يقول القرآن : « واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » • ويقول : « ان الله يأمر بالعدل والاحسـان » • ويقـول : « ياداود انا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحـق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » • وضد « العدل » هـو « الظلم » ، ولم يهاجم القرآن شيئا قدر ما هاجم الظلم والجهل وندد بالظالمين والجاهلين وتوعدهم بسوء المصير •

أما كيفية الحكم فهى الطريقة الديموقراطية التى تقوم على طرح المسـائل ومناقشتها والتوصل فيها الى قرار بالأغلبية يتفق عليه الجميع • وفى القرآن يقول

الله تعالى : « ياأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم » . فالاتفاق وتبادل الرأى هو طريقة الوصول الى القرارات وهو طريقة حل المشكلات فاذا اتفق على شيء فالاتفاق نافذ فى الجميع ، والخلاف غير مسموح به والمعارضة لا معنى لها ، وأصبح التعاون واجبا . « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » . « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » .

فالديموقراطية العربية اذن ديموقراطية غير حزبية وانما الأصل فيها الاتحاد الكامل بين جميع الأفراد كأمة واحدة . وليس أبلغ فى وصف الفرقة التى تضربها الأحزاب على الأمة والضرر الذى تلحقه بها من قوله تعالى : « وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون . فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا (أى قطعا) كل حزب بما لديهم فرحون . فذرهم فى غمرتهم حتى حين» .وهكذا فالحكم العربى الأصيل لا يقوم على التحزب وانما على الاتحاد ، والأمة هى وحدة المجتمع لا الحزب .

فاذا اختار الناس الخليفة وسار فيهم بالحق والعدل وجبت طاعته على الجميع. «وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم» . ويقول النبى : « اسمعوا وأطيعوا وان استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله تعالى » . ومخالفة الدولة والخروج على النظام والافساد من الجرائم الكبيرة فى نظر الاسلام ، يقول الله تعالى : « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض » ، و « الفتنة أشد من القتل » .

ومن الواجبات التى على المواطن للدولة واجب الدفاع عنها الى حد التضحية بالنفس اذا احتاج الأمر . يقول الله تعالى : « انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم » . وتوعد المتهاونين فى الدفاع عن وطنهم والذود عنه بعذاب أليم حين قال : « الا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم » .

ومن واجبات المواطن أيضا أن يدفع ما يقرر عليه من الضرائب فان أبى اعتبر مقصرا فى حق وطنه وحق عليه القصاص . وهذا أبو بكر حدث فى أمر التهاون مع من امتنعوا عن دفع الضرائب فقال : « والله لو منعونى عقال بعير مما كانوا يؤدونه لقاتلتهم من أجله » .

فالدولة الاسلامية المثالية جمهورية — باصطلاح العلم السياسى — تختار الأمة رئيسها (البيعة) ، وللناس فيها حق التوجيه والنقد والمشاركة فى المسائل العامة (الشورى) ، وأهدافها تحقيق المصلحة العامة (العدل) ، وطريقتها التعاون والاتفاق (الكلمة السواء) ، وفضيلتها الوحدة والاتحاد ونبذ الخلاف والفتنة. والمواطن فيها له حقوق وعليه واجبات يجب أن تؤدى جميعا ، وان كانت واجبات الفرد أبرز فى الاسلام من حقوقه ، أو هى مرتبطة بها ارتباطا وثيقا . فالاسلام حفظ التوازن بين الدولة وبين المواطن فلا طغيان لأحدهما على الآخر . فالدولة فى خدمة المواطنين ، والحاكم خادم للأمة وهو فرد منها ، وتقوم الدول بوظائفها بتوجيه الشعب وتحت اشرافه ، فلا طغيان لأحد على الآخر .

هذه هى فلسفة الحكم العربى كما وضعت فى القرن السابع الميلادى ، يوم لم يكن فى غير الدولة العربية فى أنحاء العالم حكم على الاطلاق ، بله فلسفة حكم . يوم كانت أوروبا يتقاسم كل قطر فيها عدد من الأمراء على أساس الغلبة والقهر والاقطاع . ويوم كان الشعب قطعانا من رقيق الأرض يتحكم فى رقابهم الفرسان بالسيف ويتحكم فى عقولهم قساوسة الكنيسة بالوهم .

حقا لقد تغير كثير من هذه المبادىء ، وانعكست كثير من هذه الآيات فى العصور التى تلت صدر الاسلام. ولكن هذا الذى حدث من اتباع نظام الوراثة فى تولية الخلفاء والسلاطين ، وبطلان نظام الشورى ، ومخالفة أصول العدل ، واختفاء المشاركة فى الحكم ، كان كله حالات مرضية غير أصيلة ، كانت نتيجة تأثيرات أجنبية ، فالأمويون تأثروا بالبيزنطيين والعباسيون تأثروا بالساسانيين والأتراك تأثروا ببربريتهم وهمجيتهم وبعدهم عن روح الاسلام. ويبقى بعد هذا أن نظام الحكم الاسلامى العربى الأصيل هو ذلك الذى وصفناه . وحتى فى حالات اختفاء أصول هذا الحكم بقى ذلك النظام العربى المثالى هاديا للأمة العربية فلجأت اليه دائما تستهديه وتثور بوحى منه على انحرافات الحكام ، وحتى فى أحلك عصور الاستبداد وأبعدها عن عصر صدر الاسلام كان هذا النظام الحكومى المثالى هو القبس الذى هدى زعماء الشعب فى مطالبتهم بحقوقه .

والأمثلة كثيرة ، ففى سنة ١٧٩٥ م عندما تمادى مراد بك وابراهيم بك فى الظلم وفرض الضرائب والمكوس ثار عليهما زعماء الشعب من مشايخ الأزهر ،

ولما سئلوا ما يطلبون ، لم يتحدثوا فيما ثاروا من أجله من الحوادث الجزئية ، بل تكلموا فى الأصول الدستورية وقالوا : « نريد العدل ورفع الظلم والجور ، واقامة الشرع ، وابطال الحوادث والمكوسات التى ابتدعتموها وأحدثتموها » . يقول الجبرتى المؤرخ : « وكان القاضى حاضرا بالمجلس فكتب حجة عليهم بذلك وفر من عليه الباشا (أى اعتمده الوالى) وختم عليها ابراهيم بك ومراد بك ، ورجع المشايخ وحولهم جملة عظيمة من العامة وهم ينادون حسب ما رسم سادتنا العلماء بأن جميع المظالم والحوادث بطالة من مملكة الديار المصرية » وثار الشعب بهدى من القيم الاسلامية فى السياسة والحكم ضد خورشيد باشا الوالى التركى فى سنة ١٨٠٥ م وولوا محمد على باشا بدله وقالوا له : « وليناك علينا بشروطنا لما توسمناه فيك من العدالة والخير » . فلما حاد عن طريق العدل ثاروا عليه بقيادة السيد عمر مكرم . والأمثلة كثيرة مما يدل على أنه فى أحلك عصور الظلام كان المثل الاسلامى العربى للحكم ماثلا فى الأذهان هاديا للأمة فى نشاطها السياسى .

ونحن الآن انما نسير فى تجربتنا الديمقراطية الثورية بهدى من هذه الفلسفة الاسلامية التى هى من أهم مقومات المدنية العربية . فابطال الملكية واقامة الجمهورية والغاء الأحزاب السياسية ، وتحقيق الوحدة الشعبية فى الاتحاد الاشتراكى العربى ، واطلاق حرية النقد البناء ، وتقرير مبدأ القيادة الجماعية ، والنقد الذاتى ، ووضع السلطة فى أيدى طبقات الشعب العاملة ، كل هذه ليست الا تنظيمات مادية تطبيقا لفلسفة الحكم العربية التى شرحناها فيما تقدم ، بما يناسب ظروفنا ومرحلتنا الحالية من التقدم . وان الفروق الجسيمة التى توجد بين تنظيماتنا العربية الديمقراطية وبين تنظيمات الديمقراطية الحزبية الفردية أو تنظيمات الحزب الواحد الشيوعية ، لا يمكن تفسيرها الا بأننا قد استوحينا نظام الحكم العربى الأصيل ، ووضعنا نظمنا الدستورية بما يناسب حاجاتنا وظروفنا ولكن فى اطار أصولنا العربية السابقة . وهكذا تطورنا سياسيا وحكوميا الى أقصى درجات التطور ، ومع ذلك حافظنا على عروبتنا بل أصبحنا عربا أكثر مما كنا .

النظم الاقتصادية

ويوم تقررت الأصول الاقتصادية عند العرب فى القرن السابع الميلادى لم تكن المذاهب الاقتصادية قد ظهرت بعد بأسمائها من اقطاعية ورأسمالية واشتراكية وشيوعية ونحو ذلك • ومع ذلك فاذا أردنا أن نختار اصطلاحا حديثا يكون أقرب الى أصول النظم الاقتصادية العربية لكان هذا الاصطلاح هو « الاشتراكية » •

واذا كانت الاشتراكية هى أعدل النظم الاقتصادية التى عرفها الانسان حتى الآن ، فما ذلك الا لأنها تقوم على مبادىء العدل فى أمر الثروة • فمن أصولها :

١ — أن مصادر الثروة ملك الناس جميعا لا تحتكرها طبقة معينة ولا أفراد بذواتهم •

٢ — أن عائد العملية الاقتصادية لكل فرد حق فيه •

٣ — أن الاقتصاد يدخل فى مسئوليات الدولة فهو ليس عملية فردية •

٤ — أن الثروة يجب أن توزع بالعدل وأن يعم تبادلها فكل تكديس أو احتكار أو استغلال هو ضد الاشتراكية •

٥ — أن هناك حدا أدنى من المعيشة يجب أن يضمن لكل فرد بحكم شركته فى الثروة العامة •

ومع أن الاسلام قرر حق الفرد فى الملك وفى الحرية الاقتصادية الا أنه شرطهما دائما بالمصلحة العامة وحقوق الآخرين • وعلى هذا الأساس قرر الاسلام الملك العام على كل ثروة لها قيمة اجتماعية أساسية • ففى الحديث الشريف : « الناس شركاء فى ثلاثة : الماء والكلأ والنار » • ولا يخفى أن الماء ثروة هامة بل هى أهم الثروات فى الصحراء ، وأن الكلأ هو أهم مصادر الثروة فى الصحراء أيضا • ومع ذلك فليس الحديث هنا بأسلوب العصر لكن يقاس عليه كل ما كان ذا قيمة عظمى فى المجتمع ، كل عصر بخصائصه وكل بيئة بمقوماتها • وجعل القرآن ما أفاء الله على المسلمين لأنواع من الناس عددها حتى تكون ملكيتها عامة ، وعلل ذلك بقوله تعالى : « كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » • وقد منع عمر بن الخطاب ملكية بعض الأراضى خصوصا فى العراق وفارس وجعلها ملكا عاما لأهميتها فى الاقتصاد القومى العام •

ومع أن الاسلام أباح الملكية الفردية وجعلها من الحقوق الأساسية للفرد الا أنه قاوم تكديس الثروة فى أيدى قليلة ، واتخذ من الاجراءات ما يكفل تداولها بين أكبر عدد ممكن من الناس ، لأن تكديس الثروات فى يد فئة قليلة معناه حرمان الأكثرية من ضرورات العيش • وكان من وسائله فى ذلك فرض الضرائب ، لا على الربح فقط ، ولكن على رءوس الأموال غير المستغلة أو العاملة • فالمواشى عليها ضريبة اذا جاوزت نصابا معينا ، والزروع والثمار عليها ضريبة خصوصا ما يمكن ادخاره منها ، والمدخرات من الذهب والفضة عليها ضريبة تبلغ ٢ ١/٢ ٪ لمن تجاوز النصاب وقدره مائتى درهم • وأموال التجار عليها ضريبة قدرها ٢ ١/٢ ٪ متى مر عليها سنة عند أصحابها • وهكذا تخرج مقادير من الأموال من الأغنياء الى المحتاجين ، ويبطل تكدس الأموال عند القلة الغنية ، ويضطر كل انسان الى استثمار ما معه من المال ما دام اختزانه سيأتى عليه سنة بعد أخرى ، وبذلك تتبادل الثروة •

ومن وسائل الاسلام فى عدم تكديس الثروة فى أيدى القلة أيضا ما شرعه فى نظام الارث • فالتركة فى الاسلام لاتذهب الى أكبر الأبناء كما فى انجلترا ولا توزع بالوصية حسب أهواء صاحبها حتى ولو ذهبت الى القطط والكلاب كما فى أمريكا ، ولكن توزع على الأسرة والأقرباء ، كل منهم بنصيب معلوم ، وللذكر مثل حظ الأنثيين ، وتوزع التركة على الأب والأم فى كل الحالات ، وعلى الأخوات فى حالة عدم وجود عقب ذكر ، وعلى الأولاد جميعا بالعدل ، وعلى الأقرباء اذا لم يوجد عقب لصاحب الثروة ، وبذلك تتحطم الثروات المكدسة ويتداولها أكبر عدد من الناس ، ولا يتمكن أحد من أن يعتمدعلى الثروات الموروثة فيصده ذلك عن العمل والانتاج •

وحض الاسلام على الزكاة والصدقة وصلة الرحم ، واخراج المال كفارة عن بعض الرخص الخاصة بالعبادات ، وفى بعض المواسم والأعياد ، وسن نظام الضرائب من خراج على الأرض ، وعشور على الحاصلات ، ومكوس على التجارة • وبذلك عمل على تجزىء الثروة وتداولها ، بل ان الاسلام بعد هذا حرم أو كره اكتناز الأموال • فحتى بعد أن يدفع الانسان الضرائب ويتصدق ليس له أن يكنز الذهب والفضة والأموال بل يجب أن ينفقها أو يوظفها فى العملية الاقتصادية • وكما حرم الاسلام السفه والاسراف حرم البخل والشح

والاكتناز والقعود عن الانفاق . قال تعالى : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » . والمتفقة فى روح الاسلام يعرف أن سبيل الله ليس الجهاد ضد الأعداء أو نشر الدين فقط ، وانما هو كل ما تمشى مع تعاليمه ، فانفاق الأموال لصلة الرحم هو فى سبيل الله ، ودفعها صدقة للمحتاجين هو فى سبيل الله ، واستثمارها فى عمل منتج هو فى سبيل الله . واقراضها لشخص محتاج قرضا حسنا هو فى سبيل الله . وسبيل الله أوسع من أن يحد ، لأن سبيله هو الخير بعمومه والبر بكليته والانتاج بجميع أبوابه . وفى القرآن أكثر من سبعين آية تحض على الانفاق .

وقد تنبه الاسلام الى أدق ما تنبه له فلاسفة الاقتصاد والسياسة المحدثون من أثر تكديس الثروة فى افساد الحياة الاجتماعية والسياسية . فتنبه أولا الى ميل الأغنياء الى الفساد والطغيان ، قال تعالى : « ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى » . وقال : « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » . وهكذا فان فساد الأغنياء المترفين فيه تدمير للجماعة . وتنبه ثانيا الى ميل رأس المال الى السيطرة على الحكم واستغلاله لمصلحة أصحابه . قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون » ، وهى من أدق الاشارات الى سيطرة رأس المال على الحكم . ومن هنا كان تأكيد الاسلام لضرورة عدم تكديس الثروة حتى لا يؤدى ذلك الى فساد السياسة والحكم والاجتماع كلها . وهكذا تنبهت فلسفة الاسلام الى العلاقة الوثيقة بين الحرية من الفقر والعوز وبين الحرية السياسية ، وبين العدالة الاقتصادية وبين استقامة الحكم الشعبى .

ومن الأصول الاقتصادية فى الاسلام عدم الاستغلال . فلعل القوة المالية هى أقوى الأسس التى تمكن فردا من استغلال أفراد آخرين ، أو طبقة من استغلال طبقات . وقد عد الاسلام التطفيف فى الكيل والميزان من الاستغلال فنهى عنهما ، كما عد الربا نوعا من أسوأ أنواع الاستغلال فعده من المحرمات لما فيه من استغلال صاحب الفضل من المال لمن هو فى حاجة اليه فيثرى على حسابه بلا عمل ولا كد . وكذلك حرم الاسلام الميسر والقمار حتى لا يكون الحظ من طرق الغنى . ومن حق الدولة أن تتدخل فى السوق وتمنع التلاعب

بالأسعار ، وتحول دون ممارسة أحد للاحتكار • وقد كان عمر بن الخطاب يمشى فى الأسواق ومعه الدرة يؤدب بها ذوى الأثرة والجشعين من التجار • ومن أخص مسئوليات المحتسب فى الحكومة الاسلامية ، منع التجار من الاحتكار والزامهم بيع البضائع المحتكرة بأسعارها المعتدلة جبرا عنهم ، ومنع التغرير بالمنتجين من أهل الأرياف كيلا يبيعوا بأسعار أرخص مما هى فى الأسواق ، كما قال الشيزرى فى كتابه « نهاية الرتبة فى طلب الحسبة » •

بل لقد اعتبرت الدولة فى الاسلام مسئولة عن اقالة عثرة المفلسين من أصحاب الصنائع والمتاجر فتمنحهم المال حتى يعودا الى مضمار الاقتصاد مزودين بوسائل التنافس مع غيرهم من القادرين • يقول تعالى : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب والغارمين ، وفى سبيل الله وابن السبيل » ، و « الغارمون » هم من عجزوا عن سداد ديونهم ، فلهم نصيب من صندوق الزكاة ليعودوا الى السوق من جديد غير مجردين من وسائل التزاحم الشريف •

بل ان جزءا أساسيا من النظام الاقتصادى العربى أن تصادر الدولة ما يستولى عليه أى انسان من غير حق سواء كان من استغلال وظيفته أو استغلال الناس • وقد روى المؤرخون أن عمر بن الخطاب كان يحاسب الولاة على ما بأيديهم من الثروة بالقياس الى ما كان معهم قبل الولاية ، ويصادر لصالح بيت المال ما يكشفه معهم من زيادة غير مشروعة • ولم يعف من هذه المعاملة عمرو بن العاص فأرسل اليه من صادر نصف ثروته وهو والى مصر فدخلت بيت المال •

والاقتصاد العربى يتخذ من العمل أساسا للاقتصاد وأسبابا لكسب العيش • والاسلام يحترم العمل اليدوى ، والنشاط العملى ، حتى لقد فضل النبى العامل على العابد • وعن النبى أنه قال : « أشرف الكسب عمل الرجل بيديه » • وقد جلس صلى الله عليه وسلم مع أصحابه ذات يوم فذكروا شابا جلدا قد خرج مبكرا يسعى ، وقالوا : « ويح هذا لو كان شبابه وجلده فى سبيل الله » • قال النبى : « انه ان كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسألة ويغنيها عن الناس فهو فى سبيل الله ، وان كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعافا ليعينهم فهو فى سبيل الله» •

ويقول تعالى حاثا على العمل والانتاج : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فأمشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور » . وقال النبى : « ان من الذنوب ذنوبا لا يكفرها الا السعى فى طلب المعيشة » .

وقرن الله بين الجهاد فى سبيل الدين والعمل فى سبيل العيش . قال : « وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون فى سبيل الله » . فالعمل فى الاسلام شرف وحق وواجب ، وهو معيار القيمة الاجتماعية للمواطن .

والاسلام الذى سوى بين الناس حتى جعلهم كأسنان المشط لا فرق بين عربى وأعجمى ولا بين أبيض وأسود ، فرق بين الناس على أساس العمل والانتاج . « وما تجزون الا ما كنتم تعملون » . وقال تعالى : « ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون » .

هذه هى الفلسفة الاقتصادية العربية ، وهى فلسفة اشتراكية بريئة من المغالاة والسرف التى دمغت بها المذاهب الاشتراكية المتطرفة ، وفيها كل مزايا الرأسمالية . ولقد عبر عمر بن الخطاب عن الاشتراكية العربية تعبيرا ما قرأت مثله فى كل ما اتفق لى من كتابات فلاسفة الاشتراكية المحدثين . قال : « انى حريص على ألا أدع حاجة الا سددتها ما اتسع بعضنا لبعض . فاذا ضاق ذلك عنا تأسينا فى عيشنا حتى نستوى فى الكفاف » .

هذا كلام العرب فى القرن السابع الميلادى حين كان المذهب الاقتصادى المسلم به فى أوربا هو أن الأغلبية أدوات انتاج للأقلية ، وأن السخرة هى طريقة الانتاج ، وأن الأقلية هى التى تملك الأرض والطواحين والجسور وكل مصادر الثروة ، وأن الشعب ليس من حقه أن يعيش الا بالقدر الذى تسمح به فتات الأغنياء ، الى آخر مسلمات النظام الاقطاعى .

وفى هذا الاطار الاقتصادى العربى الأصيل ، وفى داخله تقع اشتراكيتنا العربية . ولعل أبرع تعبير حديث عن هذه القيم العربية الأصيلة ما قاله الرئيس جمال عبد الناصر فى خطاب له : « الديمقراطية لا يحددها الدستور ولا يحددها البرلمان ، بل توجد بالقضاء على الاقطاع والقضاء على الاحتكار والقضاء على سيطرة رأس المال ، فلا حرية بلا مساواة ، ولا ديمقراطية بدون مساواة ، ولا

مســـاواة مع الاقطاع والاستغلال وسيطرة رأس المال » . وما عبر عنــه الميثــاق الوطنى من أن الاشتراكية ليست عقابا لرأس المــال الخاص عن انحرافه ، ولكنها تحقيق للملكية العامة لمصادر الثروة ووسائل الانتاج تحقيقا للكفاية والعدل .

النظم الاجتماعية

وعلم الاجتماع من أحدث العلوم . والجانب الاجتماعى من الفلسفة أحدث جوانب الفلسفة معالجة فى كلام الفلاسفة . ومع كثرة الأشياء التى سبق بها العرب فقــد كان سبقهم فى ميدان الفلسفة الاجتماعية من أبرز فتــوحاتهم الفكــرية والواقعيــــة .

ولعل أهم ما سبق به العرب فى ميدان النظم الاجتماعية هو حفظهم التوازن بين الفرد والمجتمع ، واعتبارهما مكملين أحدهما للآخر ، والتوفيق بينهما بحيث لا يعترف بأى تعارض بين مصالحهما . وبذلك لم تقــع الفســلفة الاجتماعيــة الاسلامية فيما وقعت فيه الفلسفات القديمة والحديثة على السواء ، حين قدمت بعضها الفرد على المجتمع واعتبرته مصدر القيم ومنحته الحرية الــكاملة كمــا فعلت الفلسفة الطبيعية . أو قدمت بعضها المجتمع وأفنت فيه الفرد فحرمته من كل حق ومن كل حرية كما فعلت المذاهب المثالية .

اعترف الاسلام للمجتمع بأهميته البالغة على اعتبــار أن المجتمع هو الاطار الذى يعيش فيه الفرد ويتوقف عليــه حظه فى الحياة . ولذلك كانت المصــالح المرسلة أو المصلحة العامة أصلا من أصول الفقه الاسلامى ، وموجهــا هاما من موجهات سلوك الفرد . ولذلك أيضا حرص الاسلام على رقم الجماعة العربية حتى تكون « خير أمة أخرجت للناس » . ولذلك أيضا كان اتحاد الأفراد لرفعة شأن الجماعة يكاد يكون فرضا من الفروض حتى كانت « يد الله مع الجماعة » . وأمر الله الأفراد أن « اعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » . وقال النبى : « المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضا » . كل ذلك من أجل مجتمــع قوى ، وضــعه الاسلام فى أعلى مكان ، وجعل تقدمه معيار كل تشريع ومقياس كل عمل يقــوم به الفرد . فالجماعة الاسلامية جماعة متماسكة .

واعتبر الاسلام الاضرار بالمجتمع والاعتداء على وحدته وتماسكه والعمــل على اضعافه من الكبائر . تأمل الآية الآتية : « انما جزاء الذين يحــــاربون الله

ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض » • فالافساد فى الأرض ، وهو السعى فى المجتمع بالفساد ، وهو محاربة لله ولرسوله • ولم يكتف الاسلام بالسلوك السلبى أى بمجرد الامتناع عن الاضرار بالمجتمع ، وانما أوجب أن يكون الفرد ايجابيا فى سبيل النهوض بالمجتمع ، « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » •

ثم نظر الاسلام فى عوامل اضعاف المجتمع وتفككه فوجد أن أهم هذه العوامل هو الظلم الاجتماعى ، وشعور طبقة من الأفراد بأنها مهضومة الحقوق مظلومة الحظ • ولذلك قرر الاسلام المساواة المطلقة بين الأفراد ، المساواة أمام القانون وأمام الله • قال تعالى : « انما المؤمنون أخوة » ، بل وجعل النبى على سمو منزلته بشرا كالبشر ، « انما أنا بشر مثلكم » • وقال النبى : « لا فضل لعربى على أعجمى ولا لقرشى على حبشى الا بالتقوى » • وقال النبى فى خطبة الوداع : « يا أيها الناس ان ربكم واحد ، وان أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب » • وقال عمر بن الخطاب لأبى موسى الأشعرى : « آس بين الناس فى مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك » •

والنظام الاجتماعى الاسلامى أمن الفرد من الناحية الاقتصادية تأمينا كاملا • فالمساواة انسحبت أيضا على حق المعيشة ولم تقتصر على القانون . ولذلك فرض الاسلام ضريبة الزكاة على رءوس الأموال وعلى الدخل • والزكاة ضريبة اجتماعية بمعنى أنه لا يدخل بيت المال أو ميزانية الدولة منها شىء ، وانما هى تؤخذ من الغنى وتعطى للفقير ، وتقوم الدولة بجبايتها وتوزيعها على مستحقيها حتى تتخذ شكل الحق لا شكل الصدقة تكريما للمحتاجين وصيانة لآدميتهم ، ولذلك فهى غير زكاة الفطر التى يخرجها الانسان بنفسه ومبالغة فى تكريم الفقراء الذين يستحقونها سميت زكاة أى أنها أخذت لمصلحة دافعها لأنها تزيد ماله وتنميه بالبركة ، وتطهر نفسه من شبهة الأثرة والأنانية ، وتعلى مكانته بعد أن يتخلص من وصمة البخل والشح ، « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » • وتوزع على الفقراء والمساكين ، أى على مختلف مراتب الفقر ، وفى تحرير جنود الاسلام والموالين له اذا وقعوا فى الأسر ، وسداد ديون من ركبهم الدين وعجزوا عن السداد ، والمجاهدين فى سبيل الله من الجند ، وفى

تأليـف قلوب المترددين فى اسلامهم ، ربما لاحتمال ضياع مصـدر رزقهم اذا أسلموا ، وفى ترحيل من يفقد ماله أو ينفد قبل أن يتم رحلته من المسافرين حتى ولو كانوا أغنياء فى بلادهم . وكل ذلك بعـد دفع أجور من يستخدم فى جبايتها من السعاة والجباة .

ولقد اعتبرت الدولة الاسـلامية نفسها مسئولة عن تأمـين معيشة المواطنين تطبيقا لمبدأ العدالة الاجتماعية وتحقيقا لمبدأ الكفاية ، حتى أن أبا بكر حـارب من امتنعوا عن دفـع الزكاة بعـد وفاة النبى ، لأن الدولة لا تستطيع أن تترك الفقراء بلا مصـدر عيش . وكان من فلسـفتهم السياسية والقانونية أن حـد السرقة وهو قطع اليـد انما وضع لأن الدولة تكفى الناس شر الحاجة فلا حاجة الى السرقة ، فاذا قصرت هى فى واجب اعالة الفقراء فليس لها أن تطبـق الحـد عليهم اذا سرقوا ليأكلوا . ولذلك ألغى عمر بن الخطاب عقوبة قطع يد السارق فى سـنة المجاعة عند ما لم تتمكن الدولة من توزيع الصدقات . فأى تأمين للفرد بعد هذا وأى فلسفة قانون أنبل أو أسمى من هذه الفلسفة .

وفى اطار هـذا المجتمع المتعاون أفـراده ، المتراصة صـفوفه ، المقـدمة مصلحته ، أعطى الاسلام الفـرد كافة حقوقه المـادية والمعنوية . فالفرد حـر لا سلطان عليه الا لضميره . ورأى الاسلام فى الفرد أنه حر الارادة وأهل للثقة . قادر بذكائه على حل مشكلاته وعلى المشاركة فى المسـائل العـامة وأنه قـادر على التصرف . وقـد أولى الاسلام آدميـة الفرد كل رعاية اعتبر الانسـان خليفة الله فى الأرض . وحتى فى مسـألة العقيدة تركهـا الاسـلام لذكاء الفرد واقتناعه ، فـ « لا اكراه فى الدين » . وقال تعالى للنبى : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » . وقال له : « فذكـر انما أنت مذكـر ، لست عليهـم بمسيطر » . وقال له : « لست عليهم بجبار » . فهـل بعـد هذا احترام لآدمية الانسان . حـدث هذا عند العرب فى القـرن السابع وترك كل انسان يمارس دينه حسب اعتقاده وحمت الدولة العربيـة اليهود والمسـيحيين ، فى وقت فيه وبعده بقرون كانت محاكم التفتيش فى أوربا تسوق الآلاف للقتـل والاحراق ، وهم مسيحيون على دين الدولة والقضاة ، لأنهم اختلفوا مـع الدولة فى المذهب اذ اعتنقوا المذهب البروتستانتى .

ولم يعترف الاسـلام بسلطان على الفـرد الا سلطان ضميره واقتناعه ،

فليس فى الدين الاسلامى رجال دين يفكرون للناس أو يقفون بينهم وبين الله أو يراقبون ضميرهم ، أو يمنحونهم أماكنهم فى الجنة بالثمن . وانما العلاقة بين المسلم وبين الله علاقة مباشرة . حتى عندما يريد الفرد أن يتحرر من واجباته الدينية لمرض أو نحوه ، فهو مفتى نفسه ، يسقط عنها الواجبات بالرخص دون استئذان من قسيس أو فتوى منه . وكان فقهاء المسلمين يشتغلون بالعلم الدينى بحثا ويكسبون عيشهم بصناعة أو تجارة . وحتى وظائف القضاء رفضها هؤلاء الفقهاء ، وهى أعلى وظائف الدولة حينئذ ، تحرجا من أن يظلموا فردا بحكم وهم لا يعلمون .

وحمى المجتمع الاسلامى الرد فى حياته ، و « من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا » . فالاعتداء على حياة الفرد لا يصح الا عقوبة على أحد أمرين ، أن يقتل أو أن يفسد فى الأرض وهو التعبير الاسلامى عن التآمر على سلامة المجتمع ، أو الخيانة كما نقول الآن . بل وليس للفرد أن يعتدى على حياة نفسه . فليست نفس الانسان ملكه هو وانما هى ملك لأسرته ولوطنه . قال تعالى : « ولا تقتلوا أنفسكم » . وقال : « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » .

وحين أوجب الاسلام مراعاة كرامة الفرد ، أمره هو أن يكرم نفسه أيضا . فسكوت الانسان على الظلم ظلم لنفسه . وورد فى القرآن : « والذين اذا أصابهم البغى هم ينتصرون ، وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله انه لا يحب الظالمين » . وشرط العفو هنا القدرة ، بعد أن ينتصر الانسان لنفسه ويصبح قادرا على خصمه . وقال تعالى : « ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا » . وقال عمر بن الخطاب : « يعجبنى الرجل اذا سيم خطة ضيم أن يقول لا بملء فيه » .

ومع ما منحه الاسلام للفرد من الحقوق وما رفعه اليه من مراتب المساواة مع غيره ، فقد أباح التفاوت بين الناس ، تفاوت فى المنزلة ، وفى المرتبة ، وفى الرزق ، وفى الثروة ، وفى المركز الاجتماعى ، وفى النفوذ والسلطة ، بل وتفاوت عند الله أيضا ، فمن الناس من يدخلون الجنة خالدين

فيها أبدا ، ومنهم من يساق الى جهنم وبئس المصير • ولكنه تفاوت على أسس من الديمقراطية والعدالة • فالناس فى الاسلام لا يتفاوتون على أساس الأسرة أو الدم أو النسب والحسب أو المركز الاقتصادى ، ولكن على أساس العلم والعمل والانتاج والاحسان والخدمة العامة • وفى القرآن بيان للأسس التى يجوز عليها التفاوت بين الناس ، قال تعالى : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم » • فالخدمة العامة هنا أساس مشروع للتفرقة • وقال : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ، والعلم أساس آخر • وقال : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » ، أى مراعاة الضمير فى القول والعمل والسلوك • فالأخلاق أساس ثالث • وهكذا • وقد جعل التفاوت فى كل هذه الحالات دافعا للناس على الاخلاص وبذل الجهد وطلب العلم والتنافس الشريف فى الخدمة العامة• وليس أظلم من أن يسوى بين العالم والجاهل ، والعامل والقاعد ، والنشيط والكسلان ، والمصلح والمفسد ، والفاضل والخامل ، ففى هذا تضييع للقيم وصد للناس عن العمل •

ومع التسليم بمبدأ التفاوت بين الناس فالمجتمع العربى مجتمع غير طبقى • أولا : لأن التفاوت لا يقوم على أسس موروثة كالأسرة أو الغنى أو الجاه ولكنه مكتسب بالجد والعمل والعلم ، ومن ثم فهو فى متناول أى فرد ، فهو تفاوت على أساس تكافؤ الفرص لأنه مفتوح أمام جميع المواطنين • وثانيا : لأن هذا التفاوت لن يرتفع بأحد الى مستوى الطبقة الاجتماعية الممتازة ولن يهبط بأحد الى مستوى الطبقة الاجتماعية المهضومة الحقوق ، وذلك فى ضوء الضمانات التى سبق بيانها عند الكلام عن النظم الاقتصادية • وثالثا : لأن المجتمع العربى مجتمع مرن يستطيع أى فرد فيه أن ينتقل من الفقر الى الغنى ومن الخمول الى الشهرة ، متى بذل جهدا أو حقق تفوقا ، وبنفس السهولة ينقلب الغنى فقيرا والشهير خاملا ، اذا تراخى أو أفسد ، فالتفاوت ليس وراثيا •

وهكذا فالمجتمع العربى مجتمع متوازن ، تتآلف فيه مصالح الفرد ومصالح الجماعة فى نظام واحد • يلزم الفرد بمراعاة مصالح الجماعة والتضحية فى سبيلها ، ويلزم المجتمع بأن يمنح الفرد كل حقوقه وحرياته • وهو مجتمع

قــوى ولكنه يثق فى ذكاء الفرد ، ويؤمن بحــرية ارادته ويجعله مسئولا أمام ضميره لا غــير • وقد عبر الاســلام عن هذا المعنى الدقيق بكلمــة « التقوى » وهى المســئولية أمام الضــمير . وهى أقــوى وأدق وأقسى من المســئولية أمام القانون •

ولا أعــرف فيما أطلعت عليه من النظم الاجتماعية شيئا كالنظام الاجتمــاعى العربى الذى قدم المجتمع وضمن سلامته وجعل مصالحه معيــار كل نشــاط ، ومع ذلك أعطى الفرد كافة حقوقه وكرمه الى أبعــد حــدود التكــريم ، فهــو مجتمع قــوى أحكم نسجه الدقيق من خيــوط متشابكة مؤتلفة من الحقــوق والواجبات • وهو مجتمع خلقى أبرز ما فيــه أخلاقه ، فالفرد عليه واجبــات واضــحة نحو الله ، ونحو الوطن ، ونحو الغير ، ونحو الأسرة ، ونحو نفسه • وهو مطالب بأخلاق منهــا الصبر والكرم والشــجاعة والعدل والعفة والحلم والرحمة ومساعدة الغــير واكرام الوالدين وصلة الرحم والوفاء بالعهد والتسامح والتواضع والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والبغى • وكلها فضائل ذات قيمة اجتماعيــة وذات أثر فى التماسك الاجتماعى كمــا هو واضح • والمعجــز من الناحيتين الفكرية والنفسية فى هــذه الفلسفة الاجتماعية ، أن الفــرد يبقى فى ظلها حــرا طليقا راضــيا ، لأنه لا ســلطان عليه الا ضــميره فى أداء هـــذه الواجبات ، فالضابط نابع من داخــل الفرد وليس مفروضــا عليه من الخارج ، فلا ســيد ولا قسيس •

هذه هى الفلسفة الاجتماعيــة العربية كما وضعت فى القرن السابع الميلادى ، وفيــه وبعده بقرون كان الأحرار فى أوربا بضع مئات ، وكانت ملايين الشــعب أرقاء أرض ليس لهم حقوق ولكن عليهم تبعــات ومغــارم ، ولم يكن للفــرد منهم حتى ولا حق الانتقال بفأســه من بلد الى بلد أو من قطعــة أرض الى قطعة أرض مجــاورة والا أحضره السيد وقتله بحكم القانون ، ولا حق له فى عبــادة الله بغير وساطة القسيس نظير أجر والا حرم حتى من رحمة الله •

وهذه هى الفلسفة التى عبر عنها الميثــاق الوطنى أصدق تعبير عندما تكلم عن العدالة الاجتماعية وتذويب الفوارق بين الطبقــات ، ليخلص المجتمع العربى مما شــــاب مثله الأصيلة من آثار جهــل الأتراك واســتعمار الأوربيين ، وظلم الرجعيين والمستغلين •

العلوم عند العرب

رأيت الى أى حــد ارتقت فلسفة الحياة عند العرب ، والى أى حــد من الرقى بلغت نظمهم الســياسية والاجتماعية والاقتصــادية . ولعلك لا حظت أن تلك الفلسفة والنظم كانت عربية خالصة . لأن معظمها يرجع الى الدين الاسلامى وما قــرره من مبــادىء خلقيــة للعلاقات بين الناس ، وما اجتهد به خلفاؤهم وفقهاؤهم فى تفسير تلك المبادىء وتطبيقها .

ولقــد اشتغل العــرب بالعــلوم ، سواء منها العــلوم الاجتماعية كالدين والقــانون والتاريخ والجغرافيــة وعلوم اللغة والأدب ، أو العلوم الحكميــة كالفلسفة والمنطق ، أو العلوم الطبيعيــة كالفيزياء والكيمياء والطب والرياضيات والفلك . ولقد اعتمدوا فى العلوم الاجتماعيــة على أنفسهم فى الغــالب ، وذلك لأنهــا علوم تتعلق بفقه دينهم وبلاغة لغتهم وتاريخ أمتهم . أما العــلوم الحكمية والعــلوم الطبيعية فقد كانت غريبة عنهم تماما قبل الاسلام فلم يكــن عنــدهم منها الا بعض المعلومات الفلكيــة التى اســتخدموها للهداية فى أثناء الســير فى الصــحراء ، أو فى العرافة والتنجيم ، وبعض التجارب الطبية التى وقفت عند حد الممارسة دون النظر والتقنين والعلم . ولذلك اعتمدوا فى هــذه العلوم الطبيعية على من سبقهم من الأمم ، فبــدأوا بحركة ترجمة نقلوا فيها علوم تلك الأمم ، ثم بعد أن درسوا هــذه الترجمات اشتغلوا بالبحث وأضــافوا اليها كثيرا من العلم الذى كشفوه وسجلوه .

ولقد عرفت مما تقــدم من فلسفة الحيــاة عند العرب ، ومن تبادلهم الثقافة مع الشــعوب الذين استخلصوا أوطانهم من الفرس والروم . أن العرب كانوا أبعد الناس عن التعصب ، وأن نظرتهم الى الأمور كانت نظرة انسانية متواضعة ، وأنهم عرفوا أن الله اذا كان قــد من عليهم بالدين الاسلامى فأنزله على محمــد العربى فان أمما أخــرى قد سبقتهم فى ميادين أخرى من الحياة البشرية ولذلك لم يتعالوا على أحد . ولم يحتقروا خبرة ولا علما ، ولم يستصغروا أمة ولا شعبا ولا فردا ، بل أقبلوا على الشــعوب التى اتصــلوا بها فأخذوا يتعلمون علومهم ويأخذون عنهم حكمتهم ، ويقتبسون صــنائعهم ، ولم يأنفوا وهم الفاتحــون والحكام من أن يجلسوا مجلس التلميذ من أى فرد أو أى جماعة كانت تستطيع

أن تمنحهم قبسا من نور العلم ، أو حركة من مهارة الصناعة • وبهـذا الشغف بالعلم وبهذا التواضـع المؤثر فى طلبه حصـلوا علوم كل من سبقهم من الأمم فى مـدة وجيزة ، ثم أخذوا يعلون من صرح العـلم والمعرفة حتى كانوا فيهـا أئمة تقدموا الأمم وعلموا الناس •

أما الأمم التى نقلوا عنها العلوم والفنون والصناعات فهى :

الفرس : فقـد كان للفرس آدابهم وفنونهم ، كما كان عندهم عـلوم الأمم السامية القديمة التى سكنت العـراق كالبابليين والآشوريين ، وكذلك عـلوم الاغريق التى كانت قـد انتقلت الى بلاد فارس عن طـريق السريان • وقد نقل العرب والفرس الذين تعـلموا العربية كثيرا من كتب الآداب الفارسية والتاريخ والنظـم •

الهنود : وقد نبغ الهنود فى الحساب وعلم النجـوم وتجاريب الطب ، كما نبغوا فى بعض الصناعات كطبـع السيوف • ونقل العرب علوم الهنـد كالحساب وحركات الكواكب وبعض طرق حلول المسائل الفلكيـة وبعض الأزياج (جمع زيج وهى الجداول الفلكية) •

المصريون : وقد كان عنـد المصريين فنونهم وصناعاتهم خصوصا فن العمارة والصناعات الدقيقة ، وكان فى مصر علوم الاغريق فقد كان بالاسكندرية عاصمة مصر قبل الفتح نهضة علمية حاولت بها الاسكندرية أن تستعيد مكانتها السـابقة كمركز للعلوم الاغريقية • كما أخذ العرب كثيرا من النظم التى كانت سائدة فى مصر خصوصا تنظيم الدولة ودواوين الحكومة وحساباتها •

اليـونان : فقـد انتشرت علوم اليونان وفلسفتهم فى الشرق بعـد فتـح الاسكندر • ثم عندما اضطهد أباطرة الرومان المسيحيون علوم اليونان على أنها علوم وثنية • وكان بالعراق والشام ومصر مدارس يونانية كثـيرة بها فلسـفة الاغريق وعلومهم ، كسقراط وأفلاطون وأرسطو وجالينوس ، وقد ترجم العرب هـذه العلوم ، وان كانو قد أهملوا تماما الأدب الأغريقى ، ربمـا لأنه كان أدبا دينيا وثنيا يتكلم عن تعـدد الآلهـة وهو ما كان يتعارض مع وحدانية الاسلام • وكان من أشهر مدارس العـلم اليونانى بالشرق العربى : مدرسـة الاسكندرية وقد قامت بها حركة احياء للطب الاغريقى • كما كان بها بقايا حركة الأفلاطونية الحديثة • ومدرسة الرها فى أعالى العراق التى انتقلت الى نصيبين فى الجزيرة ،

ثم انتقلت فى النصف الأول من القرن السادس الى جنديسابور فى خوزستان فى الجنوب الغربى من فارس ، وكان بها مدرسة طبية كبيرة . وقد ترجمت كتب الاغريق الى اللغة السريانية فى هذه المدارس ، وكان يحمل هذا العلم جماعة النسطوريين وهم فرقة دينية مسيحية أنشأها نسطور بطريق القسطنطينية واعتبرت فرقة متزندقة فهاجر أصحابها الى الرها ، ثم طاردهم زينو امبراطور الروم ففروا الى بلاد فارس حيث أكرمهم الساسانيون واستقروا بعلومهم هناك .

والى هذه البلاد فر علماء الأغريق وفلاسفتهم عندما أغلق الامبراطور جستنيان مدارس الفلسفة فى أثينا فى سنة ٥٢٩ م ، وقابلوا السوريين والفرس والهنود الذين أخذوا علومهم وترجموها الى السريانية والفارسية ، ومن هذا المنبع أخذ العرب علوم الاغريق .

فلما فتح العرب هذه البلاد واستقروا فيها ، أخذ بعض العرب يتعلم اللغات السريانية والفارسية بل واليونانية أحيانا ، كما أخذ أهل تلك البلاد المفتوحة يتعلمون اللغة العربية ويعتنقون الاسلام . وقد قام أولئك وهؤلاء بترجمة العلوم الاغريقية . وبدأت الترجمة من اللغة السريانية ، وكانت سهلة لتقارب اللغتين العربية والسريانية . وبدأت حركة الترجمة فى أيام الأمويين ، ونشطت فى أيام العباسيين . واشتهرت عائلات من النسطوريين بالترجمة الى اللغة العربية ، ومن هؤلاء آل بختيشوع ، وهم أطباء البلاط العباسى ، وآل ماسويه . ولم تكن ترجماتهم تخلو من بعض التحريف ، وبسبب أخطاء المترجمين السريان وقع العرب فى بعض الأخطاء فى فهم علوم الاغريق . ومن أمثلة ذلك أن هؤلاء المترجمين خلطوا بين أفلوطين الاسكندرى وأفلاطون الفليسوف الاغريقى الكبير أستاذ أرسطو ، ونسبوا لأفلاطون آراء أفلوطين ، وجروا العرب وراءهم فى نفس الخطأ . كما خلطوا بين كلام أرسطو وشروح فلاسفة الاسكندرية له ، ومرت الشروح الى العرب على أنها كلام أرسطو . على أن العرب حرروا بعض تلك الأخطاء فيما بعد .

العلوم الطبيعية والطب

كانت بداية اهتمام العرب بالعلوم خصوصا الطب فى عهد الأمويين (٦٦١ — ٧٤٩ م) وقد كانت كل معلوماتهم الطبية ترجع الى ما كان عندهم من الجاهلية وصدر الاسلام ، وكله وصفات واجراءات عملية مختلطة كلها بالخرافة والتعاويذ والرقى . ونقرأ عن أسماء بعض الأطباء فى البلاط الأموى مثل عبد الملك الكنانى طبيب الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وابن أثال الدمشقى وكان خبيرا بالأدوية والسموم . وقد كانت مدرسة جنديسابور ما زالت نشطة ، ووفد منها الأطباء الى دمشق عاصمة الخلافة ، وكانوا من المسيحيين واليهود العرب . وفى ذلك العهد ترجم ماسرجويه اليهودى الفارسى كتابا فى الطب الى اللغة العربية ، وهو كناشة أهرون بن أعين فى الطب . وقد كان أهرون هذا قسيسا مسيحيا من أهل الاسكندرية عاش قبيل ظهور الاسلام ، وألف كتابه الطبى باللغة الاغريقية ووصف فيه بعض الأمراض ومنها الجدرى الذى لم يكن معروفا لأطباء الاغريق القدماء . وربما كان كتاب أهرون الاسكندرى أول كتاب فى العلوم الطبيعية ترجم الى اللغة العربية .

وفى عهد الدولة العباسية (٧٥٠ — ١٢٥٨ م) نشطت حركة الاشتغال بالعلوم الطبيعية والطبية ترجمة وتأليفا ؛ ويمكن أن نقسم هذا العهد الطويل الى ثلاث فترات : فترة الترجمة من سنة ٧٥٠ الى سنة ٩٠٠ م ، وفترة التأليف والابتكار من سنة ٩٠٠ الى سنة ١١٠٠ م ؛ ثم عصر الاضمحلال ويبدأ من سنة ١١٠٠ م .

١ — عصر الترجمة — القرنان الثامن والتاسع :

بدأت ترجمة العلوم فى عهد المنصور ثانى الخلفاء العباسيين (٧٥٤ — ٧٥ م) وكان مركز الترجمة مدينة جنديسابور التى كان تراث الاغريق قد تركز فيها خصوصا علم الطب . وكان للمنصور طبيب خاص من بين أطباء تلك المدرسة هو جرجس بن بختيشوع وهو ينتمى لعائلة أنجبت سبعة أجيال من الأطباء المشهورين عاش آخرهم الى النصف الثانى من القرن الحادى عشر .

ولقد كان القرن التاسع أخصب فترات الترجمة . وكان معظم المترجمين من النسطوريين الذين كانوا يجيدون الاغريقية والسريانية والعربية . وبلغت حركة

الترجمة غاية نشاطها فى عهـد المأمون (٨١٣ ــ ٨٣٣ م) . وقد أنشـأ المأمون مدرسة خاصة للترجمة فى بغداد وألحـق بها مكتبة . وكان أشهر مترجمى العلوم والطب فى عهده حنين بن اسحق ، وقد ترجـم الى اللغة العربية كل مؤلفـات جالينوس ، وبلغت تسـعة وثلاثين كتـابا . وقد ترجم تلاميذه ومن أشهرهم ابنه اسحق وحفيده حبيش حوالى سـتين كتابا أخرى . وهكذا ترجم الى العربيـة الجزء الأعظم من ثقافة الاغريق العلميـة والطبية . ومما نقله حنين وتلاميذه الى اللغة العربية أيضـا تآليف بقراط فى الطب وتعليق جالينوس عليها ، كما ترجموا كثيرا من كتب الطب الاغريقية الأخرى لغـير بقراط وجالينوس ، وكان بعضها موضـحا بالرسوم . وقد امتازت ترجمة حنين بالدقة وحسن الأداء ، وله تعليقات مفيدة على ما ترجمه من الكتب .

ولم يقتصر حنين وتلاميذه على ترجمة كتب الطب ، بل ترجموا كتب العـلوم الطبيعية الأخرى كالفيزياء والطب البيطرى ، وكتب أرسطو فى الطبيعة . وما زالت هذه الترجمات باقية الى الآن ، وتمتاز كلها بالدقة التى تظهر الى أى حـد كان حنين وتلاميذه يسيطرون على اللغتين الاغريقية والعربية . ومن أشهر كتب حنين ابن اسحق فى الطب كتابه « أسئلة فى الطب » وهو على هيئة أسـئلة وأجوبة . وكتابة « عشر رسائل عن العين » وهو أقدم كتـاب معروف فى طب العيون . وقد احتفظت تراجم حنين وتلاميـذه ببعض كتب جالينوس التى ضاعت أصـولها الاغريقيـة . وبلغ من دقة هؤلاء المترجمين أنهم كانوا يترجمون الكتاب من أكثر من نسخة حتى يستطيعوا ضبط النص .

وممن عاصر حنـين من المترجمين ابنه اسحق (توفى ٩١٠ م) وهو من أكبر علمـاء الرياضة والفيزياء ، وحفيده حبيش ، وثابت بن قرة الحرانى (٨٢٥ ــ ٩٠١ م) وقسطا بن لوقـا (٩٠٠ م) ، وكلهم مسيحيون ما عدا ثابت بن قرة فقد كان من الصابئة عبدة النجوم . وقد تخصص حنين وحبيش فى ترجمة كتب الطب، على حـين انصرف الآخرون الى ترجمـة كتب الفلك والفيزياء والرياضـيات والفلسفة ، وكلهم ألفوا كتبا فى هذه العلوم علاوة على ما ترجموا منها .

وقد أصبحت بغداد مركزا لحركة الترجمة خصوصا بعد أن اختفت مدرسة جنديسابور بعد أن انتقل كل علمائها الى بغـداد ليكونوا فى حاضرة الخلافة . وحوالى سنة ٨٥٦ م جـدد الخليفة المتوكل مدرسة الترجمة ومكتبتها فى بغداد .

وأجزل الخلفاء العطاء للمترجمين وأوفدوهم فى بعثات الى كافة الجهات ليحضروا الكتب الى بغداد حيث تنقل الى اللغة العربية • وفى ذلك يروى حنين نفسه قصة عثوره على كتاب لجالينوس ، يقول انه سافر فى طلب هذا الكتاب الى الجزيرة وسوريا وفلسطين ومصر حتى وصل الى الاسكندرية ، ولكنه لم يجد الا نصفه فى دمشق • ولم يقف الأمر عند ترجمة كل كتب العلوم الطبيعية والطبية الى العربية ، بل ان هؤلاء الأساتذة كانوا يدرسونها لكثير من التلاميذ ، وقد منحتهم الدولة حرية التدريس بمساجد بغداد •

وألف هؤلاء المترجمون كتبا مدرسية أو ملخصات لهذه العلوم ليستعملها تلاميذهم فى الدراسة • ومن ذلك كتاب ألفه ثابت بن قرة ويشتمل على واحد وثلاثين فصلا • عالج فيه علم الصحة العام ، ثم تكلم عن الأمراض المستترة والظاهرة ، كالأمراض الجلدية • ثم عن الأمراض التى تنتاب كل أجزاء الجسم مبتدئا بالرأس ثم الصدر ثم المعدة ثم الأمعاء • ثم تكلم عن الأمراض المعدية ومنها الجدرى والحصبة ، ثم تكلم عن السموم وختم الكتاب بكلام عن العلاقات الجنسية • وقد عرض فى هذا الكتاب أسباب كل مرض وأعراضه وعلاجه ، واقتبس فى سياقه من كلام أطباء الاغريق •

وترجمت كتب العلوم الأخرى فى نفس الفترة خصوصا كتب أرسطو العلمية ، ثم ترجمت كتب عن علم النبات ، والمعادن ، والميكانيكا ، والكيمياء • وفى القرن التاسع ظهرت مؤلفات علمية مؤلفة باللغة العربية ، ومن ذلك الكندى (توفى ٨٧٣م) الفليسوف الذى ألف كثيرا من الكتب العلمية ، منها خمسة عشر كتابا فى الأرصاد الجوية ، ومنها كتب فى الوزن النوعى ، وفى الجزر والمد وفى البصريات وخصوصا انكسار الضوء ، وفى الموسيقى • وقد ضاعت معظم كتب الكندى العلمية وان كان قد بقى منها كتاب فى البصريات على شكل ترجمة باللغة اللاتينية ضاع أصلها العربى • وفى نفس الوقت كانت الصناعات والفنون تتقدم بسرعة فى الجزيرة وفى مصر ، خصوصا أعمال الرى وحفر الترع والطرق ، وهنا اشتغل العلماء بالميكانيكا النظرية وألفت كتب فى السواقى ورفع الماء والموازين والساعات المائية • وكان أول كتاب ألف فى الميكانيكا « كتاب الحيل » ألفه ثلاثة أخوة هم محمد وأحمد والحسن أبناء موسى بن شاكر • وقد احتوى هذا الكتاب على مائة ابتكار منها كثير مما له قيمة علمية ، كأنابيب المياه الساخنة والمياه الباردة فى المنازل

والحمامات ، وآبار الماء ذات المنسـوب الثابت . وكثير منها أوصاف للعب علمية كأواني الشرب ذات الموسيقى الآلية ونحـو ذلك .

وفي القرن الثامن وضـعت كتب في التاريخ الطبيعي اشـتملت على أوصاف للحيـوان والنبات والصخور ، وقد احتوت على معلومات مفيدة وان كانت ألفت ككتب أدب . ومن ذلك كتب الأصمعي (٧٤٠ ـ ٨٢٨ م) عن الحصان والجمل ، والحيوان المفترس ، والأشجار ، وعن الكروم والنخيل . كما ترجم عن الاغريقية كتـاب عن تربيـة الحيـوان .

ولما ترجم كتاب أرسطو عن المعادن ، نسج العرب على منواله كتبا عن الأحجار الكريمة ، التي أخذت تتدفق على دار الخلافة من الهند وسواحل افريقية . وألف الكندي كتابا عن الحديد وصناعة السروج . كما ألف العرب كتبا عن العقاقير والسموم . وقد ساعد على هذه الحركة التأليفية تدفق الورق من الصين في القرن الثامن . وفي سنة ٧٩٤ م أنشيء أول مصنع للورق في بغداد .

٢ ـ العصر الذهبي للعلوم ـ القرنان العاشر والحادي عشر :

بعد أن نقل العرب كتب العلوم والطب الاغريقية ، بدأوا يعتمدون على أنفسهم في التأليف . وأخذت العلوم والطب تنتقل بسرعة من أيدي المسيحيين والصابئة الى أيدي المسلمين من الفرس والعرب . وانتقلت كتب الطب والعلوم من المختصرات والملخصات الى دوائر المعارف الطبية والعلمية الكبـيرة ، التي تقوم على تقسيم العلم والاسهام فيـه ، ونقـد كتب الأغريق وعلمهم في ضوء تجارب أطباء العرب وعلمائهم .

وأشهر علماء العرب في ذلك العصر هو أبو بكر الرازي (٨٦٥ ـ ٩٢٥ م) وهو أعظم أطباء العرب ، بل ومن أعظم الأطباء في التـاريخ . وقد درس الطب في بغداد على أحد تلاميذ حنين بن اسحق . وبدأ كيماويا ثم تحـول الى الطب ، وكثر تلاميـذه ومرضاه . وألف مائتي كتاب بعضها في الطب ، وبعضها في فلسفة الطب فقد كتب في موضوعات مثل : لماذا لا يستطيع أمهر الأطباء علاج جميـع الأمراض ؟ ولمـاذا يفضل الناس الدجالين على الأطباء ؟ وألف في حصوة المثانة والكلى ، وكتب عن الجدري والحصـبة مؤلفا ترجم الى اللغة اللاتينية ثم الى معظم اللغات الحية ، وقد فرق بوضوح بين أعراضها ووصف علاج البثـور وهي

آخر مراحل الجدرى وطبعت ترجمته الانجليزية أربعين طبعة بين سنتى ١٤٩٨ و ١٨٦٦ م ، ومن مؤلفاته كتاب فى التشريح . وأكبر مؤلفات الرازى كتابه « الحاوى » ، ويقع فى عشرين جزءا ، لم يصل الينا منها الا نصفها . وقد تناول الرازى فى هذا الكتاب كل الأمراض التى كانت معروفة ، وذكر فى كل مرض ماقاله مؤلفو الطب من الاغريق والسريان والعرب والفرس والهنود فيه ، ثم يكتب آراءه الخاصة ونتيجة تجاربه وخبراته . وقد ترجم الحاوى الى اللغة اللاتينية فرج بن سالم الطبيب الصقلى اليهودى ، وأتم ترجمته فى سنة ١٢٧٩ م . وطبع عدة طبعات ابتداء من سنة ١٤٨٦ م ، وهو من أعظم الكتب التى أثرت تأثيرا كبيرا على الطب فى أوربا . وألف الرازى كتبا كثيرة فى العلوم تناول فيها المادة والحركة والتغذية والأرصاد الجوية والبصريات والكيمياء ، وكتابه عن « الصنعة » أى الكيمياء يمتاز بالدقة فى وصف التفاعلات والأجهزة .

وعاصر الرازى الطبيب اسحق اليهودى المصرى (٨٥٥ — ٩٥٥ م) الذى كان طبيبا للخلفاء الفاطميين فى القيروان وله كتب فى الحميات والعقاقير ، وكتابه عن البول ظل مرجع الأوربيين لعدة قرون . وقد ترجمت مؤلفاته الى اللغة اللاتينية حوالى سنة ١٠٨٠ م ، وظلت تقرأ فى أوربا الى القرن السابع عشر . وكتب اسحق عن آداب مهنة الطب ومما قاله : دع مهارتك تتحدث عنك ولا تلتمس الفخر بذم الآخرين ، وأيضا : شجع مريضك واملأه بأمل الشفاء حتى ولو لم تكن واثقا ، لأن ذلك ينعش قواه الطبيعية . ونضحت طبيعته اليهودية على قلمه فكتب : « أطلب أتعابك من المريض وهو فى أشد حالات المرض لأنه سينسى ما عملته من أجله متى شفى » .

وأشهر تلاميذ اسحق هو ابن الجزار المتوفى ١٠٠٩ م . وهو طبيب مسلم ألف كتاب « زاد المسافر » وتناول فيه الأمراض الباطنية ، وقد ترجم الى اللغات اللاتينية واليونانية والعبرية ، وكان مرجع الأطباء طول العصور الوسطى .

ونبغ فى الكيمياء فى ذلك العصر جابر بن حيان الذى عاش فى النصف الثانى من القرن الثامن والنصف الأول من القرن التاسع . وهو أعظم علماء الكيمياء العرب ، وأهميته أنه اهتم بالأسلوب التجريبى وجعله أساس بحوثه ، وقد توصل الى عمليات دقيقة فى التقطير والتصعيد والاذابة والبلورة ، ووصف طرق تحضير كثير من المواد الكيماوية كالزنجفر (كبريتور الزئبقيك) وأوكسيد الزرنيخ

الأبيض وغيرها . وعرف كيف يحضر أنواع الزاج ، والشب ، والقلويات ، وملح النوشادر ، وترات البوتاسا الخام أو ملح البـــارود . وكيف يحضر الكبريت المرسب بواسطة تسخين الكبريت مع قلوى . ونجح فى تحضير آكسيد الزئبـق على درجة كبيرة من النقاوة ، وكذلك خلات الرصاص وغيره من المعادن ، وأحيانا حضرها بلورات . وتوصل الى تحضـير حامض الكبريتيك وحامض النيتريك ، والماء الملكى المركب منهما ، وعرف امكان ذوبان الذهب والفضة فى هذا السائل. وقد ترجمت مؤلفات جابر بن حيان الى اللغـة اللاتينية ابتداء من سنة ١١٤٤ م .

ومن الأطباء المشهورين على بن عباس وهو طبيب فارسى توفى سنة ٩٩٤ م ، وقد ألف دائرة معارف طبية سماها « كامل الصناعة الطبية » تناول فيـه عـلم الطب من ناحيتيه النظرية والعمليـة ، وتكلم فيه عن كيفية استئصال اللوزتين من أصلهما ومعالجة النزيف ، وقد بدأه بنقد طب الاغريق وطب العرب السابق له . وترجم هذا الكتـاب الى اللغة اللاتينية ترجمتين وظل مستعملا الى أن غطى عليه قانون ابن سينا .

أما أبو على الحسن بن سينا (٩٨٠ ــ ١٠٣٧ م) فهو أعظم العلمـاء العرب على الاطلاق ، وان كان قد اشتهر بالفلسفة والفيزياء أكثر من اشتهاره بالطب ، ومع ذلك فقد اشتهر فى العالم الغربى بمؤلفاته الطبية وكان أثره فى الطب الأوربى بالغا . وقد جمـع طب الاغريق وطب العرب جميعـا فى كتابه الضخم المسمى « القانون فى الطب » ، وهو أرقى ما وصل اليه الطب العربى . وهو دائرة معارف طبية جمع فيها ابن سينا الطب العام ، والعقاقير ، ووصف فيـه الأمراض التى تصيب جميـع أجزاء الجسم من الرأس الى القدم تشخيصا وعلاجا . وقد ترجمه الى اللغـة اللاتينية جـيرار الكربونى فى القرن الثانى عشر ، وهو نفس الكاتب الذى ترجم كتب جابر بن حيان الى اللاتينية . وقد اشتد عليـه الطلب حتى صدر منه ست عشرة طبعة فى الثلث الأخـير من القرن الخامس عشر . وطبع أكثر من عشرين مرة فى القرن السادس عشر ، هذا عدا الطبعات الخاصة التى صـدرت محتوية أجزاء متفرقة منه . وقد ظل هذا الكتاب المرجع الأول لعلم الطب فى أوربا حتى آخر القرن السابع عشر ولم يحدث فى علم الطب أن قرىء كتـاب ودرس كما قرىء ودرس قانون ابن سينا ، ولابن سينا خمسة عشر كتابا أخرى فى الطب وهى غاية ما وصل اليه الطب عند العرب من تقدم .

ولم يكن الطب فى الأندلس أقل تقدما منـه فى الشرق • ففى عهد عبد الرحمن الثالث والحكم الثانى ترجمت فى قرطبة كتب الطب اليونانية • وألف أبو القاسم وهو من أطباء قصر الخلافة فى قرطبة كتابه « التصريف » فى ثلاثين بابا تكلم فى آخرها على الجراحة ، وهى فن لم يكن عرب الشرق قد أعطوه عناية كبيرة الى ذلك الوقت • وقد وضح الكتاب برسوم للآلات الجراحية • ويعتبر أبو القاسم واضع أساس علم الجراحة فى أوربا • وقد ترجم كتابه الى اللغة اللاتينية •

وفى مصر اشتهر الطبيب على بن رضوان (توفى سنة ١٠٦٧ م) ، وكان متأثرا بطب الاغريق ، وكتب حاشية على بعض مؤلفات جالينوس ، وهى فى غاية الدقة وترجمت الى اللغة اللاتينية • وفى نفس الوقت ظهرت مؤلفات فى العقاقير ، ألفها كتاب مثل ماسوريه الماردينى الذى عاش فى بغداد والقاهرة (توفى سنة ١٠١٥ م) ، وابن وافد الأندلسى (توفى ١٠٧٤ م) ، وقد ترجم الكتابان الى اللغة اللاتينية وطبعا فى مجلد واحد أكثر من خمسين طبعة •

واشتغل العرب بطب العيون ، ومن أشهر أطباء العيون العرب على ابن عيسى البغدادى مؤلف « تذكرة الكحالين » وعمار بن على الموصلى مؤلف « المنتخب فى علاج العين » ، وقد ترجم الكتابان الى اللغة اللاتينية وظلا أهم مراجع طب العيون الى آخر النصف الأول من القرن الثامن عشر •

وممن ألف فى العلوم فى ذلك العصر الذهبى ، ابن سينا ، وكتب فى الجيولوجيا رسالة تكلم فيها عن تكوين الجبال والصخور والمعادن ، ووصف أثر الزلازل والرياح والمياه ودرجة الحرارة والترسيب على تصلب الصخور • وأبو الريحان البيرونى (٩٧٣ — ١٠٤٨ م) الرياضى الفلكى الطبيب الجغرافى المؤرخ ، وقد لقب بالأستاذ ، وقد اشتغل بالفيزياء وتمكن من تحديد الوزن النوعى لعدد من المعادن والأحجار الكريمة ، وكتب مؤلفا فى الصيدلة• وأبو الحسن المسعودى صاحب كتاب « مروج الذهب ومعادن الجوهر » ، وهو كتاب تاريخ ولكن فيه وصف للزلازل ، ولمياه البحر الميت ، وتكلم عن طواحين الهواء ، وهى اختراع عربى صميم ، وتكلم فيه عن فكرة التطور • واخوان الصفاء ، وهم جماعة فلسفية عاشوا فى العراق فى القرن العاشر وكتبوا مجموعة من الرسائل خصصوا سبع عشرة رسالة منها للعلوم الطبيعية ، وعالجوا فيها المعادن والزلازل والمد والظواهر الجوية •

ونبغ فى البصريات الحسن بن الهيثم (٩٦٣ م) ، وعاش فى البصرة ، ثم انتقل الى القاهرة فى عهد الحاكم الفاطمى • وكان طبيبا ثم اشتغل بالفيزياء وتخصص فى البصريات وألف فيها كتابا فقد أصله العربى وبقيت ترجمته اللاتينية ، وقد خالف فيه نظرية اقليدس التى تقول ان العين ترسل أشعتها البصرية الى الأشياء•وقال ان الأشعة تنبعث من الشىء وتمر فى العين وأن شبكة العين هى مركز المرئيات التى تنتقل الى الدماغ بواسطة عصب البصر • وبحث انكسار الضوء فى الأجسام الشفافة كالهواء والماء ، واخترع العدسات المكبرة التى لم يعرفها الأوربيون الا بعده بثلاثة قرون • وقد نقل عن مؤلفات ابن الهيثم كل من كتب عن البصريات فى أوربا من روجر بيكون فى القرن الثالث عشر الى جوهان كبلر فى القرن السابع عشر • وكتب ابن الهيثم رسائل فى الضوء وفى ظاهرة الشفق ، وقوس قزح والمرايا المحدبة والمقعرة ، والكسوف والظلال ، وقد عالج هذه الموضوعات معالجة رياضية • وبحث العدسة المحرقة واشتمل كتابه عنها على فهم دقيق لمفاهيم مثل تجمع الأشعة والتكبير وانعكاس الصور وتركيب الألوان• ولاحظ صورة الشمس على شكل نصف دائرة منعكسة وقت الكسوف على حائط مقابل لثقب ضيق عمل فى مصراع الشباك ، وسجل ذلك فكان أول من توصل الى نظرية آلة التصوير •

٣ — عصر الاضمحلال — من القرن الثانى عشر :

بدأ عصر الاضمحلال فى العلوم عند العرب عامة وفى الطب خاصة فى القرن الثانى عشر • وكان السبب الأساسى فى هذا الاضمحلال هو ثورة الفقهاء على رجال العلوم الطبيعية والفلسفة ، ثم غلبة الأتراك على الدولة بجهلهم ورجعيتهم • وفى تلك الفترة انتقل علم الطب الى اليهود لتحررهم من فتاوى الفقهاء وحاجة السلاطين والحكام لخدماتهم الطبية •

ومن أشهر الأطباء العرب فى تلك الفترة عبد اللطيف البغدادى الذى زار مصر وكتب عن مشاهداته بها فى سنة ١٢٠٠ م ، وقد درس الطب بالأزهر فى القاهرة • ومن أهم ما كتبه فى الطب وصف لعدد من الهياكل العظيمة وجدها فى مقبرة قديمة بالعباسية • وقد صحح فى هذه الدراسة وصف جالينوس للهيكل العظمى للانسان ، خصوصا عظمة الفك وعظم العجز •

وممن اشـتهروا فى الصـيدلة ابن البيطار (توفى ١٢٤٨ م) ومن مؤلفـاته « المغنى عن الأدوية » و « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » ، وفى هذا الكتاب تكلم عن كل العقاقير التى كانت موجـودة فى العالم العربى من أسبانيا الى بلاد الشام ، ووصـف فيه ١٤٠٠ عقارا طبيا ، وقارن نتائج دراساته بما ورد عن هذه العقاقير فيما سبقه من المؤلفات العربية . وهذا الكتاب هو أعظم ما كتب العرب فى علم النبـات .

وفى القاهرة ألف كوهـين العطار فى القرن الرابع كتـابه « منهاج الدكان ودستور الأعيـان » ، وألف داود الأنطاكى (توفى سنة ١٥٩٩ م) كتابه « تذكرة داود » . وقد ترجم الكتابان الى اللغات الأوربية .

وفى أسبانيا كتب ابن زهر (توفى سنة ١١٦٢) كتاب « التيسير فى الجراحة » وقد أقامه على تجاربه الخاصة . وترجم الى اللاتينية . وألف ابن رشـد (توفى سنة ١١٩٨ م) وهو تلميذ ابن زهر ، ستة عشر كتابا فى الطب أشهرها « كليات الطب » وترجم الى اللغـة اللاتينية فى سنة ١٢٥٥ م . وكان وباء الطاعون الذى انتشر فى أسبانيا فى القرن الرابع عشر سببا فى أن كشف الأطباء العـرب نظـرية العدوى . وقد وصف بن الخطيب الغرناطى (١٣١٣ — ١٣٧٤ م) هذا الطاعون فى رسالة خاصة ، وتكلم فيه عن طرق العدوى بالمخالطة والملامسـة وعن طريق الموانى وانتقال البدو ، والملابس والأوانى وحلقان النساء .

وفى العـلوم الطبيعية الأخرى ظهر عـدد كبير من الكتب فى هذا العصر ليس بها اضافات كثيرة الى العلم ولكنها كانت تلخيصا وجمعـا من الكتب القديمة .

فضل العرب فى ميدان الطب :

اذا كان العرب قد أخذوا طب الاغريق فانهم أضـافوا اليه كثيرا من خبراتهم وتجاربهم ومبتكراتهم . وقد وصفوا كثيرا من الأمراض التى لم يتوصل اليهـا الاغريق ، كالحصبة والجدرى والالتهاب السحائى وعـدوى السل الرئوى وطرق انتقاله ، ووصف أعراض حصوة المثانة والكلى ، والجذام والحميات . وهـم أول من تكلم عن العدوى وطرقها . وهنـاك أمراض لم يضـف الطب الحديث كثيرا الى ما كشفه العرب من أعراضها وعلاجها كمرض الحصبة .

وكشف العرب قوانين علم الصحة وكتبوا فيه وقالوا ان الوقاية خير من العلاج • وقد خصص على بن عباس فى كتاب « كامل الصناعة الطبية » واحدا وثلاثين فصلا لعلم الصحة تكلم فيها عن الرياضة والاستحمام والأكل والشرب والنوم •

وكان الأطباء العرب يفحصون المريض بجس نبضه وفحص بوله ، ولابن سينا رسالة فى البول وحالاته ودلالة كل حالة • ولعلى بن عباس رسالة فى النبض ودلالاته • ووصف ابن النفيس الطبيب الدمشقى الدورة الدموية ، وهو أول من وصفها وكتب فيها •

ونبغ العرب فى الجراحة فكانوا يزيلون الزوائد الأنفية ويستأصلون اللوزتين ، وأورام الحلق ، ويقطعون الأثداء المريضة بالسرطان ، ويخرجون الحصى من المثانة ويفتتونها ، ويخرجون الجنين بالآلة • ونبغ العرب فى جبر العظام وكشط الجلد وترقيعه بجلد الحيوان • وكانوا يفتحون القصبة الهوائية لتسهيل التنفس اذا تعذر من الخياشيم ، وقد نجح ابن زهر فى ضم جراح الأمعاء بالخياطة •

وعالجوا نتوء العين والتصاق الجفن ، ووصفوا أمراض العين الظاهرة والباطنة • ووصف الحسن بن الهيثم عين الانسان •

واخترعوا الآلات الجراحية كالمبضع لفتح الجراح ، والصنارة لجذب الجنين ، والمشرط لشق الأورام ، والمخرط لقطع الزوائد الأنفية ، والمحك لعلاج الأجفان ، والمشعب لشق الحصاة وتسليك البول ، والمكبس لضغط اللسان حتى يمكن الكشف عن الحلق •

وعرف العرب التخصص فى فنون الطب فكان عندهم الطبائعى وهو الطبيب الباطنى ، والجرائحى وهو الجراح ، والكحال وهو طبيب العيون ، والمجبر وهو طبيب العظام •

والعرب أول من أقام المستشفيات العامة لعلاج جميع الأمراض حتى الأمراض العقلية ، وعرفوا المستشفيات المتنقلة • وألحقوا مدارس الطب

بالمستشفيات ، وكان العلاج والدواء بالمجان . وكان بكل مستشفى صيدلية ومكتبة .

ونبغ العرب فى الصيدلة ، فكشفوا القيمة العلاجية لكثير من النباتات وركبوا العقاقير ، واخترعوا الأشربة والخلاصات العطرية وغلفوا الحبوب بالسكر .

وقسموا علم الطب وبوبوه وكتبوا فيه ولذلك فهم من منشئى علم الطب .

وقد مر أن معظم كتب الطب والعلوم العربية قد ترجمت الى اللغة اللاتينية ثم الى اللغات الأوربية الحديثة . وعن هذه الكتب أخذ الأوربيون الطب وغيره من العلوم عن العرب . كما تعلموا منهم فكرة المستشفيات التى لم تعرف عند الأوربيين الا فى القرن الثالث عشر ، بعد أن رأوا مارستان نور الدين زنكى فى دمشق فى أثناء الحروب الصليبية . واستمرت ترجمة كتب الطب العربية الى اللغة اللاتينية الى القرن السادس عشر ، وكانت هذه الترجمات تدرس فى الجامعات الأوربية . وشجع على انتشار العلوم العربية فى أوربا اختراع فن الطباعة فى القرن الخامس عشر .

واذا كان الطب العربى قد بدأ يتزحزح عن مكان الصدارة فى القرن السابع عشر نتيجة للبحوث والتجارب العلمية فى أوربا ، فان علم الصيدلة العربية ظل يدرس الى القرن التاسع عشر . فكتب ابن البيطار ظلت تطبع وتدرس حتى سنة ١٨٣٠ م ، وطبعت كتب طب عربية فى البندقية الى سنة ١٨٣٢ .

الرياضيات والفلك

بدأ العرب فى الرياضيات كما بدأوا فى العلوم الطبيعية والحكمية بترجمة ما خلفه الاغريق من مؤلفات فى تلك العلوم ، ثم بحثوا فيها وسجلوا ما ابتكروه فى مؤلفات رياضية ، نقلها عنهم الأوربيون ودخلت فى تركيب علوم الرياضيات الحديثة .

فالعرب هم مخترعو علم الجبر ، وهم الذين سموه بهذا الاسم . وحلوا معادلات الدرجة الأولى بحساب الخطأين ، كما حلوا المعادلات التكعيبية بواسطة تقاطع القطوع المخروطية قبل ديكارت وبيكر . وحلوا بعض صور المعادلات من

الدرجة الرابعة ، وعنوا بالجذور ، وبدأ ثابت بن قرة حساب التفاضل والتكامل . وأشهر علماء الجبر عنـدهم الخوارزمى الذى عاش فى عهد المأمون العبـاسى . ومن مؤلفاته كتاب « المختصر فى حساب الجبر والمقابلة » وكتاب « الحسـاب الهنـدى » .

وفى الهندسة ترجم العرب نظريات اقليدس ، نقلها الى العربيـة الحجاج بن مطر سنة ٨٣٥ م ، واضافوا اليها نظريات جديدة ، وكتبوا فى تقسيم المثلث والمربع وقسمة الدوائر والزاوية الى ثلاثة أقسام متسـاوية ، واستخرجوا خط نصـف النهار وسمت القبلة بواسطة الهندسة . وجمع العرب بين الجبر والهندسة ولذلك يعتبرون واضعى أسس الهندسة التحليلية . وألفـوا المسـاحات والحجوم ، وعرفوا كيفية ايجـاد نسبة محيط الدائرة الى قطرها ، وكيفيـة ايجاد مسـاحة الكـرة .

وفى الحساب استعملوا الصـفر والكسور العشرية ، واسـتعملوا الأرقام الهنـدية ونقلوها الى أوربا عن طريق الأندلس وتسمى للآن الأرقام العربيـة . وبحثوا فى استخراج المجهولات بطرق مختلفة كالتناسب وحدى الخطأ والتحليل بالجبر والمقابلة .

وحساب المثلثات علم عربى فقد أضافوا اليـه اضـافات هامة حتى أصبح علما قائما بذاته . وقد استعمل العرب الجيب وأدخلوا المماس أو الظـل فى عدد النسب المثلثية ، وحلوا المسائل الخاصة بالمثلثات الكروية ، ووضـعوا الجـداول الرياضية للظل والقاطع وتمامه .

واهتم العرب بالفلك اهتماما كبـيرا لحاجتهم الى ضـبط الشهور والأيام والساعات ، لمعرفة أوقات الفرائض كالصـلاة والصوم والحج ، وهذا متصـل بأحوال الشمس والقمر . والعـرب هم أول من استخرج طول درجة من خط نصف النهـار . ووضعوا جداول لسـير الكواكب ، ودونوا أوقات كسـوف الشمس ، واخترعوا آلات الرصد وعملوا الاسطرلاب ، ووضـعوا الجـداول الفلكيـة . وقد أقام العرب المراصـد فى بغداد حيث عملت الأرصاد الدقيقـة ووضعت الجداول الفلكية والجداول الجغرافية التى حددوا فيها خطوط الطول والعـرض .

الجغرافية والتجارة

اذا نظرنا الى خريطة العالم الذى كان معروفا فى القرن الثامن والقرن التاسع والى منتصف القرن العاشر (الميلادية) ، فاننا نجد أن معظم هذا العالم كان يحكمه العرب ويعيشون فيه • وقد مر فيما سبق بيان اتساع الدولة العربية حتى شملت معظم العالم فى ذلك الوقت •

وقد أدى هذا الى تقدم علم الجغرافية عند العرب • والى اتساع حركة التجارة عندهم ، فقد كان العالم عالمهم ينتقلون فيه من أوله الى آخره يدرسون ويلاحظون ويصفون ويرسمون • من هنا نشأت المؤلفات الجغرافية العديدة التى ألفها العرب من القرن التاسع الى القرن الرابع عشر • ومع انتقالهم ودراستهم واتصالهم تبادلوا البضائع والمعاملات وانتشرت تجارتهم حتى وراء حدود دولتهم • ومن هذين النشاطين اكتسب العرب خبرات جغرافية ومهارات تجارية وملاحية كانت من رصيد الانسانية فى هذه المحاولات •

جغرافية العرب :

وقد بدأ العرب اشتغالهم بالجغرافية بنقل كتب الاغريق خصوصا كتاب بطليموس الجغرافى وكان معولهم عليه فى أول الأمر • ثم أخذوا يضيفون نتائج دراساتهم وبحوثهم ورحلاتهم الى العلم • ومن أول الذين ألفوا فى الجغرافية من العرب ابن خرداذبة (توفى سنة ٨٧٠ م) ، وألف كتاب « المسالك والممالك » •

وقد وصف فيه أقطار الدولة العربية من حيث الموقع والسطح والحاصلات • وظهرت عدة مؤلفات تجاوزت الدولة العربية الى جزر المحيط والدولة البيزنطية فوصفتها • ووصف الملاح العربى سليمان الصيرافى رحلاته البحرية الى الهند والصين •

وفى القرن العاشر ظهرت عدة مؤلفات أخرى امتازت بالاحاطة والاسهاب ورسم الخرائط للأقطار الموصوفة • ومن مؤلفى هذه الكتب : أبو زيد البلخى (توفى ٩٣٤ م) الذى ألف كتاب « صور الأقاليم » وهو غير موجود الآن ، وان كان انتفع به جغرافيون آخرون كالاصطخرى (٩٥٠ م) مؤلف كتاب « مسالك الممالك » بعد أن قام برحلة فى كل العالم العربى • ووصف كل قطر

زاره ، وابن حوقل (٩٧٥ م) وبدأ رحلته من بغداد ، ووصـــف كل مشاهداته موضحا اياها بالرسوم والخرائط ، والمقدسى (٩٨٥ م) وكتـــابه هو « أحسن التقاسيم فى معـــرفة الأقاليم » وقد ألحق بكتابه خريطة ملونة بين فيهـــا حـــدود الأقاليم ، ولون فيها الطرق باللون الأحمر ، والأنهار باللون الأزرق ، والجبـــال باللون الأغبر أى الداكن • والمسعودى ألف كتـــاب « مروج الذهب ومعـــادن الجوهر » ، بعـــد أن طاف كل أنحـــاء العالم العربى وجمـــع قدرا ضـــخما من المعلومات الجغرافية والبشرية ، ووصل فى رحلاته الى سواحل أفريقية كما وصل الى الصـــين •

وفى القـــرن الثـــانى عشر يظهر الادريسى الجغـــرافى الذى كان فى خـــدمة روجر ملك صقليـــة ، وألف كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » ، وضمنه حوالى سبعين خريطة تكون خريطة للعالم ما زالت موجـــودة للآن كما صنع كرة أرضية من الفضة للملك روجر الصقلى •

وبعد الادريسى لا يصادفنا الا نوعان من الكتب الجغرافية • النوع الأول كتب رحلات مثل رحلة ابن جبير الأندلسى الذى وصل الى العراق ومكة ســـنة ١١٩٢ م • وبعـــده بقرن نجد رحلة ابن بطوطة • وهو من مراكش رحـــل الى الشرق وزار كل أجزاء الدولة العربية ثم واصل ســـيره الى جـــزيرة ســـيلان • وفى رحلات أخرى زار القسطنطينية وتوغل فى افريقية سنة ١٣٥٣ م • والنـــوع الثانى معاجم جغرافية تاريخيـــة أدبية « كمعجم البلدان » لياقـــوت (توفى سنة ١٢٢٨ م) و « تقويم البلدان » لأبى الفداء صاحب حماة (١٣٢٧ م) •

وظاهر من هذا العرض أن العرب قد اعتمدوا فى ميـــدان الجغرافيـــة عـــلى ملاحظتهم وتجاربهم وأنهم قد أضافوا بذلك الى علم الجغرافيا حقـــائق قيمـــة ، ويقـــول المقدسى عن كتابه : « ما تم لى جمعـــه الا بعـــد جولاتى فى البـــلاد ، ودخولى أقاليم الاسلام ، ولقائى العلماء • • مع لزومى التجـــارة فى كل بلد • والمعاشرة مع كل أحـــد ، والتفطن فى الأســـباب بفهم قـــوى حتى عرفتهـــا ، ودورانى على التخوم حتى حررتها • بعـــد ما رغبت نفسى فى الأجر ، وتجنبت الكذب والطغيان ، ولم أودعه المجـــازوالمحال ، ولا سمعت الا قـــول الثقـــات من الرجـــال » •

اهتمام العرب بالتجارة :

كان العرب يشتغلون بالتجارة قبـل الاسلام بين الشام واليمن ، ومـع كل البـلاد المحيطة بهم ، وفى مواسم الحج ، وقد اشتغل النبى صلى الله عليه وسلم بالتجارة • وفى صدر الاسلام اشتغل العرب بالفتـوح وأهملوا التجـارة حتى اشتغل بهـا غيرهم من الموالى • ولكن عندما انتهى عصر الفتوح ، وأخذ العرب يختلطون بأهل الأقاليم ويشاركونهم مهنهم وحرفهم ومعيشتهم ، استعادوا ميلهم الى التجارة واشتغلوا بها حتى بلغت التجارة العربيـة فى عصر الدولة العباسية شأوا لم تبلغه عند غيرهم • وقد أدى الى انتعاش التجارة أسباب منها :

١ ــ أن الخلفاء العباسيين اعتمدوا فى شئون الدولة على الفرس فشـاركوا العرب فى الثروة ، واضطر العرب الى الاشـتغال بالمهن ومنهـا التجارة لمالهـا عندهم من احترام قديم •

٢ ــ نقل العباسـيون عاصمتهم الى العراق وهى بلاد ذات موقع تجـارى ممتاز لتوسطها بين ايران والهند وآسيا الصغرى والصـين من جهة ، وبين أقاليم الدولة العربية من جهة أخرى • كمـا أنها تطل على خليج البصرة الذى يربطـه المحيط الهندى بموانىء الهند ثم بالصين وشرق أفريقية •

٣ ــ ان ترف الحيـاة العربيـة فى العصر العبـاسى زاد حاجة النـاس الى الكماليات مما شجع التجار على غزو الأسواق • وقد كان فى بغـداد حى تجارى خاص هو حى الكرخ ، وشجع الخلفاء التجار •

٤ ــ تقـدم علم الجغرافية عند العرب وكشفهم الطرق البرية والبحـرية ورسمها ، ووصفهم للأسواق وبضائعها والدول وحاصـلاتها • وكذلك تقـدم العلوم والاختراعات الملاحية عندهم •

الملاحة والطرق البحرية :

كان للملاحة العربية ميدانان مستقلان • الأول هو المحيـط الهنـدى وما يوصل اليه من بحار الشرق ، والثانى هو البحر المتوسط وما يقع عليه من الموانىء العربية • وكان الميدانان مستقلين لأن البحـر الأحمـر لم يكن قد اتصل بالبحر المتوسط فى ذلك الوقت • وان كان العرب قد فكروا فى توصيل البحرين •

على أن المحيط الهندى كان أنشط الميدانين • وكانت قاعدة الملاحـة العربية


أهم طرق التجارة ومراكزها فى العصور الوسطى
نوفجورود
موسكو
القسطنطينية
ليون
لشبونة
الإسكندرية
بغداد
سمرقند
دلهى
بكين
خانفو (كانتون)
مكة
عدن

فى المحيط الهندى ميناء البصرة • ومن البصرة يتفرع طريق التجارة العربية الى فرعين : الأول يسير شرقا حتى يصل الى الصين ، والثانى يسير حول شبه جزيرة العرب متجها نحو افريقية •

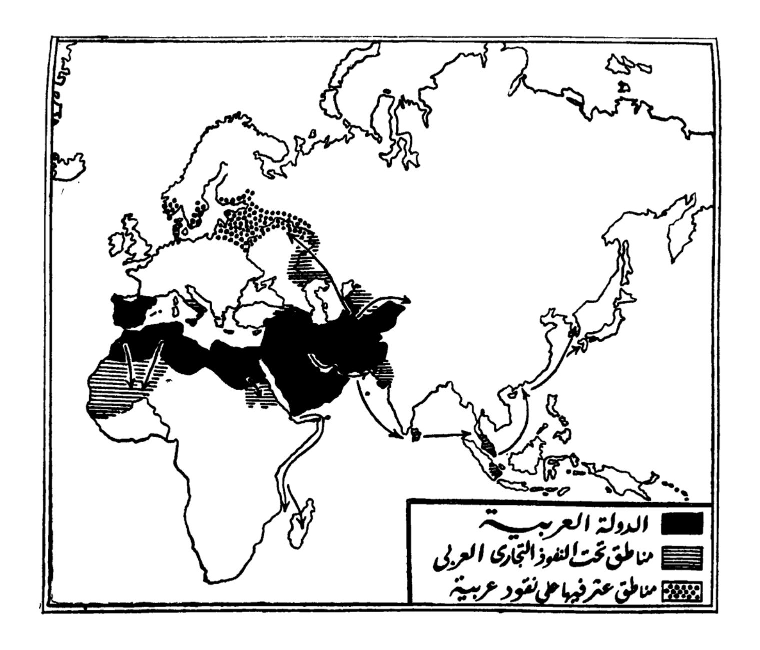
وقد وصلت السفن العربية حوالى منتصف القرن العاشر الى الصين ، وكان فى مدينة كانتون ، أو خانقو كما سماها العرب ، حى عربى كبير كان مركز التجارة العربية مع الصين • ومن كانتون سارت السفن العربية حتى وصلت الى كوريا واليابان • وفى الطريق الى الصين أنشأ العرب مراكز لتجارتهم فى شبه جزيرة ملقا ، وجزيرة جاوة ، وجزيرة سيلان ، وسواحل الهند ، وقد كان للعرب حى تجارى نشيط فى بمباى •

أما طريق سواحل افريقية فقد غطى كل الساحل الشرقى لافريقية ووصلت السفن العربية الى موزنبيق سعيا وراء الذهب ومدغشقر وسماها العرب جزيرة واق الواق • كما سارت سفنهم فى البحر الأحمر شمالا الى القلزم (السويس) •

أما الملاحة العربية فى البحر المتوسط فقد كانت مقصورة على الموانىء العربية فى ساحله الشرقى وساحله الجنوبى ، خصوصا بعد الحروب الصليبية اذ كانت التجارة مع أوربا غير ممكنة بسبب تعصب الأوربيين ، وكان مركز تجارة البحر المتوسط فى تونس ، اذ كانت واسطة الملاحة بين سواحل افرقية وسواحل الأندلس • وكانت مهمة الملاحين العرب فى البحر المتوسط شاقة جدا ، اذ كان عليهم مقاومة القراصنة الايطاليين والفرنسيين ، الذين أخذوا يجوبون هذا البحر بسفنهم الخاصة بعد أن تعلموا الملاحة كبحارة وخدم على السفن العربية •

ويؤخذ من كتابات الجغرافيين العرب أن الملاحين العرب كانوا يعرفون مسالك هذه البحار الشاسعة معرفة تامة ، وأنهم كانوا يجوبونها وينتقلون بين موانيها فى سهولة ويسر • وقد جعلوا من المحيط الهندى بذلك مركزا للتجارة العالمية فقد كانت متاجر الشرق الأقصى وأفريقية تنقلها السفن العربية والتجار العرب الى أوربا عن طريق القلزم (السويس) •

وكانت السفن العربية تختلف فى الحجم والسعة ، فسفن المحيط الهندى



الدولة العربية
مناطق تحت النفوذ التجارى العربى
مناطق عثر فيها على نقود عربية

كانت ضخمة وترتفع بمقدمتهـا ارتفاعا كبيرا حماية لها من أمـواج المحيط ، أما سفن البحر الأحمر والبحر المتوسط فكانت صـغيرة الحجم • وكان يعمل على السفينة الكبيرة مئات من البحارة • وكانت سفن التجـارة العربيـة مزودة بالأسـلحة ولها حاميات من الجند لتدافع عنها ضد القراصنة •

وكان العرب على علم غزير بالملاحة • وكانوا يستعملون الخرائط الملاحية الدقيقة المفصلة ، وقد دونوا عليها ملاحظاتهم وهم يعبرون الأجـزاء المختلفـة من المحيطات والبحار • وكان اعتمادهم أولا على معرفتهم بالقمر والنجوم والشمس • ثم لما اكتشفوا البوصلة أخذوا يستعملونها • وبفضـلها تمكنوا من التوغل فى داخل البحار ، وكانوا من قبل يسيرون بسفنهم بالقرب من الشـواطىء • وقد كانت معرفة العرب للبوصلة واستخدامهم لها حوالى سنة ١٢٠٠ م • وكانوا يعتمدون على الحمـام الزاجل فى نقل الرسائل بين السفن والموانىء • ومن أشهر ملاحيهم سليمان الصيرافى وابن ماجد الذى ألف كتابا فى الملاحة البحرية ، واليه ينسب اختراع البوصلة أو التوصـل اليها ، ولعله أتى بها من الصين •

القوافل والطرق البرية :

واختراق الصحراء بقوافل الجمال ، وهى سـفن الصحراء ، من تخصـص العرب من قديم الزمان • ولم يتغلب العـلم الحديث على العرب فى مجال اختراق الصحراء الا بعد اختراع الطيران • وقد كان للعرب عدد من الطرق البرية نقلوا عليها متاجرهم بين جميع أنحاء العالم المعروف حينئذ • وهذه الطرق هى :

١ ـ طريق يبدأ من بغداد ويتجـه نحو بحـر قزوين الى الرى ونيسـابور ومرو وبخارى وسمرقند ومن هناك يتفـرع الى فرعين ، فرع يسـير شمالا الى خوارزم ، وفرع يسير شرقا الى أواسط آسيا والصين • وكان هذا الطـريق محفوفا بالمخاطر لمروره على الأراضى التى يسكنها الترك وهم معروفون بغدرهم وتوحشهم • وكان فى الطريق البحرى الى الهند والصين ما يغنى عنه •

وتدل الكتابات العربية والقرائن على أن تجارة العـرب قد وصلت شمالا الى الروسيا وفنلنده والسويد والنرويج ، فقد عثر فى هذه البلاد عـلى مقـادير ضخمة من الدنانير العربية ، بل وجد بعض النقود العربية فى الجزر البريطانيـة وجزيرة ايسلندة • وأكثر هذه النقود وجد فى أقطار بحر البلطيق • وترجع هذه

النقود الى المدة من القرن التاسع الى أوائل القرن الحادى عشر ، وهذا يدل على المدى الذى وصلت اليه القوافل العربية من ناحية الشمال . والثابت من كتابات الجغرافيين العرب أن بلاد البلغار وأقليم نهر الفلجا كانت سوقا نشيطة للتجارة العربيـــة .

ويروى ياقوت فى « معظم البلدان » أن ملك الصين أرسل فى سنة ٩٤٣ م يتودد الى نصر الســامانى صاحب بخــارى مصاهرته ، فزوج نصر ابنـــه من ابنة ملك الصين فضمن بذلك للتجارة العربية طريق التجارة الى الصين .

٢ — طريق الشــمال من بغداد الى الموصل ومنها الى بلاد الروم أى آسيا الصــغرى .

٣ — طريق الجنوب من بغداد الى الكوفة والحجاز واليمن ، وكان هــذا الطريق ينشط فى مواســم الحج .

٤ — طريق الغرب الى بلاد الشام ومصر وشمالى افريقية .

وكما كان للسفن العربية مراكز على الشواطىء ، كان لقــوافلهم مراكز على طول هذه الطرق حيث يتجمع تجارهم ويتسوقون البضائع ويتبادلونها ، وحيث تتم العمليات التجارية والمالية وتستريح القوافل أو تغير .

ومن أهم هذه المراكز البرية حى الكرخ فى بغداد ، والبصرة ، والكوفة ، والموصل ، ومصر ، والاسكندرية ، ومراكش . وكانت أســعار السلع تحدد فى بغداد والاســكندرية للعــالم كله .

٥ — طريق القوافل الافريقيــة وهو شعبتان : شعبة شرقيــة تمر بالحبشة والصومال والسودان ثم مصر وأهم سلعها الذهب ، وشــعبة غربيــة تذهب الى اقليم الذهب فى غانة . وكان التجــار العــرب من مراكش والجــزائر وتونس يسافرون بقــوافلهم عــدة أشهر حتى يصلوا غانة . ويدل على عظم التجــارة مع هــذه الجهات الافريقية أن ابن حــوقل يروى أنه رأى فى مدينــة أودغشت بغانة صكا (شيك) بمبلغ ٤٢٫٠٠٠ دينار باسم محمــد بن ابى ســعدون وهــو تاجر عربى من سجلماسة فى جنــوبى مراكش . وكان هذا الطريق الغربى يتصل شرقا بمصر . وضربت القــوافل العربية فى قلب أفريقية حتى وصلت الى بحــيرة شاد ، وقد كانت كل معلومات الأوربيين عن أفريقية مستمدة من العرب .

وقد شجعت هـذه الطرق التجارية العربية كثيرين من غـير العـرب على التجـارة ، وحملتهم قوافلهم الى حيث يريدون أن يذهبوا للتجـارة • ويرى ابن خرداذبة الجغرافى العربى ان التجار اليهود كانوا يأتون من جنوب فرنسا ويعبرون البحر الى مصر ، ويسيرون على أقدامهم الى السويس ، ثم يسافرون على السفن العربية الى الهنـد ، أو برا على القوافل الى سوريا والقسطنطينية • وقد كانوا يحضرون معهم من أوربا الرقيق والجوارى وكذلك الأسلحة والفراء ويعودون الى أوربا بالتوابل والبخور والمسك والكافور والقرفة ، وقـد تخصص تجـار اليهود فى الغلمان والجوارى وتهريب العملة والاتجـار بها يقول المؤرخـون • ولم تكن القسطنطينية والمـدن الايطالية تخلو من التجار العـرب يقيمون هناك بقصد التجارة ، وان كانت الحروب الصليبية قد قضت على هـذا النشـاط فى القرن الحادى عشر •

وكان هؤلاء التجـار العرب لا يخضعون لحكومات الجهات التى ينزلون بها ، ولكن كان يرأسهم واحد منهم ، ويعاملون بقوانينهم العربية •

مادة التجارة العربية :

كان العرب يتبادلون التجـارة فى كل مكان يذهبـون اليـه ، يبيعـون ويشترون ويتبادلون • فكانوا يجلبون من كل اقليم ما اشتهر به •

فمن العـراق ، المنسوجات القطنية ، والمنـاديل ، والأرز ، والعمـائم ، والخـزف ، والعطور ، والتمر ، ونسيج الخز (نوع من الحرير) ، وماء الورد والمسوح (نسيج صوفى مخطط يلبسه غالبا المتصوفة والرهبان) ، والبطانيات والأحرمة ، والفواكه المجففة •

ومن الشـام ، المنسوجات الحريرية ، وزيت الزيتون ، والزجاج •

ومن مصر ، نسيج الكتان ، ونسيج الصوف ، والبردى ، والحمير •

ومن جزيرة العرب ، الخيل والجمال ، والجلود ، والرماح •

ومن اليمن ، المنسـوجات ، وعصـائب النساء ، والعنبر ، والعطـور والسـيوف •

ومن ايرا ن ، السـجاد ، والمنسـوجات الكتانية ، والقلانس الحـريرية ، والروائح العطـرية •

ومن ما وراء النهر ، القطن ، والرقيق ، وفراء الثعالب .

ومن الصين ، الأنسجة الحريرية ، والغضار الصينى (الفرفورى) والمسك والعقاقير .

ومن ملقا ، الصفيح .

ومن الهند التوابل ، والطيب ، والأحجار الكريمة ، والسيوف ، والأخشاب ، وجوز الهند ، والقرفة ، والدار صينى .

ومن أرمينية ، السجاد والسروج .

ومن سواحل أفريقية ، الرقيق ، وريش النعام ، والعاج ، والكافور .

ومن روسيا وبلاد الشمال ، جلود السمور (حيوان كالثعلب له جلد أسود) والثعالب وبنات عرس والأرانب البرية ، والشمع ، والسهام ، ولحاء الشجر ، والغراء ، وأسنان السمك ، والعنبر ، والعسل ، والبندق ، والسيوف ، والدروع ، وخشب الزان ، والرقيق ، والماشية .

وكانوا يأخذون لكل اقليم من هذه بضائع الأقاليم الأخرى ، واليها جميعا يأخذون مصنوعات البلاد العربية من خشب ونحاس وزجاج وتحف ومنسوجات ، ومنها تعلم الأوربيون الصناعة .

النظم التجارية :

اقترن انتعاش التجارة عند العرب بظهور مختلف العمليات المالية والمؤسسات التجارية التى لا تستقيم حركة التبادل بدونها .

فالى جانب التجار الذين يعملون لحسابهم الخاص ظهرت أنواع مختلفة من الشركات التجارية . فعرفوا شركات الضمان من عدد من الأفراد يساهمون معا فى رأس المال ويتضامنون معا فى الربح والخسارة كل بنسبة رأس ماله ، وشركات المفاوضة وتتألف من تجار لكل منهم رأسماله الخاص ، ولكنهم يتقاسمون الربح والخسارة .

وكان للتجار والشركات التجارية وكلاء فى المدن التجارية الكبرى يرسلون اليهم الطلبات ، ويتلقون منهم السلع ويوزعونها ، ويرسلون لهم تقارير عن حركة السوق وحالة العرض والطلب ، وينصحونهم فى أمر الكميات المطلوبة ، ويقومون بتسوية حساباتهم مع الجهات المختلفة .

وأنشأوا المؤسسات المصرفيـة ، وفتح فيها التجـار الاعتمادات الماليـة • وكانت هـذه المؤسسات تقرض التجار الأمـوال حسب حاجتهم ، وتحتـفظ بما يودعه التجـار لديها من الأموال •

واخترعوا الصكوك (الشـيكات) فكان التجار لا يتعاملون بالنقود مباشرة وانما يكتبون الصكوك التى يدفعها عنهم الصرافون •

ويحدثنا ناصر خسرو الرحالة الفارسى أنه لما خرج من أسوان أخذ معه خطابا من صديق له كتبه الى وكيله فى عيذاب (ميناء على البحر الأحمر مقابل لجـدة) بأن يعطيه كل ما يريد من النقود ، فأعطاه اياها وأخـذ عليه مستندا بذلك ليضاف الى حساب هذا الصديق •

وعرفوا نظام الكفالة أو الضمان يلجأون اليها اذا كان التاجر غـير واثق من مركز عميله المالى • وعرفوا نظام التحويل تسهيلا لتصفية الديون ، فكان الدائن يحول دينه الى شخص آخر يقوم هو بتحصيله •

وألف علماء الرياضة كتبا فى المالية والحساب التجارى • فمن ذلك أبو الوفاء البغـدادى (١٠٩٨ م) ألف كتاب « معاملات التجار » • وابن السمح الأندلسى (١٠٣٥ م) ألف كتابا فى الحساب التجارى سماه « المعاملات » •

واكتسب العـرب أخلاق التجار كالذكاء واللمح والفراسة والمخاطرة والصبر على طول الغربة عن الوطن • واشتهر بالصبر على الغربة أهل العراق خصوصا أهل البصرة حتى ليحكى أنه وجـد مكتوبا على حجر هذا البيت من الشعر :

ما من غريب ، وان أبدى تجلده   الا سيذكر ، عند العلة ، الوطنا

وقد كتب تحتـه « الا أهـل البصرة » • أما أهـل مصر سواء كانوا من المسلمين أو من القبط فقـد ورد عنهم فى كتب التاريخ أنهم لا يرون مستوطنين غير مصر الا فى الندرة •

النقـد :

اسـتعمل العرب فى أول الأمر النقود البيزنطية ، ثم بدأوا يوجـدون نظاما نقديا خاصا بهم • وكانت العمـلة العربية ثنائية تستند الى الدينار والدرهـم • والدينار قطعة من الذهب وزنها مثقال أى ما يقرب من ستة جرامات • أما الدرهم

فمن الفضة ووزنه أربعة جرامات . ولم يكن سعر الدرهم بالنسبة للدينار ثابتا ، بل كان يتغير بتغير ثمن الفضة والذهب . وقد اختلفت هذه القيمة بين أربعة عشر دراهم وأربعة للدينار .

وكان التعامل فى مصر والشام بالدينار ، وفى العراق بالدرهم ثم بالدينار متأخرا . وقد قال المقريزى ان الناس فى مصر لم يرد ذكر الدرهم على ألسنتهم لأول مرة الا أيام الفقر فى عهد صلاح الدين ، لأنهم كانوا قبل ذلك يتعاملون بالدنانير . وربما كانت هذه مبالغة من المقريزى أو لعلها كانت نتيجة طبيعية لضخامة نفقات الحرب التى قام بها صلاح الدين ضد الصليبين .

وصدرت أحيانا قطع ذهبية قيمتها ديناران أو خمسة دنانير أو عشرة ، وأحيانا أكثر ، كما كانت تضرب أنصاف الدنانير وأرباعها . وكان هناك قطع نقود صغيرة كالدانق ، والقيراط ، والحبة ولكنها من الفضة ، والفلس وهو من النحاس . وعرف تزييف النقود عند العرب وعرفت باسم النقود المزيفة لأنهم كانوا يستعملون الزئبق فيها بدلا من الذهب .

وكانت الحكومة تملك دور الضرب ، ومع ذلك فقد كانت هذه الدور تضرب النقود لمن يحضر هو الذهب أو الفضة فى نظير أجر معلوم يدفعه للدار .

دورة الحضارة

تستطيع مما تقدم أن تتصور مدى التقدم الحضارى الذى أحرزه العرب ، ونضيف هنا أن تقدم العرب لم يقتصر على العلم النظرى والتأليف فيه ، ولكنه تعداه الى حياة المجتمع العربى نفسه . ولقد اشتهر العرب بأنهم قوم عمليون ، فاتحون ، وتجار ، ورحالة ، وفقهاء ، وصناع . وعرف عن العقلية العربية أنها عقلية ايجابية تقيس كل شىء بنفعه . ومن هنا كانت علومهم كلها تطبيقية ، وللعلم عندهم وظيفة اجتماعية قبل أن يكون لذة عقلية ، أو بحثا عن الحقيقة من أجل البحث . فالحساب عندهم وسيلة للتجارة والمحاسبة ، والفلك أداة للسفر فى البحر أو فى الصحراء أو لحساب المواسم والأعياد وأوقات الصلاة ، والطب للعلاج ، والكيمياء للحصول على الذهب ، وهكذا .

ومن هنا نستطيع أن ندرك أن المجتمع العربى عاش حياة علمية ، أى قائمة على العلم بما لم يعرف عن أى مجتمع آخر قبل العصور الحديثة . فكان فيه المستشفيات للعلاج ، والصيدليات لصرف الأدوية ، ووضع فيه الأطباء والصيادلة والحلاقون تحت رقابة الحكومة وتفتيش عمالها . وانتشرت المؤسسات التعليمية من مدارس الطب الملحقة بالمستشفيات ، الى المساجد التى تعلم الفلسفة والعلوم والفقه ، الى الكتاتيب ، والمؤسسات الثقافية كالمكتبات والأكاديميات أو دور العلم ودور الحكمة كما كانت تسمى فى بغداد والقاهرة . وتنقل طلاب العلم فى جميع أنحاء الدولة العربية بكل حرية يطلبون العلم من مظانه وعلى أساتذته أينما وجدوا .

وكان ينبغى أن تضطرد هذه الحياة العربية التقدمية حتى تصل الى نتيجتها الطبيعية التى وصلت اليها الحركة العلمية فى أوربا فى القرن الثامن عشر عندما انتهت الى الثورة الصناعية وعصر العلوم الحديث فى القرن التاسع عشر . ثم عصر الهواء والذرة والصواريخ فى القرن العشرين . ولكن الحضارة العربية وقفت عند الحد الذى وصفناه فيما تقدم أى عند القرن الثانى عشر الميلادى ، اللهم الا من استثناءات حدثت بقوة الاندفاع أكثر منها بالقوة الذاتية .

أما السبب فى هذا فهو عدد من النحوس توالت على العالم العربى فى القرن الحادى عشر . فالمشرق العربى وقع فى أيدى الأتراك السلاجقة منذ سنة ١٠٥٠ م ، وفى المغرب العربى أخذ أمرؤ المسيحيون يستولون على المدن الاسلامية واحدة بعد أخرى : طليطلة (١٠٨٥ م) سرقسطة (١١١٨ م) . وكذلك سقط جنوب ايطاليا قبل ١٠٥٠ م وصقلية بين ١٠٦٠ و ١٠٩٠ م . وكانت أوربا تستعد للحروب الصليبية وأرسلت حملاتها فى آخر القرن . وهكذا تتمزق الدولة العربية وتقع فى يد الأتراك بما عرف عنهم من الجهل والرجعية .

وفى أوائل القرن الثانى عشر ينتصر الفقهاء على الفلسفة والعلوم الطبيعية . فقد ضاق الفقهاء بما اقترن بالحركة العلمية من الحاد وهجوم على الدين . ولم يكن للعلوم الطبيعية علاقة بهذه الحركة وانما أدت اليها الشعوبية متخذة سلاح الفلسفة والمنطق . ولما كان التخصص غير معروف ، وكانت

العلوم الطبيعية مما يعالجه الفلاسـفة أيضا ، فقـد تلقت هـذه العـلوم نفس الهجـوم الذى شـنه الفقهـاء من أمثال الغزالى (توفى سـنة ١١١١م) ، على الفلسـفة .

ولقـد دافع حجـة الاسـلام الغزالى عن العـلوم الطبيعية وهو يهـاجم الفلاسفة . ولـكن السلاطين الأتراك لم يفهمـوا ما أراد هذا الفيلسوف الفقيه أن يقول ، فاضطهدوا العلوم الطبيعية مع الفلسفة ، وقيدوا حرية الفكر وأحرقوا كتب العلوم ، وانتكست الحضـارة العلمية الاسـلامية بجهل الأتراك ، كمـا انتكست القيم الديموقراطية الاشتراكية العربية باستبدادهم .

وتجمدت الحضـارة العربية فى القـرن الثانى عشر ، وتدخل فى عصر مظلم ابتداء من القرن الثالث عشر ، وكادت تنطفىء نهائيا على يـد الأتراك العثمانيين حين سيطروا على العالم العربى ابتداء من القرن السادس عشر .

لذلك لا نعجب اذا لم تصل الصناعة عند العـرب الى حد الثورة الصناعية الآلية. فقد كانت هذه تحتاج الى اضطراد فى البحث العلمى حتى تصل الملاحظات والتجارب الى حد القوانين العلمية العـامة التى تطبق فى اختراعات وتحـدث انقلابا صناعيا . ولـكن الأتراك عاجلوا العلوم العربية قبل أن تصـل الى هذه المرحلة ، فبقيت الصناعة يدوية فردية لـم تؤد الى قوة مـادية للدولة ، ولا الى رأسمال ضخم تنهض به الصناعة .

على أن مـا لم يتم فى العـلوم العربيـة على يد العـرب ، قد تم لنفس هذه العلوم على يد غير العرب . فاذا كان الأتراك قـد أخرجوا العلوم من يد العرب فانهم لم يقضوا عليها وانما جعلوها تهرب الى يد غيرهم لتواصل حياتها هناك . ففى الوقت الـذى كانت العـلوم تختنق فى الوطن العربى تحت ضغط الأتراك كانت دول أوربا تنتعش قليلا قليلا وكانت أممهـا تأخذ شـعلة العـلم من يـد العرب لتواصل امدادها بالزيت فى أوربا ، وعلى أساسـها تقـوم الحضـارة الحديثـة .

انتقال الحضارة العربية إلى الأوربيين

كانت عصور ازدهار الحضـارة العربية من القرن الثامن الى القرن الحادى عشر عصـور ظلام فى أوربا . كان الأوربيون يتخبطون فى ظلمات الاسـتبداد

والقسوة والجهل والخرافة . وكان معظم الشعوب الأوربية أرقاء أرض يسخرهم السادة الاقطاعيون ، وكانوا جميعا بلا استثناء عبيدا لطبقة من رجال الدين استعبدت ضمائرهم باسم العقيدة .

وأخذت أنوار المدنية العربية تومض لهم من بعيد ، ووصلت اليهم بعض أشعتها بحكم القرب فى صقلية وجنوب ايطاليا وأسبانيا . وقام الأوربيون بمغامرة الحروب الصليبية فاحتكوا احتكاكا مباشرا بالمدنية العربية فى مصر والشام . وأرادوا أن يرتقوا ليخرجوا من وهدة التوحش . وامتلأ قلبهم حنقا على المسلمين فأرادوا أن يحاربوهم بأسلحتهم ووسائلهم ، وأقبل الأوربيون على العرب فى كل مكان وجدوهم فيه ينهلون من علمهم ويتثقفون بحضارتهم ويقتبسون كل ما تصل اليه أيديهم منها ، وبعد قرابة قرنين من الزمان كان الأوربيون يمتلكون كل حضارة العرب ، وأخذوا يضيفون اليها وينهضون بها ، الى أن كانت المدنية الحديثة التى تعيش فيها .

كان المركز الأول لانتشار الحضارة العربية بين الأوربيين هو أسبانيا .

فمن أول الأمر فضل الأسبانيون الذين بقوا يعيشون بين العرب أن يتعلموا اللغة العربية ، وكان كثير منهم أميين فى اللغة اللاتينية لغة الأدب الأوربى حينئذ على حين كانوا يقرأون الشعر العربى والنثر العربى منجذبين اليهما بحلاوة اللغة العربية وسهولة جريانها على اللسان . وكثيرا ما شكا آباء الكنيسة من أن رعاياهم المسيحيين يحفظون أشعار الشعراء العرب ولا يحفظون ترانيم الكنيسة . واجتذبت قرطبة الزائرين وطلاب العلم والترف من كل مكان ، وقد كانت الأندلس واحة فى وسط صحراء أوربا . لقد كان فى قرطبة فى القرن العاشر سبعون مكتبة عامة وتسعمائة حمام عام على حين أن أمراء المدن الفرنسية والأسبانية المسيحية لم يكن عندهم طبيب واحد أو مهندس للبناء ، أو حتى خياط ملابس . وعاش هؤلاء الزائرون فى المدن الأسبانية ونقلوا معهم الكتب والصناعات والحضارة وكان حكام أسبانيا من الموحدين والمرابطين من البربر ، وقد شابهوا أتراك الشرق فى الجهل بروح الاسلام ، فطالبوا المسيحيين بالاسلام أو ترك البلاد ، فخرج هؤلاء بدينهم المسيحى وثقافتهم العربية الخالصة ونشروا الحضارة العربية فى العالم المسيحى حيثما ذهبوا — الأزياء والعادات واللغة والغناء والفن والصناعة . ولما ضعف

المسلمون وتفرقت كلمتهم أخذ الأسبانيون يستولون على المدن الاسلامية واحدة بعد أخرى ، طلطيلة فى ١٠٨٥ م ، وقرطبة فى ١٢٣٦ م واشبيلية فى ١٢٤٨ م ، وغرناطة فى ١٤٩٢ م ، وكل بلد تفتح عليهم يفتح عليهم بها باب واسع من أبواب العلم والمعرفة والحضارة . وقد أبقى كثير من حكام هذه المدن العرب والمسلمين بمؤسساتهم ومدارسهم ومصانعهم يمارسون حياتهم العادية ليعلموا الاسبانيين أسباب الحضارة . ووجد منهم أمراء مثل الفونسو العاشر ملك قشتالة (١٢٥٢ – ١٢٨٤م) ، تعصبوا للحضارة العربية وحموها وعملوا على نشرها ، فقد قام هذا الأمير بحركة ترجمة واسعة نقل فيها كثيرا من مؤلفات العرب وعلومهم . وقصد طلاب العلم هذه المدن من كل أنحاء أوربا ، والتحقوا بمدارسها التى كان العلماء العرب يدرسون فيها الفلسفة والطب والعلوم .

والمركز الثانى ، كان فى صقلية ؛ فقد حدث فيها ما حدث فى أسبانيا . واختلطت الحضارة العربية فيها بحضارة أهل البلاد فى عهدى روجر الثانى وفردريك الثانى ، اللذين كان بلاطهما يعج بالعلماء والشعراء والجغرافيين من العرب .

المركز الثالث ، كان فى مصر والشام ؛ وفيهما اتصل الصليبيون بحضارة العرب ونقلوا منها كل ما استطاعوا نقله بحكم تخلفهم وتعصبهم وجهلهم .

من هذه المراكز الثلاثة انتشرت الحضارة العربية بين أهل أوربا . فترجمت كتب الفلسفة والطب والعلوم والرياضيات فى حركة ترجمة شاملة شبيهة بحركة المأمون عندما نقل علوم الاغريق . وقد مر بك أمثلة لهذه الترجمة ، حتى كتب الغزالى فى الدين والفلسفة نقلوها وتأثر بها توما الأكوينى أكبر فلاسفة أوربا فى العصور الوسطى . وتأثر الأدب الأوربى بالأدب العربى بعد ترجمة كتاب كليلة ودمنة وقصص السندباد وموشحات الأندلسيين . وكذلك الموسيقى نقلوها عن العرب ، بل أن نظم الجامعات وعلومها نقلت عن دراسات المساجد الاسلامية ، حتى هندسة البناء ، والصناعة الدقيقة كصناعة الحلى والخشب والزجاج والسجاجيد ، وصناعة الورق ، وحتى العادات والتقاليد والأزياء نقلت ، حتى لقد كانت عباءات أباطرة ألمانيا تحمل كتابات عربية ، وكانت نقود أوربا منقوشا عليها لا اله الا الله محمد رسول الله .

وإذا أردنا أن نعدد ما أخذه الأوربيون عن العرب فاننا سنذكركل دقائق الحضارة العربية بأوسع معانى الحضارة . فقد انتقلت كل حضارة العرب إلى أوربا وأصبحت ملكا لأهلها ، بعد أن صنعها العرب فى خمسة قرون .

وقد دخلت أسماء العلماء العرب ضمن مراجع أصحاب العلوم من الأوربيون ولكل عالم عربى اسمه اللاتينى فـ Gelber هو جابر بن حيان و Rhazes هو الرازى ، و Zarragut هو فرح بن سالم الطبيب الصقلى ، و Alhazen هو الحسن بن الهيثم ، و Avenzoor هو ابن زهر ، و Averroes هو ابن رشد ، Arzackel هو الزركلى ، و Alpetragius هو البطروجى ، و Albategnius هو البتانى الفلكى ، و Alfaganus هو الفرغانى الفلكى ، و Avicenna هو ابن سينا ، و Iesu Haly هو على بن عيسى الكحال ، و Canamusali هو عمار الموصلى الكحال ، و Abulcasis هو أبو القاسم الطبيب ، و Maimonides هو موسى بن ميمون طبيب صلاح الدين ، و Haly Rodoam هو على بن رضوان الطبيب المصرى .

ودخلت كثير من ألفاظ اللغة العربية فى كل اللغات الأوربية ، مما يدل على أن مدلولاتها مأخوذة من العرب أيضاً . وتتدرج هذه الألفاظ من المصطلحات العلمية إلى ألفاظ الحياة اليومية .

ففى الكيمياء نجد ألفاظ مثل Camphor (كافور) ، Galanga-rot (خلنجان) ، totia (توتية أو أكسيد الزنك) ، realgar (الرهج الأحمر) ، alkali (قلوى) ، antimony (اثمد) ، elixer (أكسير) ، alembic (أنبيق) ، aludel (أثال ، وهو الإناء السفلى من أنبيق التقطير) ، anvilin (نيلة) ، soffron (زعفران) .

وفى التجارة نجد cheque (صك) ، wechsel فى الألمانية و wissil فى الهولندية (وصل) ، tariff (تعريفة) ، mogazine ، وبالأسبانية almacen (مخزن) ، traffic (تفريق) ، alparan (البراءة ، وصل بتسلم شىء) ، arratel (الرطل) .

وفى الصناعة : muslin (حرير موصلى) ، damosh (دمشقى) ، satin (ساتان) ، andamio بالأسبانية (دعائم أو سقالة) ، albanil أسبانية (بناء) ، alcoba (قبة) ، anaqual (النقال أو الحمال) ، adoquin وكلها بالأسبانية (دكان) ، alfaiate برتغالية (الخياط) ، arsenal (دار الصناعة — ترسانة) .

وفى الزراعة : cotton (قطن) ، lemon (ليمون) ، apivach (سبانخ) ، sugar (سـكر) ، artichokes (خرشـوف) ، Lettuce (خس) .

وفى الحياة اليومية : نجد فى الأسبانية . tabique (طبقة) ، almohala (مخدة) ، gaban (قباء أو عباءة) . alquier (كراء أو إيجار) ، Alcanzar (الكنز) ، Aduana (الديوان) ، taquilla (طاقة ، كشباك التذاكر أو نحوه) ، alcalde (القاضى) ، fulan (فلان) ، وبالبرتغالية alcotifa (القطيفة ومعناها السجادة) algileira (الجيب) . وفى الإنجليزية jupe بمعنى جنلة السيدات (جبة) ، sofa (صفة) ، mattress (مرتبة) ، jar (جره) ، syrup (شراب) ، gobelle بالأسبانية (جبل) .

ومن هذه الألفاظ نستطيع أن نرى اتساع دائرة الاقتباس الحضارى الذى حدث يوم أخذ الأوربيون حضارة العرب ، وأن هذا شمل كل جانب من جوانب الحياة والحضارة ، من الرياضة والفلك وهى أرقى العلوم وأشدها فى التجريد إلى الأدب والشعر . ويكفى أن تعرف أن الأوربيين لم يتركوا الأدب الدينى إلا بعد أن اقتبسوا الأدب العربى الإنسانى الرفيع ، وبدأ هذا الإتجاه جماعة التروبادو وهم شعراء الجمال والطبيعة والتغنى به حينما قلدوا الشعر الأندلسى والموشحات الأندلسية . وشمل ذلك أيضاً من هندسة الكنائس والقصور وزخرفتها إلى الفنون اليدوية الدقيقة . ومن الفلسفة إلى عادات الحياة اليومية ، ومن مسوح أساتذة الجامعات (الروب) إلى مشد النساء (السوتيان) .

وتستطيع الآن أن تعرف كيف كونت الحضـارة العـلمية والإنسـانية

الحديثة التى نعيش عليها اليوم • انها بدأت بحضارة أجدادنا فى المعيشة على هذا الوطن العـربى ، بالمصريين والبابليين • ومن هؤلاء اقتبس الاغريق الحضـارة المصرية فنهضوا بها وأضافوا اليهـا ، ثم أخذ العرب فى القرن الثامن حضـارة الاغريق ومن ضمنها حضارة الشعوب العربية القديمة • وأحدث العرب حضارتهم العظيمة الانسانية العلمية الأدبية • واقتبس الأوربيون ابتـداء من القرن الثانى عشر حضـارة العرب فأحدثت عندهم النهضة الأوربية وحـركة احيـاء العلوم واستمروا فى عملية النهوض بالمدنية الانسانية الى أن وصلوا بها اليوم الى ما نراه من نعم التحضر •

ومن ثم فالحضارة الحديثة التى نسـاير ركبها اليوم ليست حضارة أوربا ولا حضارة أمريكا ولا حضارة روسيا ، ولكنها حضارة الانسانية أسـهمنا نحن العرب فى بنائها وكشف عجائبها كما أسهم غيرنا ، فنحن الآن نقتبس مدنيـة نحن من صانعيها ، ونرث تراثا نحن من ملاكه •

وبذلك تنتهى دورة الحضارة بعودة الحضارة الى أصحابها الأصليين الذين هم نحن • ويكون أخذ العرب بالمدنية الحديثة وسـيلة جديدة لتحقيق قوتهم وتماسكهم القومى عن طريق تكامل حضارتهم ، وخطوة أولى فى سبيل قيامهم من جديد بدورهم التاريخى فى بناء الحضارات • لقد كانت الحضارات القديمة تغلب عليها صفة واحدة ، اما دينية أو زراعية أو فنية • ثم كملت الحضارة وتكاملت على يد العرب فشملت كل شىء : الروح والمادة والله والانسـان ، والفلسـفة والصناعة ، والعلم والأدب • ثم انتقلت الحضارة الى الغربيين فاختفت منهـا الروح ، وضاعت القيم وسادت المادة وحدها ، فبعد الانسان عن طريق الله ، فكانت حضارة مادية صرفة وأتى دور العرب الآن لينهضوا بالحضـارة العلميـة المادية ويضيفوا اليها قيمهم الروحية ، وبذلك ينعم الانسان بمزايا العلم والاختراع دون أن يفقد آدميته ودون أن تضعف روح الله فيه •

الفصل الرابع

القوميـــة العربية

ماهى القوميـــة

يعرف قاموس علم الاجتماع لهنرى فيرتشيلد **H. P. Fairchild** القوميـة كمـا يـلى :

« القوميـة هى جماعة من النـاس تربطهم روابط واضـحة من الثقـافة المتجانسـة . والقومية الصحيحة ، تستمد حيويتها من شعور أفرادها بوحدة نوعهم ، ومن التشابه الأساسى بين تقاليدهم وطباعهم . ومن مقومات القومية ؛ تجانس الخصائص الثقافية ان لم تكن وحدتها الكاملة ، وكذلك تجانس النظم الأساسية ، كاللغة ، والدين ، والملابس ووسائل الزينة ، والقـانون الخلقى ، والنظام السياسى ، ونمط الأسرة ، والقيم والمثـل . وأسـاس القوميـة هـو الشعور بالـ نحن ، (أو الشعور بالانتماء للجمـاعة) ويشعر الأفراد المنتمـون لقومية برابطة التعاطف فيما بينهم ، شعورا يختلف عما يحسـون به نحو أفراد قومية أخرى ، ويحسون بالرغبة فى أن يعيشـوا معيشـة مشتركة . وهـذا الاحساس هو الذى يجعـل القومية حقيقة ويجعلها واقعيـة . . . واصطلاح القومية يمكن أن يدل على المجموعة البشرية نفسـها كما يمكن أن يدل على المركب الثقافى الذى يوحد بينها » .

ويؤخذ من هذا التعريف أن القومية هى الرابطة التى تؤلف بين جمـاعة ما وتكون منهم وحـدة متميزة . وبعبـارة أخرى أنه متى توافرت العـوامل التى تكون أمة من جماعة ما ، نشأت بينهم الروابط التى تكون منهم قوميـة . ونلاحظ فى التعريف التشابه الشديد بين العـوامل التى تكون « أمة » وبين العوامل التى تكون « قومية » . وبتحليل التعريف السابق نلاحظ أن عوامل القوميـة هى :

١ ــ وحدة النوع أو تجانسه .

٢ ــ وحدة الثقافة والمدنية ، أو تجانسها على الأقل .

٣ ــ الشعور بالانتماء للجماعة .

٤ ــ الشعور بالتعاطف وبالرغبة فى المعايشة .

٥ ــ ولما كانت كل هذه العوامل لا تتوافر الا اذا جمع الأمة وطن واحد ، أمكننا أن نضيف الوطن كعامل أساسى فى تكوين القومية .

وعلى هذه الأسس نستطيع أن نقول ان القومية تقوم على التجانس والتشابه بين أفراد جماعة وبين أجيالها المتعاقبة ، كما تقوم على التماسك الاجتماعى بينهم ، وعلى شعور كل الأفراد بتلك الروابط التى تربطهم وتلك المصالح التى توحد بين نشاطهم . فالقومية اذن هى نوع من العاطفة الاجتماعية والشعور بتلك العاطفة والنزول على حكمها من حيث الرغبة فى المعايشة والنزعة الى التعاون .

فالتماسك الاجتماعى ضرورى لقيام القومية . فوحدة الثقافة ووحدة المصالح الاقتصادية والسياسية تشعر كل فرد أنه يعيش فى اطار هذه الجماعة وأن كيانه كفرد مرتبط بكيانها ، وأن مصالحه الشخصية مرتبطة بمصالحها . وعكس التماسك الاجتماعى ، الانفرادية أو الانعزالية ، وهى شعور كل فرد أنه يعيش بمفرده ، ويعمل لحسابه الخاص ، ويجرى لتحقيق مصالحه الذاتية . ولذلك فكل ما يحدث التفكك الاجتماعى أو الانعزالية هو ضد القومية . فالاستعمار وما يترتب عليه من فقدان الاستقلال هو ضد القومية ، والانقسام الداخلى الى طوائف أو أحزاب سياسية هو مضعف للقومية أيضا .

ووحدة الأهداف أساسية فى وجود القومية ، لأن وحدة الهدف هى التى تؤدى الى وحدة الصف . فلا قومية لجماعة تنقسم الى جماعات صغرى أو طوائف لكل منها أهدافها ومصالحها التى تختلف عن أهداف قطاعات أخرى منها ، وذلك لأن وحدة الهدف هى التى توجه نشاط كل فرد ومجهود كل فرد فى اتجاه عام واحد ، فيسير الجميع صفا واحدا لبلوغ الأهداف المشتركة وتحقيق المصالح الواحدة . ومتى تعارضت الأهداف تشتت النشاط وتصادمت الطوائف واختفت القومية أو ضعفت على الأقل .

ولذلك فلا بد للقومية من تكامل الطبقات الاجتماعية فى داخل الجماعة . وتقارب هذه الطبقات ضرورى أيضا . فالمجتمع الاقطاعى أو الرأسمالى أو الذى يوجد صراع بين طبقاته لأى سبب من الأسباب ، تضعف قوميته ، لأن هـذا الصراع يضعف التماسك الاجتماعى ، ويفرق بين الأهداف ويشتت النشاط .

وشعور الأفراد بكل هذه الحقائق ضرورى لوجود القومية . والأمر لا يقف عند حد وجود هـذه العوامل ، بل لا بد وأن يشعر كل فرد بالنتـائج المترتبـة عليها ، حتى تنشأ العاطفة ، وينشأ ما نص عليه التعريف السابق من الرغبـة فى المعايشة واحساس الفرد نحو شركائه فى القومية بتعاطف خاص لا يشعر به نحو جماعات أخرى لا تنتمى لهذه القومية . وهذا الشـعور بالروابط هو ما نسميه النضج السياسى . فيجب أن يبلغ أفراد الجماعة درجة معقـولة من النضـج السياسى تجعلهم يشعرون بكل هـذه الروابط ، ويكون فيهم الارادة نحـو المعايشة والتضحية فى سبيل الصالح العام . والنضج السياسى هو شعور الأفراد بالروابط الثقافية والمصلحية التى تربط الجماعة ، والرغبـة فى مراعاتها وبذل الجهد فى سبيل استمرارها ، الى حد التضحية بالوقت والجهد والمـال والنفس أحيانا اذا وجدت ضرورة .

والخلاصة أن القومية هى عاطفة اجتماعية عامة تقوم على مشاركة الأفراد المكونين لها فى أهداف معينة أو فى طريقة حياة واحدة ، وفى قيم ومثل متميزة . والشعور بالانتماء الى القومية ينبغى أن يتضمن شعور أفرادها على اختـلاف طبقاتهم بخصائصها المميزة لها ، والروابط التى تربط بين أفرادها . وتكون قوة القومية بقدر وضوح الأهداف المشتركة ، وبقدر قوة الاحساس بها عند جميـع الأفـراد .

ويترتب على هذا أن القومية لا يمكن أن تظهر فجـأة ، ولا يمـكن أن تفتعل ، ولكنها نتيجة عملية تاريخية طويلة . فمعيشة الأمة فى بيئتها الطبيعيـة أو وطنها مدة طويلة ، وتفاعلها مع هذه البيئة ، وتفاعل أفرادها بعضهم مع بعض حول مناشط البيئة ، واشتراكهم فى حل مشكلاتها ، وتفاعل الأجيال المتعاقبـة منها وتوارثهم تلك الأهداف والثقافة والنشاط ، كل هذا هو الذى يعبر عنـه بالعملية التاريخية ، وهى ضرورة لاعطاء الجماعه صفاتها المميزة . واقامة العاطفة القوميـة بينهـم .

والقومية لا تتعارض مع العالميــة أو الانســانية • أى أن تعـاون الأمة وتماسكها وشعورها بوحدتها وبقوميتها لا يتعـارض مع شـعورها بوحـدة الانسانية ، بل ان الانسان كلما ارتبط بأمته وشعر بقوميته واتجه نحـو تحقيـق مصالحها ، استطاع أن يقدر أهمية مصالح الآخرين وأهمية وحدتهم وحريتهم ، وعمل على أن يتمتع غيره بمثـل ما يريد هو أن يتمتع به • وشـعور الانســان بالأسرة التى ينتمى اليها وعمله على مصالحها لا يتعارض مع شـعوره مع الأسر الأخرى المحيطة به ، بل ان احترامه لأسرته يجعله يحافظ على ســلامة الأسر الأخرى • ولذلك كان احترام الأسرة لا يتعارض مع الوطنية ، وولاء الفرد لأسرته يزيد ولاءه لوطنه ، لأنه لا يستطيع أن يحقق سلامة أسرته ومصالحها الا اذا سلم الوطن وســلمت الأمة •

ولكن الدول الاستعمارية تحاول دائما أن تجعل « العالمية » أو « الانسانية » اتجاها مضادا للقومية • وتتخذ من العالمية وسيلة للدعوى بوجوب تنــازل الأمم عن قومياتها أو عدم التمسك بها أو عدم التعصب لها • ويتـــذرعون لذلك بأن الاحساس بالقومية يؤدى الى التعصب ، والتعصب يسبب الحروب • ومع هذه الدعوى فان الدول الاستعمارية تعمل على أن تسيطر على الأمم الصغرى بعد أن يضعف شعورها بقوميتها • والدليل على ذلك أن الدول الاستعمارية لا تأخــذ بفلسفة العالمية أو الانسانية لأن سياستها تقوم على الاعتداء والاستعمار •

ولذلك وجب أن تتنبه الى أن « القومية » لا تتعارض مع العالميــة ولا مع التعاون الدولى ، بل ان الشعور بالقومية هو أساس الشعور بالقوميات الأخرى واحترام سلامتها ومصالحها • كما أن شعور الفرد بنفسه لا يتعارض مع شعوره بغيره • وهذا الشعور بالنفس وبمصالحها هو الذى يجعل الانسان يتعاون مــع غــــيره •

ثم ان الدول الكبرى التى تملك وسائل الاعتداء ، لا تأخذ بهــذا الاتجــاه الذى تنادى به • فالنزعة القومية قوية جدا فى تلك الدول ، وتنافسها فى مجــال الاستعمار ، وفى مجال التسليح ، وفى مجال بسط النفوذ على غــيرها ، كلهــا نزعات قومية متطرفة • ومن هنـــا نعرف أنه حتى اذا سلمنا بأن النزعة العالميــة والانسانية يجب أن تسود ، فان الدول الكبرى والدول الاستعمارية يجب أن تبدأ بنفسها فتتجرد من أطماعها وتحترم قوميات الأمم الأخرى • والخلاصــة أنه

لا تعارض بين القومية وبين العالمية أو بين الانسانية . فكلها اتجاهات متكاملة . ومن ثم وجب على كل أمة أن تشعر بقوميتها وتعمل على اعلاء كلمتها ورفع رايتها متعاونة مع القوميات الأخرى فى ظل التعاون العالمى بين الأكفاء ، والتعايش السلمى الخالى من الأطماع .

مقومات القومية الغربية

حددنا فيما سبق مفهوم القومية بوجه عام . وهو مفهوم يشتمل على العوامل التى تكون القومية أيا كانت ، على تفاوت بين القوميات المختلفة فى شمول كل هذه العوامل أو بعضها ، وفى بروز بعض هذه العوامل على حساب بعضها الآخر ، وفى نسب هذه العوامل بعضها الى البعض الآخر فى كل حالة على حدة . ومعنى هذا أن القوميات تختلف فى تركيبها من هذه العوامل ، ومن ثم فهى تختلف قوة أو ضعفا حسب هذا التركيب .

والقومية العربية تتفق مع كل القوميات الأخرى فى قيامها على هذه العوامل ، وتتميز عن غيرها من القوميات بأنها جمعت كل هذه العوامل وأخذت منها كلها بأوفر نصيب ، وهى مع ذلك تمتاز على غيرها بكثير من عوامل القوة التى لا تتفق لغيرها . والحق أن القومية العربية فريدة بين القوميات . هى فريدة بوطنها ، وفريدة بقوميتها ، وفريدة بقيمها الروحية ، وفريدة بلغتها ، وفريدة بتاريخها ، وفريدة بالأدوار التى مرت بها ، وفريدة بقوة احتمالها وقوة مقاومتها ، وفريدة بماضيها كما هى فريدة بحاضرها .

ويوضح خاصية التفرد فى القومية العربية بيان للعوامل التى تقوم عليها ونحب أن نعتمد فى بيان هذه العوامل على بعض الوثائق العربية الهامة التى تميزت بعمق النظرة ، كما تميزت بصفتها العلمية .

يقول الميثاق الوطنى فى العوامل التى ترتكز عليها القومية العربية :

« ان الأمة العربية لم تعد فى حاجة الى أن تثبت حقيقة الوحدة بين شعوبها .

« لقد تجاوزت الوحدة هذه المرحلة وأصبحت حقيقة الوجود العربى ذاته .

« يكفى أن الأمة العربية تملك وحدة اللغة التى تصنع وحدة الفكر والعقل .

« ويكفى أن الأمة العربية تملك وحدة التاريخ التى تصنع وحدة الضمير والوجدان .

« ويكفى أن الأمة العربية تملك وحدة الأمل التى تصنع وحدة المستقبل والمصير » .

ويقول البيان الذى صدر مع اتفاق الوحدة بين الجمهورية العربية المتحدة وسوريا والعراق فى ١٧ أبريل سنة ١٩٦٣ :

« قد استلهمت الوفود فى كل مباحثاتها الايمان بأن الوحدة العربية هدف حتمى ، يستمد مقوماته من وحدة اللغة التى تحمل الثقافة والفكر ، ووحدة التاريخ التى تصنع الوجدان والضمير ، ووحدة الكفاح الشعبى التى تقرر وتحدد المصير ، ووحدة القيم الروحية والانسانية النابعة من رسالات السماء . ووحدة المفاهيم الاجتماعية والاقتصادية القائمة على الحرية والاشتراكية » .

وبمقارنة النصين وتكاملهما نستطيع أن نقول ان القومية العربية تقوم على العوامل الآتية :

١ — وحدة اللغة .

٢ — وحدة التاريخ .

٣ — وحدة الكفاح الشعبى .

٤ — وحدة القيم الروحية والانسانية النابعة من الأديان .

٥ — وحدة المفاهيم الاجتماعية والاقتصادية (أى وحدة الأيديولوجية أو طريقة الحياة) .

ولا يغفل بيان الوحدة المذكور أهمية شعور الجماهير بهذه العوامل واحساسها بأثرها فى حياتها ، أى لا يهمل جانب العاطفة الجماعية فيقول :

« ان الوحدة عمل ثورى يستمد مفاهيمه من ايمان الجماهير ، وقوته من ارادتها ، وأهدافه من أمانيها فى الحرية والاشتراكية . ان الوحدة ثورة ، ثورة لأنها شعبية ، وثورة لأنها تقدمية ، وثورة لأنها اندفاع فى تيار الحضارة » .

ولا شك أن الوحدة هى المظهر العملى لتلك العاطفة الجماعيــة التى نسميها « القومية العربية » • ومعنى أن الوحــدة ثورة ، أنها تقوم على وعى الجماهير واحساس الجماهير ، وعاطفة الجماهير ، أى أنها تقــوم على الوعى الســياسى الذى هو دليل النضج السياسى • فالشعوب الناضجة الواعية المتماسكة ، هى وحدها التى تقوم بثورة •

واليك تفصيل العوامل التى تقوم عليها القومية العربية :

١ ــ وحدة اللغة والثقافة :

ولا شك أن اللغة العربية تأتى فى مقــدمة العوامل التى تقوم عليها القوميــة العربية • فاللغة العربية تجمع بين جميع الشعوب العربية التى تنتظمها القوميــة العربية ، فأينما سرت فى الوطن العربى من المحيــط الى الخليج ، ومن حــدود أرمينية والتركستان الى المحيط الهندى تجد اللغة العربية لغــة الحياة اليوميــة كما هى لغة العلم والأدب بين جميع سكان هذا الوطن المترامى • ومــع وجــود أقليات لغوية هنــا وهنــاك فى أطراف الوطن العربى الا أن ٩٥٪ من ســكان هذا الوطن لغتهم هى اللغة العربية وليس لهم لغة غيرها •

وقد تختلف اللهجــات العربية أحيانا من قطر الى قطر ، ولكن جميع اللهجات قريبة بعضها من بعض لأنها لهجات عربية وكلها انحرافات محلية من اللغــة العربية الفصحى ، وأكثرها اختلافات فى طريقة النطق بالكلمات ، أو استبدال حــرف فى كلمة بحرف آخر • واختلاف اللهجات فى داخل اللغة الواحدة لا يترتب عليه صعوبة فى التحدث أو نقل الأفكار أو التفاهم ، لأن مفردات اللهجات المختلفــة واحدة باستثناءات قليلة • ومن أمثلة ذلك اختلاف اللهجة بين أهــل صعيد مصر وأهل الوجه البحرى • ومثل هذا الاختلاف نجده بين الأقطار العربية الأخرى ، ولكنه لا يعول عليه فى وحدة التفاهم •

والوحدة اللغوية الحقة تتمثل فى اللغة العربية الفصيحة ، لأنها لغة جميــع العرب وليس فيها خلاف ــ لا حديثا ولا كتابة • فهى لغة موحدة واحدة لأنهــا لغة قريش التى نزل بها القرآن • وهى لغة واحدة لأنها لغة الأدب ، ولغة التأليف ولغــة التعليم والدراسة ، ولغة التحدث فى المجتمعات المثقفة • وتتضح أهميــة اللغة العربية الفصحى أيضــا من أنها لغة الصحافة ولغة الاذاعة وهــذان عاملان

كبيران فى تفاهم الأمة العربية ووحدتها الفكرية مهما اختلفت مواطن الشعوب العربية .

ولهذا السبب وجه أعداء القومية العربية جهدهم الى أضعاف اللغة العربية الفصيحة . فالاستعمار عمل على اضعاف هذه اللغة لأنها عامل من عوامل توحيد العرب ودعامة من دعائم القومية العربية . فقد أشاع المستعمرون أن اللغة العربية الفصحى لغة بائدة ، وأن الشعوب العربية يجب أن تتخذ لهجاتها المحلية أو لغاتها العامية لغات قومية ، كل شعب بلهجته . وذهب المستعمرون الى أن اللغة العربية الفصحى هى التى أخرت التعليم ونشرت الأمية نظرا لصعوبتها ، وعلى ذلك نادوا بأن تكون لغة التعليم فى المدارس هى اللغات العامية ، كما يجب أن تكون العامية هى لغة الأدب والعلم والمسرح والتأليف . كل ذلك لكى يضعفوا الأمة العربية ويقضوا على القومية العربية عن طريق اضعاف اللغة الفصحى التى تجمع كل العرب ، وفى تقديرهم أنه اذا أهمل استخدام اللغة الفصحى ، وطال استخدام اللغات العامية ، فان هذه اللغات ستتباعد مع الزمن وتصبح لغات مستقلة ، ويصبح أهلها غرباء بانقطاع وسيلة التفاهم الموحدة بينهم كالذى حدث فى أوربا عندما بدأت شعوبها تهجر اللغة اللاتينية الموحدة ابتداء من القرن الخامس عشر ، واتخذ كل شعب لهجته المحلية لغة تأليف وأدب ، وسرعان ما ظهرت اللغات الأوربية الحالية . ونشأت على أساسها قوميات مختلفة متعادية متناحرة .

ولقد انخدع فى هذه الدعوى الخطيرة أناس من العرب عن جهل وعن غفلة واستغلتها الشعوبية أيما استغلال ضد القومية العربية . وفاتهم أن اللهجات العامية هى مشتقة من اللغة العربية ، وما ينبغى للفرع أن يحل محل الأصل . ونسوا أن الأوربيين أنفسهم ما زالوا يناضلون ليتعلموا اللغة اللاتينية بعد أن تركوها حتى أصبحت لغة بائدة ، وهى تعلم فى المدارس الثانوية فى كثير من بلاد أوربا . ولم يتنبهوا الى أن صعوبة اللغة العربية الفصحى هى مجرد خرافة . وأين صعوبات النحو العربى من صعوبات النحو فى اللغة الفرنسية . حيث تتغير أداة التعريف بين المذكر والمؤنث دون أن يكون فى الكلمات ما يدل على الجنس . وحيث تتعدد صيغ التصريف فى الأفعال وحيث يزيد عدد الأفعال الشاذة فى كل تصريف زيادة كبيرة . وغير هذه صعوبات لا تحصى فى اللغة

الفرنسية ، ومع ذلك فلم نسمع أن الفرنسيين نادوا بترك لغتهم أو بالترخص فى قواعد اللغة فى الحديث أو الكتابة ، ولم نسمع أنهم تكلموا عن الغاء النحو أو تيسير النحو الى آخر هذه البدع الاستعمارية التى نسمعها فى الوطن العربى • وشتان بين لهجات اللغة الانجليزية بين أهل كل من اسكتلندة وويلز وانجلترا ، وهم جميعا يكونون القومية البريطانية ، ولم نسمع دعوة الى ترك اللغة الانجليزية الفصيحة الى اللهجات المحلية هناك •

وكما كان للقرآن فضل فى نشر اللغة العربية وجعلها لغة عامة فى جميع أجزاء الوطن العربى ، فقد كان له الفضل فى ضبط اللغة العربية وحفظها من التغيير والتحريف • وبذلك أصبحت لغة موحدة بين جميع العرب وكانت من أهم دعائم قوميتهم • ونضيف أن القرآن كان العامل الأساسى فى هزيمة الدعاية الاستعمارية ضد اللغة العربية السليمة •

قلنا أن اللغة العربية هى اللغة القومية لحوالى ٩٥٪ من سكان الوطن العربى ، ومعنى هذا أن هناك أقليات لغوية تعيش فى الوطن العربى • فهناك الأكراد ولغتهم هى اللغة الكردية وعددهم حوالى ٩٠٠ ألف نسمة فى شمال القطر العراقى و ٢٠٠ ألف نسمة فى شمال القطر السورى • وهناك البربر فى شمال أفريقية ويتكلمون اللغة البربرية وعددهم حوالى ستة ملايين ونصف مليون فى تونس والجزائر والمغرب • وهناك زنوج السودان الجنوبى ويتكلمون لهجات زنجية مختلفة ، وعددهم مليونان ونصف مليون • ولكن يخفف من هذه المشكلة اللغوية أن الأكراد والبربر متفقون مع الأمة العربية فى بقية العوامل القومية الأخرى ، فدينهم هو الاسلام وثقافتهم عربية ، ومصالحهم هى مصالح الأمة العربية • وقد عملت عصبة الأمم استفتاء للأكراد فى سنة ١٩٢٥ فأختاروا البقاء فى العراق ورفضوا الانضمام الى تركيا • وعجز الاستعمار الفرنسى أن يفرق بين البربر والعرب فى شمالى أفريقية ، وحارب البربر ذلك الاستعمار جنبا الى جنب مع العرب ، بل ان مركز المقاومة فى أثناء الثورة الجزائرية كان المناطق الجبلية التى يسكنها البربر • ومن هنا نعلم أن العامل اللغوى فى حالة هذه الأقليات ليس له أثر على التماسك الاجتماعى والقومى • ولا تسلم أمة من أقليات لغوية • فسويسرا ينقسم شعبها بين ثلاث لغات : الفرنسية والايطالية

والألمانية . وكندا ينقسم شعبها بين لغتين : الانجليزية والفرنسية . وفى الهند وأندونسيا عشرات اللغات .

ويبقى بعد هذا أن الوحدة اللغوية من أهم مقومات القومية العربية . وتتبين أهمية اللغة فى القومية من ثلاثة أمور :

(الأول) أن اللغة هى وسيلة التفاهم ونقل الأخبار ، فهى بذلك وسيلة هامة الاندماج الاجتماعى ، وعامل مهم فى التجانس القومى ، لأن استعمال لغة واحدة يؤدى الى التفاهم والى وحدة الرأى .

(الثانى) أن اللغة ليست وسيلة تعبير فقط بل هى أيضا وسيلة تفكير ، وذلك لأن اللفظ اللغوى ينطوى على معنى أو فكرة أو عاطفة . ولذلك فالكلمة هى معنى يحرك الفكر أو دافع يحرك السلوك . ومن وحدة اللغة تتحقق وحدة التفكير ووحدة السلوك بين الأفراد ، ومن ثم يتحقق التماسك .

(الثالث) أن اللغة وعاء الثقافة لأنها تشتمل على تاريخ الأمة وعلى ثقافتها وعلى أدبها من نثر وشعر ، وعلى تراثها الفكرى من علوم ومعارف ، ولذلك فالكيان الثقافى للأمة مرتبط بلغتها ارتباطا وثيقا . ولذلك كانت وحدة اللغة تضمن وحدة المدنية ووحدة الثقافة .

٢ — الوحدة التاريخية :

وما بنا حاجة هنا الى بيان كيف أن الأمة العربية قد اجتازت عملية تاريخيه واحدة ، وان لها تاريخا واحدا لا يمكن الفصل بين عصوره ، ولا بين مسرحه من الوطن العربى . فقد مر بك فى الفصل الأول أن عملية استيطان الأمة العربية فى هذا الوطن من أول الأمر كانت عملية واحدة ، هبط فى أجزائه الشرقيه (العراق) أقوام من الشرق من أواسط آسيا ، وهبط فيه من الوسط (مصر) أقوام من الغرب ومن الجنوب . وكانوا أقواما بلا نظام ولا حضارة . ثم انساحت الهجرات من شبه الجزيرة العربية على شرقى الوطن العربى وعلى وسطه وعلى غربيه ، واتصلت هذه الهجرات آلاف السنين . وأقام هؤلاء الناس المتحدى العنصر باستمرار على هذا الوطن . وخاضوا معركة عنيفة مع الطبيعة المتشابهة حتى أقاموا حضارات زراعية بنفس الوسائل ونفس الأساليب فى وادى دجلة ووادى الفرات ووادى النيل . وخاضوا معركة عنيفة أخرى مع أنفسهم المتشابهة أيضا ، حتى أقاموا حضارة روحية وخلقية وحكومية وتبادلوا المعلومات

والصـــنائع والقوانين طوال التاريخ القـــديم • وتصادقوا كما يتصادق الأقرباء ، وتعادوا كما يتعادى أفراد الأسرة الواحدة ، وتزاوجوا كما يتزاوج الجـيران ، وتراسلوا كمـــا يتراسل الأصدقاء • ومـــع ذلك فقد احتفظ كل شعب بشخصيته وأبقى كل وطن صغير على كيانه ، واكتفى الجميع بضروب من التنافس حينـــا وألوان من التعـــاون أحيانا ، وكان هذا من طبائع الأشـــياء فقد كانت مرحلة من طفولة الانسانية ومن خصائص الطفولة — فى الفرد وفى الجماعة على السواء — أن يتركز اهتمامها على نفسها ، وأن تتجاهل الغير ، وأن تعجز عن ادراك العلاقات الاجتماعية الدقيقة •

حتى اذا أتى الاســـلام بســـموه الروحى ، ونضـــجه الفكـــرى ، وتنظيمه التكاملى ، واتساعه الشمولى ، ألف بين الشعوب العربيـــة فى أمة ، ووحد بين الوطن العربى فى دولة ، ونظم حياة الجماعة بقانون ، ووحد اتجـــاه الجميـــع بهدف ، ونظم صفوفهم تحت راية • وأصـــبح سكان هذا الوطن من الخليـــج العربى الى المحيط الأطلسى يكونون أمة واحـــدة ودولة واحدة وارادة واحدة ، وأخذوا يجتازون معا عملية تاريخية واحدة وتلاشت التواريخ المستقلة • وأصبح يضمهم جميـــعا تاريخ واحد ، اذ كانت الدولة واحـــدة هى الدولة العربيـــة • والعاصمة واحدة هى المدينة أو الكوفة أو دمشق أو بغداد أو القـــاهرة ، والقيادة واحدة تتركز فى خليفة واحد وجيش واحد وقضاء واحد ، والمعرفـــة واحـــدة تتمثل فى القرآن الذى لا يتبدل ، واللغة العربية القرشية التى احتمت فى جلدتى المصحف والأدب العربى من شعر ونثر يقرأ فى كل مكان ، والكتب تنســـخ من كل بلد عربى وتنقل الى كل بلد عربى آخر ، والأدباء والعلماء والفلاسفة والأطباء يجوبون الوطن من مشرقه الى مغـــربه يبحثون ويتبادلون الحقائق ويدرســـون ويناظرون ويؤلفون • ورجـــال الصناعات والفنون ينتقلـــون من القـــاهرة الى المدينة • ومن بغداد الى القـــاهرة ومن الشرق الى الغـــرب ، يقيمون المســـاجد والقصور ويهندسون المدن ويبنون الاســـتحكامات • وتطورت حياة هذه الأمة الضخمة كلها تطورا واحدا لم يستقل فيه شعب عن شـــعب ولا انعزل قطر عن قطر • حتى عنـــدما استقلت الأقطار سياسيا فى بعض فترات المرض التى انتابت الأمة ، ظلت الحضـــارة واحدة ، والحركة الفكرية متصلة ، والزعامة الروحيـــة واحدة تتمثل فى الخليفة وان كان فقـــد سلطانه ، وظلت الأهداف واحدة لأن راية الاسلام ظلت ترفرف من فوقها •

وظل الاسلام وظلت اللغة العربية يجمعــان الأمة العربية فى العصور الحديثة مهما اختلفت الدول وتفرقت المصائر • وواجهت الأمة العربية فى هذه العصور الحديثة كما واجهت فى العصور السابقة نفس الحظوظ، ووقفت نفس المواقف ، واجتازت نفس المحن ، ومرت فى نفس التطورات وكان تاريخهــا الحديث واحدا كما كان تاريخها الوسيط •

واذا كنــا نلاحظ الآن وحدة كل شىء فى جميع أنحاء الوطن العربى ، وحدة القيم الروحية ، ووحدة اللغة ، ووحدة الفكر ، ووحدة الأدب ، ووحــدة العادات والتقاليد ، ووحــدة الاتجاه ، ووحدة النظر الى الحيــاة • فما كل ذلك الا لأن التاريخ واحد ، فهذه المقومات القومية كلها وليــدة عملية تاريخية ، فهى لا تتحد الا اذا اتحدت العملية التى صنعت خلالها •

وان مؤرخا لا يستطيع أن يكتب تاريخ فجر مدنية الانســان دون أن يشير الى كل الشعوب العربية والى فتوحها الحضارية • وابتداء من القــرن الســابع الميلادى لا يستطيع مؤرخ أن يكتب تاريخ أى قطر عربى الا اذا كتب معه تاريخ الوطن العربى كله ، أو يكتب تاريخ شعب عربى الا اذا أرخ للأمة العربية كلها • وأين المؤرخ الذى يستطيع أن يكتب تاريخ مصر دون أن يكتب معــه تاريخ الشام ، أو يكتب تاريخ الشام دون أن يكتب معــه تاريخ العــراق ، أو يكتب تاريخ المشرق مستقلا عن تاريخ المغرب •

بل أين مؤرخ الأدب العربى الذى يستطيع أن ينسب شاعرا عربيا أو كاتبــا عربيا الى قطر عربى دون آخر ، لأنه لا يوجد شاعر عربى أو أديب عربى لم ينتقل بين الحواضر ويتصل بالأمراء فى المشرق والمغرب على الســواء • وأين الكتاب العربى الذى ألف فى قطر واحــد ، أو اســتقى من مصــادر محليــة صرفه ، أو استعمل فى مدارس قطر بعينه •

وغالبية أهل مصر على مذهب الامام الشــافعى العراقى ، وغالبية أهل المغرب على مذهب الامام مالك الحجازى الذى لم يغــادر المدينة طول حياته • وفى كل قطر عربى أتباع لكل امام من أئمة الفقه ، لأنهم كلهم عرب مهما اختلفت مساقط رءوسهم من بقاع الوطن العربى الكبير •

ومن هذه الوحدة التاريخية تستمد القومية العربية مقوما من أهم مقوماتها ، فما يفصل بين الناس شىء كما يفصل التاريخ ، وما يوحد بينهم شىء كما يوحد التاريخ • وما كل أمة الا من صنع تاريخها ، لأن التاريخ هو الذى يصنع وجدان

الأمة ، ويكون ضميرها ، ويحــدد فلسفتها ، ويبلور أهــدافها ، ويجانس بين عناصرها • ولكى تكون جمــاعة من الناس أمة يجب أن تنصهر أولا فى بوتقــة التاريخ ، فالصحبة على طريقه الطويل هى التى تؤلف بين القــلوب وهى التى توحد بين الأهداف ، وهى التى تخلق احساس كل فرد بالانتماء •

٣ ـ وحدة الكفاح :

وما دامت القومية تقوم على التماسك الاجتماعى ، فوحدة الكفاح من أهم مقوماتها، فما تتماسك جماعة من الناس قدر تماسكها فى ساعات الخطر المشترك، أو فى ساعات احتمال مثل هذا الخطر • ولقــد جمع بين العرب ألوان متعددة من الكفاح • فلقد كافحت الأمة العربية معا ضد الطبيعة القاسية لتخلق منها مصدرا للثروة ، وضــد النفس البشرية لتطوعها لمقتضيات الاجتماع ، وضد الاستعمار لترده عن الوطن •

فلقد نزل العرب هذا الوطن وكان وحشيا فقيرا تطاردهم فيه وحوشه ويكاد يبتلعهم جدبه ، وكانوا عزلا من أسلحة العلوم والمهارات •

وكان عليهم أن يختــاروا بين الكفاح ضــد الأحراش والمستنقعات ورمال الصحراء وأنياب القشاعم ، وبين الفناء والانقراض • وكانت أعنف معركة خاضتها الأمة العربية جنبا الى جنب • ولم تكن هينــة تلك المعركة التى استأنس فيهــا الانسان العربى الجمــل والبقر والجاموس وحولها الى طاقات محركة ووسائل نقل • ولا كانت هينة تلك المعركة التى كشف فيها الانسان العربى أسرار الزراعة من سر النمو فى البذرة ، الى سر الانماء فى التربة ، الى لحظة النضج فى الثمرة • ولا كانت هينة تلك المعركة التى ضبط فيها الانسان العربى مياه الأنهــار وتحكم فى فيضانها وخزنها ليبل بها التربة فى موسم الجفــاف • وما كان الفرد بنفســه ، ولا كانت الأسر المتفرقة تستطيع أن تخوض هــذه المعركة وتنتصر فيهــا ، فكان لا بد من التعاون وتبادل الخبرة ووضع اليــد على اليد فى ساحات العمل • وكان لا بد من أن يواجه العرب هذه المعركة كجماعة ، ثم ان وحــدة المصــير الذى ينتظرهم تبعا لنتيجة المعركة خلقت من الجماعة أمة ، تربطهــا روح قومية وما أخطأ مفكر قدر ما أخطأ هيرودوت عندما قال ان مصر هبة النيل • ان مصر هبة أذرع أهلها • ان المصريين هم الذين صنعوا مصر بعــد عمليــة وبعــد معركة بعرقهم ودمائهم وذكائهم • وكل شعب عربى صنع جزءا من الوطن العربى بعــد معركة وبعــد كفاح •

ولم يكن الكفاح ضد أنانية النفس البشرية أيسر من الكفاح ضد قسوة الطبيعة . فأنانية النفس تستطيع أن تهدم كل مكاسب الكفاح ضد الطبيعة . وفى سياق الكفاح ضد الأنانية توصل الانسان العربى الى الفضائل والقيم الأخلاقية والقوانين والنظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية . وهذه المخترعات الثقافية كلها هى التى ربطت بين الأفراد وحولتهم الى جماعات ، وهى التى أوجدت روح الانتماء التى هى أساس التماسك الاجتماعى وروح القومية .

ولم يخض العرب جنبا الى جنب معركة كتلك التى خاضوها ضد الاستعمار . ونحن نعلم من دراستنا لتاريخ الأمة العربية — وكما سيجىء — كيف احتل الرومان الوطن العربى ردحا طويلا من الزمن وكيف هب العرب فى فجر الاسلام واستخلصوا وطنهم من الرومان بعد معارك دامية . ونعلم كيف خاض العرب معركة حامية دامت قرنين من الزمان ضد الاستعمار الصليبى ، وكيف خرجوا الى عرض المحيط الهندى يقاتلون الاستعمار التجارى فى القرن السادس عشر ، وكيف امتحن العرب الاستعمار الغربى فى القرن التاسع عشر فما سلمت منه جهة من جهات وطنهم ، وكيف كافحوا معا حتى تخلصوا منه فى منتصف القرن العشرين بعد معارك وكفاح .

كل هذه المحن وما استتبعته من كفاح خاض العرب غماره جنبا الى جنب ويدا فى يد ، كانت من عوامل تماسكهم ومن أسباب قوة الروح القومية بينهم . ثم هى أثبتت لهم أن مصير العرب مهما اختلفت منازلهم من الوطن العربى الفسيح انما هو مصير واحد يجب أن يقابلوه أمة واحدة . كما أوضحت لهم ان الوطن العربى هو وحدة واحدة ، وهو وطن كل عربى وأنه كان غرض كل هذه الاعتداءات والمحن ، وأنه لا يمكن أن يضيع منه جزء على أصحابه ويسلم منه جزء لأصحابه ، بل هو اما وطن عربى كله للعرب جميعا واما غنيمة كله للأعداء . وكل هذه المغازى من عوامل اذكاء جذوة القومية العربية فى نفوس العرب .

٤ — وحدة القيم الروحية النابعة من الأديان :

لا شك فى أن القيم الروحية من أهم دعامات القومية العربية . وعندما نذكر القيم الروحية فلا بد من ذكر الدين لأنه مصدر هذه القيم . ولقد كان من حظ العرب أن الأديان السماوية كلها ظهرت فى وطنهم وعلى أنبياء عاشوا ونضجوا

وتلقوا الرسالة السماوية على أديمه ، ونشروا أديانهم بين أهله . ومن هنا كانت الأديان السماوية كلها وكل ما تشتمل عليه من قيم روحية من دعائم القومية العربية . ونحن اذا حللنا الأديان كلها لم نجدها تختلف فى هذه القيم ، وأن كل ما بينها من خلافات انما هى فى تصورات ميتافيزيقية لا تتصل بالاعتقاد فى الله ولا فى اليوم الآخر ولا فى البعث ولا فى الحساب ، ولا فى مجموعة الفضائل التى توجه سلوك الناس فى الدنيا . وهذه هى القيم الروحية التى تتفق فيها الأديان والتى هى من دعائم القومية العربية .

فنحن عندما نتحدث عن القيم الروحية لا نعنى دينا بعينه وانما نعنى التعاليم المشتركة بين الأديان السماوية كلها خالصة من تعقيدات أصحاب اللاهوت ، مبرأة من بدع المتصوفة والكهنوت . وعلى هذا الأساس تكون القومية العربية أعم من أى دين بمفرده لأنها تتسع لجميع الأديان ، وتتكون من أصحاب الأديان جميعا مهما اختلفت طرقهم الى الله ، طالما أنهم يجتمعون على الايمان به واحترام القيم الروحية التى أنزلها على أنبيائه ، وطالما أنهم ينتمون الى القومية العربية وطنا وثقافة ولغة وأهدافا فى الحياة .

ومع أن هذا هو الأساس فان للدين الاسلامى أهميته الخاصة فى القومية العربية لعدة أسباب :

فهو دين الغالبية العظمى من العرب ، اذ يعتنقه حوالى ٩٣٪ من مجموع أفراد الأمة العربية . ولذلك فهو عامل من أهم عوامل التماسك القومى بين هذه الأمة .

وهو دين نزل كتابه السماوى باللغة العربية فأعتزت به هذه اللغة وانتشرت وأصبحت لغة قومية لجميع العرب على اختلاف أديانهم .

والاسلام كان الدافع الأول لظهور القومية العربية كقوة فعالة فى المحيط العالمى والانسانى . فقد كان الاسلام هو القبس الأول الذى منه انبعث العروبة وانتشرت حتى ضمت الوطن والأمة .

والمدنية العربية سواء فى جانبها الروحى أو فى جوانبها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، لعب الاسلام دورا هاما فى تقريرها وتشكيلها

واعطائها خصائصها • وهى المدنيـــة التى اعتنقها وعاش عليها جميـــع العرب حتى الذين يتخذون الى الله طريقا غير الاسلام •

والاســـلام يربط بين العـــرب وبين ملايين من البشر هم المســـلمون الذين لا يشاركون العرب قوميتهم ولكنهم يشاركونهم عقيـــدتهم ، فهو اذن مصـــدر قوة مادية وروحية للعرب فى المجال العالمى •

ولهـــذه الحقائق كلها كان تماسك الأمة العربيـــة على اختـــلاف أديانهـــا تماسكا لا يبلغ بعضه تماسك أصحاب المذاهب المختلفة للدين الواحـــد عند غير العرب • وقد كان لهذا أثره فى تاريخ الأمة العربيـــة • فلبنان مع أن نصف سكانه من المسيحيين عجز الاستعمار الفرنسى عن أن يجـــد له نصيرا من بين ســـكانه المسيحيين ، وكان عرب لبنان على اختلاف مذاهبهم قوة واحدة أمام الاستعمار المسيحى الغربى • وعجز الاستعمار البريطانى فى مصر أن يجـــد له أنصارا على أسس دينية ، وكان الكفاح ضد الاستعمار واجبا قام به كل مواطن بغض النظر عن العقيدة • فالأصل فى العـــلاقة بين العرب هو القوميـــة العربيـــة لا عقيـــدة دينية بذاتهـــا •

٥ ــ وحدة المفاهيم الاجتماعية والاقتصادية :

فالأمة العربية تعيش على نظام واحـــد من القيم والمثـــل العليـــا والعـــادات الاجتماعيـــة والتقاليد • فمن المحيط الى الخليج تتفق الأمة العربيـــة بوجه عام فى طريقة النظر الى المســـائل السياسية كالدولة والحكومة والقانون وفى طريقة النظـــر الى المسائل الاجتماعيـــة ، كالأسرة والمـــرأة والطفولة ونظام الحيـــاة المنزليـــة وعلاقات الأفراد فى داخل الأسرة ، وفى طريقـــة النظر الى المســـائل الاقتصادية كالتجارة والصـــناعة والربا والضرائب • ولا شك أن الأصول الدينية المتغلغلة فى هذه الأمة كان لها أكبر الأثر فى تشكيل نظرها الى الأشياء •

وهناك بعض الصفات الأخلاقيـــة لها أثر فى المجتمعات العربية بوجه عـــام أيضا كالكرم والشرف والعرض ومـــدى احترام الوقت والوفاء بالعهد ، وكلهـــا قيم عربية عامة مهما طرأ عليها من التفاوت باختلاف الشعوب العربيـــة ، أو بتطور الزمن • وليس معنى هذا أن هذه الصفات عامة بين جميع الأفراد أو حتى الشعوب العربيـــة ، أو أنها بالضرورة توجـــد بين العرب بصورة مثالية ، ولكن معناه أن هناك صورة عربية لكل هذه القيم تميز العرب عن غيرهم بازائها •

وهناك أيضا صور عربية من النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية مرت عند الكلام عن الحضارة العربية فى الفصل الثانى ، ولا شك أنها من مقومات القومية العربية وستأتى الاشارة الى هذه النظم لأنها كما هى من أصول القومية العربية ، فانها أيضا أصبحت الآن من شروطها . فالحرية والديموقراطية والاشتراكية أصبحت الآن من ضروريات الحياة التقدمية عند العرب ، كما أصبحت بحكم بيان الوحدة بين مصر وسوريا والعراق سنة ١٩٦٣ شرطا من شروط الانضمام الى الركب العربى المتحرر الذى تمثله الجمهورية العربية المتحدة .

وعلى هذه الأسس كلها تقوم طريقة الحياة العربية التى نصادفها بصورة عامة تلفت النظر فى جميع أنحاء الوطن العربى من الخليج الى المحيط . ولا شك أن هذه الحياة من عوامل الألفة بين العرب ، ومن الأسباب التى تؤدى الى التعاطف والتماسك والشعور بالقربى أينما سار العربى فى الوطن العربى الكبير ، ولا شك أن كل هذه المشاعر من أهم دعائم القومية .

تطور مفهوم القومية العربية

هذه العوامل التى تقوم عليها القومية العربية كلها قديمة ، وليس منها عامل واحد جديد . وكلها ترجع الى ظهور الاسلام على أقل تقدير بل ان بعضها أسبق من الاسلام كالوطن والجنس واللغة الى درجة ما . ولذلك فالقومية العربية ليست شيئا جديدا أو مستحدثا ، ولا هى من صنع عرب هذا العصر . ويمكن على أكثر التقديرات محافظة أن نرجع القومية العربية الى أربعة عشر قرنا تقريبا ، وهو تقدير لا ينازع فيه انسان .

وفى بيان هذه العوامل السابقة ما يدحض دعاوى الاستعمار من أن فكرة القومية العربية جديدة ترجع الى ما بعد الحرب العالمية الأولى أو الثانية أو الى ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ ، فكلها دعاوى باطلة يدفع الاستعمار اليها خوفه من القوة الهائلة التى تكمن وراء القومية العربية .

واذا كانت القومية العربية قديمة ، فانه من الحق أن نلاحظ فيها أمرين أساسيين :

الأول : أنها لم تكن دائما بنفس القوة فى كل العصور . بل انها كانت

تضعف أحيانا ، أو تنسى أهميتها كقــوة فى يد العرب أحيانا أخرى • ولكنها لم تختف اطلاقا • وحتى عند ما كانت تضعف أو ينسى العــرب أهميتهــا كقوة فى أيديهم ، لم يكن ذلك راجعا الى طبيعة القومية العربية ، ولكنه كان راجعا الى عوامل خارجة عن طبيعتها وخارجة عن طبيعة الأمة العربية • وأهم هذه العوامل :

(أ) الاستعمار : فالدول الاستعمارية ما فتئت تعمل على اضعاف القوميــة العربية بكافة الوسائل • وستأتى أمثلة ذلك •

(ب) غفلة بعض الحكام العــرب وأنانيتهم : فلا شك أن الاستعمار اذا كان أمكنه فى بعض العصور أن يضعف الاحســاس بالقومية العربية ، فانه ما كان ليتمكن من ذلك لو لم ينخدع بعض العرب فى دعايته بسبب الجهل أو الغفلة أو الطمع والأنانية •

الثانى : أن مفهوم القومية العربية لم يكن واحدا فى كل العصــور ، بل انه تغير من عصر الى عصر ، واختلط مفهوم هــذه القومية بمفاهيم أخرى فى بعض العصور • وقد كان لطبيعة العصر ولطبيعة العوامل التى تؤثر فيــه دخــل كبير فى تطور هذا المفهوم •

ومع ذلك فانه اذا كانت القومية العربية قد ضعفت أحيــانا ، أو اختــلط مفهومها بمفاهيم أخرى أحيانا أخــرى ، فان العرب كانوا دائمــا يعودون الى الاحساس بها ، وتصــفية مفهومها ، تحت ضــغط ظروف العصر ، وأمام المحن والكوارث التى كانت تثبت لهم دائما أن موئلهم الوحيد هو القومية العربيــة للتخلص من كل محنة وكل كارثة •

وبمراجعة تطور مفهوم القومية العربيــة أمكننا أن نميز أربع مراحــل من هــذا التطور :

المرحلة الأولى — من ظهور الاســلام الى ســيطرة الاســتعمار العثمانى (عام ١٥١٧) ، وكانت العروبة هى أساس مفهوم القومية العربية •

المرحلة الثانية — من بدء ســيطرة الاستعمار العثمــانى (عام ١٥١٧) الى سقوط الســلطان عبد الحميد (سنة ١٩٠٩) ، وكانت الجامعــة الاســلامية هى أساس مفهوم القومية العربية •

المرحلة الثالثة — من سنة ١٩٠٩ الى قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وفيها عادت العروبة أساسا لمفهوم القومية العربية ، مع عوامل مضادة من تأثير الاستعمار وتفكك العرب أنفسهم .

المرحلة الرابعة — من قيام الثورة فى يولية سنة ١٩٥٢ ، وما زالت مستمرة ، وفيها يقوم مفهوم القومية العربية على أساس العروبة ، مع انحسار مد الاستعمار ، وتحديد مفهوم دقيق للعروبة بحيث أصبحت مذهبا شاملا مقترنا بمخطط للعمل فى المجالين العربى والدولى .

واليك بيان موجز عن كل مرحلة من هذه المراحل :

المرحلة الأولى — مرحلة العروبة :

وتشمل هذه المرحلة من ابتداء ظهور الاسلام كدين ودولة معا بهجرة الرسول الى يثرب وتكوينه أول دولة عربية اسلامية ، الى أن انتحل السلاطين العثمانيون الخلافة بعد الاستيلاء على مصر واسقاط الخلافة العباسية التى كانت قائمة فى القاهرة فى سنة ١٥١٧ م .

ولا شك أن العرب كانوا يشعرون بوجودهم كجماعة متميزة قبل الاسلام . فهم كانوا يشعرون بلا شك بأنهم يكونون جنسا متميزا من البشر يختلف عن الروم وعن الفرس وعن الأحباش وعن غيرهم ممن كانوا يحتكون بهم ويتعاملون معهم . وكانوا يشعرون بأنهم سكان مساحة معينة من سطح الأرض هى جزيرتهم التى كانوا يعبرونها انتجاعا للكلأ أو طلبا للتجارة فى رحلتى الشتاء والصيف بين اليمن والشام . وكانوا يشعرون أنهم يعبدون آلهة واحدة أو متشابهة هى تلك الأصنام التى عرفوها بأسمائها . وكانوا يشعرون أنهم يتكلمون اللغة العربية جميعا ، وكانوا قد حققوا الوحدة اللغوية بغلبة اللهجة القرشية الشمالية على اللهجة القحطانية الجنوبية . وكانوا يشعرون أنهم يجتمعون فى أماكن معينة فى مواسم معينة كالكعبة أو أسواق الشعر والأدب كسوق عكاظ ونحوه .

يخطىء من يظن أن العرب قبل الاسلام لم يكونوا جماعة فيها كثير من مقومات القومية العربية ، من عوامل التجمع الى الشعور بهذه العوامل . ولكن يخطىء كذلك من يظن أن القومية العربية كانت مكتملة النضج قبل الاسلام .

فان التماسك الاجتماعى لم يكن سليما كما يجب أن يكون فى المفهوم الصحيح للقومية ، فقد كانوا يعيشون على شكل قبائل متناحرة متقاتلة متنافسة على مواطن الكلأ والعشب وموارد الماء . وكان شعور الفرد بقبيلته أقوى من شعوره بالقومية التى تجمع بين القبائل . ولم يكن لهم أهداف مشتركة يقفون دونها صفا واحدا . وقد قلنا ان القومية العربية هى التماسك الاجتماعى والتعاون الجماعى المشعور به والموجه نحو أهداف مشتركة . وبهذا المعيار كانت قومية العرب منقوصة الى حد ما قبل الاسلام .

فلما ظهر الاسلام ووحد النبى صلى الله عليه وسلم الجزيرة العربية ، ووحد العرب تحت راية العروبة ، وجمعهم على عقيدة واحدة هى الاسلام ، وربط بينهم بقانون هو القرآن ، وضبطهم بدولة تقوم على الانصاف والعدل ، ونظمهم فى مجتمع يقوم على الاخاء والمساواة ، بدأ العرب يشعرون بكيانهم كأمة واحدة تسمو فوق القبيلة ، ويجتمعون على هدف واحد هو اعلاء كلمة العروبة والاسلام .

ولقد وجههم الاسلام نحو هذه الغاية الواضحة ، وفرض عليهم الشعور بوحدة العروبة والسير تحت رايتها . يقول الله تعالى فى سورة التوبة : « ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ، ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه » . فهو هنا يفرض عليهم المبادرة بالوقوف تحت راية النبى كجماعة عربية لها هدف واحد . ووجههم القرآن الكريم الى وضع هذا الهدف المشترك فوق الأسرة والقبيلة والمال . قال تعالى فى سورة الفتح : « سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فأستغفر لنا ، يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم . قل فمن يملك لكم من الله شيئا ان أراد لكم ضرا أو أراد بكم نفعا ، بل كان الله بما تعملون خبيرا » . ويقول تعالى فى نفس السورة توجيها لهم نحو هدف مشترك : « قل للمخلفين من الأعراب ستدعون الى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون » . ومع أن القرآن كتاب الله وكلامه فقد أكد تعالى صفة العروبة فيه الزاما للعرب بما اشتمل عليه من المبادىء ، وتوحيدا لهم حول قيمه ومثله وشريعته ، واثارة للشعور بالانتماء اليه فى نفوسهم قال تعالى فى سورة يوسف : « انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » . وفى سورة الرعد : « وكذلك أنزلناه حكما عربيا » . وفى سورة الزخرف :

« انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » • وفى القرآن أكثر من عشرين آية تؤكد صفة العروبة(١) •

وفى عهد الخلفاء الراشدين تبدأ الفتوح العربية الكبرى وتستمر مائة سنة والى عهد الأمويين • ولقد كانت حركة الفتوح وانشاء الدولة العربية الكبرى ظاهرة لشعور العرب بقوميتهم الجديدة من جهة ، كما كانت عاملا فى دعم هذه القومية من جهة أخرى • ولقد ولدت القومية العربية عملاقة من أول الأمر بفضل الاسلام وقوة تمكنه من النفوس • فلا شك أن الاسلام كان كان عاملا هاما فى بناء الأمة العربية وخلق روح قوية بينها وهى القومية• فعندما خرج العرب للفتح خرجوا كأمة عربية ، تحارب أقواما من الفرس والروم • قد سبق أن قلنا فى الفصل الأول أن العرب وقد خرجوا للفتح كانوا يشعرون شعورا قويا برابطة الدم العربى الذى كان يربطهم بأهل البلاد المفتوحة التى كان يحتلها الروم والفرس ، وضربنا حينئذ أكثر من مثال لمناقشات دارت بين القواد العرب المسلمين وبين سكان تلك البلاد فى العراق والشام ، وكان محور المناقشة أنهم عرب على السواء وما ينبغى للعربى أن يحارب العربى ، وكانت المناقشة تنتهى بالتسليم وانضمام أهل تلك البلاد العرب المسيحيين الى الجيش العربى المسلم المحارب للفرس أو الروم • ومن هذا نرى أن الفتوح العربية كانت ظاهرة شعور العرب بقوميتهم ، وأن العروبة كانت من عواملها ، وأن هذه العروبة لم تكن مقصورة على الجيش العربى المتماسك ، بل كانت أيضا رباطا بين الجيش العربى وسكان البلاد التى كان يحتلها الفرس والروم ، واذا كانت القومية هى احساس الناس بالروابط المشتركة ، فلا شك أن الاسلام كان من أهم العوامل المشتركة بين العرب •

ثم ان هذه الفتوح كانت أيضا من عوامل تقوية العروبة وقوميتها ، اذ أن مشاركة القبائل العربية المتعددة فى هذه الفتوح ، وخضوعها لقيادة الخليفة العليا ، وخضوعها لقيادة الجيش التى لم تكن مستمدة من انتماء قائد الجيش الى قبيلة معينة وانما من كونه عربيا فقط ، كل هذا أوجد بين العرب روح الجماعة

---

(١) راجع « المعجم المفهرس للقرآن الكريم » ، محمد عبد الباقى ابراهيم • تحت لفظ : « عرب » و « عربى »

وحقق تماسكهم حول هدف مشترك وأشعرهم بوحدة المصير فى حالتى النصر أو الهزيمة • ولهذا كانت الفتوح من عوامل دعم القومية العربية •

وإذا كان الهدف من الفتوح هو نشر الاسلام ، والدافع كان اسلاميا ، فان مفهوم القومية العربية حينئذ كان قائما على العروبة • لأن الاسلام كان دينا عربيا ، ولأن نشر الاسلام كان هدفا عربيا ، ولأن العرب أنفسهم اعتزوا بالاسلام واحتموا به ، ومع ذلك فقد كانت هناك أسباب أخرى للفتوح كالسبب الاقتصادى ، والسبب السياسى وهو الرغبة فى جمع شتات الأمة العربية وتوحيد الوطن العربى واستخلاصه من أيدى المعتدين الفرس والروم • ومن هنا يظهر تشعب الأهداف العربية المشتركة وأنه لا يجمع بينها الا المصلحة العربية والمصير العربى ولهذا قلنا أن مفهوم القومية العربية فى هذا الطور الأول من تاريخها كان قائما على العروبة •

واستمرت العروبة تكون مفهوم القومية العربية أى تكون ببساطة التماسك العربى وتذكى الروح العربية ، طول التاريخ العربى الطويل أى الى أن سيطر العثمانيون على العرب وعلى وطنهم • ولقد أخطأ كثير من المؤرخين ، وأخطأ كثير من القراء فى فهم المؤرخين ، عند ما ذهبوا الى أن الدولة العباسية لم تكن عربية كما كانت الدولة الأموية ، لأن بعض خلفائها اعتمد على الفرس وبعضهم الآخر اعتمد على الأتراك ، والصواب أن الدولة العباسية لم تكن تقل عروبة عن الدولة الأموية ، وذلك لأن منزلة الفرس أو الأتراك بالغة ما بلغت فى الدولة العباسية ، فانها لم تغير طبيعة الدولة ، فلم يكن الفرس والترك الا جنودا مرتزقة يؤجرون خدماتهم للخليفة العربى ، وللدولة العربية ، التى دينها الاسلام ، ولسانها العربية ، وكانت خدمتهم للدولة وسيلة الى تعريب كثير منهم لا الى عجمة الدولة أو تتريكها • ولم يكن للفرس أو الأتراك دولة حينئذ ، ومن ثم فهم خدموا الدولة كأفراد وكرعايا ، لا كدولة تبسط نفوذها على دولة •

ولقد كانت روح العروبة مسيطرة الى آخر ذلك العهد أى الى بداية العصر العثمانى • فحتى عندما انقسمت الدولة الى خلافتين ؛ خلافة عباسية فى المشرق ، وخلافة فاطمية فى المغرب ، وتنافست الخلافتان ، لم يكن سند كل منهما الا اصالتها فى العروبة • فهذه من نسل فاطمة بنت النبى ، وتلك من نسل

العباس عم النبى . فالعروبة كانت معيار الأحقية فى الحكم . وعندما سيطر القواد الأتراك على الدولة العباسية ، واستأثروا دون الخلفية بالسلطة ، لم يدع أحد هؤلاء القواد أن الدولة تركية ، أو أنه يستطيع أن يحكم الدولة لأنه مسلم ، بل كان لا بد من أن يوجد الخليفة العربى ولو رمزا للسلطة الشرعية التى تتفق وطبيعة الدولة العربية . ومن هنا نستطيع أن تتبين أن مفهوم القومية العربية ظل قائما على العروبة . وحتى عندما سقطت الخلافة العباسية فى بغداد فى سنة ١٢٥٨ م ، كان من وسائل السلاطين المماليك فى مصر لتدعيم مركزهم الشرعى فى الحكم أن أحضروا أحد أفراد البيت العباسى وأقاموه خليفة عباسيا بالقاهرة ، وأخذوا منه تفويضا بالحكم . ولم يكن ذلك الا لشعورهم بأن الدولة عربية وأن صاحب الحق فى الحكم يجب أن يكون عربيا . وحتى هذا الخليفة العباسى الرمزى فى القاهرة ، كان مصدر السلطة فى كل مكان فى الوطن العربى ، بل وفى كل مكان فيه مسلمون كالهند ، فكان السلاطين والأمراء يحصلون منه على تفويض بحكم ما تحت سلطانهم من البلاد . وفى ذلك دليل على أن هؤلاء السلاطين والحكام كانوا يشعرون بأن الدولة عربية الصفة وأن الاسلام الذى يدينون به دين عربى يجب أن تكون حكومته عربية ، أو على الأقل يجب أن يكون مصدر السلطة فيه عربيا .

وفى هذا الدور من تاريخ القومية حدث التحدى الصليبى . ولم يكن هذا التحدى الا استعمارا لدوافع اقتصادية . وحقيقة تلك الحروب أنها لم تكن بين مسيحيين ومسلمين ، وانما بين معتدين غازين طامعين وبين مواطنين يدافعون عن وطنهم بين افرنج وعرب . وكان الشعور بالعروبة وبالوطن العربى فيها واضحا تمام الوضوح ، وكان الاسلام فيها داخلا فى مفهوم العروبة كعنصر منها وهدف من أهدافها . وهذا أبو المظفر الأبيوردى عند ما أراد أن يستحث الهمم فى قتال الصليبيين يقول :

أرى أمتى لا يشرعون الى العدى رماحهم ، والدين واهى الدعائم
ويجتنبون النار خوفا من الردى ولا يحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الأعاريب بالأذى ويغضى على ذل كماة الأعاجم ؟

فهو هنا يشير فى أول بيت الى أمته ، والأمة مفهوم قومى فى المرتبة الأولى ، وهى الأمة العربية ، وفى البيت الثالث يبكت ويستنكر فيبدأ بالعرب أصحاب الدولة ، ثم يثنى بكماة الأعاجم وهم الجنود المرتزقة من الترك ، وهم آلة من آلات العرب فى القتال • فمضمون القومية عند هذا الشاعر الذى يعبر من غير شك عن أحاسيس قومه ويحاول أن يدخل الى التأثير فيهم من أحاسيسهم ، هو قائم على العروبة أولا •

ثم عند ما يريد أن يستنفر القوم الى ساحة الوغى يصف الغارة التى يطالب بها بأنها عربية من نوع الدولة فيقول :

دعوناكم ، والحرب ترنو ملحة   الينا بألحاظ النسور القشاعم
تراقب فينا غارة عربية   تطيل عليها الروم عض الأياهم

ومهما كان من أمر الأصول غير العربية لبعض أبطال الحرب ضد الصليبيين والمغول كصلاح الدين الأيوبى الكردى والظاهر بيبرس وخليل بن قلاوون وهما تركيان — ان صح نسب هؤلاء المماليك — ، فقد كان الجميع يحكمون الدولة العربية ، وكان معنى الدولة ماثلا فى أذهانهم جميعا ، ولم يكن اسلامهم ينسيهم أن الدولة عربية ولم تبلغ اللغة الديوانية الرسمية من الرقى بقدر ما بلغته أيام هؤلاء الحكام من غير العرب • ولقد كان كتاب الديوان حينئذ من أمثال عماد الدين الأصفهانى ، والقاضى الفاضل ، والبهاء زهير ، وأبو العباس القلقشندى هم أدباء العصر ، ولم ينسوا أن أصحاب الحق فى حكم الدولة هم العرب • ولذلك بادر الظاهر بيبرس الى استدعاء أحد أمراء العباسيين بعد سقوط بغداد (١٢٥٨ م) ونصبه خليفة عربيا على الدولة العربية ، ولما وصل بيبرس مع الأمير الى القلعة سار بيبرس وراء الأمير ، وأبى أن يجلس معه على كرسى أو مرتبة — كما يقول المقريزى — وجمع بيبرس العلماء والقضاة ليبحثوا صحة نسب الأمير الى العباسيين فلما أقروا ذلك بايعه بيبرس خليفة للمسلمين ولقبه « المستنصر بالله » ، ثم بايعته الأمة • وهذا ما يدل على أن المضمون القومى للدولة كان عربيا ، والا لاستغنى الأمر عن الخليفة طالما أن بيبرس كان مسلما ، وانما يمتاز الخليفة عنه بالعروبة وهى أساس الدولة • ولم يكن أهل ذلك الزمان من العرب ينظرون الى هؤلاء الأتراك الا نظرتهم الى سلاح من أسلحة العروبة •

انظر الى قول شهاب الدين محمود فى السلطان خليل بن قلاوون ومماليكه عندما فتح عكا آخر معاقل الصليبيين فى الشام (١٢٩١ م) :

الحمــــد لله زالت دولــة الصــــلب   وعز بالترك دين المصــطفى العربى

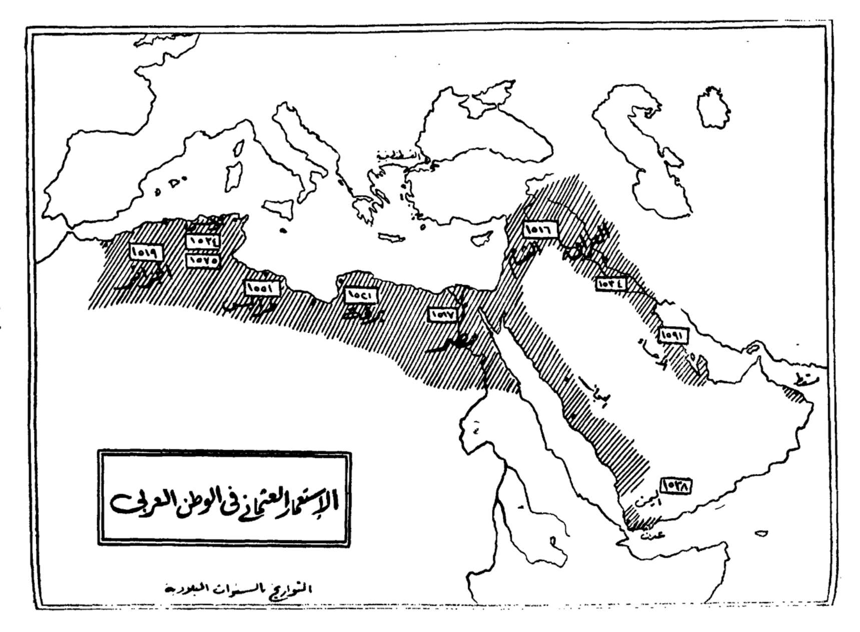
فالترك هنا وسيلة عزت بها دولة النبى العربى ، وعز بعزها الاسلام .

وظلت العروبة هى مضمون القومية العربية وأساسها عند الأمة وعند حكامها حتى من غير العرب . فكانت اللغة العربية هى اللغة الرسمية للدولة ، وظل رمز السلطة الشرعية فيها عربيا يتمثل فى الخلفاء العباســيين الذين ظلت سلسلتهم متصلة فى مصر أكثر من قرنين من الزمان حتى بدأ الاستعمار العثمانى فى أوائل القرن السادس عشر . فالعروبة والاسلام كانا شيئا واحدا ولم يحدث أن اختار العرب بينهما كأساس لقوميتهم الا فى المرحلة التالية .

المرحلة الثانية ـ الجامعة الاسلامية كمضمون للقومية العربية :

فى القرن الســادس عشر ســقط الوطن العــربى جزءا وراء جــزء فى يد الأتراك العثمانيين . فتح العثمانيون الشام سنة ١٥١٦ م ، ثم فتحوا مصر فى سنة ١٥١٧ م . ثم توالى سقوط أجزاء الوطن العربى فى قبضتهم اما عنوة واما صلحا . فشريف مكة ما كاد يســمع بدخول السلطان ســليم مصر حتى استسلم للغفلة وأرسل ابنه الى القاهرة يحمل الى سليم مفاتيح الكعبة . ثم استولى العثمانيون على العراق عنوة فى سنة ١٥٣٤ م . وفى نفس العام بدأوا يستولون على ليبيــا ثم تونس والجزائر . وفى سنة ١٥٥١م استولوا على اليمن . ولم يأت آخر القرن السادس عشر الا وكان الوطن العربى كله فى قبضة الاستعمار العثمانى ما عدا المغرب ، فقد كان القطر العربى الوحيد الذى نجا من همجيتهم .

وكان الاستعمار العثمــانى حقيقيــا فيه كل خصــائص الاســتعمار ؛ فهم استولوا على الوطن العربى عنوة بقوة السلاح . وهم ســيطروا على الحكم فقسموا هذا الوطن الى ولايات أو باشويات كثيرة بلغ عددها خمس عشرة ولاية. وجعلوا فى كل ولاية نائبا تركيا عن السلطان كان مطلق التصرف فى ولايته ، وبجانبه جيش احتلال . وهم أقروا الاقطاع فى الوطن العربى وملكوا الأرض لأمراء من الأتراك ، أو من العصبيات المحلية العميلة الموالية لهم كالممــاليك فى مصر ، والقراصنة فى المغرب الافريقى ، والأمراء المعنيين والشهابيين فى الشام . وهم فرضوا الجزية على هذه الولايات واستغلوا اقتصادياتها أسوأ استغلال .


الإستعمار العثماني في الوطن العربي
التواريخ بالسنوات الميلادية
١٥١٩
١٥٢٤
١٥٧٥
١٥٥١
١٥٦١
١٥١٧
١٥١٦
١٥٣٤
١٥٩١
١٥٣٨
الجزائر
طرابلس
برقة
مصر
الشام
الحجاز
الأحساء
اليمن
عدن

ولقد تغير مفهوم القومية العربية تحت الحكم العثمانى ، فتنازل العــرب عن عروبتهم حين استكانوا الى أن يكونوا جزءا من دولة اســلامية كبيرة هى الدولة العثمانية ، وأصبح أساس شعورهم بأنفسهم هو الشعور بأنهم جزء من الشعب الاسلامى الكبير ، وليس لهم كيان مستقل كأمة عربية متميزة •

ولقد كان هناك عدد من العوامل ساعدت على تغير مفهــوم القومية عند العرب ، فقد استولى العثمانيون على الوطن العربى بعد أن كان العرب قد أعياهم طول النضال ضد الصليبيين ، وضد المغول ، وضد البرتغاليين فى الشرق وضد الأسبان فى المغرب • وكانت مواردهم المالية قد اضمحلت بعد تحول التجــارة الى طريق رأس الرجاء الصالح • وكانوا نتيجة لهذا كله قد قبلوا أن يحكم وطنهم ناس ليسوا عربا كالسلاجقة والمماليك •

وفى ذلك الوقت وفى وسط هذه المحن تقدم العثمانيون لاحتــلال الوطن العربى • وادعوا أنهم انما يعملون هذا دفاعا عن الاسلام والسنة ضد الشــيعة الايرانيين فى الشرق ، وضد البرتغاليين والأسبان النصارى فى المغــرب • ولمــا استقر لهم حكم العرب ، أخذوا يعملون على اخضــاعهم باسم الدين • فادعى السلطان العثمانى أن الخليفة العباسى فى القاهرة قد تنازل له عن الخلافة ، وأنه أصبح أمير المؤمنين وخليفة المسلمين ، وأن الخروج عليه خروج على الســـلطة الدينية للخليفة • كما أخذ سلاطين العثمانيين يوهمون العرب أن حكمهم أصبح ضرورة والا وقع العرب فى أيدى الدول الاستعمارية الأوربية التى استولت على الشرق كلـــه •

وأمام هذا الضغط الدســتورى باسم الخــلافة ، والضغط الفقهى باسم السلطة الشرعية ، والضغط الفكرى باسم الدفاع عن الاسلام ، والضغط المادى باسم التعاون الاسلامى ضد الأوربيين ، كان العرب متخلفين فكريا وماديا ، فخيل اليهم الوهم أن الوازع الدينى يدفعهم الى الولاء للخليفة العثمانى ، وأن الخروج عليه فيه اضعاف للدين وضياع للدولة الاسلامية ، وتشجيع للمطامع الاستعمارية الأوربية على السطو على بلاد العرب والمسلمين •

وأساس الخطأ كله من جانب العرب كان فى أنهم خلطوا ، لتأخرهم الفكرى والمعنوى حينئذ ، بين أشياء لا علاقة لكل منها بالأخرى • فقد خلطوا بين العروبة وبين الاسلام مع أنهما شىء واحد • وخلطوا بين الاسلام وبين الخلافة • وخلطوا بين الخلافة وبين السلطنة ، وخلطوا بين السلطنة وبين السلطان • فتوهموا أنهم أصبحوا من رعايا السلطان العثمانى لأنه خليفة المسلمين وأن ولاءهم يجب أن ينعقد للخليفة لأنه رمز للاسلام ولا اسلام بلا خلافة وبلا خليفة • وساقهم هذا الوهم الى أنهم جزء من الدولة العثمانية ، وبذلك تحول مفهوم قوميتهم العربية عندهم الى شىء آخر كلية هو الجامعة الاسلامية • وكلها أوهام تردى فيها العرب بعامل الغفلة والجهـل •

وذهب الاستعمار العثمانى فى التآمر على العروبة الى أبعـد مدى فعملت الدولة على عزل العرب عزلا تاما عن التيارات الفكرية والعلميـة والسياسيـة والاقتصادية التى كانت تجتاح أوربا فى ذلك الوقت • ففى الوقت الذى استولى فيه العثمانيون على الوطن العربى فى أوائل القرن السادس عشر ، كانت النهضة الأوربية قد ازدهرت ، وحركة احياء العلوم قد بدأت • وظهرت الطريقة العلمية التجريبية ، وتقدمت علوم الطبيعة والكيميـاء والطب والهندسـة ، وبدأت الاختراعات ، وظهرت النظم الحكومية الحديثة • وتكونت الجيـوش بالأسلحة النارية ، وانتشرت الحريات ، وبرزت فكرة القومية ، وارتفعت الصـناعات ، وارتفع مستوى المعيشة وزادت الرفاهية • كل هذا كان جاريا فى أوربا على حين بقى العالم العربى يرزح تحت حكم الأتراك ، أعنى تحت جهلهم وتعصبهم وظلمهم ، وبقى العرب بمعزل عن تلك التيارات الحضـارية التقدمية ، فازدادوا تخلفـا وانتشرت الخرافة بينهم ، حتى الدين الاسلامى اتخذ بتأثير الرجعيـة التركيـة شكل الانغماس فى الطرق الصوفية واقامة حلقات الذكر ، وقـراءة الأدعيـة والأوراد • وحتى اللغة العربية طردت من دواوين الحكومة بعد أن أصـبحت اللغة التركية هى اللغة الرسمية ، وتدهور الأسـلوب العربى الى مقـاطع من السجع السخيف تصاغ فى معان مبتذلة ليس فيها حقيقة ولا خيال •

وكما كان تخلف الثقافة العربية نتيجـة للحكم العثمانى ، فقد كان هـذا التخلف الثقافى العربى سببا أيضا فى تدهور روح العروبة واضعاف القـومية العربية ، فما تنهض قومية وثقافتها متخلفة •

ومع ذلك فقد احتفظ العرب طوال الحكم العثمانى الذى دام نحو أربعة قرون ، بالمقومات الأساسية للمفهوم العربى لقوميتهم • ويرجع الفضل فى ذلك الى قوة الثقافة العربية التى ترتكز على اللغة العربية ، لغة القرآن الكريم • فناضلت تلك الثقافة وبقيت بالرغم من تدهورها ، وبقى للعرب بعض المعاهد التى أبقت ذبالة الدين واللغة والفكر العربى مضاءة بالرغم من الضعف الواضح • فكان فى القاهرة الجامع الأزهر ، وفى فاس جامع القرويين ، وفى تونس جامع الزيتونة ، وفى دمشق الجامع الأموى • وهكذا بقيت العروبة تناضل تيار العجمة القوى ، لتظهر فى المستقبل جارف تيارها ، قوى دفعها ، معبرلسانها ، حتى يستوى المفهوم العربى للقومية العربية من جديد •

وبالرغم من أن مفهوم القومية العربية عند العرب قد أصبح فى هذا الدور العثمانى هو الجامعة الاسلامية وهو الخلافة ، الا أن فساد الدولة العثمانية وتدهور نظامها الداخلى وضعفها أمام جاراتها ، قد شجع بعض حكام الوطن العربى أو بعض ولاته على الطموح الى الاستقلال عن الدولة • ومن أمثلة ذلك محاولة الأمير فخر الدين المعنى الكبير فى لبنان ، فقد وحد كلمة أمراء لبنان ، وضم معظم مدن الشام واستعان ببعض الدول الأوربية ، وحاول الانفصال عن الدولة العثمانية ولكنه انهزم أمامها فى سنة ١٦٢٣ •

وفى نفس الوقت تقريبا (١٦٣٥) طرد عرب اليمن العثمانيين من بلادهم واستقلوا ، واستطاعوا الاحتفاظ بهذا الاستقلال الى أن تمكن العثمانيون من العودة الى اليمن (١٨٧٢) •

وفى ليبيا استقل أحمد باشا القرمانى عن الحكم العثمانى (١٧٤٥ م) وظلت أسرته تتعاقب على حكم ليبيا الى أن استعادها العثمانيون (١٨٣٥) • وانتقلت عدوى الانفصال الى تونس والجزائر فاستقلت بهما الأسرة الحسينية والأسرة الحفصية •

وفى مصر حاول على بك الكبير أن يستقل عن الدولة العثمانية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، فطرد الوالى العثمانى وتعقب الحامية العثمانية حتى بلاد الشام واستولى عليها • ولكن السلطان استطاع أن يقضى على هذه الحركة بواسطة خيانة بعض قواد على بك •

وفى العراق رفض سليمان باشا أن يرسل الأموال الى الآستانة واستقل بالحكم ، وأتى بعده باشوات استطاعوا أن يواصلوا الانفصال عن الدولة العثمانية حتى استطاعت الدولة أن تعيد العراق الى التبعية العثمانية .

وفى الجزيرة العربية قامت الحركة الوهابية واستغل محمد بن سعود (١٧٤٤) وابنه عبد العزيز بن سعود (١٧٦٥ — ١٨٠٣) وسعود بن عبد العزيز (١٨٠٣ — ١٨٠٤) الفرصة واستقلوا بالجزيرة عن الحكم العثمانى .

وأخيرا كان حركة محمد على باشا فى مصر عندما خلع طاعة السلطان وانقض الجيش المصرى على بلاد الشام فطرد العثمانيين ووحد القطرين .

نقول بالرغم من اختلاط مفهوم القومية العربية بفكرة الوحدة الاسلامية ، الا أن الأقطار العربية حاولت الانفصال عن الدولة العثمانية ، ولكن كل هذه الحركات فشلت فى النهاية لأن معظمها قام به حكام كانوا طامعين فى الحكم ، ولم تنبع من صميم الشعب العربى الذى سيطر عليه الحكام الأجانب تبعا للسياسة العثمانية ، واطمأن لفكرة الرابطة الاسلامية حتى حلت فى تفكيره محل فكرة العروبة أو على الأقل أصبحت موازية لها متعادلة معها .

على أن المفهوم الاسلامى للقومية العربية يأتيه مدد قوى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر بظهور حركة الجامعة الاسلامية . والسبب فى ظهور هذه الحركة كان الضغط الاستعمارى الغربى . ويخبرنا التاريخ أن الدول الاستعمارية الغربية بدأت تقتسم الأقطار الافريقية والأسيوية منذ بداية القرن ، ومعنى هذا وقوع الأقطار الاسلامية فى قبضة الاستعمار الغربى من الجنوب العربى (١٨٣٩) الى الجزائر (١٨٣٠) ، الى تونس (١٨٨١) الى مصر والسودان (١٨٨٢) . ولم تشذ الأقطار الاسلامية غير العربية عن هذا الحكم ، فالقوقاز والامارات الاسلامية فى وسط آسيا وقعت فى قبضة روسيا ، والهند وقعت فى قبضة بريطانيا ، وأندونيسيا وقعت فى قبضة هولنده . وهكذا أحدق الخطر بالأمم الاسلامية من كل جانب .

وقد أدى هذا الى ظهور فكرة الجامعة الاسلامية التى ترمى الى وجوب تكتل المسلمين فى جميع بقاع الكرة الأرضية ، وجمع أشتات العالم الاسلامى

فى كل مكان تحت زعامة واحدة مهما كانت جنسيتها لدفع خطر الاستعمار الغربى عن العالم الاسلامى وعن الأمم الاسلامية •

وكان جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ — ١٨٩٧) أقوى المتحدثين عن فكرة الجامعة الاسلامية وأفصح المنادين بها والمدافعين عنها ، وقد عرفت فيما سبق أهم أفكار هذا المصلح الكبير • ويكفى هنا أن نقول انه كان يدعو الى أمرين أساسيين : أخذ المسلمين بالمدنية الحديثة التى تقوم على العلوم والقوة المادية ، ثم اتحاد المسلمين ضد الاستعمار الغربى • وفى ذلك يقول جمال الدين :

« ان من أدرنة الى بيشاور دولا اسلامية متصلة الأراضى متحدة العقيدة ، يجمعهم القرآن ، لا ينقص عددهم عن خمسين مليونا (فى أيامه وحسب تقديره) ، وهم ممتازون بين أجيال الناس بالشجاعة والبسالة • أليس لهم أن يتفقوا على الذب والاقدام كما اتفق سائر الأمم ؟ ولو اتفقوا فليس لذلك ببدع منهم ، فالاتفاق من أصول دينهم • أليس لكل واحد أن ينظر الى أخيه بما حكم الله فى قوله « انما المؤمنون أخوة » ، فيقيمون بالوحدة سدا يحول عنهم السيول المتدفقة عليهم من جميع الجوانب » •

وتلقف السلطان عبد الحميد (١٨٧٦ — ١٩٠٩) هذه الفكرة ، وتزعم حركتها ، وحاول استغلالها كوسيلة لتخليص الدولة العثمانية مما ألم بها من أخطار داخلية وخارجية فى ذلك الوقت • ففى الداخل كانت حركات الانفصال فى الوطن العربى ، وحركات الاصلاح الدستورى فى تركيا نفسها ضد استبداد عبد الحميد • وفى الخارج كانت روسيا تهدد الدولة بالحرب ، وتحرض عليها ولاياتها فى البلقان ، كما كانت الدول الغربية متفقة على تحرير الامارات الأوربية من الاستعمار التركى ، بل وتقسيم أملاك السلطان فى غير أوربا •

ووجد السلطان عبد الحميد أنه اذ يتبنى فكرة الجامعة الاسلامية يضرب عصفورين بهذا الحجر الواحد ، فيسكت العرب عن الاستعمار العثمانى ويخضعون طواعية لحكمه تحت ضغط الخطر الذى يتهدد الاسلام ، ويتكتل العالم الاسلامى وراء تركيا ، فتخاف الدول الأوربية بعض الشىء • ومن ثم أخذ يستصرخ الأمم الاسلامية فى كل رجأ من أرجاء العالم للالتفاف حول الخلافة والذود عن الاسلام فى شخصها • وأخذ يرسل دعاته الى الأقطار الاسلامية التى

وقعت تحت الاحتلال الأوربى كمصر والسودان ، والمغرب ، والهند ، وأفغانستان والملايو ، وغيرها من البلاد الاسلامية ، مبشرين أهلهـا بالنجاة من الاستعمار الغربى على يد الخلافة العثمانية •

ولكى يثبت أن العروبة ستجد موضعها فى داخل الاطار الاسلامى العام ، أخذ يقرب اليه بعض الشخصيات الاسلامية كالسيد جمال الدين الأفغانى حينا من هذا الدهر ، وشيخ الاسلام أبو الهدى الصيادى الحلبى ، وولى منصب الصدارة العظمى بدار الخلافة خير الدين باشا العربى التونسى (١٨٧٨) ، ورصد الأموال لاصلاح الحرمين الشريفين ، وكون لنفسه حرسا من العرب ألبسهم العمائم الخضراء ، وعين بعض الضباط العرب فى الجيش العثمانى مثل محمد باشا ومحيى الدين باشا ولدى عبد القادر الجزائرى • وانخدع كثير من زعماء العرب فى دعوته حتى لقد كتب مصطفى كامل الزعيم المصرى يقول :

« اننا نحب الدولة العثمانية لأننا قبل كل شىء نريد أن نرى أمة شرقية قوية تصدر منها الأنوار الى كل أمة شرقية ، ولأننا بصفتنا مسلمين نرى أنها تحمى المسلمين فى الشرق وتحفظ البلاد الطاهرة المقدسة • فمملكة الخلافة الاسلامية ، هى فى الحقيقة مملكتنا ، وقبلتنا التى اليها نلجأ ونحوها نتجه » •

وهكذا غلبت الفكرة الاسلامية على فكرة العروبة حتى عند العرب أنفسهم تحت ضغط التهديد الاستعمارى ، وهكذا نجح السلطان عبد الحميد — الى حين — فى أن يستغل الدين الاسلامى لتثبيت ملكه ، ومساندة استبداده ، وتأييد فساد دولته وفساده ، وتغطية الوجه الاستعمارى الحقيقى للحكم التركى فى الوطن العربى • كل ذلك بحجة أنه خليفة المسلمين ، وخادم الحرمين ، وحامى حمى الدين ، وما كان خليفة الا للفساد ، ولا خادما الا لشهواته • وما كان حاميا الا لنوع من الاستعمار •

ولقد بقى العرب على هذه الفكرة الاسلامية حتى بعدما اتضحت سياسة عبد الحميد الرجعية ، وقامت جماعة الاتحاد والترقى تعمل على اسقاطه والتخلص من استبداده ، فقد انضم الى الحركة الاتحادية ضد عبد الحميد كثير من العرب ، الضباط وغير الضباط ، ولكنهم انضموا اليها كمسلمين وكرعايا عثمانيين لا كعرب متميزين بقوميتهم • وأسهم العرب مع الأتراك فى اسقاط عبد

الحميد فى سنة ١٩٠٩ ، وكان سقوطه آخر مراحل الخلط بين القومية العربيـة وبين فكرة الجامعة الاسـلامية •

المرحلة الثالثة ــ العودة الى المفهوم العربى للقومية العربية :

اقتنع العرب فى أثناء الاستعمار العثمانى أن فيه بعض المزايا التى تعوضـهم بعض التعويض عن مساوئه • فقد كانت الدولة مرهوبة الجانب تخشاها الدول العظمى ، حتى لقد أبعدت رهبة السلطان عن الوطن العربى حينا من الدهر شبح الاستعمار الأوربى ، فى وقت امتد فيه هذا الاستعمار حتى شمل أقطارا كثيرة من آسيا ، والأمريكتين ، ومن ذلك الهند وجزر المحيطين ، وما يسمى الآن كندا والولايات المتحـدة •

على أن هذه القوة قد استحالت الى ضعف فى أواخر القرن الثـامن عشر فضاعت على العرب المزية الوحيدة التى كانت لتبعيتهم للدولة العثمانية • وكانت الامتيازات الاجتماعية والاقتصـادية التى منحها السـلاطين لرعايا الدول الاستعمارية فى تركيا قد انسحبت على البلاد العربية بحكم التبعية للدولة ، فعظم شأن الأجانب وزادت وطأة الاستغلال الاقتصـادى والاجتمـاعى من جانب الأوربيين ، وأصـبح الاستعمار استعمارين والاستغلال استغلالين والمصـيبة على العرب مصيبتين •

ثم انقض الاسـتعمار الأوربى ابتداء من أواخر القرن الثامن عشر عـلى الوطن العربى وأخذ يقتطعه من الدولة العثمانية جزءا وراء جزء •

ومن هنا بدأ العرب ينتبهون ويعملون على الانفصال عن الدولة العثمانية . ويفرقون بين وجودهم كعرب لهم وطنهم وقوميتهم ، ووجـودهم كمسلمين • وعندما تولى السلطان عبـد الحميـد كان العرش العثمانى يترنح من الضربات التى تلاحقت عليه من الاستعمار الأوربى فى الخارج ، وحركات القومية العربية فى الداخل • وكان التياران موجودين جنبا الى جنب : تيار المفهوم الاسـلامى للقومية العربية ، وتيار القومية العربية بمفهومها القائم على العروبة ، وكان وجود هذا التيار الأخير من أهم الأسباب التى جعلته يلجأ الى فكرة الجامعة الاسلامية والى سياسة استرضاء العرب •

وبعد خلع عبد الحميد فى سنة ١٩٠٩ يتخذ المفهوم العربى للقومية العربية طريقه الذى يستمر منذ ذلك الوقت الى الآن متدرجا فى القـوة حتى يبلغ غاية نضجه بثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ ٠

وكانت مقدمات هـذا الدور معاصرة للدور السابق ٠ وكانت سـوريا هى مهد الحركة القومية العربية بمفهومها العربى ٠ وقد ظهر فيها هـذا الاتجاه من سنة ١٨٥٧ حين تأسست الجمعية العلمية السورية ٠ وقد اتخذت الدعوة للقومية العربية (متميزة فيها عن الفكرة الاسلامية العامة أو الفكرة العثمانية) شكلا أدبيا، وكان من أصدق المعبرين عنها ابراهيم اليازجى عضو تلك الجمعية ٠ وقد ألقى فى أول اجتماع للجمعية قصيدة طويلة حرض فيها العرب على الثورة على الدولة العثمانية ، ودعاهم الى القومية العربية المتميزة ٠

وفى هذه القصيدة يقول :

تنبهوا واسـتفيقوا أيها العـرب — فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب
فيم التعـلل بالآمـال تخـدعكم — وأنتم بين راحـات الفنـا سلب
ألستم من سطوا فى الأرض وافتتحوا — شرقا وغربا وعزوا أينما ذهبـوا
فيالقومى وما قـومى سـوى عرب — ولـن يضـيع فيهم ذلك النسب

ثم يلتفت الى الأتراك ويقول :

صـبرا أيا أمـة الترك التى ظلمت — دهـرا فعما قليـل ترفـع الحجب
لنطلبن بحـد السـيف مأربنـا — فلن يخيب لنـا فى جنبـه أرب

ثم يلتفت الى العرب ويقول لهم :

فأسـمعونى صليل البيض بارقة — يدوى به كل قاع حـين يصطخب
واسمعونى صـدى البارود منطلقا — فلن يخيب لنـا فى جنبـه أرب

وكان المفهوم العربى للقوميـة العربية من الموضوعات المحببـة الى نفس ابراهيم اليازجى ، فنظم قصائد كثيرة فى هذا المعنى ٠ ومن ذلك قصـيدته التى يقـول فيها :

دع مجلس الغيـد الأوانس — وهـوى لواحظهـا النـواعس

ليس النعيـــم لمـــن يبيــت على بســاط الذل جــالس

ويتغنى فيها بالأمم التى سبقت العرب الى الثورة على الأتراك فيقول :

فخذوا لأنفســكم مثــا ل أولئــك القــوم المـداعس
بعصــائب أنفــوا فجــا دوا بالنفــوس وبالنفــائس
هبت طــلائعهم يليهــا كل صــنديد ممــارس
تركــوا جمــوع التــرك يعصــف فوقهــا النكب الروامس
ملأوا البطــاح بهم فــدا س عــلى الجمــاجم كل دائس

ثم يقــول للعرب :

أو لستم العــرب الــكرا م ومن هم الشــم المعــاطس
فاســتوقدوا لقتــالهم نــارا تــروع كــل قــابس
وعليــهم اتحــدوا فكلكم لكلــكم مجــانس

الى هذا الحد بلغ عنف الحركة الأدبية والشعور بالعروبة قبل عبد الحميد. وانتقلت الحركة من الأدب الى العمــل السياسى عندما قامت جمعيــة سرية فى بيروت اتخذ نشاطها شكل لصق المنشورات السياسية فى الشــوارع منددة بمساوىء الحكم التركى ، ثم أصبح لها برنامج سياسى عبرت عنــه فى منشور أصدرته فى سنة ١٨٨٠ وفيه تطالب بما يأتى :

١ ــ منح الاستقلال لسوريا ولبنان متحدتين .

٢ ــ الاعتراف بالعربية لغة رسمية للبلاد .

٣ ــ الغاء الرقابة وكافة القيود التى تحول دون حرية الرأى .

على أن هــذه الطلائع للحركة العربية لم تكن تبلغ مبلغ النضج الــكامل والوعى العربى الناضج . فقد كانت كلها ترمى الى الحــكم اللامركــزى مــع الاعتراف بسيادة تركيا الاسمية ، كما أنها لم تتجاوز القــادة وأولى الرأى الى عامة العــرب .

ونرى الاتجاه العربى قويا بعد خلع السلطان عبد الحميد ، وكانت غطرسة

الأتراك وتعصبهم واستعلاؤهم وخيانتهم هي الحافز الأول للعرب على اتحاد ذلك الاتجاه العربي الصميم . ذلك أن الأمر ما كاد يؤول الى جماعة الاتحاد والترقي بعد نجاحهم في القضاء على السلطان عبد الحميد ، حتى نبذوا فكرة الجامعة الاسلامية ، وعادوا الى فكرة الاستعمار التركي . فالأتراك هم الحكام والعرب هم المحكومون ، ومن ثم وجب أن يستبعدوا عن أماكن الحكم . وعملوا على تتريك العرب تحقيقا للتماسك العثماني ، اذ كان انتزاع العرب من جلودهم وصبغهم بالثقافة التركية هو الطريق الى ذلك ، لا استرضاؤهم بتعريب بعض مظاهر الدولة أو بعض الوظائف .

وتحقيقا لهذه السياسة عملوا على استبعاد الكلمات العربية وغيرها من اللغة التركية ، وأحلوا محلها ألفاظا من اللغات الأروبية ، ونشروا مقالات وبحوث تثبت فضل الأتراك على الدين والأدب والثقافة . وطردوا العرب من الوظائف الكبرى التي شغلوها في أيام عبد الحميد ، بل اتجهوا نحو فرض اللغة التركيه وعجمتها على العرب ، وأكدوا ما كان موجودا من أن اللغة التركية هي لغة الدولة ولغة التعليم ، حتى لقد كان النحو العربي يعلم باللغة التركية في مدارس الشام . ولقد احتج أحد الكتاب الأتراك حينئذ على أن العرب لم يأخذوا باللغة التركية الى الحد الذي ينسيهم لغتهم العربية قال :

« ان العرب ما يزالون يتحدثون بلغتهم ، ويجهلون اللغة التركية جهلا تاما كأنهم ليسوا تحت الحكم التركي . ومن واجب الدولة أن تنسيهم لغتهم وتجبرهم على تعلم لغة الأمة التي تحكمهم . واذا لم ينس العرب لغتهم وتاريخهم وعاداتهم ، عملوا عاجلا أو آجلا على استرجاع مجدهم ، وتشييد دولة عربية على أنقاض الدولة التركية » .

هذا في الوقت الذي كانت الأمم غير العربية كالصرب والبلغار واليونان تستخدم لغتها القومية في تعليم أبنائها بحكم ما كان لها من امتيازات .

وحيث لم يتمكن الأتراك أنفسهم من استغلال العرب ، منحوا حتى استغلالهم للدول الأوربية الاستعمارية . فمنحت الدولة امتياز الملاحة النهرية في الرافدين لشركة انجليزية . ولما اعترض نواب العراق وأبدوا استعدادهم لتكوين شركة عربية تأخذ هذا الامتياز ، لم تعبأ الحكومة التركية بهذا الاعتراض ومنحت الامتياز للشركة الانجليزية .

كان رد العرب على هذه السياسة الاستعمارية من جانب الأتراك أنهم عادوا الى الشعور بعروبتهم وميزوا بينها وبين الخلافة وبين الدولة الحاكمة ، وأخذوا يعبرون عن القوميــة العربية خالصة من كل شــائبة ، بارزة فى اطــار العروبة وحدها . ونادوا بالاستقلال عن الدولة التركية . وقاد هذه المعركة من الناحيــة الفكرية بعض الكتاب كعبد الرحمن الــكواكبى (١٨٥٤ ـــ ١٩٠٢) فأخذ يميز فى كتاباته بين الشعوب العربية أيا كان دينها ، وبين الشــعوب الاســلامية غــير العربية . ولفت النظر الى عراقة العرب فى الاسلام وفى الثقافة وفى الحكم . وعلى ذلك ذهب الى أنه اذا كان ولا بد من تكتل المسلمين ضــد الاستعمار الأوربى فلا بد أيضا أن تكون الزعامة فى هــذا التكتل للعرب وحدهم . وقال أن علاج التخلف الواضــح فى المسلمين حينئذ هــو فى القيادة العربية ، « لأن الكفاءة فى ازالة الفتور موجودة فى العرب خاصة » . ومعنى هذا أنه نادى بعودة الدولة العربية الأولى وسيادة العنصر العربى .

وهكذا كان الكواكبى رائدا فى حركة اقرار المفهوم العربى للقومية العربيــة وتخليص هذه القومية من القيود والعوائق التى اصطنعها الأتراك والمفــكرون من غير العرب كجمال الــدين الأفغانى . وكان الكواكبى من أوائل من صوروا الشخصية العربية المستقلة ، والقــومية العربية المتميزة التى تتسع لجميع الأديان وجميع المذاهب ، ودعــا الى نبذ الخلافات المذهبية حماية للتضــامن القــومى والتماســك العربى .

وظهــرت أفــكار الكواكبى وغيره من رواد العروبة جلية صــحيحة وجيهة أمام اجراءات حــركة التتريك . وظهرت الجمعيات العربية التى نسجت سياستها من خيوط العروبة النقية . ومن ذلك جمعية اللامركزية الادارية التى تأســست فى القاهرة فى أواخر سنة ١٩١١ ، وانتشرت فروعها فى أنحاء الشام ، وكان هدفها الاستقلال الذاتى عن تركيا حتى يستطيع العرب أن يحققوا عروبتهم .

وأسست الجمعية القحطانية أو جمعية العهد كما سميت فيما بعــد . وكان برنامجها تكوين دولة عربية واحــدة ذات برلمان خاص وادارة مستقلة ، تضم كل أجزاء الوطن العربى ، وتكون لغتها الرسمية هى العربية . ثم تتحد هــذه الدولة مع الدولة العثمانية تحقيقا للتعاون والتماسا للقوة . وتزعم هذه الجمعية عزيز المصرى الضابط العربى المصرى بالجيش التركى حينئذ .

وانتقلت الدعوة العربية الى أوربا ، فأسس الطلبة العرب فى باريس — وكانوا من المسلمين والمسيحيين على السواء — جمعية العربية الفتاة ، وعقدوا مؤتمرا فى دار الجمعية الجغرافية بباريس ، حضره ممثلون للأقطار العربية . واتخذ المؤتمر عدة قرارات أهمها الاستقلال الذاتى للولايات العربية واشتراك العرب فى الادارة المركزية فى دار الخلافة ، واعتبار اللغة العربية لغة رسمية فى البلاد العربية . ثم نقلت هذه الجمعية مركزها الرئيسى الى بيروت فى سنة ١٩١٣ ، وعدلت برنامجها فأصبح استقلال البلاد العربية عن تركيا استقلالا تاما ، والتحرر من سيطرة الاستعمار الغربى . وفى سنة ١٩١٥ اتحدت جمعية العربية الفتاة ببيروت مع جمعية العهد بدمشق واخذتا تعدان للثورة العربية ضد الحكم التركى .

هكذا اتضح المفهوم العربى الصريح للقومية العربية من جديد وانجابت الغشاوة عن أعين العرب — تلك الغشاوة التى جعلتهم يخلطون بين الأشياء — بين العروبة وبين الخلافة ، وبين الخلافة وبين السلطان العثمانى .

وأصبحت القومية العربية بهذا المفهوم تشمل العرب وحدهم ، لا فرق بين مسلم ومسيحى . وأصبح مفهوم القومية يتخطى حواجز العقائد ، وانصهر الجميع فى لهب الحماسة للعروبة . ولم يكن المسيحيون أقل حماسة فى هذه الفلسفة الجديدة من المسلمين ، فقد كان اضطهاد الأتراك منصبا عليهم كما كان منصبا على المسلمين . وقد عرفنا من قبل أن الثقافة العربية هى قسمة بين أصحاب جميع الأديان من العرب . ولقد تأثر المسيحيون باضطهاد الأتراك للغة العربية أكثر من المسلمين ، فقد أقصوا عن وظائف الدولة باقصاء اللغة العربية عن دواوين الحكومة واحلال التركية محلها .

وقد عبر المؤتمر العربى الذى عقد فى باريس سنة ١٩١٣ عن هذا المعنى خير تعبير ، فقد جاء فى بيان أحد أعضائه المسيحيين العرب قوله :

« اذا كانت النعرة الجنسية فضيلة أصلية فى النفس فلست أعرف أمة أشد تأثرا بعواملها من الأمة العربية . لما قدم أبو عبيدة الجراح وخالد بن الوليد بجيوش العرب المسلمين الى الشام ، وجدوا على أبوابها الغسانيين وهم عرب نصارى ، يتقدمهم ملكهم المسيحى جبلة بن الأيهم . وبدلا من قتال المسلمين والوقوف فى وجههم ، عطفوا عليهم عطفة الأخ ، فتركوا الجامعة الدينية والرابطة

السياسية اللتين كانتا تقضيان عليهم بموالاة الروم ، وخطبوا ود الناطقين بلسانهم من بنى أمتهم العرب ، فمهدوا لهم السبيل ، وفتحوا الطرق ، ومكنوهم من فتح البلاد . أن فيما أبداه نصارى غسان من العصبية العربية فى هذا الشأن الخطير لأعظم شاهد على أن العرب متحمسون بالجنس قبل الدين ، وهى فضيلة الشعوب الحية ، فضيلة الشعوب التى لا تريد أن تموت » .

واستجابة لهذا المفهوم العربى للقومية العربية ، تحالف العرب مع الدول الاستعمارية ضد الدولة العثمانية فى ابان الحرب العالمية الأولى ، وهذا يتضح من محادثات الشريف حسين مع مكماهون المندوب السامى البريطانى فى مصر (١٩١٥ — ١٩١٦) .

كما يتضح من اتصال الجمعيات العربية الوطنية فى بلاد الشام بجورج بيكو قنصل فرنسا فى بيروت ، ومن اتصال حزب اللامركزية بكتشنر المعتمد البريطانى بالقاهرة .

على أن هذا الاتجاه العربى الصميم للقومية العربية قد أصابته بعض المعوقات فى هذا الدور . وقد أتت هذه المعوقات من جانب الاستعمار الغربى . فقد زالت السيادة التركية من الوطن العربى نهائيا فى غضون الحرب العالمية الأولى بهزيمة تركيا ، ووقوع ما كان باقيا تحت حكمها من أقطار الوطن العربى فى قبضة الاستعمار الغربى باسم الانتداب .

وكانت القومية العربية أخطر القوى التى كانت تخشاها الدول الاستعمارية ولذلك كانت سياستها موجهة من أول الأمر الى تصفية هذه القومية وتوهين أسبابها ، وشغل العرب بما ينسيهم اياها . وهذا هو مفتاح السياسة الاستعمارية فى الوطن العربى بين الحربين العالميتين (١٩١٨ — ١٩٣٩) .

قسم الاستعمار الوطن العربى الى أجزاء منفصلة ، وأقام الحواجز الجمركية الدقيقة بين هذه الأجزاء فقضى على حرية الانتقال وحرية الاتصال بين العرب .

وأثار الاستعمار النعرات المحلية للقضاء على فكرة الوحدة والقومية العربية . فأثار النزعة الفرعونية فى مصر ، والنزعة الفينيقية فى لبنان . وسمى

العرب بأسماء مختلفة فى الأجـزاء المختلفة ؛ فهم عراقيون وسوريون ولبنانيون وفلسطينيون ومصريون وسودانيون • وخلق الجنسيات المتعددة من الجنسيـة العربية الواحدة • بل وعمل الاستعمار أحيانا على اخراج بعض الشعوب العربية عن اطار العروبة ، فعمل على فرنسة الجزائر وادعى أنها جزء من الوطن الفرنسى ، وشجع الجزائريين على اكتساب الجنسية الفرنسية عن طريق التلويح بالامتيازات الاجتماعية والطبقيـة •

وأثار الاسـتعمار روح العـداء الطائفى بين الأديان والمذاهب فى الوطـن العربى فعمل على التفريق بين الدروز والموارنة فى لبنان ، وبين المسلمين والأقباط فى مصر ، وبين الشيعة والسنيين فى العـراق ، وبين الزيدية والسنيـة فى اليمن والمحميات • وسخر الاستعمار علماءه لاثبات بعض القضـايا النعصرية رغـبة فى التفرقة • فالبربر ليسو عربا ولكنهم من الوندال الأوربيين أو من الرومان • واللبنانيون من نسل الصليبيين الافرنج • واللغـة العربية من أسـباب تخلف العرب ، وسر تقدمهم هو هجر اللغة العربية الفصيحة والأخذ باللهجات العامية • وجعلها لغة رسمية ولغة أدب وتعليم •

وعمل الاستعمار على تعـدد النظم السياسية والحكومية والاقتصـادية ، وتعدد القوانين فى الأقطار العربية • فسوريا ولبنان تتبعان النظام الجمهورى ، والعراق ومصر والأردن تتبع النظام الملكى ، وفلسطين فتحت لهجرة الصهيونيين واتخذت الخطوات لجعلها وطنا قوميا لهم •

وسخر الاستعمار التعليم لاضعاف الثقافة العربية • فحيث سـاد الاسـتعمار الانجليزى أبعـد العرب عن تيار الفكر الحديث وحصروا فى دائرة الثقافة التركية الضيقة ، وحيث ساد الاستعمار الفرنسى ضـعفت اللغة العربية ، وأصبحت اللغة الفرنسية هى لغة التعليم ونسى العـرب لغتهم ، وحيث ساد الاستعمار الايطالى كما فى ليبيا فرضت اللغة الايطالية والثقافة الايطالية •

وأوجـد الاستعمار الأحزاب السياسية فبث بذلك بذور الفرقة والتناحـر فى داخل الشـعوب العربية ؛ وزاد من حـدة النزاع الداخلى بايجاد طبقـة من المستغلين فى الميـدان الاقتصادى ممـا خلق مع الزمن مجتمعـا طبقيا يسوده الصراع الطبقى •

كما خلق الاستعمار أسرا ذات أطماع فى الحكم وألهاها بعروش وهمية . وبذلك أوجد مصالح أسرية وعصبيات سببت نوعا من التفكك فى وحدة العرب وشجعت النزعات العصبية والتنافس المحلى .

وانشغل كل شعب عربى فوق هذا كله بصراعه مع القوة الاستعمارية التى فرضت سيطرتها عليه ، فانشغل المصريون بمقاومة الاحتلال البريطانى ، وانشغل العراقيون بالنضال مع الانتداب البريطانى ، وانشغل الفلسطينيون بالنضال ضد الصهيونية والاحتلال الانجليزى ، وانشغل السوريون واللبنانيون بمقاومة الاحتلال الفرنسى ، وانشغل أهل المغرب بمقاومة فرنسا وايطاليا ، وبذلك تفككت الوحدة العربية ، وانشغل العرب عن حركة التكتل العربى وفكرة القومية العربية الى النضال مع الدخلاء بل ومع أنفسهم فى داخل وطنهم .

وهكذا عمل الاستعمار على تفتيت الوطن العربى ماديا الى أجزاء منفصلة ، وعمل على اضعاف الوعى العربى فكريا وعاطفيا ، وأدى ذلك كله الى اضعاف القومية العربية والتباعد بين الشعوب العربية ولكن الى حين .

والواقع أنه لا خوف على القومية العربية ما دامت هناك اللغة العربية تربط بين أفكار العرب ، وما دام هناك التاريخ العربى يربط بين وجدانهم وبين مصيرهم ، وما دام هناك الثقافة العربية تربط بين عواطفهم وأمزجتهم وتوحد بين سلوكهم ، وما دام هناك الدم العربى الذى يجرى فى عروق العرب ويصرخ فيهم دائما بنداء العروبة ، ويجذبهم دائما فى اتجاه واحد .

حقيقة خفت تيار القومية العربية بفعل الاستعمار بعد الحرب العالمية الأولى ، ولكن كل هذه العوامل استطاعت أن تتلمس من الظروف التى حدثت أيضا بحكم حتمية التاريخ واتجاه الحضارة الانسانية ، فرصا لاحياء فكرة القومية العربية والمحافظة عليها . بل لقد اتخذت هذه العوامل العربية الصميمة من المعوقات التى نصبها الاستعمار فى طريق القومية العربية أسبابا للابقاء عليها واذكاء ضرامها .

فتقدم وسائل المواصلات من سيارات وطائرات ، وتقدم وسائل الاتصال الفكرى كالطباعة والصحافة والراديو ، أدت الى مزيد من التجارب بين العرب .

والمحنــة المشتركة بالاســتعمار ، والقتــال ضـــده كان من عوامل التقارب بين العرب أيضــا وابراز مصالحهم المشــتركة وأهدافهم الواحــدة ومصــيرهم الواحـــد ٠

والخطر الصهيونى الذى يتهددهم جميعــا أبرز أهمية القومية العربية كعامل مضــاد للصـــهيونية ٠

وتقدم مناهج التعليم ووســائله وتعميمه فى جميع البلاد العربية فى الفترة ما بين الحربين كان لها أثر بالغ فى شحذ الشعور العربى من غير شك ٠

وكانت نتيجة هذه العوامل أن أعاد الى العرب شعورهم بأهميــة القوميــة العربية ووجوب احيائهــا وتقويتها والاعتماد عليها أمام ما يتهددهم من الأخطار الاستعمارية والصهيونية ٠ واقتنعت كل دولة عربية بأن سياسة الاهتمام بمشاكلها الخاصة لا تجـدى ، وأنها فى نضالها من أجل مصالحها لا تســتغنى عن معاونة الشعوب العربية الأخرى ولا عن ضغط الرأى العام العربى ، وأنها أقوى بشقيقاتها العربيات منها بنفسها مهما بلغت من قــوة ٠

وعلى أساس هذه المفاهيم بدأت القومية العربية تبرز ابتــداء من العقــد الرابع من القرن العشرين ، وبدأت تحــدث أثرها فى التقــارب بين الشــعوب العربيـــة ٠

واتخذ التقارب أولا شــكل تصفية الخلافات التى كانت موجودة بين الدول العربية كمصر والســعودية ، أو بين الأسرات الحاكمــة كالأسرتين الســعودية والهاشــمية ، ثم تحولت الى معاهدات صداقة وتعاون ٠

ففى سنة ١٩٣٤ عقدت معاهدة الطائف التى أنهت العــدوان بين السعودية واليمن ، ونص فيهــا على تنميــة وحدة الأمة العربيــة وتحقيق التعــاون بين الطـــرفين ٠

وفى سنة ١٩٣٦ عقدت معاهدة أخاء وتحالف بين العــراق والســعودية ، نص فيهــا على تبادل البعثات الثقافية والعسكرية ، وبذلك وضع حد للعــداء الموروث بين الأسرة الهاشمية والأسرة السعودية ، وفى سنة ١٩٣٧ انضمت اليمن الى تلك المعاهدة ، ونص على أن تكون المعاهدة مفتوحة لمن يريد أن ينضم اليها من الدول العربيـــة الأخــرى ٠

وفى مايو سنة ١٩٣٦ عقدت المعاهــدة بين مصر والسـعودية ، وفيها سويت الخلافات بين البلدين ، وقد كانت خلافات بين الأسر الحاكمة حينئـذ أيضــا ، اذ كانت جذورها ترجع الى الحرب بين محمد على باشا والوهابيين .

وفى سنة ١٩٣٧ انعقد المؤتمر الفلسطينى العربى العـام فى بلودان وضـم وفودا من جميع الأقطار العربية لتنسـيق الجهـود فى مكافحة الصهيونية . وفى سنة ١٩٣٩ انعقد بلندن مؤتمر المائدة المستديرة لبحث مشــكلة فلسطين وضم ممثلين لكل الدول العربية المسـتقلة .

وحــدث من ناحية أخــرى تقارب بين الشعوب العربية . فانعقد المــؤتمر الطبى العربى سنة ١٩٣٧ ، ثم والى انعقاده سنويا بعد ذلك تقريبا ، كما انعقدت سلسلة أخــرى من المؤتمرات ، مثل مؤتمر المحــامين العرب (١٩٤٤) ومؤتمر المهندسين العــرب (١٩٤٥) .

وفى سنة ١٩٤٥ تكونت جامعة الدول العــربية . فكانت من مظاهر التعاون العربى ، كمــا كانت دليلا على قوة الروح العربية ، وبروز القومية العــربية ، وتعبيرا رسميا عن هــذه القومية . وكان للجــامعة نشاط ملحوظ فى الناحيــة الثقافية من حياة العرب المشتركة ، فعقدت المؤتمرات الثقافية والتعليمية ونشرت المطبوعات ، وأذاعت الحقائق والمعلومات ، وقربت بين الأفــكار ، وكان لــكل هذا أثره البالغ فى انماء روح القومية العربية وشحذ عاطفة العروبة ، فكما كانت الجامعة وليدة شعور بهذه القومية ، فقد كانت من عوامل نهوضها أيضا .

وأتى الاستعمار الصهيونى فى فلسطين فى سنة ١٩٤٨ فى أعقــاب الحــرب العالمية الثانية عاملا جديدا أظهر أهمية التكتل العربى ، وأهمية القومية العربية ، وكانت حــرب فلسطين تأكيدا لهــذا المعنى ، لولا ما اقترنت به من خيانة الملك عبد الله .

وهــكذا تقرر المفهوم العربى للقومية العربية ، وتقرر اتساع القومية العربية لشمول جميع الأديان والمذاهب . وكان لحصول كثير من الأقطار العربيــة على اســتقلالها بــعد الحرب العالمية الثانية أثر كبير فى انتعاش روح القومية العربية وظهــورها كعامل أساسى فى امــكان تحقيق هــذا الاستقلال ، وفى امــكان الاحتفــاظ به .

المرحلة الرابعة ـ التحديد الدقيق لمفهوم القومية العربية بعد ثورة ٢٣ يوليه ١٩٥٢:

وقامت الثورة المصرية الكبرى فى ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ ومفهوم القومية العربية على هذا النحو من الوضوح والبساطة ، والشكلية أيضا • فقد تبلور مفهوم هذه القومية على أنه مرتبط بالعروبة كعامل أساسى ، وعلى أنها أداة ضد الاستعمار ، وقوة يمكن الانتفاع بها فى وصل ما انفصم من الصلات العربية القديمة على يد الأتراك والأوربيين • ومع ذلك فقد كانت شكلية بمعنى أنها لم تتجاوز الى ذلك التاريخ مرحلة اليقظة البدائية والفكرة السطحية والعاطفة العابرة والأمنية التى تومض للخاطر من بعيد فى أذهان العرب كبقايا حلم بدأ الانسان يحس بسابق حدوثه ، وأخذ يجمع خيوطه من براثن النسيان والكبت ، ويحاول تفسيره ، وهو يتأبى على الذاكرة ، وعلى التفسير •

ولبيان ذلك نذكر ما يأتى من أوجه النقص والغموض فى مفهوم القومية العربية كما وصل الى ثورة ١٩٥٢ من الفترة السابقة لها :

١ ـ كانت القومية العربية من أفكار الساسة والزعماء والمفكرين ، ومن أساليبهم ، ولكنها لم تكن فى مجال احساس عامة الشعوب العربية ، ولا واضحة فى أفكارهم • وغاية ما كان عند الشعوب العربية منها هو النظرة العربية الأصيلة التى لم تفارق هذا الشعب أبدا ، ولكنها كانت دائما فى حاجة الى توعية تصعد بها الى مجال الشعور ، وتسمو بها الى حيز التفكير والارادة •

٢ ـ لم يكن للقومية العربية فلسفة اجتماعية ولا مذهب سياسى ، ولا نظرية اقتصادية تميزها كطريقة حياة ، وتربط بينها وبين النشاط القومى الجماعى ، وبين النشاط الفردى فى الأمة العربية • كانت فكرة لم يفلسفها أحد ، ولم تؤصلها فى النفوس عقيدة ، وبقيت منقطعة حتى عن القيم الثقافية العربية الأصيلة ، غارقة فيما وصمها به الاتراك من استبداد واقطاع واستغلال الى آخر هذه النظم والاجراءات التى اذا قيست بالقيم العربية الأصيلة كانت متناقضة مع مفهوم العروبة ذاته •

٣ ـ كانت أهداف القومية العربية تكاد تكون مقصودة على الميدان الخارجى ، فهى موجهة ضد الاستعمار والأعداء الخارجيين ، دون أن تكون متعلقة بالميدان الداخلى المتعلق برفع مستوى معيشة الشعوب العربية فى داخل

حدودهم . وبعبارة أخرى ، كانت القومية العـربية سلبية تحاول أن تمنع أشياء أكثر منها ايجابية تحـاول أن تحقق أشـياء فى حياة الشعوب ، ومن ثم قل فيها الجانب الانسانى الذى هو من أهم خصائص العروبة .

٤ ــ كانت القومية العـربية مجرد وسيلة ، ولم تـكن غاية فى حـد ذاتها ولا هدفا يسعى اليه لمجرد تحقيق الشـخصية العربية وفرضها على العالم وعلى الحياة المعاصرة . ولذلك اقتصر أمرها على الجانب السـياسى ، فكانت تظهر فى البرامج السياسية ، فاذا كان من مقتضيات السياسة اخفاءها أو معارضتها فلا بأس من ذلك فما القومية العربية هدف فى حد ذاتها .

فمثلا برزت القومية العـربية فى معركـة فلسطين سنة ١٩٤٨ وتكلم بها كل انســان ، ثم لما لاح المغنم للملك عبد الله نكص على عقبيه وتقهقر . والقوميـة بالنسبة للأمة هى كالشخصية بالنسبة للفرد وكالعقيدة بالنسبة للعقل . والانسان لا ينظر الى شخصيته أو عقيدته كوسـيلة لشىء ، وانما ينظر اليها كشىء مهم فى ذاته يعمل على تحقيقها مستقلة عن جانب المنفعة . والقـومية العربية يجب أن تكون كيانا يحافظ عليه حتى ولو لم يـكن هناك تحديات من الخـارج تتطلب العناد ، وحتى ولو لم يكن هناك منافع فى الـداخل تحسب بالدرهم والدينـار

٥ ــ كانت القـومية العربية محلية ينـادى بها العرب فى داخل وطنهـم ، دون أن يكون لها دور على الصـعيد العالمى ــ دور ولو شبه قيادى . وعهـدنا بالقومية العربية قـوة عالمية تكون من الصنج الثقيلة فى التوازن العالمى ، ومن العـوامل التى يعمل حسابها فى رسم السياسات الدولية . كانت كذلك يوم كان الخليفة يقول الكلمة فى دمشق فيسـمع صداها فى أركان العالم الأربعة ، ويوم أرسل شارلمان يخطب ود هارون الرشيد ، ويوم كانت كباش صلاح الدين تضرب أسوار عـكاء فيرتج لها الكرسى البابـوى فى روما وعرش رتشـارد فى لندن وتتـأرجح سفن البنـدقية فى بحـر الأدرياتيك ، ويوم ترددت أوربا كلهـا فى الانقضاض على السـلطان عبد الحميد لأن وراءه الأمة العـربية . ولكى أقرب لك المعنى أقول أنهـا لم تـكن حين تسـلمتها ثورة ١٩٥٢ ما هى عليه الآن ، يقول جمال عبد النـاصر الكلمة فى القاهـرة فترهف لهـا أسماع العواصم ، وينكفىء عليها كبار السـاسة بالتحليل والتخـريج واسـتنباط المغزى القريب والبعيـد .

ونحن لا نقول هذا استصغارا لشأن دور من أدوار التطور ، فلكل مرحلة من مراحل التاريخ حدودها وأعذارها ومستواها الذى لا يقاس الا بمعاييره هو . وما ينبغى أن نقيس أعمال اليافع الا بمعايير طبيعته الفعلية لا بما يكمن فى مستقبله من قوة . ولكنا قلناه لنعرف ما كان على ثورة ١٩٥٢ أن تواجهه فى ميدان القومية العربية ، وما كان عليها أن تحققه ، ثم لنحدد أبعاد الصورة المثالية للقومية العربية كما ستخرج من يد هذه الثورة .

ومن أول الأمر كانت نظرة ثورة ١٩٥٢ نظرة شاملة تخطت حدود المكان وفواصل الزمان . هل هى ثورة مصرية وكفى ؟ وهل منبتها هو لحاء التاريخ من العقد السادس أو الخامس من هذا القرن ؟ وهل هى طفرة فى المخلوقات ، أو أنها تطور ؟ وهل هى بداية شىء ، أو أنها حلقة يجب أن تلتمس بقية السلسلة لتوثيق صلتها بأصولها ؟ وهل هى حاضر ومستقبل أو أنها ماض وحاضر ومستقبل ؟

وفى الاجابة عن هذه الأسئلة يقول صانع الثورة جمال عبد الناصر :

« لم يعد مفر أمام كل بلد من أن يدير البصر حوله خارج حدود بلاده ليعلم من أين تجيئه التيارات التى تؤثر فيه ، وكيف يمكن أن يعيش مع غيره » .

« ولم يعد مفر أمام كل دولة من أن تدير البصر حولها تبحث عن وضعها وظروفها فى المكان ، وترى ماذا تستطيع أن تفعل فيه ، وما هو مجالها الحيوى ، وميدان نشاطها ودورها الايجابى فى هذا العالم المضطرب » .

« وأستعرض ظروفنا فأخرج بمجموعة من الدوائر لا مفر لنا من أن يدور عليها نشاطنا . وما من شك فى أن الدائرة العربية هى أهم الدوائر وأوثقها ارتباطا بنا ، فلقد امتزجت معنا بالتاريخ ، وعانينا معها نفس المحن ، وعشنا نفس الأزمات ، وحين وقعنا تحت سنابك الغزاة كانوا معنا تحت السنابك . . . » .

وأهمية هذا الكلام أنه ورد فى كتاب « فلسفة الثورة » وهو أول وثيقة من وثائق الثورة . وهو يدل على أن ما حققته الثورة فى مجال القومية العربية لم يكن عشوائيا ، ولا تحت ضغط الظروف ، ولا نتيجة عفوية لتطور الحوادث ، ولكنه كان سياسة مرسومة مقدرة من أول يوم من أيام الثورة .

ويجلجل صوت القومية العربية منبعثا من أعماق التاريخ ، فى مقدمة الدستور المصرى لسنة ١٩٥٦ ليقول :

« نحن الشـعب المصرى : »

« الذى يشـعر بوجوده متفـاعلا فى الكيـان العربى الكبـير ، ويقـدر مسـئولياته والتزاماته حيال النضـال العربى المشترك لعـزة الأمـة العربيـة ومجـــدها » .

وينبعث نفس الصوت فى المادة الأولى من هذا الدستور ليقول :

« مصر دولة عربية مسـتقلة ذات سيادة . . . والشعب المصرى جـزء من الأمة العربيـــة » .

فالقومية العربية هنا فى فلسفة الثورة غاية فى حـد ذاتهـا ، لأنها حقيقـة لا يمكن تجاهلها ، وجذور لا يمكن فصل شجرتنا عنها . وظاهر من النصـوص السابقة أن الثورة ميزت هذه الجذور لتسقيها لا لتستمد منها ، ولتقوم بواجبها فى الذود عنها ومواصـلة الكفاح من أجل سلامتها ، لا لتستخدمها لغـرض من أغراضها . ان الشعب المصرى جـزء من الأمة العربية لأنه يقـدر مسـئولياته والتزاماته حيال النضـال العربى المشترك لعزة الأمة العربية ومجدها ــ كمـا جاءت فى مقدمة الدسـتور .

هـذا هو الماضى الذى بدأت الثورة به لتوصل القومية العربيـة كحقيقـة يجب احياؤها . ثم بحثت مقتضيات الحاضر ، فوجدت من حقائقه ما يأتى :

١ ــ انقسام العالم الى كتلتين أو معسكرين ، المعسكر الشرقى الذى تتزعمـه روسـيا ويدعى الشعبية والعدالة الاجتماعيـة وانصاف الشعوب ومقاومة الاستعمار ، والمعسكر الغربى الذى تتزعمه أمريكا ويدعى الحرية وحماية الديموقراطية . والحقيقة وراء الادعاءين هى أن كلا منهمـا يريد القضاء على الآخر ليبسط نفوذه على العالم منفردا غير منازع .

٢ ــ الاستعمار ، وهو وان كانت أظفـاره قد قلمت بعد الحرب العالمية الثانيـة الا أنه ما زال يتحفـز دائما لمعركة جـديدة ، وما زال يعد نفسـه للظهور بأسماء جديدة وأساليب جديدة .

٣ ــ الصهيونية ، وقد احتلت مكانا فى الوطن العربى ، ولها ادعاءات توسعية ، وأطماع استعمارية ، وهى تقف ومن ورائها الاستعمار الغربى .

٤ ــ الأسلحة الذرية التى يملــكها كل من المعسكرين الكبيرين ويحتــكرها ، وأمامها تتضاءل كل قوة ويصغر كل سلاح .

٥ ــ التقدم العلمى والصناعى ، وهو خلاصة المدنية الانســانية فى كل العصور ، ومصــدر للقــوة المادية لا يبــارى ، ومن وســائل الاستعمار والتكتل ، واخضاع الشــعوب للسيطرة والنفوذ .

وخلاصة الموقف أن دولة من الدول لا تســتطيع أن تقف بمفــردها ، لأن مواردها البشرية والمــادية بالغــة ما بلغت لن تكفى لتمكينها من أن تواجه موارد أى من الكتلتين العالميتين ، فالموقف كان يقتضى أن يكون هناك تكتــل ، وأن تواجه الدولة هذا العالم المنقسم لا عودا منفردا ، ولكن عودا فى حزمة متــكاملة متماســكة .

والانضمام الى احدى الكتلتين فيــه الفنــاء والدمار ، لأن فيه الســيطرة الأجنبية ، والوقوع فى دوائر النفوذ ، وفيه ضياع الشخصية القوميــة . ولنــا ماض سىء مع الاستعمار ، فقد كنا منذ أكثر من نصف قرن منضمين الى المعسكر الغربى وكانت النتيجة ما تعلم من تخريب الاستعمار لكياننا القــومى سياســيا وثقافيا واجتماعيا واقتصاديا .

وكان هــذا حال الدول العربيــة جميعا ، آحاد متفرقة ضــعيفة بنفســها ، اعتادت الانضمام الى المعســكر الغربى طائعة مرغمة ، وتخربت بفعل الاســتعمار حياتهــا القوميــة .

وفى ضوء هذه الحقائق ظهرت أهمية القومية العربية ، فالتكتل العربى هــو الطريق الطبيعى للتجارة ، وهو أداة العرب لمواجهة العالم الطامــع كتــلة قــوية تستطيع أن تقف بين الشرق والغرب موقفا محايدا حرا . ثمانون مليونا من البشر أو يزيدون ، تربطهم أصول واحدة ، وثقافة واحــدة ، ومصــالح واحــدة ، وتاريخ واحد ، ويســتهدفون لنفس الخطر . وكان المغزى هو أن العرب لا بد أن يكونوا أقوياء ولا بد أن يكونوا متضامنين ولا بد أن يكونوا متحــدين ، ولا بد أن يفيدوا من ثقافتهم الواحدة . وفى ذلك يقول الرئيس جمــال عبــد الناصر فى كتابه فلســفة الثورة :

« ولا نستطيع أن ننظر الى خريطــة العالم نظرة بلهــاء لا ندرك بهــا مكاننا على هذه الخريطة ودورنا بحكم هذا المكان . أيمكن أن نتجاهل أن هناك دائرة

عربية تحيط بنا ، وأن هذه الدائرة منا ونحن منها ، امتزج تاريخنا بتاريخها ، وارتبطت مصالحنا بمصالحها حقيقة وفعلا » ٠

وهكذا استمر المفهوم العربى للقومية العربية ، فقد نظرت اليها الثورة فى ضوء الخريطة التى يظهر فيها الوطن العربى معروفا بحدوده الواضحة ، وبسكانه الذين يجرى الدم العربى فى عروقهم وان عبدوا الله كل على طريقته ، ذلك الوطن الذى كان مسرحا لهؤلاء الناس ألفوا له ، ولعبوا عليه روايتهم الخالدة فى تاريخ الانسانية ٠ ولكن الثورة المصرية لم تقرر احياء القومية العربية تحت ضغط التهديد الاستعمارى كوسيلة لمناهضته ، كما كانت الحالة فى المرحلة السابقة ، ولكنها قررت رفع راية هذه القومية لأنها حقيقة يجب أن تعيش كحق من حقوقها ، ولأنها اتجاه تاريخى من شأنه أن يحقق نفسه ويستمر ، ولأنها حتمية بحكم التاريخ شئنا أو لم نشأ ٠ ومتى تحقق للقومية العربية الوجود المستقل على هذا النحو ، أمكنها أن تقوم بوظائفها التاريخية التى قامت بها فى كل عصر بحكم وجودها ، يوم مرت على الرومان مرور الاعصار ، ويوم طردت جموع الصليبيين وعصفت بجحافل المغول والتتار ، ويوم أرغمت نابليون بونابرت على أن يشهد ألا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، وعلى أن يلبس الجبة ويأكل الفتة بأصابعه على رصيف الحسين مع الدراويش ، ثم هزأت به على أسوار عكاء وفى حارات القاهرة كما يهزأ بالمنافقين ٠

وهكذا أضافت الثورة الى القومية العربية أساسا من أهم أسسها وهو الحتمية التاريخية ، وأنها تحمل فى نفسها مبررات وجودها بغض النظر عن الحاجة والوظيفة ، وأنها هدف فى ذاتها لا وسيلة تستغل فى موقف من المواقف القومية أو العالمية ثم تنحى جانبا ، كصورة غير ذات مضمون أو كفكرة غير ذات موضوع ، وأنها مذهب فى ضوئه وبمقتضى أصوله تحدد السياسة ، لا سياسة تبرر مقتضياتها ادعاء المبادىء وتأويلها ٠

واذا كانت القومية العربية اتجاها تاريخيا ، وكانت أساسا للسياسات ، فقد وجب أن تكون مستندة الى جماهير الشعب العربى فى جميع أنحاء الوطن العربى ، لا أن تكون كلمة فى أفواه محترفى السياسة أو عبارة فى كتابات المفكرين أو بندا فى اتفاقية بين الحكومات ٠ ففى عصرنا هذا الشعبى ، وتبعا للفكرة الديموقراطية العربية ، يجب أن يكون الشعب هو صاحب الكلمة وواضع أسس

السياسة والحكم والتصرف . فموطن القومية العربيـــة فى نظر الثورة ومبعثها هو الجماهير العربية الزاخرة التى تشعر بالروابط النفســية ، وتحس بوحدة الدم ، وتميز أهدافها المشتركة . وفى ذلك يقول الميثاق الوطنى :

« ان مفهوم الوحدة العربية تجاوز النطاق الذى كان يفرض التقــاء حكام الأمة العربية ليكون من لقائهم صورة للتضامن بين الحكومات » .

« ان مرحلة الثورة الاجتماعيــة تقدمت بهذا المفهوم الســطحى للوحــدة العربية ودفعت به خطوة الى مرحلة أصبحت فيهــا وحدة الهــدف هى صــورة الوحــــدة » .

« ان وحدة الهدف حقيقة قائمــة عند القواعد الشــعبية فى الأمة العربيــة كلهــــا » .

وبذلك اللون الشــعبى الجماهيرى أصبحت القوميــة العربية قوة ديناميكية حيوية فى حياة الأمة العربيــة ، وأصبحت قوة دافعة تدفع هذه الأمة نحو غاياتها الحتميــة من الاســتقلال والقــوة والوحــدة .

واذا كانت القومية العربية عقيدة شــعبية ، فقد وجب أن يكون لها أصولها الفكرية والعقائدية والمذهبية واضحة مفصلة لا لبس فيها ، حتى تصــبح فلســفة قوميــة ومذهبــا واضــح المعــالم لا يسهــل تأويله أو تفســيره أو الترخص فى مبادئه ، أو امكان اخضاعه لطريقة ، يحللونه عاما ويحرمونه عاما . وهــذه . هى خاصــية العقائد القوميــة والمذاهب الاجتماعيــة كلهــا . يجب أن تكون شاملة مفصلة حتى تكون طريقــة حياة متميزة بخصائصها السياسية والاجتماعيــة والاقتصــادية والانسانية . وبذلك تصبح عقيدة تتبناها الشــعوب وتؤمن بها الجمــاهير فيكون وراءها رأى عام يســندها ، ويدفــع عنهــا غائلة الرجعيين والانتهازيين وأصــحاب المصالح الخاصة والعملاء ، الى آخر هذه الطوائف التى يكون من سطحية التفكير أن يدعى مذهب قومى أنه فى مأمن منها .

والى هــذه المذهبية أو الفــكرية تتحول الآن لنعــرف الصــورة المكتملة الناضجة لمفهوم القومية العربيــة كما فلســفتها وطورتها ثورة ســنة ١٩٥٢ ، وقائدها الرئيس البطل جمال عبد الناصر ، رائد هذه الفكرية العربية .

الأسس الفكرية للقومية العربية

عرضنا فيما سبق لآراء كثير من المفكرين العرب فى موضوع القومية العربية وظاهر من العرض السابق أن هؤلاء المفكرين انما كانوا يناضلون ليخلصوا مفهوم هذه القومية مما علق بها من المتناقضات والشبهات التى لصقت بها مع الزمن ، ولقد نجحوا فى ذلك نجاحا كبيرا يوم أن عادوا بها الى فكرة العروبة دما وثقافة ووطنا ومصلحة .

ولكن ما هى العروبة ؟ ان هذا المفهوم فى حاجة الى كثير من التفصيل والتعميق حتى يبلغ أن يكون فلسفة ومذهبا . وكان الأمر فى حاجة الى ثورة يتم هذا التعميق والتفصيل — ثورة قومية ، وثورة فكرية أيضا . ولقد اجتمعت الثورتان فى ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ . فهى ثورة قومية بالمعنى المصرى وبالمعنى العربى معا . وهى ثورة فكرية أيضا لم تكتف بالتصرفات والاجراءات ، ولكنها عنيت بفلسفة تصرفاتها واجراءاتها وكتبت هذه الفلسفة فى عدد من الوثائق ستبقى أبد الدهر من أهم وثائق العروبة والأمة العربية . ومن هذه الكتابات فلسفة الثورة (١٩٥٣) ، ودستور الثورة (١٩٥٦) ، وميثاق قيام الجمهورية العربية المتحدة (١٩٥٨) ، والميثاق الوطنى (مايو ١٩٦٢) وبيان الوحدة الاتحادية (ابريل ١٩٦٣) . ثم عدد لا يحصى من الخطب والتصريحات والأحاديث تكلم بها رائد القومية العربية وزعيم الأمة العربية الرئيس جمال عبد الناصر فى مدى خمس عشرة سنة ، وهو عدد من الوثائق يتزايد مع الزمن ، ثم مقررات عدد كبير من المؤتمرات العربية والعالمية أقرت هذه الفلسفة العربية وتخطت بها المجال الاقليمى العربى فجعلتها فلسفة انسانية عالمية تقف على قدم المساواة مع المذاهب والفكريات العالمية العريقة .

ولقد كان للقومية العربية زعامة وكان لها فيلسوف فى كل طور من أطوارها . ولا بد لكل حركة قومية من زعامة وفيلسوف يعبر عنها ويصورها ويستخلص من اجراءاتها الزمنية فلسفة تبقى للمستقبل على الزمن .

كان للمذهب الاستعمارى جلادستون وماكولى وكبلنج ، وكان للمذهب الرأسمالى جون لوك وآدم سمث ، وكان للمذهب الشيوعى كارل ماركس

ولينين ، وكان للقومية العربية محمــد بن عبــد الله ، وجمــال الدين الأفغانى . وعبد الرحمن الكواكبى ، ومحمد عبده ، ورشيد رضا ، وفريد وجدى ، ومصطفى صـادق الرافعى .

وأخيرا أتى جمــال عبد الناصر فمذهب القوميــة العربيــة ووضــع أصولها الفــكرية وعمق مفهومها وجعلها نظاما متكاملا من الفكر ، وأحالها بكل ما صنع الى عقائدية واضــحة .

واليك أسس هــذه الفكرية العربيــة :

١ — فى المجال الفكرى :

يجب أن تتحــرر الأمة العربيــة فكريا كما أنها يجب أن تتحرر سـياسيا واقتصاديا ، لأن التحرر صفة واحدة لا تتجــزأ . ولا يمكن أن تحتل عقول أمة ثم يعد ذلك تدعى أنهــا تحررت سياسيا . لقد خضــعنا حقبا طويلة للاســتعمار الفكرى ، فوضع فى عقول الأجيال الماضــية منا أفكارا خطرة على كياننــا ، وقد سبقت أمثلة منها كالقول بأننــا أقرب ثقافيــا الى اليــونان والايطــاليين والفرنســيين منا الى العــرب ، وبأن اللغــة العربية هى سر تأخر التعليم والأدب وأن اللهجات العامية خير منها وأنها اللغات القومية للشعوب العربيــة ، بل أن الاســتعمار وضع فى أفكار البعض منا أن الاسلام كان سبب تخلف العــرب لأنه دين لا يؤمن بالتطور ، وأن الاستعمار من ضرورات حياتنــا اذا كنــا نريد أن تتمدن وأن نصبح أمة حديثــة . هذه الأفكار بعض ما وضع الاســتعمار الفكرى فى عقولنا . ويجب مقدما أن تتحرر وأن نخلق لنا ثقافة عربيــة صــميمة نابعة من ظروفنا ومن حاجاتنا ومتولدة من عقولنا وأفكارنا ، وخاضعة لتجاربنا . وفى ذلك يقول الرئيس جمال عبد الناصر للأدباء العــرب :

« اننا فى حاجة الى الوحدة الفكرية لدعم التضــامن العربى ودعم القوميــة العربية ، كما أن التحرر الفكرى ضرورى لنــا فى هذا المجال » .

« أنتم قادة للفــكر ، وعليكم واجب أساسى فى توضيح الأمــور ، وفى اقامة أدب عربى متحــرر مســتقل ، خال من الســيطرة الأجنبية ، والتوجيه الأجنبى ،

وبهذا يمكن أن تعملوا وتساعدوا فى اقامة التضـامن العربى ودعم القوميـة العربية وأهدافها » .

ويقول الميثاق :

« ان الحلول الحقيقية لمشـاكل أى شعب لا يمكن استـيرادها من تجارب شعب غـيره » .

ومع ذلك فمن مصادر أفكارنا وثقافتنا ، دراسة تجارب غيرنا لا لننقلها ولكن لنستفيد بها فى تفكيرنا كمصدر واحد من مصادر المعرفة والثقافة . وكما يقول الرئيس جمال عبد الناصر فى الميثاق :

« نحن مطالبون بأن ندرس تجارب الآخرين حتى نستطيع أن نستفيد منها ، ولكننا لا نستطيع بأى حال من الأحوال أن ننقلهـا » .

وطريقة التفكير العربية يجب أن تقوم على الأسس الآتية :الأول ، واقعنا ومافيه من متناقضات ومشكلات ومواضع للتحسين والتقدم . والثانى ، قيمنا الثقافية العربية الأصـيلة بحيث تأتى الحـلول متمشية مع هـذه القيم مع انطباقها على أصول العلم والخبرة الحديثين . وبذلك تتطور الأمة العربية وتتقـدم دون أن تفقد طابعها العربى الأصيل . وبذلك تتطور ونكون على أحدث طراز دون أن نفقد طابعنا القومى . يقول الرئيس جمال عبد الناصر فى الميثاق :

« على أنه يتعين علينـا أن نذكر دائما أن الطاقات الروحيـة التى تستمدها الشعوب من مثلها العليا النابعـة من أديانها السماوية أو من تراثها الحضـارى قادرة على صنع المعجزات » .

وعلى هـذا الأسـاس طورنا نظـامنا الحكومى على النمط الديمقراطى ، وطورنا نظامنا الاقتصادى على النمط الاشتراكى ، دون أن تتقيد بأى صـورة من صور الديمقراطية والاشتراكية المعروفة فى العالم الحديث ، وانمـا وضعنا نظمنا تبعا لقواعد النظر العلمى فى اطار قيمنا الثقافية العريقة .

والأساس الثالث لنظريتنا الثقافية ، أن من حقنـا بل من واجبنا أن نطـور هذه الثقافة . فليس معنى قولنا أننا نحتفظ بقيمنا الثقافية أننا نبقى ثقافتنا جامدة لا تتطور مع الأيام ، وكما هى كما وصلت الينا عبر القرون . فهذا من غير شك هو عين الحمق الاجتماعى ، وغاية العمى القومى . ولكن معناه أن أسس ثقافتنا

العربية هى أنسب شىء لنـا لأنها مقدسـاتنا التى تميزنا عن غيرنا والتى ثبتت وجاهتها على الدهـور . اما تفاصـيل الثقافة فمرنة ، من حقنا أن نغيرها ونعدلها ونطورها مع الأيام حسب حاجاتنا ، وحسب تطـور العصر وتغـير الظـروف القومية والعالمية والكونية ، وفى ضوء أحدث ما يصل اليـه العقل الانسـانى من العلم . فالاطار العـام للقيم الثقافية مقـدس فى أصوله ، مرن فى فروعـه وتطبيقاته ، متطور متغير تبعا لمقتضيات العملية التاريخية المطردة ؛ ولكن تعديله وتطويره يخرج به عن اطار قيمة العربية الأصـيلة . وهـذا هو الذى قصـدناه بالاستقلال الثقافى . وهـذا هو ما ينطوى عليـه قول الرئيس جمال اننا أمـة عربية لا الى الشرق ولا الى الغرب . والاستقلال الثقافى شىء يتسـع للابتكار والخلق ، والجمود الثقافى شىء آخـر يتضمن الاحتفاظ بأخطاء الماضى وحماقاته بجـانب قيمـه الأصـلية .

والأساس الرابع لحيـاتنا الفكرية ، هو الأخـذ بالعلوم الطبيعية الحديثة وما ترتب عليها من اختراعات وصناعات . وهذا مهم جدا لأنه أسـاس القـوة المادية . فهذا العلم الحديث نأخذه من الغرب ومن الشرق ومن الشـمال ومن الجنوب ، لأنها علوم انسانية ليس لها صاحب ، وان كان لهـا صاحب فنحن من أصحابها . بدأناها جميعا فى فجر تاريخنا يوم اخترعنا عـلم القياس وعلم العد والحساب اختراعا فى سياق محاولتنا ضبط النيل وتوزيع المياه وتقسيم الأرض ، ويوم اخترعنا الكيمياء ونحن نحنط الجثث ، ونحفظ الحبوب ، ونصبغ جدران القصور والمعابد والمقابر . ويوم اخترعنا الطب والتشريح والجـراحة فى سياق مواجهتنا لمشكلة المرض والموت . ويوم مخرت سفننا عبـاب البحرين الأحمـر والأبيض لتجلب الخشب والمر . الى آخر ما اخترعنا وما صنعنا ، وما سطرنا على صفحات البردى وقوالب الطـين . ونحن أنقذنا هذه العلوم يوم جمعنا أشتاتها من أركان الأرض وحميناها من جهل الأوربيين فى العصـور الوسـطى ، ويوم تبنت الدولة حركة الترجمة والتأليف ، ويوم كتب ابن سـينا وابن النفيس كتبهما فى الطب ، ويوم ألف الرازى فى الكيمياء ، ويوم رسم الادريسى خريطة العالم ، ويوم كتب الخوارزمى علم الجبر ، ويوم اخترع ابن الهيثم نظريات الضوء ، الى آخر ما اخترعنا وما كتبنا . ثم أخـذ الغربيون هـذا التراث الضخم ، قديمـه ووسيطه ، وأضافوا اليه مشـكورين مأجـورين فأوصلوه الى ما هو بينهم

اليوم • فهذا كله تراث انسانى لا وطن له ولا صاحب ، لنا فيه نصيب ولكل انسان ، فنحن نأخذه من أى مكان ثقفناه • وعلى أساس هذه العلوم الطبيعية يجب أن تقوم ثقافتنا اليوم ، فى جانبها المادى ، لأنها أساس القدرة على استغلال موارد الطبيعة والقوة المادية •

ولكى يكون لهذه العلوم أثر فى حياتنا القومية ، يجب ألا نكتفى بمجرد العلم بها أو الاضافة الى قوانينها ، بل يجب أن نعنى بالتطبيق وهذا هو ما قصده الميثاق بالعلم من أجل المجتمع اذ يقول :

« ان العلم للمجتمع يجب أن يكون شعار الثورة الثقافية فى هذه المرحلة » •

وهذا لا يتعارض اطلاقا مع البحث عن الحقيقة كهدف فى حد ذاته ، ولعل خير طريقة للتوصل الى الحقائق هو معالجة الواقع ، وتطبيق النظريات والقوانين على مواقفه •

هذه هى أصول الحياة الفكرية فى القومية العربية الحديثة ، وخلاصتها أننا نتمسك بقيمنا العربية الأصيلة دون رجعية ، ونستفيد من خبرات غيرنا ولكن فى ضوء حاجاتنا وواقعنا بلا تهور ، ونؤمن بفلسفة التطور والتغير والتقدم لأن الجمود هو صنو الموت ، ونؤمن بالله ونحترم القيم الروحية ولكننا أيضا نؤمن بالذكاء الانسانى وحرية ارادة الانسان وقدرته على تطوير نفسه وتحسين بيئته ورفع مستوى معيشته ، وأن مسئولية هذا كله تقع على كاهله هو لأن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة •

ولذلك قال الميثاق الوطنى ان غاية التربية هى خلق الانسان الذى يستطيع تطوير الحياة والمجتمع •

٢ — فى المجال السياسى :

وفى مجال سياسة المجتمع ، هناك صورة اجتماعية واضحة المعالم أصبحت الآن من خصائص القومية العربية ومن مستلزماتها • وقد عبر عن فلسفتنا الاجتماعية الرئيس جمال عبد الناصر بقوله : « انه مجتمع اشتراكى ديمقراطى تعاونى متحرر من الاستغلال السياسى ، والاستغلال الاقتصادى ، والاستغلال الاجتماعى » •

ولما كانت صور الاشتراكية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية كثيرة ، فقد كان أسلم الطرق لتحديد الصور التى تناسبنا أن نرجع الى قيمنا الثقافية

العربية الأصيلة ونضع حلول مشاكلنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى اطار هذه القيم ، وفى ضوء خبرات غيرنا • وقد مر بك فى الفصل الثانى صورة الحياة العربية من حيث هى تقوم على الشورى فى الحكم وعلى المشاركة فى الاقتصاد • وعلى العدالة فى الاجتماع •

فالصورة العربية للحكم هى الصورة الديمقراطية ، ولكنها ديمقراطية عربية غير منقولة عن ديمقراطية شعب آخر من الشرق ولا من الغرب • والصورة العربية الاقتصادية هى الصورة الاشتراكية ، ولكنها اشتراكية عربية منقولة من اشتراكية أحد لا من العمال ولا من الشيوعيين • والصورة العربية للمجتمع هى الصورة التعاونية البريئة من الاستغلال المستمدة من قيمنا العربية الأصيلة •

والفكرة السياسية العربية متكاملة ، فهى لا تنظر الى الحكم مستقلا عن الاقتصاد ولا الى الاجتماع مستقلا عن توزيع الثروة • فهى لا تأخذ بالديموقراطية كنظام حكم وتترك الاقتصاد حرا للاستغلال ليخلق الطبقة الاجتماعية والصراع الاجتماعى ويقضى فى النهاية على الحرية السياسية بسبب ضياع الحريات الاجتماعية نتيجة لفقر الجماهير • فحرية الانسان العربى السياسية هى نتيجة طبيعية لحريته الاجتماعية ، وهذه أثر من آثار استقلاله اقتصاديا •

والديموقراطية العربية تؤمن بقيمة الفرد كانسان ، وتعطيه حرياته كاملة وحقوقه التى هى جزء من ميراثه ومن آدمية أصله ، تلك الحريات والحقوق التى استمدت من الأديان السماوية • وهى فى نفس الوقت تعمل على تحقيق مصالح الجماعة والارتفاع بمستوى الحياة فيها وباستقلالها وسلامتها الى أقصى حد ممكن • فهى ديموقراطية تؤمن بالفرد فى اطار الجماعة ، أو تؤمن بالجماعة الناجحة عن طريق المشاركة والجهد من جانب أفراد أحرار •

وفى هذا الاطار فان الديموقراطية العربية تتخذ صورة فريدة هى أن الشعب هو الذى يمارس سلطات الحكم • ولقد اقتصرت الديموقراطية الغربية على أن الشعب هو مصدر السلطة ، وهذا لا يتضمن بالضرورة أن يمارس السلطة • ووقف الأمر هناك على أن يحكم ناس باسم الشعب عن طريق الانتخاب • وخضع الانتخاب للفروق الاقتصادية الضخمة التى أوجدها النظام

الرأسمالى ؛ فصاحب المال يستطيع دائما أن يشترى أصوات الغالبية الفقيرة بالشراء أو الضغط • واقتصرت الديموقراطية الشيوعية على أن طبقة واحدة هى التى لها حق الحكم وهى طبقة العمال لأنها الطبقة المنتجة من جهة ، ولأنها الطبقة التى ظلمت تحت النظام الرأسمالى من جهة أخرى • وعلى ذلك فهى ديموقراطية تقوم على تحكم طبقة فى طبقة • وحتى العمال لم يمارسوا السلطة عند الشيوعيين وانما قيل انهم غير قادرين على ذلك لما أصابهم من ظلم وتخلف فى الماضى ، ومن ثم يحكم المثقفون باسمهم • أما الديموقراطية العربية فتقوم على ممارسة الشعب ، كل الشعب ، للسلطة •

وفى ذلك يقول الميثاق :

« ان الديمقراطية السياسية لا يمكن أن تتحقق فى ظل سيطرة طبقة من الطبقات • ان الديمقراطية حتى بمعناها الحرفى هى سلطة الشعب ، سلطة مجموع الشعب وسيادته » •

ومعنى هذا أن الديمقراطية العربية لا تؤمن بالأحزاب السياسية ، وانما هى على العكس من ذلك تؤمن بالوحدة الشعبية ، وتجعل الاتحاد والاتفاق والتعاون هو أساس الحياة السياسية ، لا الفرقة والخلاف فلا أحزاب متعددة تتناحر من أجل الحكم وتتلاعب بالجماهير وتتاجر بالمصالح القومية من أجل الوصول الى العزة ، ولا حزب واحد يحتكر الحكم باسم طبقة معينة ويهمل الطبقات الأخرى ويجعلها خاضعة للحزب الواحد • لا حزبية فى الديمقراطية العربية ، وانما جبهة واحدة قومية تجمعها وحدة الهدف ووحدة الصف ، وتعالج الأمور القومية بالشورى وتبادل الرأى والاتفاق النهائى على أساس النزول على رأى الأغلبية • فهناك دائما اتحاد قوى أو جبهة وطنية تشمل كل الشعب على صورة من الصور • وقد اتخذت هذه الصورة فى الجمهورية العربية المتحدة شكل الاتحاد الاشتراكى العربى • ويصفه الرئيس جمال عبد الناصر فيقول :

« ليس الاتحاد الاشتراكى العربى حزبا وانما هو الوطن بأكمله اجتمع داخل اطار واحد يتساوى الجميع على صعيده • وذلك لكى يصنع سلميا تطوره الكبير ويحقق أهداف ثورته التى لا بد من تحقيقها ، هو وسيلة لتتفاعل الأفكار وتلتقى بدل أن تتصادم • وسيلة لصنع أوضاع متكافئة على أنقاض أوضاع اجتماعية

متناقضة ، وسيلة لتجمع الوطن كله ليتحمــل مسـئولياته كلها ، ويواجه الأخطار التى تحيط به • وسيلة ليقف الشعب على قدميــه ويواجه التحدى الذى ألقتــه الظروف أمامه بهذا التقدم العلمى وآثاره الاجتماعيــة فى شـعوب أخرى سبقته فى مدارج الحضــارة » •

فأساس الديمقراطيــة العربية شـعبى جماعى تضــامنى ، وضعت له قوالب تنظيمية تقوم على الاتحــاد الوطنى والتماســك الشعبى • وفى اطار هذا التنظيم تكون القيادة جماعية ، وتتحقق حرية الاجتمــاع وحرية الكلام وحرية النقد • وفى هذا الاطار لا يكون الاجتماع الا علنيا مكشوفا للجميع ، ولا يكون الكلام الا فى المصلحة العامة ، ولا يكون النقد الا للبناء لا للهــدم • وشتان بين هــذا وبين الاجتماعات الحزبية التى تحوط بهــا السرية ، وما يحدث فيهــا من كــلام يبتغى مصلحة الحزب الذى يمثل غالبا طبقــة من أصحاب المصــالح الخاصــة ، وما يمارس من نقــد هدفه هدم الحزب الذى فى الحــكم ، وتسفيه أحــكامه ومشروعاته ولو بالباطل حتى يتمكن حزب آخر من أن يضع يده على مغانم الحكم •

أما الاشــتراكية فهى الصورة الاقتصادية للمجتمع العربى • والاشــتراكية أساسية فى نظامنــا القومى على ثلاثة أسس :

الأســاس الأول : صــلة توزيــع الثروة ومســتوى المعيشــة بالحــكم الديمقراطى • فالاستغلال الاقتصــادى هو الذى أفســد حياتنــا السياسية فى المــاضى ، اذ لا بد من أن يتحكم رأس المــال فى العمل السياسى ويســيطر على أدوات الحكم ، وتضيع بذلك حقــوق الشعب السياسية • وفى ذلك يقول الميثاق الــوطنى :

« ان سيادة الاقطاع المتحالف مع رأس المــال المســتغل على اقتصــاديات الوطن ، كانت لا بد أن تمكن لهما طبيعيا وحتميــا من الســيطرة على العمــل السياسى فيه ، وعلى أشكاله ، وعلى ضمان توجيهها لخدمة التحــالف بينهما على حســاب الجماهير واخضاع هذه الجمــاهير بالخديعــة أو بالارهاب حتى تقبــل أو تســتسلم » •

« ان الديمقراطية على هذا الأساس لم تكن الا ديكتاتورية الرجعية » •

« ان فقدان الحرية الاجتماعية لجمــاهير الشعب سلب كل قيمــة لشــكل الحرية الســياسية التى تفضلت بها عليها الرجعية المتحكمة » •

والمواطن لن يتمتع بحقه كاملا فى حرية التصويت الا اذا توافرت له ضمانات ثلاثة حددها الميثاق الوطنى :

١ — أن يتحرر من الاستغلال فى جميع صوره .

٢ — أن تكون له الفرصة المتكافئة فى نصيب عادل من الثروة الوطنية .

٣ — أن يتخلص من كل قلق يبدد أمن المستقبل فى حياته .

فحرية التصويت فى الانتخابات متصلة بحرية الحصول على رغيف الخبز . ومن هنا كانت الاشتراكية ضرورة .

الأساس الثانى : رفع مستوى المعيشة لا يتحقق الا بزيادة الدخل القومى وعدالة توزيعه بين جميع الأفراد . وهذا لا يمكن أن يحدث فى ظل الاقطاع أو الرأسمالية وهما البديلان عن الاشتراكية اذا اختفت بعدالتها من الميدان الاقتصادى .

وعلى أساس ارتفاع مستوى المعيشة تتحقق كرامة الانسان العربى ويستطيع أن يمارس حرياته وحقوقه .

والأساس الثالث : أن الاشتراكية هى الحل الوحيد لتخليص الأمة العربية من الفقر والتخلف والظلم الاجتماعى وغيرها مما سببته السياسة الاستعمارية واستغلالها الاقتصادى للوطن العربى دهورا طويلة . وهى حل حتمى لأن اتجاه العملية التاريخية هو فى مصلحة العدالة الاجتماعية بحكم العصر ، ولأنه لا توجد وسيلة أخرى لرفع مستوى المعيشة بعد أن أصبحت طريقة الاستعمار واستغلال الشعوب أمرا يأباه ذوق العصر ومثله .

ومفهوم الاشتراكية العربية وجد أدق تعبير عنه فى كلمة للرئيس جمال عبد الناصر قال :

« المفهوم الواضح للاشتراكية هو أنه لا بد وأن يكون الدخل القومى شركة بين المواطنين ، كل بقدر جهده الحقيقى فى تحقيق هذا الدخل القومى » .

« واذا كان مفهوم الحرية السياسية فى تصورها السهل هو أن يكون لكل مواطن حق فى تقرير أمر وطنه طبقا لفكره الخاص ، فان مفهوم الحرية الاجتماعية فى تصورها السهل ، هو أن يكون لكل مواطن حق فى نصيب من

ثروة وطنه طبقا لجهده الخاص • ولكن الفرصة يجب أن تكون متكافئة ، والحق يجب أن يكون مساواة بين الناس » •

والاشتراكية العربية تقوم على كل الأسس العلمية للمذهب الاشتراكى كجماعية ملكية مصادر الثروة ، ووسائل الانتاج ، وعائد العملية الاقتصادية واعتبار الدولة أداة انتاجية فى الميدان الاقتصادى كما هى أداة ضبط وتوجيه وتخطيط ، وأداة رقابة على رأس المال حتى لا يستغل أو ينحرف أو يسيطر على الحكم ، أو يوزع على أسس غير عادلة وغير اجتماعية •

وعلى ذلك صبت كل هذه الأصول العلمية فى قالب قيمنا الثقافية والروحية ، فكانت اشتراكية عربية صميمة • فنحن لم تقتبس الاشتراكية الشيوعية بافتئاتها على حقوق الفرد وحريته وشخصيته وكرامته وافنائه فى المجتمع وتضحية مصالحه كلها على مذبح مصلحة الجماعة فى نظير ضمان حق واحد له هو حق العمل وحق المعيشة على المستوى الذى تقرره له الدولة ، ولم تقتبس اشتراكية الأحزاب العمالية فى البلاد الرأسمالية التى قصرت التطبيق الاشتراكى على مجال ضيق من الصناعات الثقيلة والمهن الهامة كالطب والصيدلة ، ثم تركت ما عدا ذلك للاستغلال الرأسمالى السىء •

وانما انفردت الاشتراكية العربية بالاعتراف بحق الفرد فى الملك وفى الميراث ، والاعتراف برأس المال الخاص على ألا يتضخم الى حد الاستغلال أو ينفرد الى حد الاحتكار ، بل يجب أن يكون رأسمال وطنيا يعمل فى اطار التخطيط العام وبالتعاون مع رأس المال العام • وعلى هذه الأسس لم تصطدم بالقيم الدينية ولم تستند الى النظام البرلمانى الحزبى كما فى الغرب ، ولا على سيطرة طبقة اجتماعية على بقية الطبقات كما فى النظام الشيوعى • وهى لم تجعل المصلحة الشخصية هى المحرك الأول للنشاط الاقتصادى ، ولم تلغ الحافز الشخصى كعامل فى هذا النشاط • بل تركت المجال متسعا أمام كل هذه الدوافع الذاتية ولكن نظمتها وهذبتها بوسيلتين :

الأولى : زيادة الانتاج حتى بلغ حد الكفاية •

والثانية : عدالة التوزيع حتى يحصل كل انسان على نصيبه المتكافىء مع جهده ومع استحقاقه •

أما الجانب الاجتماعى من الأيديولوجية العربية فهو جانب العدالة الاجتماعية التى تتمثل فى تذويب الفوارق بين الطبقات ، وعدم التحكم الطبقى ، وبذلك نخلق مجتمعا متجانسا متماسكا خاليا من الصراع الطبقى .

وكما أن الممارسة هى أساس نظام الحكم العربى ، والمشاركة أساس الاقتصاد العربى ، فان التعاون هو أساس الاجتماع — التعاون بين الأفراد وبين الطبقات فى العملية القومية بجميع جوانبها .

وهذا يستلزم تخليص المجتمع العربى من طوائف من الناس لا تستقيم مع وجودها العدالة الاجتماعية ولا يتحقق التعاون . هذه الطوائف هى طوائف الرجعيين والانتهازيين والاحتكاريين والمستغلين والعملاء وما ينعطف على هذا كله من مخلفات الاستبداد السياسى والحزبية والاستعمار ، مما يمكن أن نسميهم بحق أعداء الشعب . وعندما يختفى هؤلاء جميعا تسلم العلاقات الاجتماعية وتسير فى طريقها الطبيعى ، وهو طريق التعاون أصل من أصوله . ويتحقق العدل فيصل الى كل فرد دون أن يلهث وراءه وسط معوقات الفقر والظلم الاجتماعى . وفى ذلك يقول الميثاق الوطنى :

« ان العدل الذى هو حق مقدس لكل مواطن فرد لا يمكن أن يكون سلعة غالية بعيدة المنال على المواطن . ان العدل لا بد أن يصل الى كل فرد حر ، ولا بد أن يصل اليه من غير موانع مادية أو تعقيدات ادارية » .

وغنى عن البيان أن الرجعية هى التى تخلق الموانع المادية والتعقيدات الادارية لأنها فى صالحها دئما .

وآخر ما نريد أن نقوله فى الأيديولوجية السياسية للقومية العربية أن جوانبها الثلاثة : الديمقراطية والاشتراكية واللاطبقية ، كلها تمثل كلا واحدا ، ونظاما فكريا متكاملا . فممارسة السلطة فى الحكم مرتبطة بنصيب الفرد من الثروة ، وايجابية الفرد وتعاونه فى العملية الاجتماعية لا تتحقق اذا امتلأت نفسه مرارة من الظلم الاجتماعى والتمييز بين الناس على أساس عوامل تغلق أمام الفرد كل الأبواب لا مكان حصوله عليها والانتفاع بها .

٣ — فى المجال العربى القومى :

أما فى المجال العربى القومى فتتلخص الفكرية العربية فى التحرر والوحدة .

أما التحرر فبجميع أنواعه ـ التحـرر الاقتصـادى والتحـرر السـياسى • فالتحرر الاقتصـادى يكون بتحرر الاقتصـاد العربى من استغلال الرأسمالية الاستعمارية التى كانت الدافع الأول لمد الدول الأوربيـة نفوذها عـلى الوطن العربى • فثروات العرب يجب أن تكون للعرب ـ القطن والبترول وزيت الزيتون ، والفوسفات والحديد والمنجنيز ، وكل ما يستنبط من باطن الأرض العربيـة ، أو يستنبت من ترتبتها ، يجب أن يبقى عربيا يمتلكه العـرب ، ويستغله العرب ، ويعود عائده الى العرب • وبذلك يرتفع مسـتوى المعيشـة بين الشعوب العربية ويحققـون القـوة المادية •

أما التحرر السياسى فيكون بتصفية ما تبقى من ذيول الاسـتعمار فى الوطن العربى ـ تصفية الاستعمار الانجليزى فى الجنوب العربى ، والاستعمار التركى فى الاسكندرونة ، والاسـتعمار الصـهيونى فى فلسطين • وتصـفية القـواعد الاستعمارية فى الوطن العربى ـ قاعـدة الظهران ، والقواعد الأمريكيـة فى ليبيا والمغـرب •

ويسير جنبا الى جنب مع تصفية الاسـتعمار حماية الاستقلال فى جميع أنحاء الوطن العربى • ويجب هنا أن ننبه الى أهمية أن يكون الدفاع عن اسـتقلال الوطن العربى من مسئولية العرب وحدهم ؛ فلا أحـلاف ، ولا حماية استعمارية لعروش ، ولا حقوق مكتسبة فى نظير ثمن يدفع على شكل سـد عجز فى ميزانيات ولا اعانات مشروطة •

وأساس هذا المذهب هو أن من دروس التاريخ أنه ما من مرة عهد العـرب الى غيرهم بمهمة الدفاع عن الوطن العربى ، الا كان ضياع استقلال هـذا الوطن ثمنا لهذا الدفاع • فالعرب اعتمدوا فى الدولة العباسية على الجنـد المرتزقة من الأتراك فى الدفاع عن الدولة ، فاستولى الأتراك على السلطة فى الدولة وحبسوا الخليفة وسـلبوه سلطته وعينوا منهم ملكا يحكم نيابة عنه • والدولة الأيوبيـة اعتمـدت على المماليك فى الدفاع عن الدولة العربيـة ، فانتهى الأمـر بأن قضى المماليك على الدولة الأيوبية وحكموا هم مصر والشـام وهم الأرقاء المرتزقون • والأتراك العثمانيون دخلوا الوطن العربى بحجة الدفاع عن السـنة ضد الشيعة ، والدفاع عن التجارة العربية ضد البرتغاليين ثم احتلوا هم الوطن العربى • بل ان العثمانيين باعوا أجزاء من الوطن العربى ثمنـا لبعض مصـالحهم فالسلطان

العثمانى وافق على احتلال فرنسا للجزائر فى سنة ١٨٣٠ كثمن لمساعدتها له ضد محمد على الذى كان قد بدأ يستخلص الوطن العربى من يد السلطان ويغزو دولته الى قرب حدود الآستانة • ووافق السلطان العثمانى على احتلال الانجليز لعدن سنة ١٨٣٩ ثمنا لمعاهدة لندرة (١٨٤٠) التى بها حمت الدول الاستعمارية السلطان من زحف الجيش المصرى الذى طرد جيوش السلطان من الوطن العربى • ودخل الانجليز الوطن العربى وحصلوا على مساعدة العرب بمقتضى مفاوضات الشريف حسين ومكماهون (١٩١٥) ، فى نظير تخليصهم من الاستعمار التركى ، وكانت النتيجة تقسيم الوطن العربى بين انجلترا وفرنسا بمقتضى قرارات الانتداب بعد أن انتهت الحرب • وفى نفس الصفقة ساعد عرب فلسطين الجيش الانجليزى على دخول بيت المقدس بقيادة اللنبى (ديسمبر ١٩١٧) ، ثم باعت انجلترا فلسطين للصهيونيين بمقتضى وعد بلفور (١٩١٧) ، وتنفيذه بعد الانتداب • والمغزى أن من أصول التحرر السياسى أن يتولى العرب بأنفسهم الدفاع عن هذا الاستقلال •

أما الوحدة العربية فهى النتيجة النهائية والهدف الأخير للقومية العربية ، وسيأتى تفصيل الكلام عليها فى الفصل التالى •

٤ — فى المجال العالمى :

القومية العربية يجب أن تقوم بدورها كاملا كاحدى القوى العظمى فى العالم المعاصر •

ولذلك فأول مبدأ فى فكرية القومية العربية مما يخص السياسة الخارجية هى اتصالها بالتيارات العالمية على دوائر تتدرج فى الاتساع والأهمية بقدر علاقاتنا بها • واذا كنا قد بدأنا بالدائرة العربية ، فيجب أن تثنى بالدائرة الأفريقية الأسيوية فنتضامن معها ونتعاون ، ثم بعد ذلك تأتى الدائرة الاسلامية فنتعاون مع العالم الاسلامى ، ثم أخيرا تأتى الأمم المتحدة فنؤمن بميثاقها ونعمل على استقرارها وحسن قيامها بمسئوليتها من داخل السلام العالمى •

وفى تدرج هذه الدوائر يقول الميثاق :

« اذا كان شعبنا يؤمن بوحدة عربية • فهو يؤمن بجامعة افريقية ، ويؤمن بتضامن أسيوى أفريقى • يؤمن بتجمع من أجل السلام يضم جهود الذين

ترتبط مصالحهم به • ويؤمن برباط روحي وثيق يشــده الى العالم الاســلامى ، ويؤمن بانتمــائه الى الأمم المتحــدة ، وبولائه لميثاقها الذى استخلصــته آلام الشعوب من محنة حربين عالميتين تخللتهما فترة من الهدنة المسلحة » •

« ان الايمان بهذا كله لا يتعارض مع بعضه ولا يتصادم وانما هى حلقــات ســلسلة واحــدة » •

والعمل من أجل الســلام مبدأ هام أيضا فى العلاقات الخارجيــة للقوميــة العربيــة يقــول الميثــاق :

« ان شعبنا يعتقد فى السلام كمبدأ ويعتقد فيه كضرورة حيوية ، ومن ثم لا يتوانى فى العمل من أجله مع جميع الذين يشاركونه نفس الاعتقاد » •

وطريق القومية العربية الى السلام هو الحيــاد الايجابى ، فلا انحيــاز لكتلة أو معسكر ، وفى نفس الوقت يجب أن يقوم العرب بدور ايجــابى فى القضــايا العالمية بوحى من مصالحهم الخاصة • يقول الرئيس جمال عبد الناصر :

« من الناحية الدولية نحن نؤمن بالحياد الايجابى طريقا الى السلام القائم على العدل • ولا نرى فائدة تتحقق بانقســام الأرض الى كتلتين • ونحن نحاول بالتعايش الســلمى أن نضع جسرا بين الكتلتين تعبر عليه الأفكار ، وتعبر عليــه التجارة ، وتعبر عليه التجارب فى كل الميادين » •

واعتنقت جامعة الدول العربية نفس المبدأ وأقرته فى مؤتمــر وزراء الخارجية العرب الذى انعقد فى بيروت سنة ١٩٥٩ اذ جاء فى مقرراته :

« وجوب تمسك الدول العربية بســياسة عدم الانحياز وعدم التبعية ، وهى السياسية التى تضمن استقلال الدول العربية وسيادتها مبتعدة بذلك عن المؤثرات والتيارات الخارجيــة المختلفة » •

ومبرر ذلك أن انحياز دول صغرى لاحدى الكتلتين الكبيرتين مقدمة موصلة ولا شك للاســتعمار بمعنى من المعانى • فالمعسكر الغربى خبرناه وعرفنــا أن سياسته تقوم على الاستعمار والاستغلال ولسنا مستعدين لأن نلدغ من نفس الثعبــان مــرة ثانيــة •

أما الشيوعية فسبيلها تحطيمنا ثقافيــا وروحيا حتى لا يكون لنا ســند من داخل أنفسنا ، فنتهافت على أضوائها تهافت الفراش على الضوء من تلقاء أنفسنا •

ومتى طوعنا أنفسنا فكريا لعقائدهم ، كنا صيدا سهلا لسلطانهم السياسى ، ومن هنا كان عدم الانحياز والحياد الايجابى مبدأ ضروريا •

وأخيرا هناك مبدأ تصفية الاستعمار حيث وجد بكل أشكاله وصوره ، لأن بقاء الاستعمار فى أى جزء من أجزاء الكرة الأرضية هو خطر على بقية أجزائها • ولذلك ناضلت القومية العربية حتى أسقطت حلف بغداد ، وتعاونت هذه القومية أيضا ضد الاعتداء الثلاثى على بور سعيد حتى ردته • وفى ذلك يقول الميثاق :

« ان اصرار شعبنا على محاربة الأحلاف العسكرية التى تريد أن تجر الشعوب رغم ارادتها الى فلك الاستعمار كان صوتا عاليا بالحق فى جميع المجالات منبها ومحذرا » •

وبعد هذا العرض لأيديولوجية القومية العربية نستطيع أن نلمس ما أحدثته ثورة يوليه ١٩٥٢ من تحديد وتعميق لمفهوم هذه القومية فقد تجمع فى هذه الأسس الفكرية والعقائدية ماضى الأمة العربية بقيمه وحاضرها بخبراته وحاجاته ، ومستقبلها بآماله وأهدافه •

مستقبل القومية العربية

يتضح مما سبق أن القومية العربية قومية عريقة تستند الى عوامل ثقافية وتاريخية قوية • وأنها أقدم من كل القوميات الموجودة فى العالم فى العصر الحاضر • فاذا كانت بعض القوميات الأوربية كالقومية الانجليزية والقومية الفرنسية ترجع الى القرن الخامس عشر ، وبعضها ، كالقومية الألمانية والقومية الايطالية ترجع الى القرن التاسع عشر ، فان القومية العربية ترجع على الأقل تقدير الى القرن السابع •

ومن هنا يثبت خطأ الذين يدعون أن القومية العربية حديثة ، ترجع الى النهضة المصرية الحاضرة ، أو ترجع الى القرن التاسع عشر متأثرة بنشأة القوميات الأوربية فى ذلك القرن • والواقع أن القوميات الأوربية فى القرن

التاسع عشر كانت قوميات اعتدائية تقوم على فكرة التوسع والاستعمار واستغلال الشعوب ، فهى كانت انحرافا فى فكرة القومية .

ولذلك فالقومية العربية مضمونة المستقبل لأن الأصل فيها أنها محققة فى الماضى ومستمرة فى الحاضر ، والمستقبل ما هو الا اكمال للعملية التاريخية التى يحدد اتجاهها خط الماضى والحاضر ، وهى حتمية فقد رأينا أنها دائما تعود الى القوة كلما تعرضت لشىء من الفتور .

ثم ان القومية العربية ضرورة للعرب لأن لها وظيفة أساسية فى حياتهم . وتتلخص وظيفة القومية العربية فى أمرين :

الأول : تحقيق التماسك العربى دفاعا عن مصالح العرب ضد أعداء العروبة من الاستعمار الى الصهيونية ، وتحقيقا لانتعاشهم الاقتصادى .

والثانى : اقامة مدنية عظيمة ، فقد كان العرب دائما من صناع الحضارات وهم محتاجون الى تجديد مدنيتهم ، بل والمساهمة فى تجديد المدنية الانسانية عموما ، ولا سيما بعد أن انحرفت هذه المدنية الآن فى اتجاه المادة بشكل كاد يضيع على الانسان صفاته الروحية التى هى أساس آدميته . والعرب أقدر الناس على أن يضيفوا هذا الجانب الروحى الى الحضارة العلمية المادية الحديثة .

ثم ان أحوال العالم المعاصر تفرض على العرب الاحتفاظ بقوميتهم . فهو عالم قائم على التكتل وعلى القومية الضيقة بالرغم مما ينادى به الناس من الدعوة الى الاتجاه العالمى . وما زالت الدول الكبرى التى تملك وسائل الاعتداء تتخذ سياسة قومية ضيقة بل ومتعصبة أحيانا . ومن ثم فالقومية العربية ضرورة من ضرورات المعيشة فى العالم المعاصر .

ومع ما قلناه من ضرورة القومية العربية وحتميتها فما تزال هناك بعض القوى تعمل ضدها ويجب أن نكون على بينة منها وهى :

١ — طلاب العروش ، فما زال فى العرب أسر صنعها الاستعمار وصنع لها عروشا وهمية متخاذلة لتكون فى حاجة دائمة لمساندته . فمثل هذه الدول التى لا تملك الوسائل المادية والموارد الضرورية لبقائها ، هى حرب على الأمة العربية لأنها تعتمد على قوى معادية للقومية العربية .

٢ ـ العملاء ، وهم طبقة الاقطاعيين والرجعيين الذين أثروا وحصلوا على لامتيازات الاجتماعية فى ظل الاستعمار ، فهم يعملون دائما على دعمه ويربطون مستقبلهم بمستقبله . ولذلك تطعن الحركات التحررية العربيـة دائما فى الداخل من هـؤلاء العمـلاء .

٣ ـ الاستعمار ، فهو ما زال واقفا يتربص بالوطن العـربى الذى ما زال محتفظا بمزاياه من قناة السويس الى البترول الى القطن الى استراتيجية الموقع . والاستعمار من أعدى أعداء القومية العربيـة .

٤ ـ الصهيونية ، وهى ذنب من أذناب الاستعمار ، وخطرها أن الدول الاستعمارية تحميهـا وتجعلها نقطة ارتكاز لها فى الوطن العربى .

٥ ـ جهل بعض العرب وغفلتهم ، وهو ما تبقى فى هـذا البعض من آثـار الاستعمار التركى والاستعمار الغربى . وهم لجهلهم لا يستطيعون أن يتبينوا أهمية القومية العربيـة ولا ماهيتها ، ولا يحسنون الاختيـار بين الاتجـاهات العربية والاتجـاهات التى يزيفها عليهم الاستعمار .

ومع ذلك فالمستقبل هو للقومية العربيـة لأنهـا حتمية تاريخية كما قلنا ، ولا بد للعملية التاريخية من أن تتم . أما معوقاتها فأضعف بكثير من قـوة الدفع التاريخى . فالاستعمار فى طريق الزوال ولم تبق منه الا ذبالة يسيرة لا تلبث أن تنطفىء . ولقـد أنهت الهزيمـة المريرة التى منى بهـا الاستعمار فى حرب السويس عصر المغامرات الاستعمارية المسلحة ، كما يقول الميثاق . والصهيونية أضعف من أن تقف أمام الأمة العربية باصرارها وتماسكها . والعملاء والرجعيون يرتجفون الآن فى كل مكان من الوطن العربى وهم يسمعون فى داخل قصـورهم وقع أقدام الجماهير العربية الواعية . ومن ثم فالمستقبل للقومية العربية ولكن بكثير من الجهد والوعى والحرص .

الفصل الخامس

الوحدة العربيـــة

عرضنا فيما تقدم لزوايا مختلفة من الوحدة العربيـة . فبينا فى الفصل الأول أن الشعوب العربية التى تسـكن أجزاء هذا الوطن انمـا هى أمة واحدة على اختـلاف منازلهم من هذا الوطن الواحد . وبينا فى الفصـل الثالث كيف أن الحضـارة العربية وحدة متكاملة ومدنية واحدة يعيش بمقتضاها أهل هـذا الوطن . وبينا فى الفصل الرابع وحدة الشـعور ووحدة العاطفـة التى تربط الأمة العربية ، أى القوميـة العربيـة هى النتيجـة الحتميـة لـكل أنـواع الوحـدات التى سـبق عرضـها .

والنتيجة الحتمية لكل هذه الزوايا المختلفة من الوحدة هى الوحدة العربيـة السياسية أى وحدة الدولة العربية . فالعروبة وحـدة لا تتجزأ ، وكيفما نظـرت اليها لم تجدها الا وحدة ، هى وحـدة بوطنها ، وهى وحدة بأمتها ، ووحدة بلغتها وثقافتها ، وهى وحدة بمدنيتها ، وهى وحدة بأهدافها ومصـيرها ، وهى وحدة بالرباط العاطفى والروحى الذى يربطهـا ، وعلى ذلك يجب أن تكون العروبة وحـدة بدولتهـا أيضـا .

ومعنى هذا أن الانقسـام السياسى الذى نراه الآن فى الوطن العربى ليس من طبيعة هذا الوطن ، ولا من طبيعة العروبة ، ولا يتفق مع القوميـة العربية . وانما الأصل فى الوطن العربى أن يكون دولة واحـدة ، وأن تتحقق فيـه الوحـدة العربية كنتيجة طبيعية لكل أنواع الوحـدات التى تتفق له وتجمع بينـه . وفى هذا يقول الميثاق الوطنى .

« ان الأمة العربيـة لم تعـد فى حاجة الى أن تثبت حقيقة الوحـدة بـين شـعوبها » .

« لقد تجاوزت الوحدة هذه المرحلة وأصبحت حقيقة الوجود العربى ذاته » .

ويجب هنا أن نفرق بين بعدين للوحدة العربية . فهناك البعد الشعبى وهناك البعد الحكومى . وكل أنواع الوحدة التى سبق الكلام عنها تثبت حقيقة البعد الأول أى البعد الشعبى للوحدة . فالوحدة العربية حقيقة شعبية كبرى لأن كل ما تقوم عليه حياة الأمة العربية من المقومات والخصائص متحد ، والأمةالعربية تشعر بهذه الروابط الوحدوية . وهذا هو الأصل لأن الشعب هو الحقيقة المهمة الأولى وما عدا الشعب فعرض يتغير ويروح ويجىء .

أما البعد الحكومى فشىء آخر . فقد تختلف الحكومات وتتنوع مشاربها . ويبقى هذا الاختلاف عرضا من الأعراض لا يؤثر الا قليلا والا مؤقتا فى وحدة الأمة . قد نجد أشخاصا أو جماعات من الحكام فى الوطن العربى يحاولون تجاهل طبيعة الوحدة لمصالحهم الخاصة ولأطماعهم فى الحكم ولكن مثل هذا لأن الأشخاص زائلون ومثل هذه الجماعات زائلة . ويبقى وراءها الشعب العربى نفسه وهو شعب واحد .

ولقد تنبه الميثاق الوطنى الى هذا التفريق الدقيق بين بعدى الوحدة فيقول :

« ان الذين يحاولون طمس فكرة الوحدة العربية من أساسها مستدلين بقيام خلافات بين الحكومات العربية ينظرون الى الأمور نظرة سطحية » .

ان مرجع الوحدة هو الى الشعوب لا الى الحكومات ، والى الأمة لا الى الحكام . يقول الميثاق :

« ان مفهوم الوحدة العربية تجاوز النطاق الذى كان يفرض التقاء حكام الأمة ليكون من لقائهم صورة للتضامن بين الحكومات » .

بل ان اختلاف بعض الحكام الرجعيين عن اتجاه الأمة ، ومحاولة هؤلاء الحكام التكتل والتساند ، وما نراه أحيانا من محاولاتهم اليائسة المجنونة لحماية أنفسهم من الاتجاهات الجماهيرية نحو الوحدة ، لأكبر دليل على شعورهم العميق بأن اتجاهاتهم هى ضد الطبيعة وضد الحقيقة . وما يأسهم فى الدفاع عن الانعزال والانفصال الا بقدر شعورهم بتهافت قضيتهم وقوة قضية الشعوب العربية المصرية على الوحدة .

ولقد عبر الميثاق عن هذا المعنى أحسن تعبير حين قال :

« ان هذه الخلافات تنبع من الصراع الاجتماعى فى الواقع العربى . واللقاء بين القوى التقدمية الشعبية فى كل مكان من العالم العربى ، والتجمع الذى تقوم به العناصر الرجعية والانتهازية فى العالم العربى هو الدليل على وحدة التيارات الاجتماعية التى تهب على الأمة العربية وتحرك خطواتها وتنسفه عبر الحدود المصطنعة » .

« ان التقاء القوى التقدمية الشعبية على الأمل الواحد فى كل مكان من الأرض العربية وتجمع القوى الرجعية على المصالح المتحدة فى كل مكان من الأرض العربية هو فى حد ذاته دليل على الوحدة أكثر مما هو دليل على التفرقة » .

ان حياة أى أمة يجب أن تدور على ثلاثة محاور أساسية : الماضى بحقائقه ، والحاضر بمقتضياته ، والمستقبل باتجاهاته وأهدافه . أى أن العملية التاريخية التى تجتاز بالأمة من مراحل الطفولة الى مراحل النضج والاستواء هى التى تحدد اتجاه الحياة فى الأمة العربية . وكيفما نظرنا من خلال الماضى والحاضر والمستقبل الى الأمة العربية لم نجد الا حقيقة الوحدة ماثلة للعيان ولن تزيد الا تأكيدا من أن الحدود والفواصل التى فرضت على أجزاء الوطن العربى فى عصور الطغيان والاستعمار انما هى حدود مصطنعة ستقضى عليها حقائق العملية التاريخية ، بل هى مقضى عليها بحكم قانون حتمية التاريخ .

ونحن اذا نظرنا الى الأمة العربية فى اتجاه هذه المحاور الثلاثة نستطيع أن نتبين حقيقة الوحدة وحتمية الوحدة ولذلك نعالج الموضوع على الترتيب الآتى :

أولا — الوحدة العربية حقيقة من حقائق التاريخ .

ثانيا — الوحدة العربية ظاهرة من ظواهر التاريخ .

ثالثا — الوحدة العربية ضرورة من ضرورات الحياة المعاصرة .

رابعا — الوحدة العربية ضرورة لتحقيق الأهداف العربية الكبرى .

أولا — الوحدة العربية حقيقة تاريخية

ومعنى هذا أن الوحدة العربية قانون طبيعي يقوم على مقومات ومشاهدات وحقائق يثبتها التاريخ العربى والتاريخ العالمى على السواء . فسكنى العرب كجماعة متميزة لهذا الوطن الواحد المتصل المتميز المتكامل حقيقة تاريخية .

وتجانس الأمة العربية عنصرا عن طريق حرية الهجرة وحرية التنقل وحرية الاختلاط وحرية المساكنة وحرية المعاشرة وحرية التبادل عبر العصور ، حقيقة تاريخية ثانية .

واللسان العربى القرشى الفصيح الذى ينطق به كل عربى من المحيط الى الخليج ، والذى كتبت وتكتب به كل الكتب العربية من القرآن الى الأغانى من القرن السادس (وما قبله) الى اليوم هو حقيقة تاريخية ثالثة .

والمثل الروحية والخلقية التى آمن ويؤمن بها العرب من أيام ابراهيم الى ظهور محمد بن عبد الله مهما اختلفت أسماؤها — حقيقة تاريخية رابعة .

ووحدة ما جرى علينا عبر العصور من قوة الطبيعة وتوحش النفس الانسانية ومحنة الاستعمار ، وصعوبة التطور والتمدن ، وما واجهنا به كل هذا من ألوان الكفاح كترويض الطبيعة وتبادل الأدوات الحضارية ، وتصفية الاستعمار المرة بعد المرة ، وتبادل الحضارة فى العصر بعد العصر كل هذا حقيقة تاريخية خامسة .

ووحدة ما ترتب على العملية التاريخية السابقة من العلوم والمعارف والعادات والتقاليد وقواعد الحكم والقوانين وطريقة التفكير والتصرف وأساليب التبادل والتعامل ونظام الأسرة حقيقة تاريخية سادسة .

والمصالح المشتركة والهدف العربى الواحد سواء أكانت مصالح اقتصادية أو مصالح دفاعية ضد الاستعمار والصهيونية أو مصالح عالمية هى حقيقة تاريخية سابعة .

وعلى أساس هذه الحقائق التاريخية تقوم الوحدة العربية كحقيقة تاريخية كبرى تسندها كل هذه المقومات التاريخية الحقيقية ، ومن هنا كانت الوحدة العربية حقيقة من حقائق التاريخ .

والوحدة قانون من قوانين التاريخ أيضا فى كل الوحـدات التاريخية التى مرت بها الأمة العربية تثبت صحة قانون الوحدة وأنه لا مناص منـه ولا معدى للأمة العربيـة عنـه .

ويكفى لاثبات ذلك أن نستعرض التاريخ العـربى لنعرف أن كل هزيمة منى بها العرب ، انما حاقت بهم وهم منقسـم وطنهم ، مختلفـة كلمتهم ، منحـلة عزائمهم . وأن كل انتصار حققه العـرب انما كان وهم مجتمعة كلمتهم ، متحدة دولتهم ، موحدة قيادتهم .

فالروم وهم أعداء العرب فى العصر القـديم انهاروا أمام الجيوش العربيـة بغير نظام ، ثم انتصروا عليهم بعد ذلك مرارا واستردوا بعض أجزاء من الوطن العـربى . كان ذلك فى فرص انقسام كلمة العرب وانقسام دولتهم بلا استثناء. حدث ذلك فى أثناء انقسام الدولة بين على ومعاوية فهاجم الروم سواحل افريقية وسواحل الشـام . فلما استقر الأمر لمعاوية أرسل لهم جيشـا ردهم وسار غير مدافع عبر آسيا الصغرى كلها حتى أبواب القسطنطينية .

وتكرر هجوم الروم على الدولة فى أثناء الفتنة التى أعقبت مقتل الحسـين ابن على وخروج العـراق والحجاز عن الطاعة بقيـادة عبد الله بن الزبير . وفى هذه الأثناء استرد الروم افريقية وشمال بلاد الشام ودفع لهم العـرب الجزية . حتى اذا استقر الأمر لعبد الملك بن مروان ثم لابنه الوليد من بعـده كر العرب على الروم فطردوهم واجتاحوا آسـيا الصغرى الى القسطنطينية وغزوها أكثر من مرة . وأعقب ذلك مد رقعة الدولة العربيـة من حدود الهنـد الى حـدود فرنسـا وسويسرا .

فلما نشط بنـو هاشم فى منـاوأة الأمويين فى أواخـر دولتهم بادر الروم وهاجموا حـدود الدولة الشمالية وسواحلها من جديد ، حتى اذا استقر الأمر للعباسيين ردوهم وفرضوا الجزية على امبراطورهم كما سبق أن مر بك .

ولما انقسمت الدولة العباسـية الى دويلات ، عاد الروم الى الاعتـداء على بلاد الشـام وأثخنوا العرب قتلا وتدميرا . وكادوا يستولون على بلاد الشـام لولا أن صمد لهم سيف الدولة الحمـدانى . ثم عادوا الى الاعتـداء منتهزين

فرصة انقسام الدولة حتى قامت دولة السلاجقة وهددت عاصمتهم مما اضطروا معه الى الاستنجاد بالبابا وكانت الحروب الصليبية .

ويلى الروم العداوة للعرب الصليبيون . ولم يتمكن الاستعمار الصليبى من الوطن العربى الا بعد أن كانت الدولة قد انقسمت الى دولتين وخلافتين : الخلافة العباسية فى المشرق ، والخلافة الفاطمية فى المغرب ، وسيطر الأتراك على دولة المشرق .

وأخذ السلاجقة السنيون يناصبون الفاطميين الشيعة العداء . هذا الى تناحر أمراء الشام فيما بينهم وتطاحن أمراء المغرب والحجاز واليمن فيما بينهم وبين أنفسهم . ووسط هذا التفكك انقض الصليبيون واستولوا على ثغور الشام وبقى الصليبيون فى الوطن العربى فى ظل انقسامه حتى قام نور الدين ووحد الشام ، ثم صلاح الدين الأيوبى فوحد الشام ومصر ومن ورائه المماليك ، وانهزم الصليبيون وتراجعوا أمام هذه الوحدة .

ويلى الصليبيون فى عداوة العرب الأسبان ، وقد طال نضالهم مع العرب بسبب التنافس بين عرب الأندلس لأسباب عصبية قبلية ، فلما وحد عبد الرحمن الأموى الدولة تحت زعامته استطاع أن يرد الأسبان على أعقابهم .

وبقيت الدولة فى مأمن من اعتدائهم فى ظل الوحدة مدة ثلاثة قرون حتى اذا انقسمت الدولة الأندلسية الى دويلات مستقلة كدولة بنى عباد فى أشبيليه ودولة بنى ذى النون فى طليطلة ودولة بنى هود فى الشرق ودولة الزاوبين فى غرناطة ، انقض الأسبان عليهم جميعا واستولوا على دويلاتهم المجزأة واحدة تلو الأخرى حتى انطفأ سراج العروبة من الأندلس كلها . وساعد على ذلك انشغال دولة المماليك فى الشرق بقتال العثمانيين فكان انقساما آخر فى الدولة أضاع مغربها امكانيات مشرقها فى الدفاع .

ثم يأتى الاستعمار الغربى الحديث وسوف يتبين لك فى الفصل السادس أن العامل الأساسى فى وقوع الوطن العربى فى قبضة الاستعمار الغربى هو انقسام الوطن العربى الى دويلات يحكمها الأتراك ، ثم تراخى العرب أنفسهم فى الوقوف كتلة واحدة أمام هذا لاستعمار .

ويلى ذلك الاستعمار الصهيونى فى فلسطين ، ولم يحدث ذلك الا نتيجة لانقسام بلاد الشام فى ظل الانتداب عقب الحرب العالمية الأولى ثم نتيجة لتخاذل العرب وعدم اتحادهم بعد أن خان الملك عبد الله قضية العروبة فى فلسطين لقاء حصوله على الضفة الغربية لنهر الأردن .

ولم يتخلص العرب من الاستعمار الغربى الا بعد أن تعاون العرب فيما عرف باسم النهضة العربية ، والا بعد أن أخذت الشعوب العربية يشد بعضها أزر بعض .

وكما كان التفكك المادى فى وحدة العرب من أهم أسباب هزائمهم فقد كان التفكك المعنوى والعاطفى والعقائدى من أهم الأسباب فى تلك الهزائم أيضا ، ولذلك فان العصبيات القبلية والأحزاب السياسية والتيارات الشعوبية والفرق المذهبية كانت دائما وراء انقسام الدولة وتخاذل العرب وهزائمهم .

فانهيار الدولة الأموية كان من أهم أسبابه انتشار روح العصبية بين القبائل العربية فى كافة أنحاء الدولة العربية ، فقد عادت العصبية بين عرب الجنوب أو القحطانية واليمنية وبين عرب الشمال أو المضرية والقيسية النازلين فى أجزاء الدولة . وعلى هذا الأساس العصبى وقعت الفرقة بين عرب العراق وعرب الشام . وحدثت مضاعفات حين استغلت الفرق المذهبية والسياسيه كالشيعة والخوارج لهذا الانقسام وسقطت الدولة الأموية .

وانهيار الوحدة العباسية كان من أسبابه قيام الأحزاب السياسية من العرب والفرس وانتهاز الشعوبية للفرصة فظهرت على شكل فرق مذهبية مما أضعف الدولة وأسقطها فى يد الأتراك والمغول .

بل ان انهيار دولة العرب فى المغرب (الأندلسى) كان من أهم أسبابه قيام العصبيات والأحزاب بينهم . فقد انتقل الصراع بين اليمنية والقيسية أى بين عرب الجنوب القحطانيين وبين عرب الشمال المضريين الى الأندلس مما شتت شملهم وأضعفهم أمام الأسبان .

ومن المعروف أن تفرق الكلمة بين الأحزاب السياسية فى العصر الحديث كان من أهم أسباب رسوخ أقدام الاستعمار فى مصر وغيرها من الأقطار العربية فى العصر الحديث . وعندما قامت الثورة المصرية فى يوليو عام ١٩٥٢ وقضت على الأحزاب ووحدت الأمة انهار الاستعمار ورحل . ولعل فى هذا المقال ما يثبت

أن الانقسام المعنوى والعاطفى والفكرى أقسى على وحدة الأمة من الانقسام المادى لأن انقسام الدولة ماديا لا يكون الا نتيجة لانقسام أهلها فكريا وعقائديا وعاطفيا • ومن ثم كانت الأحزاب السياسية أخطر على وحدة الوطن العربى من العدو الخارجى •

ولعل فيما تقدم من الأمثلة التاريخة ما يكفى لاثبات أن الوحدة العربية حقيقة من حقائق التاريخ وقانون من قوانين التجربة التاريخية • ومعنى هذا أن الوحدة العربية اتجاه تاريخى غالب وحتمية تاريخية لا مفر منها • وعندما نتكلم عن الوحدة العربية لا نتكلم عن أمنية ولكننا نتكلم حقيقة ولا نتكلم عن شىء يمكن وقوعه أو يحسن ، ولكن عن شىء يجب أن يحدث لأن قوى المجال التاريخى تدفعه أمامها وتجعل حدوثه هو القاعدة ، ونتكلم عن قوة من القوى التى تؤثر فى أحداث التاريخ وتقرر الصورة التى تقع بها والنتيجة التى تنتهى اليها •

ثانيا — الوحدة العربية ظاهرة تاريخية

والأمر فى القومية العربية لا يقف عند حد أنها حقيقة وقانون وحتم ، بل انه يتعداه الى أنها حدثت وتكررت فهى ظاهرة تاريخية أيضا • فالوحدة العربية ليست وحدة بالقوة ولكنها وحدة بالفعل أيضا ، فالذى يقابلنا فى التاريخ ليس مقدماتها أو حقائقها وأسانيدها ، بل أنها تقابلنا متحققة واقعية كذلك على طول التاريخ •

الدولة العربية :

فيوم ظهرت القومية العربية بظهور الاسلام الذى جمع كلمة العرب ووحد بينهم وأوجد عوامل الوحدة فيهم وبلور عروبتهم ، قامت الدولة الواحدة الواحدة فى المدينة ثم شملت كل شبه الجزيرة العربية ، ربما لأول مرة فى تاريخها • فالدولة الواحدة كانت من مقومات القومية الناشئة •

ثم قامت دولة الخلفاء الراشدين بضم أشتات الوطن العربى الأصل ، فكانت تتكون من الجزيرة العربية والعراق والشام ومصر والنوبة وشمالى افريقية ؛ دولة واحدة وحكومة واحدة وجيش واحد وشعب واحد •

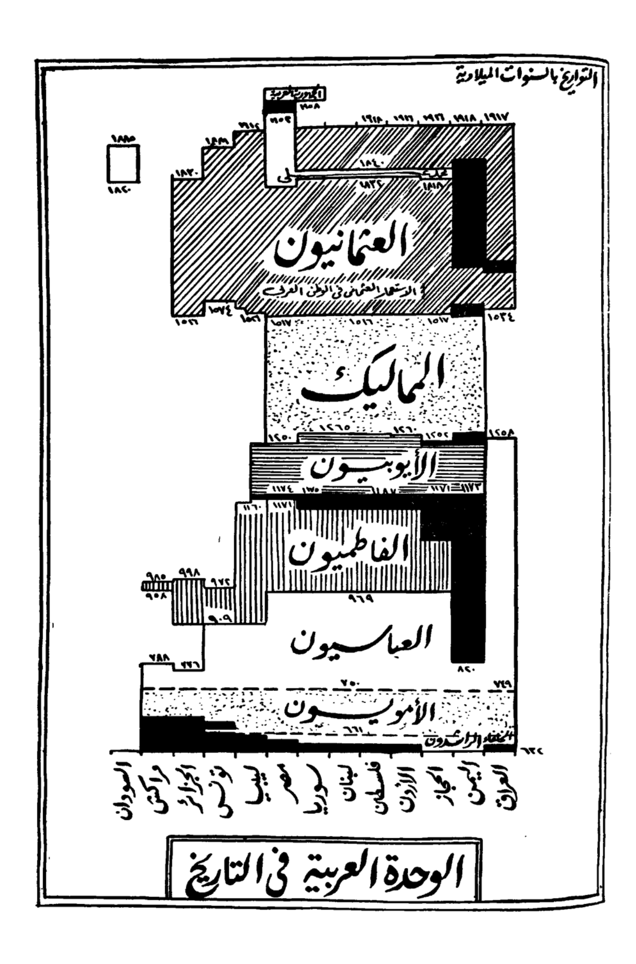
واتسعت رقعة الدولة ، فلم يمض قرن واحد على وفاة مؤسسها — صلى الله عليه وسلم — حتى كانت امتدت فشملت من حدود الهند الى جبال البرانس • دولة واحدة تسيطر عليها حكومة وطنية واحدة وخليفة واحد يحكمها من عاصمة واحدة هى دمشق •

وبقيام الدولة العباسية تنقسم الدولة دولتين : الدولة العباسية فى الشرق والدولة الأموية بالأندلس • ونستطيع مع ذلك أن نقول ان الوطن العربى كما نعرفه اليوم بقى وحدة سياسية واحدة تكون دولة موحدة ، هى الدولة العباسية ، يحكمها خليفة واحد من بغداد والسلطة فيها واحدة والقانون واحد •

الوحدة بزعامة الفاطميين والأيوبيين :

وحين تتفكك الدولة العباسية الى دويلات وتضيع الوحدة السياسية لا تلبث الوحدة العربية أن تتحقق ثانية فتقوم الدولة الفاطمية فى المغرب • وهى دولة عربية يرى أصحابها أنهم أحق بالسيادة فى الأمة العربية من العباسيين ، وبالرغم من هذا التنازع على شرعية الحكم تبقى وحدة الدولة هى الهدف ، فلا تلبث الدولة الفاطمية الناشئة أن توحد الدولة العربية ، ويضم الفاطميون الى بلاد المغرب مصر من حكامها الأتراك الأخشيديين ، ثم يضمون الى دولتهم بلاد الشام الى نهر الفرات ، ثم الحجاز واليمن ، ثم ينطلقون الى العراق وينجحون فى رفع رايتهم الخضراء فوق بغداد ويخطب للخليفة الفاطمى فوق منابرها مدة قصيرة • فهذه دولة عربية أخرى حققت الوحدة العربية •

وتنتهى الدولة الفاطمية بقيام دولة أخرى هى الدولة الأيوبية وكانت قد ضمت الأقطار العربية فى وحدتها ، اذ كانت تتكون من الشام ومصر والنوبة وليبيا والحجار واليمن • وفى سنة ١١٧٥ قلد الخليفة العباسى صلاح الدين حكم مصر والمغرب والنوبة والجزيرة العربية وفلسطين وسوريا • وبذلك أصبح صلاح الدين السلطان الأوحد على الدولة العربية كما يقول المؤرخ أبو الفداء • وبعد عشر سنوات استطاع صلاح الدين أن يخضع الموصل وأن يجعل أمراء العراق تابعين لدولته • وهكذا توحدت الدولة العربية تحت راية الأيوبيين •



التواريخ بالسنوات الميلادية
الجمهورية العربية
١٩٥٨
العثمانيون
الاستعمار العثماني في الوطن العربي
المماليك
الأيوبيون
الفاطميون
العباسيون
الأمويون
الخلفاء الراشدون
٦٣٢
٦٦١
٧٤٩
٧٥٠
٨٢٠
٩٦٩
١٢٥٠
١٢٥٨
١٥١٧
١٥٣٤
السودان
مراكش
الجزائر
تونس
ليبيا
مصر
سوريا
لبنان
فلسطين
الأردن
الحجاز
اليمن
العراق
الوحدة العربية فى التاريخ

وتنتهى الدولة الأيوبية على يد المماليــك ، ولكن ليحتفظوا بوحــدة الدولة العربيــة تحت سلطانهم فتشمل وادى النيــل والشام وليبيا والحجاز واليمن ، ويكونون وحــدة سياسية وعسكرية وادارية واقتصادية على جانب عظيم من المتانة • وما لبثت أن ضمت الصفة الدينية الى الصــفة المدنية حين أقام الظاهر بيبرس الخلافة العباسية فى مصر •

وهكذا ترى أن الدولة العربية الموحــدة التى تتمثل فيها الوحــدة العربية كانت موجودة دائما وكانت ظاهرة تاريخية فى كل العصــور • ولا يمس القاعدة العامة أن هــذه الوحدة كانت تتحقق بأشكال مختلفة وبدرجات مختلفة وبحدود مختلفة ، اذ الظاهرة فيها فى جميع الأحوال هى الوحدة السياسية التى تضم أجزاء هذا الوطن أو معظمها تحت سلطان واحد ولأهداف واحدة •

مشروع الوحدة العربية فى القرن التاسع عشر :

ومع أن الاستعمار قد سيطر على الوطن العربى بعــد ذلك وحرمه فرصــة الوحــدة ذات الصبغة العربية ، ووحدة تحت السيطرة العثمانية كولايات منفصلة وقضى مؤقتا على العروبة كمفهوم للقومية العربية وكصفة مميزة للدولة العربية ، الا أن وحدة الوطن العربى السياسية بقيت تراود الخواطر ، وتستهوى الحكام• وبقيت ذريعــة معقــولة يستطيع كل طالب عــرش ، أو طامع فى تأسيس دولة أن يستند اليها ويكسب لمشروعه صفة شرعية أمام الناس •

من أمثلة ذلك محاولة محمــد على باشا والى مصر فى النصــف الأول من القرن التاسع عشر ، فانه كان تابعا بولايته للسلطان العثمانى ، وقام بموارد مصر ودماء أبنائها بخــدمات جليلة للدولة العثمانية فأدب كل خارج وأعاد الى الولاء كل مارق • ولما لم يلق محمد على أو تلق مصر من السلطان الا العقوق ونكران الجميل فى وقت كان العرش السلطانى فيه متداعيا والدولة على وشك الانهيــار لتجــرف معها ولاياتها العربيات ، أزمع على أن يأخذ حقه من السلطان غلابا وأن ينال مكافأته اغتصابا وأرسل الجيش المصرى بقيادة ابنــه ابراهيم وســليمان الفرنساوى الى بلاد الشام فأستخلصها من جنــود الدولة وضــمها الى الدولة المصرية التى كانت تتكون حينئذ من مصر وجزيرة العــرب واليمن والسودان ، وبذلك أقام محمد على دولة عربية حديثــة موحدة كانت أقوى وأحــدث دولة فى الشرق فى ذلك الوقت •

ولا شك أن المقومات العربية كانت ماثلة فى تفكير محمد على ، وان كانت أوضح فى تفكير ابنه ابراهيم . ولكن مثول هـذه المقومات العربية ووضوحها شىء والاخلاص لها شىء آخر ، اذ لم يكن من طبائع الأشياء أن يخلص محمد على المقدونى المولد التركى التربية للعروبة ، ولكنها كانت هناك على كل حال . لقد سمى محمد على الجيش الزاحف على الشام « الجيش العربى » ، وحدد الدولة التى أراد أن ينشئها بالحدود العربية الصحيحة فهى تمتد فى نظره الى حدود دجلة والفرات وتشمل كل الشام الى جبال طوروس ، وكان حد اللغة والثقافة هو الفاصل بين دولته وبين دولة السلطان .

ولقد اختلف المؤرخون فى حقيقة السياسة العربية لمحمد على ، وحقيقة اخلاصه للصفة العربية للدولة التى أراد أن ينشئها . ولكن هؤلاء المؤرخين نظروا الى القضية نظرة ضيقة . فالتاريخ عندهم من صنع الملوك والقواد . أما الشعب والناس فلاحظ لهم من صناعة التاريخ . واذا كان الأمر كذلك فقد يكون من الصعب أن ننسب لمحمد على الذى لم يكن يعرف كلمة من اللسان العربى أن يكون صاحب سياسة عربية . ولكن أين المصريون الذين كانوا يعاونونه ؟

هل كان من المستبعد أن يوحى اليه رجل مصرى عربى كرفاعة الطهطاوى — وكان موضع ثقته — بمثل هذه الأفكار العربية ؟ أو كان من المستبعد أن يعلمه اياها مستشاروه من الفرنسيين وكانوا جميعا ممن ساءت علاقتهم بوطنهم فرنسا ولم يكن منهم الا طريد القانون فى وطنه ، أما لأنه من أذناب نابليون ، واما لأنه من تلاميذ سان سيمون الاشتراكى المجدد . فالأفكار العربية فى سياسته موجودة من غير شك ولكنها ليست من تفكيره ولا من وجدانه بقدر ما كانت من أفكار زعماء الأمة المصرية فى وقته أو المرتزقة من العلماء الفرنسيين وقد استغلها هو بانتهازيته المعروفة كدعامة للدولة التى كان يريد أن يشبع بها أطماعه فى ملك له يبقى لأولاده من بعده ويبقى بعد هذا أن تميز الوطن العربى والأمة العربية ووجوب استقلالها عن السلطان ، كان مبررا مقبولا من الناحية الفكرية والتاريخية ، ولم يكن أحد يستطيع أن يمارى فى وجاهته .

ولكن عجمة محمد على وجهله واستبداده ضيعا عليه هذه الميزة ، اذ أراد أن يحققها بحد السيف دون أن تنبع من ارادة الشعب العربى ودون أن يحاول

تكوين رأى عام عربى يسند قضية ويؤازر سياسته • كما أن الاستعمار الغربى وقف لهذه الدولة الناشئة بالمرصاد ، اذ كانت خطرا يهدد مشروعاتهم الاستعمارية فى الوطن العربى • ومن ثم لم يكتب لهذه الوحدة أن تكتمل •

الوحدة كظاهر فى حركات القرن العشرين :

وكانت الوحدة هدفا من أهـداف الحركات العربية التى ظهرت فى أوائل القـرن العشرين ، تلك الحركات التى انتهت بقيام جامعـة الدول العربية ، ثم قيـام الجمهـورية العربيـة المتحـدة ، فقـد سبق فى الفصـل الرابع أن عرفنا الجمعيـات العربيـة السرية والعلنيـة التى عملت على الانفصـال عن الدولة العثمـانية ، كالجمعية القحطانية ، وجمعيـة العهـد وجمعية العربية الفتـاة ، وكانت الفكرة العربية أساس العمل فيها جميعا •

ومنذ سنحت أمام العرب فرصة تحقيق هـذا الاستقلال فى أثناء الحـرب العالمية ، كانت الوحدة العربية أساس المشروعات التى وضـعت لهذا الاستقلال ، فالثورة العربية التى تزعمها الشريف حسـين وأسرته الهاشمية كانت ترمى الى توحيـد الأقطار العربية الآسيوية ــ وهى التى كانت ما تزال فى يد العثمانيين • فى دولة واحـدة يحكمها حسين وأولاده • وفى خطابات حسين الى مكماهون (١٩١٥) تحـديد لهذه الدولة ، وكلام عن الوحدة العربية ، وقوة شعور العرب بضرورتها • ولكن الشريف حسين الهاشمى العربى لم يكن خـيرا من محمد على المقدونى التركى ، فقد اصطبغ مشروعه هو الآخـر بالانتهازية والطمع فى عرش لأسرته • وزاد حسين على محمد على أنه أراد أن يعتمد على الانجليز ــ أعـداء العروبة الطبيعيين ــ فى تحقيـق الوحدة العربية ، فكان ذلك دليـلا على تناقضه وتهافت مشروعه ، واشارة مقـدمة الى أن أسرته ستكون من عملاء الاستعمار البريطـانى •

وعندما انتهت الحـرب العالمية الأولى ، وظهرت مؤامرة الاسـتعمار ضد الوحدة العربية ، وكشفت مؤامرة سايكس بيكو ــ تلك المعـاهدة التى قررت تقسم الجـزء الآسيوى من الوطن العربى ــ كانت الوحدة هى مطلب كل من عرب الشام وعرب العراق ؛ فقد أرسلت الولايات المتحـدة لجنة كنج ــ كرن لتتحقق من رغبة الشعب ، وانعقد المؤتمر السورى العام فى دمشق (١٩١٩) ، كما انعقد المؤتمر العراقى فى بغـداد (١٩٢٠) وقرر المؤتمر السورى وحـدة

سوريا من جبال طوروس الى رفـح جنوبا ، مع وحـدة اقتصادية مع العراق وقرر المؤتمر العراقى وحـدة العراق من أقصى شمال الموصل الى الخليج ، مع وحدة اقتصادية مع سوريا : وعاد المؤتمر السورى العام فنص على هذه الوحدة عندما أعلن اسـتقلال سوريا فى مارس ١٩٢٠ • وانما نص على الوحـدة بين سوريا والعراق فقط ؛ لأن الاستعمارين الانجليزى والفرنسى كانا يسـيطران على القسم الافريقى من الوطن العربى ، وكانت مصر تناضـل ضـد الاحتلال البريطانى أولا •

وفى ديسمبر ١٩٣١ انعقـد المؤتمر العربى القومى فى القدس للنظر فى أحوال الأمة العربية ، وموقف الاستعمار منها • ووضع سياسة للحركة العربية القومية ، وقـد قرر هـذا المؤتمر أن وحـدة العـرب أمر طبيعى وضرورى وجـاء فى مقررات المؤتمر :

١ ــ أن البـلاد العربية وحدة تامة لا تتجزأ ، وكل ما طـرأ عليها من أنواع التجزئة فهو باطل • لا يعترف العرب به •

٢ ــ توجه الجهـود فى كل قطر من الأقطار العربية الى تحقيق اسـتقلاله تاما وموحدا • ومقاومة كل فكـرة ترمى الى الاقتصـار على العمل للسياسات المحليـة والاقليمية•

٣ ــ لما كان الاسـتعمار بجميع أشكاله وصـيغه يتنافى كل التنافى مع كرامة الأمة العربية وغايتها العظمى ، فان الأمة العربية ترفضه وتقاومه بكل قواها •

وتقرر عقد مؤتمر عام فى احـدى العواصم العربية لبحث وسائل تنفيـذ تلك المقـررات ، وألفت لجنـة تنفيـذية لنشر الميثاق والاعداد للمؤتمر ، وكاد المؤتمر أن يعقـد فى بغـداد فى سنة ١٩٣٣ لولا مؤامرات انجلترا ، ووفاة فيصل ملك العراق •

جامعة الدول العربيـة :

وظلت الوحـدة العربية أمل العرب فى كل مكان ، منهم من واتتهم الظروف وطالبـوا بها كعرب الشـام وعرب العراق ، ومنهـم من أرغمهم الاسـتعمار على أن يجعلوها هدفا ثانيا بعـد التخلص من احتلال ذلك الاسـتعمار لوطنهم كعرب مصر • وفى الحالتين كان الاستعمار الغربى يعرقل حركة الوحـدة ويحاول كتم انفاسـها •

حتى اذا قامت الحرب العالمية الثانية رأت بريطانيا أن من مصلحتها قيام نوع من الوحدة العربية ، أولا ارضاء للعرب وضمانا لمساعدتهم لها فى محنة الحرب الدائرة ، وثانيا ، تكتيلا للدول العربية وراء مصالح الاستعمار على أساس أن الدول العربية كلها كانت من مناطق نفوذه ومن السهل توجيه أى نظرة عربية نحو هذه المصالح •

وعلى هذا الأساس أعلن وزير خارجية بريطانيا (ايدن فى ذلك الوقت) فى مايو ١٩٤١ « أن كثيرين من مفكرى العرب يرجون للشعوب العربية درجة من الوحدة أكبر مما يوجد بها الآن•••ويبدو أنه من الطبيعى ومن الحق وجوب تقوية الروابط الثقافية والاقتصادية بين البلدان العربية بل والروابط السياسية أيضا ، وحكومة صاحب الجلالة من ناحيتها ستؤيد كل التأييد أية خطة تلقى من العرب موافقة عامة » •

وأبدى العرب فتورا نحو هذا التوجيه البريطانى وعرفوا أهدافه والحرب على أشدها ، فأصدر وزير خارجية بريطانيا اعلانا ثانيا فى فبراير ١٩٤٣ جاء فيه : « أن حكومة صاحب الجلالة — كما أوضحت من قبل — تؤيد كل حركة يقوم بها العرب لتعزيز الوحدة الاقتصادية والثقافية والسياسية بينهم • ومن الجلى أن الخطوة الأولى لتحقيق أى مشروع يجب أن تأتى من جانب العرب أنفسهم » •

واستجابت مصر فأخذت على عاتقها دعوة الحكومات العربية الى اجراء مباحثات ومشاورات فى الموضوع ، وشكلت لجنة تحضيرية اجتمعت فى الاسكندرية (سبتمبر ، أكتوبر ١٩٤٤) وعرفت هذه المشاورات بمشاورات الوحدة • ووقع بروتوكول الاسكندرية فى ٧ أكتوبر سنة ١٩٤٤ وفى مارس ١٩٤٥ استأنفت اللجنة اجتماعاتها فى القاهرة ، وعدلت الاتفاق فكان ميثاق جامعة الدول العربية ، وصدر فى ٢٢ مارس ١٩٤٥ ، ووقعته سبع دول عربية ، هى : مصر ، والمملكة العربية السعودية ، وسورية ، ولبنان ، والأردن ، والعراق ، واليمن ، وترك الباب مفتوحا لانضمام كل دولة تنال استقلالها فيما بعد • وفعلا انضم الى الجامعة العربية : ليبيا والسودان وتونس والمغرب والكويت والجزائر عندما حققت كل منها استقلالها •

ولقد كانت الوحـــدة العربية هى الغاية الواضحة التى كانت تستهدفها تلك المشاورات • وقـــد عبر الوفد السورى عن ذلك عندما قال أن ســـوريا تفضل أقـــوى أداة للتعاون المشترك وهى الحـــكومة المركزية ، فاذا تعذر ذلك أقيـــم نظام آخر من الاتحاد ، وأعلن الـــوفد السورى استعداد سوريا للتضحية بـــكل اعتبار فى سبيل هـــذه الوحدة الشاملة ، وأعلن وفـــد العراق والأردن أنهمـــا يرغبان فى تكوين اتحاد له سلطة تنفيذية تمثل جميع نواحى التعـــاون الســـياسى والاقتصـــادى والثقافى والاجتماعى ، ويـــكون لقراراتها قوة التنفيذ على الدول الداخلة فى الاتحـــاد ، وقد صدرت بهذه المناسبة عـــدة تصريحات وخطب فى كل البلاد العربية على جانب من القيمة فى تأكيد الـــوحدة العربية وضرورتها للعرب وتسجيل ما يربط بين الأمة العربية من الروابط التاريخية والثقافية والمصـــلحية ، مما يجعل هذه التصريحات والخطب والكتابات من أهم وثائق الوحدة العربية •

وكان المنتظر بعـــد هذا كله أن يأتى ميثاق الاتحـــاد أقوى مما ظهر فى ميثاق جامعة الدول العربية ، وأمعن منه فى الوحـــدة • ولكن عاملين أضاعا على العرب تلك المناسبة ؛ الأول : الاستعمار ، فقـــد كان عند الدول الاســـتعمارية مخطط محـــدد لمدى ما يسمح به من وحـــدة بين العرب ؛ والثانى : المنافسات الأسرية والاعتبارات الاقليمية والطائفية ، التى حرص عليها الملوك والأسر الحاكـــمة فى ذلك الوقت ، مما أضعف ارادة العـــرب وألقى ماء باردا على حماسة الشـــعوب العربية وآمالها نحـــو الوحدة • ولم يتنبه العـــرب الى أهمية الفرصة التى ضاعت عليهم حينئذ الا عندما وقعت كارثة فلسطين بعـــد سنوات •

ولهذين العاملين ، أتى ميثـــاق جامعة الدول العربية ضعيفا متخاذلا ، فكانت الجامعة اتحـــاد حكومات لا اتحـــاد شعوب ــ اتحاد حكومات كثير منها رجعى ، يخشى التيارات التقدمية التى لا بد منبعثة عن الوحـــدة ، ولذلك نص فى الميثاق على أن تكون القرارات بالاجمـــاع حتى تكون ملزمة لجميع الـــدول المشتركة فى الجامعة ، أما ما يتقرر بالأغلبية فلا يسرى الا على الدول التى تقبله ، وكان هذا أول الضعف فى كيان الجامعة ، اذ عطل كثيرا من قرارات مجلسها •

ومع ذلك فقد نص الميثاق على أشـــياء كانت أساسا طيبا للتعـــاون ؛ فقـــد جاء فيه أن الغرض من الجـــامعة توثيق الصـــلات بين الدول العربية المشـــتركة فيها ، وتنسيق خططها السياســـية تحقيقا للتعاون بينها ، وصـــيانة اســـتقلالها

وسيادتها ، والنظر بصورة عامة فى شئون البلاد العربية ومصالحها . وكذلك من أغراضها تعاون هذه الدول — بحسب نظم كل دولة منها وأحوالها — فى الشئون الاقتصادية ، وشئون المواصلات ، والثقافة ، وشئون الجنسية وتأشيرات الدخول فى الشئون الاجتماعية والصحية .

ونص الميثاق على أن لدول الجامعة العربية الراغبة فيما بينها فى تعاون أوثق مما نص عليه الميثاق ، أن تعقد بينها من الاتفاقات ما تشاء لتحقيق هذه الأغراض . كما نص فى الميثاق على أنه لا يجوز الالتجاء الى القوة لفض المنازعات التى تقوم بين دولتين أو أكثر من أعضاء الجامعة ؛ كأن الميثاق أبرم بين دول أجنبية لا دول بدأت مشاوراتها بالرغبة فى اقامة وحدة فيما بينها .

وبالرغم مما يبدو فى ميثاق الجامعة من ضعف وتفكك وتخوف ، الا أنها كانت مظهرا للتعاون بين العرب على كل حال . وقد أسهمت بنصيب مشكور فى القضايا العربية ؛ كاستقلال سوريا ولبنان واستقلال ليبيا والمغرب العربى خصوصا الجزائر . وكان نجاح الجامعة فى غير ميدان السياسة أعظم ، فقد حققت نتائج ملحوظة فى مجالات التعاون الثقافى والاقتصادى والصحى والاجتماعى .

وظهر نقص ميثاق الجامعة واضحا فى محنة فلسطين ؛ فقد أخفقت فيها الجامعة اخفاقا ذريعا ، فقد عجزت الجامعة بحكم ميثاقها عن انشاء قوة عسكرية تقوم بالعمليات العسكرية التى كان يقتضيها الموقف . ومكنت الثغرات الموجودة فى الميثاق بعض حكام العرب من الخضوع لضغط الدول الاستعمارية خصوصا أمريكا . وتطلع بعض هؤلاء الحكام الى استغلال المحنة لتحقيق أطماعه كالملك عبد الله ملك الأردن فى ذلك الوقت . ولقد أظهرت هذه المحنة مدى التفكك السياسى فى الجبهة العربية ، فقد وقف الجيش المصرى الباسل وحده يدفع عدوان اسرائيل بينما وقفت الجيوش العربية الأخرى وقائدها عبد الله موقف المتفرج ، بل موقف المتخاذل .

وقد عبر الميثاق الوطنى عن حقيقة الوحدة التى تمثلها جامعة الدول العربية خير تعبير عندما قال :

« اذا كانت الجامعة العربية غير قادرة على أن تحمل الشوط العربى الى غايته العظيمة البعيدة فانها تقدر على السير به خطوات .

« والجامعة العربية ــ بحــكم كونها جامعة للحكومات ــ لا تقدر أن تصل الى أبعــد من الممــكن •

« ان الممكن خطوة فى طريق المطلوب الشامل •

« لهــذا فان الجامعة العربية تستحق كل التأييد ، على أن لا يكون هنــاك تحت أى ظرف من الظروف وهــم تحميلها أكثر من طاقتها العملية التى تحــدها ظروف قيامها وطبيعته » •

ومعنى هــذا أن الجامعة العربية احــدى مظاهر الوحــدة التى حدثت فى تاريخ وحــدة الأمة العربيــة ، ولها أهميتها وقيمتها على هــذا الأساس وبهــذا القــدر •

معاهدة الضمان الجماعى (١٩٥٠) :

لم يكن ميثاق الجــامعة العربية مرضيا لآمال العــرب فى الوحــدة ، وكان وراءه درجات من الوحــدة يطمــح اليها العرب • وقد أثبتت كارثة فلســطين ضرورة العــمل على تحقيق هــذه الدرجات أو بعضــها على الأقل • وعلى ذلك عملت الــدول العربية على تلافى هــذا التقصير الخطير بعقــد معاهدة الضــمان الجماعى أو الدفاع المشترك فى ١٧ يونيــة ســنة ١٩٥٠ : « رغبة منها فى تقوية الروابط وتوثيق التعــاون بين دول الجامعة العربيــة ، وحرصا على اســتقلالها ومحافظــة على تراثهــا المشترك ، واســتجابة لرغبة شعوبها فى ضم الصفوف لتحقيق الــدفاع المشترك عن كيانها وصيانة الأمن والســلام وفقا لمبادىء ميثاق جامعة الدول العــربية ، وميثاق الأمم المتحــدة وأهدافها ، وتقريرا للاســتقرار والطمأنينة ، وتوفير أسباب الرفاهية والعمران فى بلادها » •

ونصت هــذه المعاهــدة على أن الدول المتعاقدة تعتبر كل اعتــداء مسلح يقع على أية دولــة أو أكثر منهــا أو على قواتها اعتــداء عليها جميعا ؛ ولذلك فانها عملا بحق الدفاع الشرعى ــ الفردى والجماعى ــ عن كيانهــا ، تلتزم بأن تتخــذ على الفور ــ منفردة ومجتمعة ــ جميع التدابير لــرد الاعتــداء واعادة الأمن والســلام الى نصــابهما •

وكانت هــذه المعــاهدة احدى مظاهــر الوحــدة أيضا ، ولكن وقف فى وجــه تنفيذها تلك الاعتبارات الأسرية ، والضغوط الاســتعمارية • فقد انضمت

حكومة العراق الى حلف بغداد الاستعمارى سنة ١٩٥٥ مخالفة بذلك المادة العاشره من المعاهدة ، وهى تنص على أن كلا من الدول المتعاقدة قد « تعهدت بأن لا تعقد أى اتفاق دولى يناقض هــذه المعاهدة ، وبأن لا تسلك فى علاقاتها الدولية ــ مع الدول الأخرى ــ مســلكا يتنافى من أغراض هــذه المعاهدة » • وفى الوقت الذى انضــمت فيه العــراق الى حلف بغــداد ، رأت حكومة الثورة فى مصر ، ووافقتها بقية الدول العربية ، أن هذا الحلف من شأنه أن يخضــع البلاد العربية للسيطرة الأجنبية ، وأن الدفاع عن العرب ينبغى أن يقوم به العرب أنفسهم •

ثم حدثت أحداث عدوانية من جانب الصــهيونية على الحــدود الأردنيــة والمصرية والسورية واللبنانية ، فلم توضع المعاهدة موضع التنفيذ • وبذلك ظلت هــذه المعاهدة مجرد رمز لرغبة العرب فى الوحدة وشعورهم بضرورتها ، بينما تلعب الاعتبارات الأسرية ، والتنــافس الشخصى ، والضغط الاستعمارى عملها فى الرجعية العربية فتعرقل هذه الرغبة وتعطل هذه الضرورة •

الوحدة العاطفية والفكرية :

وليست ظاهرة الوحدة العربية عبر التاريخ مقصورة على المظهر الســياسى بل ان هــذه الوحدة لأظهر فى الناحية العاطفية والناحية الفكرية ، لأنهــا كانت دائما أقوى عنــد الأمة العربيــة منها عند كثير من حكام الأمة العربية • فهــذه المظــاهر العاطفية والفكرية للوحدة العربيــة كانت موجودة دائما حتى عنــدما كانت الوحدة الســياسية تتعرض أحيانا للانهيار • والشــعور العام عند العربى بأنه مواطن فى الوطن العربى الأكبر ، وأنه جزء من سائر الأمــة العربيــة انتصر على جهالات السياسة وخياناتها فى كل الأحــوال •

فعندما هجم الصــليبيون على الشام وانتصروا على أمرائهــا ، كان الذى تخاذل فى جميــع أنحاء الوطن العــربى هم الحكام ، تخاذل الخليفــة العباسى فى بغداد ، وتخاذل الخليفة الفاطمى فى القــاهرة • أما الشــعب العربى هنا وهناك ، فاذا كانت المعركة قد فاتته كما أراد حكامه ، فقد عبر عن عواطفــه نحو اخوانه عرب الشــام ، وظهر هــذا التعبير فى الأدب ، فى قصص ألف ليــلة وليلة التى كتبت فى ذلك العصر ، وفى شعر مصر والعراق ، وقد مرت أمثلة من ذلك •

وتجد الجفوة دائما بين الحكام بسبب انحرافات بعضهم ، ولكنك لا تجد جفوة بين شعب عربى وشعب عربى آخر • وفى أثناء الاعتداء الثلاثى على مصر فى سنة ١٩٥٦ ، أتت المقاومة من قبل الشعوب العربية أكثر مما أتت من جانب الحكام • وقد كان الشعب السورى هو الذى حطم أنابيب البترول ، واضطر العملاء من الحكام الى أن يكذبوا على شعوبهم العربية فيخفوا تخاذلهم ويعلنوا اجراءات لم ينفذوها خوفا من الشعوب واسترضاء لعواطفها •

وعلى طول التاريخ العربى ، كان العالم العربى كله وحدة فى اعتبار العرب متجاهلين انقسام الدول والحكومات ، وكان العربى ينتقل كيفما يشاء وهو يشعر أنه انما يتنقل من جزء من وطنه الى جزء آخر • ولم يفكر أحد فى مطالبته بتصريح للدخول أو الخروج أو الاقامة • واينما حل ، اعتبره الأهالى العرب مواطنا وأفسحوا له من أسباب الرزق ، وولته الدولة الوظائف العامة • فالمواطنة العربية العامة ظاهرة من ظواهر التاريخ •

ضاقت أسباب العيش بالامام الشافعى فى بغداد فسار الى مصر ، فكان فقيهها ومفتيها وأستاذها الأكبر ، وترك الناس رأى من كان بها من الفقهاء وكانوا تلاميذ مالك ، وتلاميذ الليث بن سعد المصرى ، وأخذوا برأى الشافعى ، وما عليهم فكلهم عرب مهما اختلفت بهم الدار •

وابن بطوطة كان من طنجة فسافر وتنقل بين جميع البلاد ، وولى القضاء فى أكثر من قطر اذ كان مواطنا عربيا أينما حل فى الوطن العربى •

وفيلسوفنا الأكبر عبد الرحمن بن خلدون ولد فى تونس من أصل يمنى ومع ذلك فقد كان مواطنا عربيا فى أكثر من قطر وعمل مع أمراء عديدين فى شمالى أفريقية ، ثم سافر الى مصر فكان قاضى القضاة فى القاهرة ، بل وأوفد سفيرا الى تيمورلنك يفاوضه باسم الحكومة المصرية فهو عربى أولا وآخرا •

وعبد اللطيف البغدادى جاء الى مصر ، وتصدر للتدريس فى الأزهر ، والتف حوله التلاميذ فقرأ عليهم كتب الطب •

وكان السيد أحمد البدوى مغربيا من فاس ، ولكنه تنقل بين ما شاء من أقطار العروبة من الحجاز الى العراق ، ثم عن له أن يستوطن مدينة طنطا من أعمال مصر فنزلها أهلا وحل بها سهلا وكان شيخها الأكبر ووليها الأعظم ولم يكرم مواطن مصرى فى حياته وبعد مماته كما كرم السيد أحمد البدوى •

والشيخ أبو العباس المرسى شيخ مشايخ الاسكندرية ووليها الأكبر أندلسى من مرسية . وله بالاسكندرية من المقام والولاية ما يفوق ما لوليها المصرى الامام البوصيرى .

والمتنبى شيخ الشعراء العرب ولد فى الكوفة وتنقل وقال الشعر فى كل بلد عربى حتى أتى الى مصر وكان شاعرا عربيا أينما حل .

وابن قلاقس الشاعر الأيوبى ، ولد بالاسكندرية ومات بعيذاب . والقاضى الفاضل امام البلاغة من فلسطين ولد بعسقلان ، ثم انتقل الى الاسكندرية ثم انتقل الى القاهرة فى أواخر الدولة الفاطمية وتنقل بين مصر والشام حتى كان وزير صلاح الدين الأيوبى والرجل الأول فى مصر فى عهده وعهد أولاده .

وابن خلكان المؤرخ ولد فى المشرق ، ثم رحل الى الشام ، فتولى هناك قضاءها ، ثم رحل الى القاهرة واشتغل بالتدريس فى مدارسها ثم عاد الى الشام قاضيا .

والأمر لم يقتصر على العصور الوسطى أو على العصور الذهبية فى تاريخ العروبة ، بل انه استمر الى العصر الحديث ؛ فالذين بدأوا عصر ترجمة العلوم الطبيعية فى مصر فى عهد محمد على كانوا من الشام كالراهب روفائيل ويوحنا عنحورى واغسطين سكاكينى ، ويوسف فرعون ، وأحمد فارس الشدياق ولد بعشقوت من أعمال لبنان ثم رحل الى مصر فتولى بها تحرير الوقائع المصرية ، جريدة الدولة فى عهد محمد على ، ثم رحل الى تونس فكان المقدم هناك .

وفى العصر المتأخر نجد جورجى زيدان وفارس نمر وخليل نقاش ويعقوب صروف وابراهيم اليازجى ، وغيرهم عشرات من أهل الشام ، ضاقت بهم أسباب العيش أو أسباب الفكر فى وطنهم المحلى ، فوجدوا لنشاطهم متسعا فى مصر ، وكانوا كتابها وصحافييها وممثليها ومؤلفيها ، وما زالت ذريتهم بمصر الى الآن عربا مصريين .

ويندر أن تجد أديبا أو عالما أو فقيها عربيا ، لم يسافر فى الوطن العربى من المشرق الى المغرب طالبا للعلم ، حاضرا على الأساتذة فى كل بلد . ومنهم من لم يعد الى وطنه قط ، فهو فى وطنه أينما ذهب ، والليث بن سعد الفقيه المصرى ، ولد بقلقشندة من قرى القليوبية ، ثم رحل يطلب العلم فى مكة والمدينة وبيت المقدس

وبغداد ، ثم عاد الى مصر ، وقد أصبح من كبار أئمة الفقه . وكذلك فعل غيره من فقهاء مصر كعبد الله بن وهب وعبد الرحمن ابن القاسم وعبد الله بن عبد الحكيم وأشهب بن عبد العزيز ، فلما أراد فقهاء المغرب والأندلس أن يتعلموا ورحلوا الى مصر وتتلمذوا على فقهائها ، كعبد الملك بن حبيب فقيه قرطبة ، حضر الى مصر وتتلمذ ثم عاد .

ولم يقتصر الأمر على أهل العلم والأدب بل تعداه الى التجار وأصحاب الحرف والفنون . ولم يحفظ لنا التاريخ أسماءهم ولا تراجم حياتهم ولكنهم كانوا ينتقلون بالآلاف . ومحمد بن سنقر البغدادى الفنان الذى تخصص فى صناعة النحاس وتكفيته ، والذى صنع قناديل مارستان السلطان الناصر محمد ابن قلاوون ، نشأ وتعلم فى بغداد ، وكان صاحب مدرسة فنية بها ، ثم انتقل الى مصر وأنشأ بها مدرسة فنية أخرى على ذوق أمرائها .

ويندر أن نجد كتابا عربيا أو ديوان شعر كتب فى بلد عربى واحد ، فقد كان المؤلف أو الشاعر ينتقل فى الأمصار العربية ويؤلف أو يكتب جزءا فى كل بلد ، فديوان المتنبى ليس شعرا شاميا ولا مصريا ولا عراقيا ، وانما هو شعر عربى نظم بعضه فى حلب وبعضه فى دمشق ، وبعضه فى الكوفة ، وبعضه فى القاهرة . وكذلك شعر أبى تمام نظم بعضه فى الفسطاط وهو يسقى الماء بمسجد عمرو ، ونظم بعضه ببغداد ، وبعضه بكل بلد عربى . ومقدمة ابن خلدون كتب بعضها فى تونس وبعضها بالقاهرة . ووفيات الأعيان كتب ابن خلكان نصفه فى مصر ونصفه فى الشرق .

والكتاب العربى كان يقرأ فى كل مكان من الوطن العربى ، فليس لأى قطر عربى كتب خاصة به ، وكانت نفس الكتب تدرس بالأزهر فى القاهرة ، وبالزيتونة فى تونس ، وبالقرويين فى فاس ، وبالأموى فى دمشق . ولما ألف أبو الفرج الأصفهانى كتاب الأغانى ، أرسل اليه الحكم الخليفة العربى بالأندلس ألف دينار من الذهب ليرسل اليه بكتابه قبل أن يخرجه ببغداد .

ولعل من أبلغ ما يدل على وحدة الوطن العربى فى نفوس العرب ، أن كل هذا التنقل حدث فى وقت كانت فيه السفن الشراعية ، وظهور النياق ، ومتون الحمير أسرع وسائل المواصلات . ولم يكن هناك دوريات الشرطة ولا سيارات النجدة تجوب الطرق والدروب ، وقد خرج قطاع الطريق على حجة الاسلام الغزالى

فنهبوا متاعه ولم يجدوا خيرا فى كتبه فألقوا اليه بها ، فحمد الله على أنهم ردوا عليه الكتب التى كان قد سافر لاحضارها . وغرقت زوجة ابن خلدون وأولاده جميعا وهم قادمون اليه بمصر من تونس . وبعدها سافر الى الشام وتسلق أسوار عكا على حبل ليفاوض تيمورلنك المغولى باسم الحكومة المصرية . ولعل من شواهد الوحدة أيضا أن المواطن العربى كان يتولى جميع أنواع الأعمال والوظائف العامة فى أى بلد عربى مهما كان مسقط رأسه من الوطن العربى . حتى الوظائف الدقيقة كالقضاء والتدريس ورئاسة ديوان الرسائل ، وهو أسرار الدولة ، كان يتولاها أى عربى وافد فى أى بلد عربى .

هذه الوحدة السيكلوجية والفكرية ، هى التى حاول الاستعمار الغربى محاربتها وقمعها ، حين حرمت الحكومات الاستعمارية الانتقال بين الأقطار العربية ، وأقامت السدود التى عرفت باسم جوازات السفر وتأشيرات الدخول ، وكلها بدع أوجدها الاستعمار بعد الحرب العالمية الأولى وكانت احدى مؤتمراته ضد الوحدة العربية ، وأحد طرقه المنظمة لتقطيع ما أمر الله به أن يوصل من أسباب العروبة .

ما تقدم يدل على أن الوحدة العربية ظاهرة من ظواهر التاريخ ، وجدت فعلا وتحققت على عدة أشكال على طول ما امتدت العصور التاريخية .

ثالثا ـ الوحدة العربية ضرورة من ضرورات الحياة المعاصرة

اذا كانت الوحدة العربية اتجاها تاريخيا ، وظاهرة تاريخية ، وكانت بذلك من حتميات التاريخ ، فهل هى من مقتنيات الحياة المعاصرة ؛ وهل هى ضرورية فى ضوء حاجاتنا فيها ؟

وتتضح ضرورة الوحدة العربية من دراسة عابرة لخصائص العصر الذى نعيش فيه :

نحن نعيش فى عالم منقسم :

نحن العرب لا نعيش الآن بمفردنا فى العالم كما كنا نعيش فى العصور القديمة ونحن لا نعيش مع أشباح أمم أولا أمم كما كنا فى العصور الوسطى . ولكنا نعيش فى وسط أمم غاية فى القوة فى الوقت الحاضر . ثم ان العالم الحاضر الذى يتكون

من أمم قوية منقسمة الى معسكرين متعاديين متباغضين ، نذر الحرب بينهما مستمرة . وكل من المعسكرين يحاول أن يجتذب الأنصار ويكبر حجم التكتل الملتف حوله .

وليس للعرب مصلحة مع هذا المعسكر أو ذاك ، الا ما تريده كل أمة محبة للسلام من المعايشة السلمية التى تقوم على التبادل الثقافى والاقتصادى القائم على المساواة التى لا تعرف التسلط ، والحرية التى لا تعرف التحزب ، والاستقلال الذى لا يعرف التبعية ، ومن ثم فمصلحتنا أن نقف على أقدامنا أمام المعسكرين موقف الند محتفظين بشخصيتنا القومية .

ونحن العرب لا نستطيع أن نواجه هذا العالم المنقسم القوى فرادى مجزئين والا ضعنا بين الشرق والغرب والتهمنا هذا الفم الواسع أو ذاك .

وانما طريق السلام أن نواجه هذا العالم المنقسم كتلة واحدة ووحدة متماسكة ، حتى يكون لنا وزن ولنا حجم يكبر على الأفواه ويعز على الأضراس ، فهذه مشكلة قائمة تجعل وحدة العرب ضرورة لازمة . فالوحدة هنا مسألة موت أو حياة .

نحن نعيش فى عالم يسوده الاستعمار :

يخطىء من يظن أن الاستعمار قد انتهى أو أن الدول الغربية قد عدلت عن سياستها الاستعمارية . والواقع أن الاستعمار قد انهزم أمام الوعى القومى الذى ساد الشعوب وبعد أن أنهكته الحرب العالمية ، والواقع أيضا أن الدول الاستعمارية فى فترة تهيؤ وتربص تود لو استطاعت أن تنقض على الفريسة من جديد ، ولقد خرج الاستعمار الانجليزى من مصر فى يونيو سنة ١٩٥٦ ، ثم تذرع بتأميم شركة قناة السويس وحاول أن يعود .

والدول الغربية تتخذ العدد دائما . وتخترع الوسائل وتضع أشكالا جديدة للاستعمار وأسماء براقة ، ولكن السياسة هى السياسة والاستعمار هو الاستعمار والغرب هو الغرب ، ونحن الهدف والقصد من وراء هذا كله .

والأحلاف والاتفاقيات والمعونات عندما تكون بين قوى وضعيف أو بين عدو وعدو أو بين أمتين لا تربطهما مصلحة ولا ثقافة ولا دين ولا عاطفة ولا جنس ولا وطن فهى الاستعمار بعينه وان اختلفت الأسماء .

والشيوعية الشرقية تدعى أنها عالمية لا تعرف القوميات ولا الحدود ، ومذهبها أن العالم كله يجب أن يكون شيوعيا تحت زعامة روسيا ، والقومية فى نظرهم تعصب وضيق أفق ورجعية ، الا أن تكون قومية شيوعية فى أيديهم هم يسيطرون بها على العقول أولا ثم على الوطن ثانيا .

وسياسة الاستعمار أن يقسم الشعوب ويفكك الأمم ثم يلتهمها جماعة وجماعة ووطنا وطنا ؛ اذ من غير المعقول ومن غير الممكن أن تستولى دولة مهما عظمت على اقليم برمته ، وعلى ملايين من البشر دفعة واحدة .

ويجب اذن أن يواجه العرب الدول الاستعمارية شرقية وغربية كتلة واحدة .

نحن نعيش والصهيونية على بعد خطوات منا :

والصهيونية ليست خطرة فى حد ذاتها . ولو كانت بمفردها لقضينا عليها من زمن وانما المهم فيها أنها ذنب من أذناب الاستعمار . ووسيلة من وسائله ومؤامرة من مؤامراته . ومن هنا تأتى خطورة الصهيونية .

واقامة دولة صهيونية على جزء من فلسطين العربية كان وسيلة لايجاد ثغرة فى وسط الوطن العربى يمكن للاستعمار أن ينقض منها على كل شطر منعزلا عن الآخر . ان فلسفة الحروب الصليبية تسيطر على الحركة الصهيونية الاستعمارية ، أما التسميات من صليبية وصهيونية وأماكن مقدسة ، ووطن قومى وغيرها ، فذرائع تغطى القصد الأول ؛ وهو الانقضاض الاستعمارى على الوطن العربى مجزءا متفككا متباعدا .

وليست اسرائيل حين تقف أمام العرب الا كالدودة تقف للسمكة فى الصنارة ومن ورائها الصائد ، وعندما أرادت انجلترا أن تعيد الكرة علينا فى سنة ١٩٥٦ ، دفعت اسرائيل فتحرشت بحدودنا ، ثم كان الاعتداء الاستعمارى . فالوحدة هنا ضرورة لأنها من وسائلنا أمام الصهيونية .

نحن نعيش فى عصر الجيوش الجرارة :

ومع حاجتنا الى الدفاع فان الجيوش الحديثة لم تعد لعبا ؛ ميمنة وميسرة وقلب بألفين أو بضعة آلاف . أننا نعيش فى عصر الجيوش المتعددة الأسلحة

فسلاح للبحرية ، وسلاح للجو ، وسلاح للمدفعية ، وسلاح للمشاة ، وسلاح للقناصة ، وسلاح للمهندسين ، وسلاح للألغام ، وسلاح للتموين ، وسلاح للخدمة الطبية ، وغير ذلك مما لا نعرف من الأسلحة والألوية .

وأمام هذه الجيوش الجرارة لا تستطيع أى دولة يبلغ تعدادها مليون نسمة أو مليون وبعض مليون ، كما هى الحال فى بعض الدول العربية ، أن تجهز جيشا من هذا النوع ، وانما الذى يستطيع أن يجيش هذا الجيش هو الوطن العربى الذى يبلغ تعداد سكانه مائة مليونا .

الجيش من عدد الحياة فى الوقت الحاضر ، ولا بد أن يكون جيشا جرارا كامل الخلقة . وانما تستطيع الأمة العربية الموحدة أن يكون لها هذا الجيش الذى تقابل به الصهيونية والاستعمار .

نحن نعيش فى عصر العلم والصناعة :

مضى الزمن الذى كان شاعرنا يقول فيه :

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب ... وينصر دين الله أيان يضرب

ويكون شاعرا بليغا . ان الأمة التى يكون سلاحها السيف والحسام والمهند والبندقية أو حتى المدفع أى مدفع ، هى أمة النوكى والبلهاء . اننا نعيش فى عصر الطائرة النفاثة ، والدبابة ، والمدرعة ، والقنبلة الذرية ، والقنبلة الأيدروجينية ، مما سمعنا عنه وما لم نسمع .

أين الدولة التى تستطيع بمفردها أن تحصل على كفايتها من كل هذه الأسلحة سواء بالاختراع أو الصنع أو الشراء ، وفى عالم من وسائل العيش فيه أن يعرف لئامه أن عندك من هذا شىء ينهض .

ان نوع الأسلحة التى يجب أن يستخدمها العرب ضد أعدائهم وأعداء الله اذا جد الجد ، لا يتوافر لهم الا فى ظل الوحدة الاقتصادية والوحدة العسكرية .

نحن نعيش فى عصر العلم والصناعة :

لكل عصر معداته ووسائله ، ولقد انقضى الزمن الذى كان من وسائله الشعر والفصاحة والسفر على النياق ، وبكاء الديار والأطلال . ومضى الزمن الذى كان التقشف فيه فضيلة وكانت القناعة كنزا لا يفنى .

وليس العيب عيب الشعر والفصاحة ، ولكنه عيب الزمن ، فقد كانت هذه الأشياء مفيدة عندما كنا نعيش فى عالم ليس معنا فيه الا الأعمى والمقعد والأبكم ، حقيقة أو مجازا ، ولكننا نعيش الآن فى عصر يعيش معنا فيه أمم تركب الطائرة التى تسير بسرعة الصوت ، وتستخرج كنوز الأرض ، وتغير أشكال الغلات والحاصلات والمعادن بالصناعة وتحيلها الى قوة ، الى آخر هذا النشاط الذى ضاعف الانتاج وزاد سرعة الحياة ، ورفع مستواها •

والعرب لا يرضيهم أن يعيشوا متخلفين عن ركب الزمن ، يسيرون ويركب الناس ، ويتكلمون ويعمل الناس ، ويجوعون ويشبع الناس ، ويعملون بأيديهم ويحملون الأثقال على أكتافهم ، ويحفرون الأرض بمخالبهم ، والناس من حولهم تستعمل الآلات والأدوات •

اننا نعيش فى عصر العلم والصناعة ، والعلم والصناعة غالية الثمن ، فهى تحتاج الى خامات وأسواق ومهارات • وهذه الأشياء لا توجد فى قطر واحد من أقطار العروبة ، انما هى توجد فيها جميعا — يوجد البترول فى الجزيرة العربية والعراق ، ويوجد الحديد فى مصر والمغرب ، ويوجد كل شىء موزعا بين هذه الأقطار ، ومن هذه كلها مجتمعة يصبح العلم ممكنا ، وتصبح الصناعة ممكنة ، وتصبح الحياة الرفيعة ممكنة •

ولقد فاتنا عصر البخار والكهرباء — كما يقول الميثاق — ولا نريد أن يفوتنا عصر الذرة • وانما فاتنا عصر البخار والكهرباء لأنهما اخترعا ونحن مشتتو الشمل مقسمو الوطن • وانما نكسب عصر الذرة والوحدة •

نحن نعيش فى عصر الدعاية :

مضى الزمن الذى كان من فضائله أن تكون غنيا فتستر غناك ، أو فاضلا فتغطى فضلك ، أو محسنا فتوارى احسانك ، أو قويا فتظهر فى هيئة الضعفاء تواضعا • ومضى الزمن الذى كان من فضائله أن يخفت صوتك وتخفض للناس جناحك • ومضى الزمن الذى كنا نستطيع فيه أن ننشد مع شاعرنا :

خفف الوطء ما أظن أديم ال　　　أرض الا من هذه الأجساد

اننا فى زمن لا تقبل الدنيا فيه الا على من يسمع صوته ، ويعلو بين الناس صياحه ، والا من يعرف الناس عنه القوة والكثرة والغنى والجاه والحسن

والاحسان • اننا نعيش فى زمن لا يعيش فيه من يتورع عن المشى على أجساد الموتى ، بل من يمشى عامدا على أجساد الأحياء •

وليس الذنب ذنبنا ، ولا ذنب قيمنا ، ولكنه ذنب الناس الذين نعايشهم ، فقد قرروا هذه المثل ، وهيهات أن تقنعهم بقيمنا ، فلا بد من أن نكاثرهم ونغالبهم وبأصواتنا نملأ أسماعهم •

هذه هى فلسفة الدعاية فى العصر الحديث • فليس يكفى أن تكون قويا ، بل يجب أن يعرف الناس عنك أنك قوى • ولا يكفى أن تكون كثيرا ، بل يجب أن يتأكد الناس من أنك كثير • وبهذه المعرفة — لا بقوتك وكثرتك وحدهما — يهابونك ويعملون لك ألف حساب • والويل لك اذا استترت أو تواضعت ، أو قلت أغلق بابى دون الناس فلا أريد أن أكون خادما أو سيدا •

فأى مظهر من مظاهر القوة والكثرة ، يستطيع أى قطر عربى بمفرده أن يبدو بها أمام الناس حتى يهابه الأعداء ويحترمه الأصدقاء • ان سلامة العرب فى أن يعرف عنهم الشرق والغرب أنهم كثيرون أقوياء ، والا طمع فيهم الأعداء ، وأشفق عليهم الأصدقاء • والوحدة العربية هى هذا المظهر الذى يقنع •

فأحوال العالم المعاصر يجعل الوحدة العربية طريق النجاة ، وغيرها هو طريق الانتحار فى هذا العالم الحديث •

رابعا ـ الوحدة العربية ضرورية لتحقيق الاهداف العربية

ذكرنا فى آخر الفصل السابق أهداف القومية العربية وهى :

١ — القضاء على الاستعمار •
٢ — القضاء على الصهيونية •
٣ — اقامة مدنية عربية حديثة أصيلة •
٤ — الدفاع عن مصالح العرب أينما كانت وكيفما كانت •

وقد مر بك فى أكثر من موضع أن الوحدة العربية كانت الوسيلة الأهم فى سبيل هذه الغاية — كانت كذلك فى الماضى وهى فى الحاضر أكثر أهمية • فكل هذه المشكلات تكبر مع الزمن • ولا بد كذلك أن تكبر الوحدة وتقوى

وتماسك لتواجه هذه الأهداف وتستطيع تحقيقها • ولن يستطيع العرب مواجهة هذه الأهداف وهم متفرقون الى جماعات صغيرة ودويلات هزيلة •

فالاستعمار لا يرد أطماعه الا الوحدة والا التماسك • ولم يستقل بلد عربى واحد الا بمساعدة أخواته العربيات • حدث هذا فى استقلال سورية ولبنان • وحدث فى الاعتداء الثلاثى على مصر ، وحدث فى الجزائر • وحتى مصر لم تتخلص من الاستعمار البريطانى الا بوحدتها الداخلية • فالوحدة طريقة وفلسفة يجب أن تتحقق فى داخل كل قطر عربى ، كما يجب أن تتحقق بين الأقطار العربية لكى تقوى هذه الأمة على الوقوف فى وجه الاستعمار • وقد مر فيما سبق من فصول هذا الكتاب أمثلة كثيرة •

والصهيونية فى فلسطين المحتلة ، لم تتمكن من احتلالها الا بانقسام كلمة العرب وتخاذلهم ، ولم تتمكن من البقاء الا لأن العرب لم تصدق عزيمتهم الى الآن على الاحاطة بها كجماعة واحدة وجيش واحد وقيادة واحدة • ولو اتحد العرب وأطبقوا عليها من كل جهة ما وسعها الا أن تهرب الى البحر اما غرقا واما الى الآفاق التى منها أتى أصحابها •

وأين الأمة التى تستطيع أن تبنى بمفردها حضارة مادية وروحية متكاملة على سطح الأرض الآن ؟ ان المدينة الحديثة لم تعد منجلا ومحراثا وشق ترعة أو صناعة عجلة • ان المدينة الآن علم واختراع وصناعة وانتاج كبير • والأدب الآن لم يعد فخرا أجوفا بالقبيلة ، ولا بكاء على دمنة ، ولا وصفا لامرأة وتشبيبا بها ، ولا عادة مدحا وهجاء • ان الأدب الآن سجل لخبرات الانسانية الكبيرة ، وأهداف قومية حيوية • ومثل هذا الأدب لم يعد قادرا على صنعه فرد منعزل فى وطن صغير أو جماعة قليلة ، وانما يصنعه فنان تتجاوب نفسه مع القوى الانسانية خارج الحدود • والصناعة اليدوية والفن المنمنم لم يعد لهما مجال ، وانما المجال الآن للانتاج الكبير وغزو الأسواق ، والفن الشعبى الفسيح الذى يعبر عن اتجاهات الجماهير وآمالها لا عن ذوق الطبقة المقفلة داخل القصور • وليس فى وسع قطر عربى أو شعب عربى بمفرده أن يقيم مثل هذه الحضارة التى تحتاج الى رأس مال ضخم وعبقرية غزيرة متنوعة عميقة ، [illegible] متصل مما تنوء به العصبة المجتمعة ، فكيف بالجماعات المتفوقة •

ولا يستطيع أى شعب عربى ، مهما بلغ من القوة والكثرة والغنى ، أن يدعى

القدرة على التصدى للدفاع عن الأهداف العربية الكبرى . ان الأهداف العربية أهداف شعبية جماهيرية ذت صفة عالمية . ويجب أن تكون قوة كبيرة تلك التى تتصدى لمواجهة العالم بهذه الأهداف .

وأينما نظرت الى الوحدة العربية فانك لواجد أنها حتمية تاريخ ، ومقتضيات حاضر ، وأمل مستقبل ، وطريق سلامة .

الوحدة العربية فى ظل ثورة سنة ١٩٥٢

عرفنا فيما تقدم من الكلام على القومية العربية ، أن مفهوم هذه القومية قد ازداد عمقا ومحتوى بما أضافته اليه الثورة المصرية الكبرى (يوليو سنة ١٩٥٢) من دفعة قوية فكرية ومادية . وقد انتقلت هذه الدفعة الى فكرة الوحدة العربية أيضا وهى المظهر العملى للقومية العربية .

وقد عبر عن ذلك الرئيس جمال عبد الناصر عندما قال :

« ان مصر كانت خارج الكفاح العربى (فقد كانت منشغلة بمكافحة الاستعمار البريطانى) . وبعد الثورة اكتشفت مصر نفسها ومكانها ، فكان يتعين عليها أن تعود الى قلب الكفاح العربى . ثم دفعتنا ظروف موضوعية وقوى تاريخية الى أن نصبح فى مركز رئيسى . فلم يعد فى وسعنا أن نفعل غير ما نفعل الآن . . . لقد أصبحت القاهرة قاعدة كل الكفاح العربى من عمان الى الجزائر » .

ولقد كانت التجربة الثورية فى مصر ملكا مشاعا بين عامة الشعوب العربية ، فاعتنقت تلك الشعوب مبادىء الثورة فى كل المجالات القومية . واذا كانت الاشتراكية قد أصبحت مذهبا لكافة الشعوب العربية فى الوقت الحاضر ، هى غريبة كل الغرابة عن واقع هذه الشعوب ، التى كانت كلها ترزح تحت الاقطاع والاستغلال ، فقد كان من منطق الأشياء أن تحتل فكرة الوحدة العربية ، بؤرة العاطفة والفكر عند هذه الشعوب أيضا ، لما لها من الجذور العميقة فى نفس كل عربى .

والى قيام الثورة ، كان موقف الوحدة العربية على جانب كبير من الضعف . ففى الجانب السياسى والعسكرى لم تحقق الجامعة العربية كثيرا مما كان ينتظر

منا من آمال • لقد أسمعت صوتها فى كل مناسبة لصالح العرب • ولكن عندما كان الأمر يستدعى عملا ايجابيا سياسيا أو عسكريا فقد كانت عاجزة تماما • أما فى مجال الثقافة فقد كانت الجامعة تصول وتجول فى مجال المؤتمرات والتوصيات واصدار الكتب والنشرات • ولا غرابة فى ذلك فقد كانت سلطة كل دولة عربية على حدة فوق سلطة الجامعة مجتمعة • ولم يكن لقرارات الجامعة قوة الالزام • وكان الاستعمار دائما وراء الانحراف عن جادة العروبة • وكانت دولة غنية كالعراق فى العهد الملكى ترفض أن تدفع نصيبها من ميزانية الجامعة امعانا فى اضعاف ذلك الرمز الذى لا يضر ولا ينفع • هذا فى الوقت الذى تتوقف فيه الجامعة على الحكومات لأنها تمثل الحكومات ولا تمثل الشعوب العربية •

وعلى ذلك فقد كان وراء الجامعة خطوات فسيحة يطمح العرب الى تحقيقها ، وكانت القناعة بمجهود الجامعة خيانة لقضية الوحدة العربية • وفى ذلك يقول الميثاق :

« ان الجامعة العربية قادرة على تنسيق ألوان ضرورية من النشاط العربى فى المرحلة الحاضرة ، ولكنها فى نفس الوقت تحت أى ستار وفى مواجهة أى ادعاء لا يجب أن تتخذ وسيلة لتجميد الحاضر كله وضرب المستقبل به » •

لذلك لا نعجب اذا وجدنا حركات ترمى الى تحقيق أنواع أخرى من الوحدة العربية خارج نطاق الجامعة العربية • ولذلك أيضا نلاحظ أن الحركات الوحدوية التى كانت تأتى من جانب الحكومات كانت تقابل دائما بالفتور ، على حين أن الحركات التى تأتى من جانب الشعوب العربية كانت دائما أكثر حيوية وأكبر أملا فى النجاح • ومن هنا كان من أهم عوامل زعامة الثورة المصرية فى مجال الوحدة العربية أن الثورة وراءها مد شعبى وارادة شعبية ، وأنها تمثل هذه الارادة دائما •

وقد حدثت ارهاصات لقيام وحدة حقيقية كان الدافع اليها كلها عدم الرضى عن كفاية جامعة الدول العربية لمواجهة احساس الجماهير العربية بضرورة الوحدة • ومن هذه الارهاصات مذكرة تقدمت بها الحكومة السورية فى سنة ١٩٥١ الى الجامعة العربية • وهذه مذكرة غاية فى القوة • وقد أشارت المذكرة الى خطورة الحالة الدولية وتهديد الصهيونية ، وعجز أكثر الدول

العربية عن الدفاع عن نفسها خصوصا بعد أن شطر الجزء المحتل من فلسطين بين عرب مصر ومن يليهم غربا وبين عرب الشرق . ولهذا تقترح المذكرة : « مشروعا عمليا يشمل الدول العربية جميعا ويكفل التوحيد فى السياسة الخارجية وفى الدفاع القومى والاقتصاد ، والمرافق الرئيسية » .

وتقول المذكرة ان هذه هى : « رغبة الأمة العربية الملحة فى مختلف أقطارها ، فسواء تطلعنا الى ماضى الأمة العربية ، أو الى صميم الواقع نجد أن عوامل الوحدة كامنة موفورة راكدة ، تنتظر من قادة الشعوب اشارة الهبوب لتقضى على شبح التفرقة الجاثم والذى لا جذور له ولا أسس فى ضمائر الناس » . ثم تقول المذكرة : « ومن الخير أن نسعى الى الاتحاد أحرارا وأن يكون لصالحنا ومن صنع أيدينا ، وفى اندفاع الأمة العربية وحماسها . بدلا من أن تفرض علينا أشكال أخرى فى ظروف قاهرة » .

ولقد قوبلت هذه المذكرة بالترحيب من الرأى العام ، ولكن الجهات الرسمية لا ترحب بها لاعتبارات اقليمية وشخصية وأسرية فأهملت .

وفى يناير سنة ١٩٥٤ تقدم وزير خارجية العراق ورئيس وفده الى الجامعة العربية بمذكرة تدعو الى اتحاد فعلى بين دول الجامعة أو من يرغب منها . وقد أشارت المذكرة الى أن « السبيل الوحيد لانقاذ العرب من محنتهم الحاضرة ومجابهة الخطر الاسرائيلى واقرار السلم فى هذا القسم الحيوى من العالم ، هو تحقيق الاتحاد العربى » . وذكرت المذكرة أن ما رددته جمهورية مصر بلسان رئيسها وأعضاء حكومتها من الرغبة الصادقة فى اتحاد البلاد العربية ، كان من العوامل التى شجعت حكومة العراق على تقديم مذكرتها . ولكن كل انسان كان يعرف اتجاهات الحكومة العراقية أيام الملكية ونورى السعيد ، فلم يشق بالمذكرة أحد .

وقد عبر رئيس جمهورية مصر ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٤ بمناسبة ذكرى الثورة المصرية عن سياسة الثورة ازاء الوحدة ، قال : « ان كل فرد فى البلاد العربية مصريا ، أو سودانيا ، أو لبنانيا ، أو حجازيا ، أو عراقيا ، أو اردنيا ، أو يمنيا ، أو مغربيا ، أو ليبيا ، أو كويتيا ، يؤمن ايمانا قاطعا بأن الوحدة الحقيقية بين البلاد العربية ، هى السبيل الوحيد لتحقيق أمانيهم ، وآمالهم ودرء الأخطار عنهم » .

وبجانب هذه المشروعات من جانب الحكومات عبرت الشعوب العربية عن أملها فى الوحدة العربية فى أكثر من مناسبة . فمؤتمر خريجى الجامعة الأمريكية ببيروت الذى انعقد بها فى يونية سنة ١٩٥٤ ، وحضره أكثر من مائتى متخرج من كل البلاد العربية ، جعل موضوع الوحدة العربية فى مقدمة ما تناوله من مواضيع. وقرر المؤتمر تأليف لجنة خاصة مهمتها وضع دستور مفصل لدولة اتحادية . والسعى فى حمل الدول العربية على الأخذ به ، دون أن يكون تفاوت الأوضاع والامكانيات بين هذه الدول سببا فى تعويق قيام الدولة الاتحادية العربية . وصدر نفس القرار عن مؤتمر خريجى الجامعات الذى انعقد بالقدس فى سبتمبر سنة ١٩٥٥ وحضره حوالى خمسمائة خريج من جميع البلاد العربية .

ومثل هذه القرارات والتأكيدات صدرت عن كل المؤتمرات الشعبية العربية الأخرى ؛ كمؤتمر المحامين العرب الذى انعقد بالقاهرة (١٩٥٦) ، ومؤتمر الخبراء الاقتصاديين (١٩٥٦) ، ومؤتمر المحامين العرب الذى انعقد بدمشق (١٩٥٧) .

وعلى الصعيد الحكومى عقد اجتماع تاريخى بالقاهرة فى مارس (١٩٥٦) بين الرئيس جمال عبد الناصر والملك سعود وشكرى القوتلى ، وكانت الوحدة العربية ، وتوطيد التعاون بين الدول العربية فى المجالات العسكرية والسياسية والاقتصادية ، من أهم ما دارت عليه المناقشة وما اشتملت عليه التصريحات والقرارات .

واتفقت سوريا والأردن فى صيف سنة ١٩٥٦ على اقامة وحدة اقتصادية شاملة بينهما . وعلى الغاء الجوازات بين البلدين .

وانعقد مؤتمر من رجال التربية والتعليم فى كل من مصر وسوريا والأردن والعراق فى صيف ١٩٥٦ ، وقرروا توحيد المناهج الدراسية وتبادل الزيارات بين الأساتذة والطلاب فى مختلف أجزاء الوطن العربى .

كل هذه ارهاصات للوحدة العربية لا يمنعنا عدم ظهور نتائج عملية لها فى حينها من أن نغفلها أو نقلل من أهميتها كمعالم فى طريق الوحدة ، وأدلة على أن الشعوب العربية مقتنعة بضرورة الوحدة وأهميتها ، مصرة على تحقيقها . وقد تبلورت كل هذه الآمال فى قيام الجمهورية العربية المتحدة وما يتبعها من اتحادات أخرى مما نعرضه على الترتيب الآتى :

١ ــ الجمهورية العربية المتحدة .

٢ ــ الدول العربيــة المتحــدة •

٣ ــ الاتحــاد العــربى الهاشــمى •

وكان لكل من هذه الاتحادات طبيعته وأهميته وأهدافه كما سنقرأ الآن :

١ ــ الجمهورية العربية المتحدة :

نص الدستور السورى الذى وضع سنة ١٩٥٠ على ما يأتى :

« نعلن أن شــعبنا هو جزء من الأمة العربيــة بتاريخه وحاضره ومستقبله • يتطلع الى اليوم الذى تجتمع فيه دولة واحدة وســيعمل جاهدا على تحقيــق هذه الأمنية فى ظلال الاستقلال والحرية » •

واحتوى نص قسم رئيس الجمهورية والنــواب كما جاء فى هــذا الدستور على « العمل على تحقيق الوحدة العربية » •

وفى الدستور المصرى الذى صدر فى ١٩٥٦ جاء :

« نحن الشعب المصرى •

الذى يشعر بوجوده متفاعلا فى الكيان العربى ويقــدر مسئولياته والتزاماته حيال النضال العربى المشترك لعزة الأمة العربية ومجــدها •

ومصر دولة عربية مستقلة ذات سيادة ، وهى جمهورية ديمقراطية ، والشعب المصرى جزء من الأمة العربيــة » •

وفى يوليه سنة ١٩٥٦ قرر مجلس الوزراء الســورى أن يأخذ على عاتقــه الدعوة الى اتحــاد عربى يبدأ فى مرحلته الأولى بالاتحاد بين مصر وسورية • وأقر مجلس النواب الســورى هذا القرار بحماســة زائدة وبالاجماع ، وطلب بسرعة العمل على تحقيقه على اعتباره الخطوة الأولى لاتحاد عربى شــامل كما نص الدســتور الســورى •

ولما كانت الوحــدة العربيــة هى من أهم أهــداف الثورة المصرية وجزءا أساســيا من سياستها ، فقد بادر الرئيس جمــال عبد الناصر فأعلن الترحيب بهــذا القرار وأعرب عن اســتعداد مصر للســير فى طريق تحقيقه تنفيــذا للمادة الأولى من الدســتور المصرى التى تنص على أن الشــعب المصرى جــزء من الأمة العربية ، وكان لذلك رنة فرح وابتهــاج وموضــع تأييد من كــل الشعوب العربية على اختلاف منازلها من الوطن العــربى • حتى مــلوك بعض

الدول العربيـــة لم يســـتطيعوا الوقوف أمام التيار الشعبى فى بلادهم فنافقوه وأعلنوا ترحيبهم بالمشروع •

ولما انعقـــد مؤتمـــر المحامين العرب فى دمشـــق فى ســـبتمبر ســـنة ١٩٥٧ وحضره مندوبون من جميع أنحاء الوطن العـــربى من الخليج الى المحيط ، درس المؤتمرون مشروع دســـتور للاتحـــاد العربى كانت قد وضعته اللجنـــة التنفيذية والتاريخية التى شرحها التقـــرير :

« يعلن المؤتمر أن تحقيـــق الوحدة العربيـــة هو أكبر أهـــداف الأمـــة ، والطريق الوحيد لدرء الأخطـــار الاســـتعمارية وحربة الاســـتعمار المســـمومة اسرائيـــل ، ويطالب حكومتى مصر وســـورية بالمبادرة سريعـــا الى تحقيـــق اتحـــاد فدرالى بينهمـــا على أن يكون مفتوحا لكل دولة عربية تتوفر لها مقومات التحـــرر » •

وفى منتصف نوفمبـــر ســـنة ١٩٥٧ زار وفـــد من مجلس الأمـــة المصرى سورية تلبية لدعوة وجهت اليه من المجلس السورى • وفى أثناء هـــذه الزيارة اجتمع وفد مجلس الأمة المصرى مع لجنة الشئون الخارجية بالمجلس الســـورى • ووضعوا معا تقريرا جاء فى ختـــامه تأسيسا على الظـــروف القوميـــة والعاليـــة والتاريخيـــة التى شرحها التقـــرير :

« ان أعضاء وفد مجلس الأمة المصرى ، وأعضـــاء لجنة الشـــئون الخارجية المجتمعين معـــا فى دمشـــق بجلسة مشتركة بتاريخ ٢٣ ربيع الثانى ١٣٧٧ و ١٧ تشرين الثانى ١٩٥٧ ، وبعد اطلاعهما على الخطـــوات والاتفاقات التى عقدت بين الطرفين يقترحون الاقتراع على القرار التالى :

« ان نـــواب المجلســـين المجتمعين اذ يعلنـــون رغبـــة الشـــعب العـــربى فى مصر وســـورية باقامة اتحـــاد فدرالى بين القطرين يبـــاركون الخطـــوات العمليـــة التى اتخذتها الحكومتان الســـورية والمصرية فى ســـبيل تحقيـــق هذا الاتحـــاد ويدعون حكومتى مصر وســـورية للدخـــول فورا فى مباحثـــات مشـــتركة بغية اســـتكمال أســـباب تنفيذ هـــذا الاتحـــاد » •

وفى جلسة مجلس النـــواب الســـورى التى اشترك فيها وفد المجلس المصرى فى ١٨ نوفمبر ١٩٥٧ تلى هذا القرار ووافق عليه المجلس والوفد معه بالاجماع ،

وفى مســاء نفس اليــوم انعقــد مجلس النــواب المصرى فى القــاهرة ووافق بالاجماع على نفس القرار ، وأبرق رئيس المجلس الى رئيس المجلس الســورى بدمشــق بهــذه الموافقــة .

وبدأت مرحلة المفاوضــات بين الحكومتين المصرية والســورية حتى اذا تم الاتفاق على الخطــوات العامة حضر شــكرى القــوتلى رئيس الجمهورية السورية وأعضاء حكومته الى القاهرة ، واجتمعوا مع الرئيس جمال عبد الناصر وأعضاء الحكومة المصرية ، وتقرر قيام الجمهــورية العربيــة المتحــدة فى ميثاق تاريخى أعلن فى يوم السبت أول فبراير سنة ١٩٥٨ ، جــاء فيــه أن المجتمعين تذاكروا « ما توالى فى الســنين الأخيرة من الدلائل القاطعة على أن القوميــة العربية كانت روحا لتاريخ طويل ساد العرب فى مختلف أقطــارهم ، ولحــاضر مشترك بينهم ومستقبل مأمول من كل فرد من أفرادهم . وانتهوا الى أن هــذه الوحــدة التى هى ثمرة القومية العربية هى طريق العرب الى الحرية والسيادة . وسبيل من ســبل الانسانية للتعاون والســلام . ولذلك فان من واجبهم أن يخرجوا بهذه الوحدة من نطاق الأمانى الى حيز التنفيــذ فى عزم ثابت واصرار قــــوى .

« ولذلك يعلن المجتمعون اتفاقهم التــام وايمانهم الكامل وثقتهم العميقــة فى وجوب توحيــد ســورية ومصر فى دولة واحدة اسمها الجمهــورية العربيــة المتحــدة .

« كما يعلنون اتفاقهم الاجماعى على أن يكون نظام الجمهــورية العربيــة ديمقراطيا رئاسيا يتولى فيه السلطة التنفيذية رئيس الدولة يعاونه وزراء يعينهم ويكونون مسئولين أمامه . كما يتولى السلطة التشريعية مجلس تشريعى واحد . ويكون لهذه الجمهورية علم واحد يظلل شعبا واحدا .

« ويعلنــون أن وحدتهم تتوخى جمع شــمل العرب ، ويؤكدون أن باب الوحدة مفتوح لكل بلد عربى يريد أن يشترك معها فى وحدة أو اتحاد » .

ووضع للجمهورية دستور مؤقت يحقق هذه المبادىء العامة .

وفى يوم الأربعاء ٥ فبراير سنة ١٩٥٨ وافــق كــل من مجلس النــواب الســورى ومجلس الأمة المصرى على الميثــاق .

ورشح شكرى القوتلى رئيس الجمهورية السورية الرئيس جمال عبد الناصر رئيسا للجمهورية العربية المتحدة وأشاد بما يتمتع به جمال عبد الناصر من صفات النزاهة والجرأة والاقدام ، وبتفانيه فى خدمة أمته وقوميته العربية معلنا ثقته بأنه سيعمل على اعلاء شأن الجمهورية الفتية بكل تجرد وصدق . ووافق المجلسان على الترشيح .

وفى ٢١ فبراير سنة ١٩٥٨ أجرى الاستفتاء العام على الاتحاد وعلى الرئيس جمال عبد الناصر فكانت موافقة بالاجماع فى كل من الشعبين السورى والمصرى .

وبذلك قامت الجمهورية العربية دولة عملاقة حققت لأول مرة الأمل الذى ظل حبيسا فى صدور العرب أجيالا طوالا وبلورت بشكل عملى كل مقومات القومية العربية التى ظلت تنتظر التحقق منذ سقطت الدول العربية أمام غارة الأتراك ، وتحقق للعرب بالوحدة بين مصر وسورية هدف طالما هفت نفوسهم لتحقيقه واشرأبت أعناقهم لاجتلاء طلعته وشق الطريق اليه وسط أشواك المؤامرات الاستعمارية والدسائس الرجعية ، وبذلوا فى سبيله كل غالى الأنفس وكريم التضحيات .

٢ — الدول العربية المتحدة :

كان رد الفعل على قيام الوحدة بين مصر وسورية سريعا قويا انفعلت به أفئدة الشعوب العربية جميعا واشرأبت أعناق العرب فى كل مكان الى الانضمام الى تلك الوحدة. كما كان صدمة عنيفة للعناصر الرجعية فى الوطن العربى وللقوى الاستعمارية خارج حدود هذا الوطن .

أما الشعوب فبدأت تتحرك وتطالب بالانضمام للوحدة . وأما الرجعية العربية فوجدت أن حسن السياسة يقتضيها أن تساير التيار الى أن يهدأ ، فرفعت هى الأخرى شعار الوحدة وتحركت نحو تحقيق أمل شعوبها ولو ظاهريا ، أما الاستعمار فقد بيت أمرا وطريقه التآمر والدس دائما .

وكان أسرع من استجاب لداعى الوحدة أعرق الحكام العرب فى الرجعية والتخلف مداراة للموقف الذى ظنوا أنه كان فى حاجة الى علاج سريع مقنع تفاديا للانفجار . وأتى هذا الرد السريع من جانب أحمد امام اليمن فقد بادر

الى اعــلان الرغبة فى الانضــمام الى الجمهــورية العربية المتحــدة على أساس الاتحاد . وأرسل الامام أحمد وفدا الى القاهرة برئاسة ولى عهده الأمير البدر ، ونافق هذا الأمير وتكلم عن أن الايمــان هو رائده ورائد أبيه ، وأن الوحــدة تنبع من الضــمائر والأعماق . وانتهت المفاوضات بمشروع للاتحــاد حمله البدر وعاد الى والده فى ١٧ فبراير ســنة ١٩٥٨ .

وعاد البدر الى القــاهرة ومعــه توكيل من أبيه الامام بتوقيع الاتفــاق . وفعلا وقع على الاتفاق كل من الرئيس جمــال عبد الناصر والأمير البــدر فى ٨ مارس سنة ١٩٥٨ ، وقد نص الاتفاق على أشياء كثيرة أهمها :

١ — ينشأ اتحــاد يسمى « الدول العربية المتحدة » يتكون من الجمهورية العربية المتحدة والمملكة المتوكلية اليمنيــة والدول العربية التى تقبل الانضمــام اليـــه .

٢ — تحتفظ كل دولة بشخصيتها الدولية وبنظام الحكم الخاص بها .

٣ — تتبع الدول الأعضاء السياسة الخارجية الموحدة التى يضعها الاتحاد .

٤ — يكون للاتحــاد قوات مســلحة موحــدة .

٥ — تنظم الشئون الاقتصادية فى الاتحــاد وفقا لخطط مرســومة تهدف الى تنمية الانتاج واستغلال موارد الثروة الطبيعية وتنسيق النشاط الاقتصادى .

٦ — ينشــأ بين البلاد العربية المتحــدة اتحــاد جمركى وذلك بالشروط والأوضــاع التى يحــددها القــانون .

٧ — ينظم القانون مراحل ووسائل تنسيق التعليم والثقافة فى الاتحــاد .

٨ — يشرف على شئون الاتحاد مجلس يسمى « المجلس الأعلى » يشــكل من رؤساء الدول الأعضاء . ويعاون المجلس الأعلى فى مباشرة سلطاته مجلس يسمى « مجلس الاتحــاد » يشــكل من عدد متساو من ممثلى الدول الأعضاء وتكون رئاسة مجلس الاتحاد سنويا بالتناوب بين الدول الأعضاء .

٩ — يختص المجلس الأعلى برســم الســياسة العليا للاتحاد فى المســائل السـياسية والدفاعية والاقتصــادية والثقافية واصــدار القوانين اللازمة لذلك. ويعين المجلس الأعلى القائد العام للقوات المسلحة للاتحــاد .

١٠ ــ أما مجلس الاتحــاد فهو الهيئــة الدائمة للاتحــاد ويتولى النظــر فى الشــئون السياسية ، ويعتمد المجلس الأعلى قراراته •

١١ ــ يتبع مجلس الاتحاد الهيئــات الآتية : ــ (أ) مجلس الدفاع (ب) المجلس الاقتصادى (جـ) المجلس الثقافى • ويعتمد مجلس الاتحاد قرارات هذه المجــالس •

١٢ ــ يكون للقوانين الاتحادية قوة الزامية فى البلاد المتحدة •

١٣ ــ يعين رئيس كل دولة وزيرين ، واحد لدى الدول العربيــة المتحــدة ويختص بالاشراف على تنفيذ قرارات الاتحاد فى الأقليم الذى يتبعــه • والآخر يكون نائبا عنه لدى رئيس الدولة الأخرى ويكون له صفة الوزراء المحليين •

١٤ ــ يلغى التمثيل السياسى بين الدول الأعضاء •

وهكذا ظهر نموذج آخر للوحدة العربية بجانب نموذج الجمهورية العربيــة المتحدة وهو نموذج مرن يمكن كل دولة راغبة فى الانضمام الى ركب الوحدة مع احتفاظها بنظامها الداخلى ــ وهكذا اتسعت دائرة الوحدة العربية المنشودة •

٣ ــ الاتحاد العربى الهاشمى :

وهو طراز فريد من الاتحاد اذا قيس بالاتحادين السابقين • فقد قام من أول الأمر على النفاق والدسيسة والتآمر مع الاســتعمار ضد أخطر قضــايا العروبة وهى « الوحــدة » •

فقد عبر الشعبان العربيان فى كل من العراق والأردن عن عظيم ابتهاجهما بقيام الجمهورية العربية المتحدة • وأعربا عن أملهما فى مسايرة هــذا الركب العربى التقدمى الوحدوى • أما الملكان ــ فيصل ملك العراق وحسين ملك الأردن ــ قد سكتا سكوتا لئيما فلم يهنئا ، ولم يصدر عنهما اعراب عن رأيهما ولا اعجام •

ولكن اذا كان تفكير الملكين لم يسعفهما ، فقد أسعفهما تفكير الاســتعمار • فقد أوحت اليهما انجلترا بأن يعارضا الجمهورية العربية المتحــدة باتحاد آخر بين المملكتين الهاشميتين ــ العراق والأردن • وبذلك يواجهان رغبة الجماهير من شعبهما ، ويظهران بدور قيادى فى محيطيهما ، يذهب عنهما الحرج ويبعد عنهما اللوم ، ويظهرهمــا بمظهــر الرجــال •

وانتقل الملك فيصل من بغداد الى عمان فى فبراير سنة ١٩٥٨ ومعه من شاء من أعضاء حكومته وولى عهده عبد الاله ، وجرت المفاوضات ، أو الأحرى قرىء المخطط الاستعمارى الذى أمدهما به السفير البريطانى ، وبعد ثلاثة أيام أى فى ١٤ فبراير سنة ١٩٥٨ تم اعلان الاتفاق على قيام الاتحاد العربى الهاشمى •

وقد تحدث الملكان فى اتفاقهما عن أشياء كثيرة لا مصدر لها ولا سند الا خيالهما الصبيانى ؛ تحدثا عن جدهما المنقذ الأعظم « الشريف حسين بن على » الذى ضحك عليه مكماهون كما مر بك ، وسميا غفلته حين طلب من الانجليز المساعدة فى تحقيق استقلال العرب ، « تضحية وفداء فى سبيل تحرير الوطن العربى » • وسميا تهالكه على عرش يجلس عليه ولو أخذه من أيدى الانجليز ، « توجيها لشعوب الوطن العربى الكبير لاستعادة مكانة العرب بين أمم العالم » • وسميا حرصهما على الجلوس على عرش وهمى منفوخ بهواء الاستعمار ميراثا « عن جدهم جيلا بعد جيل ليبقى المشعل المتير الذى يهدى أمة العرب فى سيرها نحو الوحدة الشاملة » •

وعلى كل حال فقد أشادا بالوحدة العربية ورفعا شعارها وأعلنا السير فى ركبها ، ثم أتت شروط الاتفاق على شكل الوحدة بينهما •

١ — ينشأ اتحاد عربى بين المملكة الأردنية الهاشمية والمملكة العراقية باسم الاتحاد العربى اعتبارا من يوم الجمعة ١٤ فبراير سنة ١٩٥٨ • ويكون مفتوحا للدول العربية الأخرى التى ترغب فى الانضمام اليه •

٢ — تحتفظ كل من الدولتين بشخصيتها الدولية المستقلة وبسيادتها على أراضيها وبنظام الحكم القائم فيها •

٣ — تنفذ اجراءات الوحدة الكاملة بين الدولتين فيما يلى :

(ا) وحدة السياسة الخارجية والتمثيل السياسى •

(ب) وحدة الجيش باسم الجيش العربى •

(جـ) ازالة الحواجز الجمركية •

(د) توحيد مناهج التعليم •

٤ — يتولى شئون الاتحاد حكومة اتحادية مؤلفة من مجلس تشريعى وسلطة تنفيذية . وينتخب كل من مجلس الأمة الأردنى والعراقى أعضاء المجلس التشريعى بعـــدد متســـاوى .

٥ — يكون ملك العراق رئيسا لحكومة الاتحـاد ، وينوب عنه ملك الأردن فى حالــة غيــابه .

٦ — يكون مقر الاتحاد فى بغداد وعمان بالتناوب كل ستة أشهر .

٧ — يوضع دستور للاتحاد فى مدة ستة أشهر من تاريخه .

وقــد وافق البرلمــان العــراقى على الاتفــاق فى ١٧ فبراير ، ووافــق البرلمــان الأردنى عليــه فى ١٨ منــه .

ومع وضوح كل الحقائق التى لابست هذا الاتحاد الهاشمى ، فقد فهمنــاه نحن الشعب العربى بمصر على أنه تعبــير عن نضج الوعى العــربى ، وعن قوة الجماهير وحقها فى تقرير مصــيرها . وما يضير النظرية العربية أن يضطر الملكان الى اصدار هذا التعبير ، فلعل أن هذا الاضطرار من دلائل قوة الشــعب العربى وحيويته واستعلائه على الحكام . كمــا فهمناه على أنه رد فعل ونتيجــة لقيــام الوحــدة بين مصر وســورية .

وقد عبر الرئيس جمال عبد الناصر عن هذا الفهم فى البرقيــة التى أرســلها الى الملك فيصل غداة اعلان الاتفاق ، تسجيلا لفكرة الوحدة ، وتقــريرا لوجوب العمل عليها ، وتوجيها للملكين الصغيرين نحو بعض ما يجب عليهما .

قال الرئيس فى برقيتــه :

« ان الاتحاد العربى الذى وحد اليوم ما بين العراق والأردن هــو خطــوة مباركة تتطلع اليها الأمة العربية كلها بأمل كبير باعتبارها اتجاها يســتمد قوته من أعماق الضمير العربى ... وان القومية العربية لتفتخر وتعتز بالخطوة التى اتخذتموها فى عمان اليوم واثقة بأنها تقرب منا يوم الوحدة العظيم » .

وجاء رد الملك فيصل بالشكر على البرقية خاليا من أى اشارة الى الوحــدة التى ســبقت بين مصر وســورية . ولــم ينس الملك الصــغير فى رده جهــاد

المرحوم جده يوم استجدى عرشا من مكماهون البريطانى منذ أربعين سـنة . وأراد أن يتـدارك على التوجيه العـربى الكريم الذى ورد فى برقيـة الرئيس عبد الناصر له فقال ان اتحاده مع الأردن ثمرة من ثمرات ذلك الاستجداء .

وبعـد خمسـة أشهر من هـذا الرد تولى الشعب العراقى افهام الملك معنى ما أراد جمال عبد الناصر أن يقوله فى برقيته ، فقامت ثورة ١٤ يوليـه سـنة ١٩٥٨ فى بغداد ، وقضت على الملكية ونبذت أشلاء فيصل فى العراء .

نظرة فى هذه الصور الحديثة من الوحدة :

كان أول نقد وجهناه الى جامعة الدول العربية أنها كانت تمثل الحكومات ولم يكن وراءها ارادة شعبية عربيـة تثق فيها وتسـندها . ومن هنا فقـدت قدرتها على أن تكون ايجابية ، وانعدمت سـلطتها لتكون فى قراراتها ملزمة . ووراء كل هذا أنها كانت من وحى انجلترا فى أول الأمر ، وان كانت قد نجحت من أول الأمر فى أن تستقل برأيها عن مصدر هذا الوحى .

ونلاحظ فى الاتحادات الثلاثة السـابقة . الجمهـورية العربيـة المتحـدة ، واتحاد الدول العربية ، والاتحـاد العربى الهاشمى ، أن كلا منها قد نشأ نتيجـة لارادة شعبية قوية . فالشـعبان المصرى والسورى هما اللذان دفعـا الوحدة بين البلدين . وما كان امام اليمن الممعن فى الرجعية ، ولا ملك العـراق وملك الأردن وهما دميتان فى متحف الاسـتعمار ، أن يقدموا على صورة من صـور الوحدة العربية الا مرغمين أمام ضغط شعوبهم ، ومجاراة للتيار الشعبى العربى فى بلادهم حتى لا يجرفهم ذلك التيـار .

وأخـذنا على جامعة الدول العربيـة أن قراراتها غير ملزمة ، ومن ثم فهى لا تستطيع أن تتخـذ مواقف ايجابية بازاء المشـاكل العربيـة . وقد تحررت الاتحادات الثلاثة من هذا العيب ، فان الاتحاد معنـاه نفاذ القوانين على الدول المشتركة فيه . ومن هنـا كانت الايجابيـة ممكنة متى اتخـذت القرارات أو صـدرت القـوانين .

ومع ذلك فانا نجـد فى الوحـدات الثـلاثة ، ثـلاثة أنـواع مختلفـة من الوحدة ــ مختلفـة من حيث الجوهر والحقيقـة .

فالوحدة التى تمثلها الجمهورية العربية المتحدة ، وحدة حقيقية ، قامت على أساس ارادة الشعوب ، وعلى أساس التقاء ارادة الشعوب مع ارادة الحكام ، وهى علاوة على هذا قامت على أساس نظام داخلى تقدمى متحرر من كل ارتباط بالاستعمار • ولذلك فقد أتت الجمهورية العربية قوة عربية صميمة تستطيع أن تدفع الأهداف العربية نحو التحقق ، وتساير الجماهير العربية الراغبة فى تصحيح معايير حياتها وأوضاعها فى الداخل وفى الخارج •

أما « اتحاد الدول العربية » ، فقد امتزجت فيه قوة الجمهورية العربية وتحررها ، بتخلف امام اليمن ، ومحاولته أن يتخذ من هذه الوحدة وسيلة يستعين بها على الاستمرار فى تخلفه وضغطه على الجماهير العربية بحجة أنه أخذ ببداية الطريق وفتح باب الأمل واستحق أن يصبر عليه شعبه ولو قليلا • ولذلك لم تستمد الجمهورية قوة من هذا الاتحاد ، ولا استطاعت أن تغير عقلية الامام ، مما اضطرت معه الجمهورية الى مصارحة الامام ومواجهته بحقيقة أغراضه ، وكانت الضربة القاضية عليه كما سيجىء •

أما « الاتحاد العربى الهاشمى » فنوع فريد فى بابه من الوحدة • فهو اتحاد رسم الاستعمار خطوطه وفرضها على الملكين الدميتين ، وكان غرضه لا اعزاز العرب ودعم قوتهم ، بل ضرب الجمهورية العربية المتحدة ومعارضتها باتحاد وهمى يسيطر عليه الاستعمار • وادعاء الملكين لشرف لم يقصدا حقا الى تحمل ما يفرضه عليهما من مسئوليات •

فهو اتحاد فى ظاهره الوحدة وفى باطنه الفرقة والتبديد ، والرغبة فى الخلط بين القيم ، وتضييع مضمون المصطلحات ، وتزييف الشعارات ، وبث البلبلة فى أفكار الجماهير أمام الصور التى لا تعبر عن حقيقة الأسماء • ولم يخف كل هذا على شعب العراق وشعب الأردن ، وصارح شعب العراق ملكه بهذا مصارحة عنيفة • فلم يمض على قيام الاتحاد الا خمسة أشهر حتى قام الشعب العراقى متحالفا مع الجيش بثورة ١٤ يوليو ١٩٥٨ التى أطاحت بالملكية وقضت على الملك فيصل وأعلنت الجمهورية ، وانحل الاتحاد الهاشمى على هذه الصورة البليغة •

ومن هذه النظرة السريعة يمكن أن نعرف أن هذه التجربة قد أسفرت عن نمط واحد ذى قيمة وهو الجمهورية العربية المتحدة .

موقف الاستعمار والرجعية من تجربة الوحدة :

كان لوحدة مصر وسورية فى الجمهورية العربية المتحدة أكثر من مغزى وأكثر من فائدة فقد كان مغزاها الكبير أنها اثبات عملى لحتمية الوحدة ، وحقيقتها الشعبية ، وأنها خطوة أولى فى سبيل الوحدة العربية الشاملة كما كانت نموذجا يحتذى ، ودليلا عمليا على امكان تحقيقها لمصلحة العرب .

وكان اتضاح هذا المغزى أكبر فائدة حققها الشعبان من هذه الوحدة ، فقد كانت دليلا ماديا على أهمية ما كانت الثورة المصرية الكبرى تنادى به من وجوب احياء القومية العربية ودفعها الى غايتها وهى الوحدة العربية . وربما كانت هذه هى الفائدة الوحيدة التى حققتها مصر من قيام الجمهورية ، وهى فائدة ما كانت مصر تبغى من ورائها مزيدا ، اذ لا يطمع كل صاحب فلسفة وكل ذى رسالة فى أكثر من أن تثبت الأيام صدق فلسفته وجدوى رسالته .

وأفادت سورية كثيرا من الفوائد :

فالوحدة حمت سورية مما كانت تتعرض له من الهجوم الاستعمارى الكبير الذى كان يدبر لها على خطوط حدودها جميعا . فقد كانت تركيا تحشد الحشود على حدودها الشمالية ، وكانت اسرائيل تهددها من الجنوب ، وكان القصد أن يلتهمها العراق تنفيذا لمشروع الهلال الخصيب الاستعمارى القديم ، وكان هذا التهديد من أسباب تعجيل الشعب السورى بطلب الوحدة مع مصر .

والوحدة حققت لسورية استقرارا لم يتحقق لها طول تاريخها الحديث بسبب تنافس الأحزاب السياسية على الحكم ، ولجوئها الى الانقلابات العسكرية حتى ما كانت تستفيق من انقلاب حتى يعاجلها انقلاب آخر . مما أضعف جيشها وشغله عن مهمته الكبرى فى الدفاع عن العروبة .

والوحدة قضت على الاقطاع فى سورية ، وكان هناك أعنف مما عرفناه فى مصر . فطبق قانون الاصلاح الزراعى هناك ، ووزعت الأراضى على

الفــلاحين المعــدمين ، وأصــبح الفلاح الســورى مالكا للأرض لأول مرة فى تاريخه وتحرر من استبداد الاقطاعيين •

والوحدة وضــعت برامج التنمية الاقتصــادية والتصــنيع للاقليم السورى فزاد دخله من هذا الباب ، ودخلت فيه صناعات جديدة •

والوحــدة وضعت مشروعات كثيرة ضخمة كمشروع ســد الفرات ، ونفذ بعضها أو بدىء فى تنفيذه ، أو عقدت الاتفاقيات الدولية لوضعه موضع التنفيذ •

وفى ظــل الوحدة نشــطت الحركة التجارية بين الاقليمين ، فاشــترت مصر فائض حاصــلات ســورية التى كانت تجد صعوبة فى توزيعها ، ونشطت حركة التجــارة فى المــدن الســورية ، وانتشرت فى مــدن مصر المؤسسات التجارية الســورية من فنادق ومتاجر ومكاتب ، وراجت ســوقها ، وحقق أصحابها أرباحا طائلة ، على حين لم يفتح دكان مصرى واحد فى سورية •

وفى ظل الوحدة حصــلت ســورية على مســاعدات فنية ممتــازة فى جميع الميادين ، فقــد شــخص اليها بنــاء على طلبهــا كل من كانت فى حاجة اليهم من الفنيين مهندسين وأســاتذة ومدرسين وأطبــاء • ومن القــرى الســورية ما لم ير طبيبــا قط ، فأرسلت مصر أطبــاء قاموا بالخدمات الطبية لأول مرة هنــاك •

هــذا بعض من كل ممــا عاد على ســورية من منــافع نتيجة للوحــدة مع مصر ، وهى بطــريق غــير مباشر منافع لكل عــربى فى مصر وفى غــير مصر وفى غــير ســورية • ولا ننسى فى هــذا المعرض الفوائد المعنوية والروحيــة التى تتمثــل فى تلك الراية العزيزة ذات النجمتــين التى ظللت الشــعب الســورى والشــعب المصرى معا ، وجعلت كلمتهما فى المحافل الدوليــة مما ترهف الأسماع لتلقيــه ، وتشــحذ العقول لتعيــه ، وتكيف الســياسات العالميــة تبعــا لمــا يجىء فيه •

على أن أثر الجمهورية العربية قد تجاوز هذا المجــال المحلى الى المجــال العربى الواسع • فلأول مرة تشتد قبضــة العروبة حول عصــابات الصهيونية فى فلسطين المحتلة من الشــمال ومن الجنــوب ، ويحيط بها الجيش العــربى احاطة السوار بالمعصم ، وكانت هــذه أولى خطوات القضاء على الاســتعمار الصــهيونى •

كل هـذه المغازى والفوائد لمسها الشـعب العربى فى سورية فزاد تمسـكا بالوحـدة ، ولمسها الشـعب العربى فى مصر فزاد استعداده للتضحية فى سبيل الوحـدة ، ولمسها الاستعمار أيضـا فأيقن أن الوحدة أمضى الأسـلحة التى يستطيع العرب أن يشرعوها فى وجهه ، ولمسـتها الرجعيـة العربيـة ممثلة فى الملوك المستبدين كملك السـعودية ، والملوك العملاء كملك الأردن ، وأيقنوا أن المد الثـورى الذى تمثله الجمهورية العربيـة لا بد وأن يبتلعهم عاجلا أو آجلا . وتحالف الاستعمار مع الرجعية العربية وأضمروا للوحدة أمرا .

نكسة الانفصـال :

تحالف الاسـتعمار مع الرجعيـة العربيـة على طعن الوحـدة . وكانت الرجعية المتآمرة مع الاسـتعمار من نوعين : الملكيـات الرجعيـة التى تمارس حقوقا اسـتبدادية واقطاعيـة على شـعوبها مما تخشى معه تسرب الأفكار التحررية من الجمهورية . والاقطاعيون والرأسماليون فى داخل الاقليم السورى نفسه ممن أصابهم قانون الاصلاح الزراعى والقوانين الاشتراكية التى أعلنت فى يولية سنة ١٩٦١ ، ببعض الأضرار .

ورسم الاستعمار الخطة ، ودفعت الرجعية العربية ممثلة فى الملك سـعود المـال ، وتوسطت الاقطاعية السورية فأوجدت بعض العملاء من طلاب المنافع الشخصية ، وضرب الجميع ضربتهم فى صبيحة ٢٨ سـبتمبر سنة ١٩٦١ على شكل انقـلاب عسكرى انفصالى غادر ، قامت به شرذمة وضيعة من الضـباط السوريين الخونة فى دمشق ، وهم من أبناء الرجعيين والاقطاعيـين السوريين ، أو من الوضعاء المرتشين الذين باعوا عروبتهم وباعوا أمتهم بدراهم معدودات قبضوها من سعود .

واتنهت هذه التجربة الأولى للوحدة .

أما الاقليم السورى فقد شهد صراعا جبارا بين الشعب السورى العربى الأصيل والمؤمن بالوحـدة وبالعـروبة وبالاشتراكية ، وبين قوى الشر ممن قبضوا أموال الاسـتعمار والرجعيـة من ضباط الجيش وأبنـاء الرجعيين . وسالت دماء الشعب السـورى الحـر فى حلب وفى اللاذقية وفى دمشق ، وفى

كل مكان . وأحرز الضباط الستة الخونة نصرا مؤقتا فأقاموا لهم حكومة من الرجعيين ، ورسموا انتخابات أسفرت عن مجلس تأسيسى ، افتتح أعماله بالغاء القوانين الاشتراكية أو ارجاع رقاب الفلاحين والعمال السوريين الى قبضة الاقطاعيين والاحتكاريين . واستمر الشعب فى نضاله .

أما الاقليم المصرى ، فقد أعلن بطله جمال عبد الناصر أن الجمهورية العربية المتحدة باقية باسمها وعلمها ونشيدها الوطنى رمزا للتحرر ومنارا للوحدة العربية ، تساندها الشعوب العربية فى كل جزء من أجزاء الوطن العربى .

أما اتحاد الدول العربية بين الجمهورية العربية واليمن ، فقد انحل على الأثر . وذلك أن الرئيس جمال عبد الناصر أعاد النظر فيه ، فرأى أن الامام قد اطمأن فى ظل الاتحاد واحتمى فيه ولم يحاول أن يغير من أساليبه الرجعية ، بل استخدم الاتحاد مع الجمهورية ضد مصالح الشعب اليمنى . وعلى ذلك أعلن الرئيس جمال عبد الناصر حل هذا الاتحاد لأنه قام على أساس مهادنة الرجعية وهو ما ثبت خطأه من تجربة الوحدة ثم الانفصال .

وتنبه الشعب اليمنى الى حقيقة موقف الامام وأنه لا رجاء معه ولا أمل فيه ، فانتهز فرصة موت الامام أحمد وتولية ابنه البدر خلفا له فى ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٦٢ ؛ ولما أعلن البدر أنه متمسك بسياسة أبيه ناسج فى الحكم على منواله ، فاجأه بثورة فى ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٦٢ بقيادة الزعيم عبد الله السلال ، ففر البدر الى الملك سعود ، معقل الرجعية ، وأعلنت الجمهورية العربية اليمنية .

درس الانفصال وعودة الوحدة :

خرجنا من حركة الانفصال الغادرة فى سورية بثلاثة دروس على جانب كبير من الأهمية ، كان لها أثر كبير فى توجيه حركة الوحدة العربية فيما بعد .

١ — ان الاستعمار لا زال وراءنا يتربص بالوحدة العربية ، وأنه لم يغير سياسته بازائها ، وأنه من القرن التاسع عشر لم ييأس ولم يتراخ فى محاولة منع قيام أى دولة عربية قوية موحدة .

٢ — ان مهادنة الرجعية ومحاولة معايشتها سلميا بقصد استصلاحها أمر مستحيل لأن نفسيتها لا تتغير ، وقلبها لا يصفو ، ومصالحها حيوية

بالنسبة لها فهى لاتقبل أى تهاون فيهـا أو انتقاص منها لمصـلحة الشعب • وهـذا ينطبق على الرجعيـة الملكيـة فى الخارج ، والرجعيـة الاقطاعية فى الداخـل •

ولقد كنا صافينا الملك سعود مرارا بعد خيانات متكررة ومؤامرات ضد الوحدة وقت قيامها ، يوم عرض على عبـد الحميـد السراج مليونى جنيـه لضرب الوحدة فضـاعت عليه أمواله وقامت الوحـدة ، ويوم حاول استئجار من يتآمر على حياة الرئيس جمال عبد الناصر فى نظير مثل هذا المبـلغ فضاع عليه وأثبت من ظن فيهم الخيانة أنهم آصل منه فى العروبة وأمعن منـه فى الشرف وأنهم لا يستطيعون مجاراته فى طريق الاجرام • صافيناه بعد هذا كله وقبلنا توبته يوم حضر الى القاهرة يعرضـها ، ثم خان الأمانة ونقض العهـد وأخرج من ماله الحـرام ليحدث الانفصال •

وكان مأمون الكزبرى أحـد أقطاب الانفصـال وأول رئيس للحـكومة الانفصالية فى سورية ممن عفت عنهم حكومة الوحدة فى جريمة خيانة ورشـوة كانت منظورة فى المحاكم السورية وقت قيام الوحدة ـ وقبلنـاه عضـوا فى الاتحاد القومى ، وعضوا فى لجنة اصلاح القوانين وتوحيـدها ، كل هـذا استصلاحا لشأنه ، وتأليفا لقلبه ، وقتلا لنزعات الشر فى نفسه ، ثم قبض أموال سعود وطعن الوحدة من الخلف •

وفى هذا الضوء كان الدرس الثانى للانفصال ، وهو أنه من السذاجة أن نهادن الرجعيين والانتهازيين والمنافقين ، وانمـا دواؤهم جميعـا البتر والعزل حتى يتركوا همـلا فى سوق المواطنـة •

٣ ـ ان الطفرة فى تطبيق الوحدة أمر غير مأمون العاقبة ، فالاقطار العربية مختلفة اختلافا كبيرا فى الأحوال وفى جميع المجـالات ، منها مالا يزال أهله يعيشون على شكل قبائل ويقتنون الجوارى ، ومنها ما ساير أهله ركب المدنية الحديثة منذ قرن ونصف ختمت بثورة دفعتهم الى الأمام مثـل هـذه المدة فهم يصنعون الطائرات والصـواريخ ، والمسافة بين هذه الأقطار لا يحمـد معها توحيد الأقطار فى بلد واحـد من جميـع الاعتبارات • فمـا يكون أهل

مصر مستعدين له من القوانين والنظم والتضحيات ، لا يكون أهل غيرها مستعدين له ، لاختلاف الخبرة وتفاوت الوعى وتباين درجة وضوح الأهداف والمقاصد .

هذه هى دروس الانفصال ومغازيه ، كشفها واعترف بها الرئيس جمال عبد الناصر غداة الانفصال وفى أكثر من مناسبة .

وكان للتاريخ درس آخر وعيناه من زمن ، وهو أن الوحدة العربية حقيقة من حقائق التاريخ وحتمية من حتمياته . ولذلك فاننا لم ننفض أيدينا من الوحدة . وما كان فى وسعنا هذا حتى لو أردناه بحكم اتجاه العملية التاريخية التى لا تسير الى الوراء أبدا ، والتى نعرفها جيدا بقدر كبير من وضوح الرؤية .

وفى ضوء هذا الدرس وهبنا الانفصال والانفصاليين للشعب العربى فى سورية وتركنا له تأديبهم. فالعروبة لا تعتمد على الحكام ولكن على الشعوب . فالذى أقام الوحدة بين مصر وسورية هو الشعب العربى أولا وأخيرا ، والشعب العربى هو الذى تقع على عاتقه وحده ازالة وصمة الانفصال . ولن يسكت الشعب السورى على المؤامرة الا اذا استطاع أن يتخلص من الدماء التى تجرى فى عروقه ، أو ينسى أربعة عشر قرنا من تاريخه ، وهيهات !

ولقد أثبت الشعب العربى فى سورية أنه كفء لهذه المهمة التاريخية . فلم يحل العيد الرابع للوحدة فى ٢٢ فبراير سنة ١٩٦٢ وهو أول موعد له بعد الانفصال ، حتى هب الشعب السورى فى كل المدن والقرى السورية يحتفل بالعيد أروع احتفال . قامت المظاهرات فى كل مكان تنادى بالوحدة ، وبعودة الوحدة وبحياة الجمهورية العربية المتحدة ، وبسقوط الانفصال والحكومة الانفصالية ، ورفعت صورة الرئيس جمال عبد الناصر ، وهتف الشعب بحياة بطل القومية العربية ، وذهبت جموع الشعب فى دمشق رافعة أعلام الوحدة

وعلقوها على جدران مجلس الأمة السورى ، ورفعوا علم الجمهورية العربية المتحدة فوقه • وأرسل المحامون السوريون الى الرئيس جمال عبد الناصر خطابا موقعا بامضاءاتهم يجددون البيعة له وللوحدة وللجمهورية العربية المتحدة • كل هذا حدث بعد أربعة أشهر من الانفصال فى سورية ، على حين قبع أعضاء الحكومة الانفصالية فى دورهم خائفين ، ثم اضطروا أمام زحف الشعب الى تزييف الوحدة ، فأعلنوا الاحتفال بعيدها مداراة للشعب ونفاقا •

وواصل الشعب العربى فى سورية جهاده فى سبيل القضاء على الانفصال وعودة الوحدة • حتى اذا حل يوم ٢٨ مارس ١٩٦٢ قام فى سورية انقلاب عسكرى أطاح بالحكومة الانفصالية وقبض زعماؤه على الخونة الذين قبضوا الرشوة من سعود وأحدثوا الانفصال ، ووضعهم فى السجن ، وانعقد مؤتمر شعبى وطنى فى حمص طالب بتشكيل حكومة مؤقتة تكون مهمتها اتخاذ الخطوات الايجابية لاعادة الوحدة مع مصر كما قرر المؤتمر نفى الضباط الخونة الذين قاموا بانقلاب ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٦١ الانفصالى • وفعلا تكونت حكومة مؤقتة فى دمشق ، قبلت مقررات حمص ، ونفت الضباط الخونة الى خارج سورية •

ثم تسلل الرجعيون الى هذه الحركة ، فماطلوا فى تنفيذ ما وعدوا به من الأخذ بمقررات مؤتمر حمص •وقبضوا على أبطال هذا الانقلاب الأخير وعلى قادة مؤتمر حمص ، وزجوا بهم فى السجون ، وأقاموا المحاكم العسكرية لمحاكمتهم وكان الشعب العربى فى سورية لهم بالمرصاد ، وأين منه المفر •

وقبل أن تتم هذه المحاكم الرجعية محاكمات ضباط حركة حمص ، كان الجيش السورى متحدا مع الشعب قد قام بانقلاب عسكرى فى صبيحة يوم الجمعة ٨ مارس ١٩٦٣ • وقبض على الانفصاليين وأسقط حكومتهم ، ونادى بالوحدة ، وأقام حكومة ائتلافية تمثل كل الجبهات الوحدوية لتتولى مفاوضات اعادة الوحدة مع مصر •

وكان الشعب العراقى قبل ذلك بشهر — أى فى ٨ فبراير ١٩٦٣ — قد قام بثورة وطنية كبرى قضت على حكم الخائن عبد الكريم قاسم وأعدمته ، وأعلنت فى بغداد قيام جمهورية متحررة بزعامة المشير عبد السلام عارف .

وتجاوب الشعب العربى فى العراق والشعب العربى فى سوريا وسارا معا فى موكب الوحدة العربية ، وطالب الجميع بالوحدة مع مصر . وبدأت المباحثات الثلاثية بين مصر والعراق وسورية بناء على طلب الجماهير العربيـة فى العـراق وسورية ، بغية اقامة وحدة عربية بين الأقطار الثلاثة .

وبعد مفاوضات تمهيدية كان هدفها تصفية حسابات الانفصال بين حكومة الجمهورية العربية المتحدة وبين بعض من انخـدعوا فى حركة الانفصـال من الأقطاب السوريين أعضاء حزب البعث ، قدم الى القاهرة وفدان أحدهما عراقى والآخر سورى ، ليفاوضا حكومة مصر فى اقامة وحدة عربية بين الأقطار الثلاثة. وبدأت المباحثات بين الوفود الثلاثة يوم السبت ٦ أبريل سنة ١٩٦٣ وانتهت يوم الأربعاء ١٧ أبريل سنة ١٩٦٣ .

وتم الاتفاق على ما يلى :

١ — تقوم دولة اتحادية باسم الجمهورية العربية المتحدة على أساس الاتحاد الحر بين كل من مصر وسـورية والعـراق . وتكون أسماء الأعضـاء بالدولة الاتحادية « القطر المصرى » و « القطر السورى » و « القطر العراقى » .

٢ — أن يكون لكل جمهـورية عربية مسـتقلة تؤمن بمبـادىء الحرية والاشتراكية والوحـدة الحق فى أن تنضم الى هذه الدولة بارادة شعبية حرة . ويتم الانضمام بعد موافقة السلطة الدستورية فى الدولة الاتحادية .

٣ — أن تكون السيادة الدولية الكاملة للدولة الاتحادية .

٤ — أن تكون لمواطنى الدولة الاتحـادية جنسية واحـدة هى الجنسية العربيـة .

٥ — أن تكون السيادة فى الدولة الاتحادية للشعب يمارسها طبقا للدستور .

٦ — أن يكون الاسلام دين الدولة الاتحادية ، واللغة العربية لغتها الرسمية .

٧ — أن يكون علم الدولة ، علم الجمهورية العربية المتحدة الحالى وفيه ثلاث نجوم بدلا من نجمتين ، وتزاد نجمة كلما انضمت دولة الى الدول الاتحادية .

٨ — أن تكون عاصمة الدولة القاهرة .

٩ — تختص الدولة الاتحادية بما يأتى :

(أ) السياسة الخارجية بكل جوانبها بما فيها التمثيل الخارجى والمعاهدات مع الدول والهيئات الدولية .

(ب)الدفاع والأمن القومى باعتبار القوات المسلحة بالدولة الاتحادية جزءا من الشعب وولاؤها للشعب .

ونص الاتفاق على شكل الدولة والسلطات الخاصة بها ونظامها وأيديولوجيتها وأسسها مما سنذكره عند الكلام عن « شكل الوحدة العربية » . ونص الميثاق على أن يحدث استفتاء على دستور الاتحاد وعلى رئيس الجمهورية فى مدة أقصاها خمسة أشهر من تاريخ اعلان البيان .

وهكذا تعلو كلمة العروبة ، وتتحقق حتمية التاريخ ويخبو ضوء نجمة من علم الجمهورية ليعود بعد سنة ونصف فقط ، وتلمع فيه ثلاث نجوم .

« كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » .

نظرية الوحدة وصورتها

المهم فى الوحدة العربية هو جوهرها والأسس التى تتم بها ودرجة شعور الجماهير العربية بضرورتها ، وحماستها فى المطالبة بها وحمايتها من أعدائها عندما تتحقق •

أما الشكل وأما الصورة ، فأعراض يمكن أن تتم على أكثر من وضع • وأمامنا فى التاريخ ، وفى الوضع السياسى العالمى المعاصر أشكال عديدة للوحدة بين الدول • ويستطيع العرب أن يختاروا من هذه الأشكال ما يشاءون ، ويستطيعون أن ينسجوا لأنفسهم وضعا سياسيا لوحدتهم يتفق مع أحوالهم وظروفهم ، يفيدون فيه من خبرات غيرهم • وأيا ما كان القرار الأخير فى شكل الوحدة ، فالمهم هو الجوهر ووعى الجماهير كلما قلنا •

وهناك أشكال أو نماذج للوحدة أهمها :

١ ــ الوحدة (Nnity) : وفيها لا تتجزأ السيادة الداخلية ولا السيادة الخارجية • ويكون للدولة طابع واحد تتميز فيه ولا تنحرف عنه ولاية عن ولاية ولا قطر عن قطر ، بل ان مجرد الولايات والأقطار لا يوجد فى حالتها ، وانما توجد محافظات أو أقسام ادارية بسيطة •

وصورة الوحدة من الناحية التنفيذية أن يكون فى الدولة جهاز تشريعى واحد ، وجهاز تنفيذى واحد ، وجهاز قضائى واحد ، وجيش واحد ، ومركزها العاصمة • وبديهى أن وحدة السيادة هذه لا تتعارض مع الادارة المحلية ، أو اللامركزية الادارية ، طالما أن اختصاص السلطات المحلية لا يتجاوز التنفيذ الى التشريع دون الانحراف عن جادة القوانين والتنظيمات التى تصدر عن السلطة المركزية ، وما دامت السلطة المحلية من اداريين وقضاة وفنيين مرتبطين برئاستهم العليا فى العاصمة ، ومن أمثلة ذلك الجمهورية العربية المتحدة فى الوقت الحاضر •

٢ ــ الاتحاد (Union) : وفيه تزيد درجة استقلال الأقسام المحلية وتتعدد مظاهر هذا الاستقلال ، فلا تعود تقتصر على اللامركزية الادارية المنصبة على

التنفيذ وحده . والاتحاد كالوحدة من حيث المظاهر الأساسية لسيادة الدولة ، كوحدة السيادة الخارجية ، ووحدة التمثيل السياسى الخارجى ، ووحدة الجيش ، ووحدة أسس النظام الاقتصادى والعدالة الاجتماعية . وفيما عدا ذلك توزع السيادة الداخلية بين الحكومة الاتحادية المركزية وبين حكومات الأقسام المحلية أو الأقطار المكونة للدولة . وكلما ادعت الأقطار المحلية سيادة فى المسائل الحيوية المتقدمة ، كان ذلك من دواعى اضعاف الاتحاد . واذا كان الاتحاد السوفيتى يسمح لأوكرانيا وروسيا البيضاء بحق التمثيل المستقل فى الأمم المتحدة ، فانما يسمح به للحصول على مزيد من الأصوات فى هذه المنظمة الدولية ، مع ثقة الحكومة المركزية من أن قوتها وسيطرتها أكبر من أن تسمح لهاتين الولايتين بالطمع فى مزيد من الاستقلال . أما فى السيادة الداخلية فتطبيقه فى الاتحاد أن يكون لكل ولاية أو قطر حاكم وحكومة محلية وسلطة تشريعية ، وقضاء محلى ، مع انسجام اجراءات هذه المنظمات والسلطات مع ايديولوجية الدولة ومع الخطوط الرئيسية للدستور المركزى والقوانين المركزية.وعادة يكون هناك توزيع واضح للسيادة الداخلية بين الدولة المركزية والأقطار المحلية فى دستور الدولة حتى لا يحدث خلاف ، كما توجد عادة محكمة اتحادية عليا للفصل فى أى خلاف على السلطة يطرأ بين الدولة وبين الأقطار ، وفى الدولة الاتحادية تكون السلطة التشريعية المركزية مكونة من مجلسين ، مجلس يمثل شعوب الولايات أو الأقطار كل على حسب تعداد سكانها ، ومجلس يمثل حكومات الولايات ويتساوى فيه عدد الأعضاء الممثلين لكل الولايات ومن أمثلة هذا النوع الاتحادى : الولايات المتحدة الأمريكية ، والاتحاد السوفييتى والمملكة الليبية المتحدة . ولا توجد صورة واحدة « للاتحاد » وانما تختلف درجة الاستقلال الذاتى للولايات أو الأقطار فى الحالات المختلفة . وكلما زادت درجة الاستقلال المحلى كان ذلك على حساب تماسك الاتحاد .

٣ ــ العصبة (Confederation) : وهى رابطة تنشأ بين دولتين أو أكثر عن طريق معاهدة ينشأ بمقتضاها نوع من التنظيم المشترك يمارس بعض المسئوليات والوظائف الخاصة بالعلاقات الخارجية ، مع احتفاظ كل دولة باستقلالها ونظامها الداخلى وسيادتها الخارجية والداخلية.ويجب فى هذه الحالة

أن تصدر قراراتها بالاجماع والا كانت غير ملزمة لمن لا يوافق عليها من الدول الأعضاء . وعلى ذلك فهذا النوع من الوحدة ليس دولة ولا شبه دولة وليس له جنسية متميزة ، ولا يمارس سلطة على المواطنين فى أى من هذه الدول . وهذا أضعف أنواع الوحـدة ، لأن مجرد البقاء فيها اختيارى ، تسطيع أى دولة أن تنسحب منه متى أرادت ، وليس الأمر كذلك فى النوعين السابقين . ومن أمثلة ذلك عصبة الأمم التى قامت بعد الحرب العالمية الأولى ، وجامعة الدول العربية أيضـــا .

هذه صور مختلفة من الوحدة ، لا خير فى الثالثة منها وهى الصـور التى سميناها « العصبة » ، وعندنا منها جامعة الدول العربيـة ، وهى لا تشفى غلة الجماهير العربية ولا تستطيع أن تفى بكل حاجاتهم من الوحدة . ويبقى بعـد ذلك « الوحدة » و « الاتحاد » ، ويمكن أن تتخذ الوحدة العربية أى الصورتين تبعا لمقتضيات الظروف .

ومع ذلك فنستطيع أن نقول من الآن بكثير من الثقة أن الشعوب العربيـة الآن ، خصوصا فى الجمهوريات العربية التقدمية ترغب فى « الوحدة » الكاملة ولا يرضى آمالها وتطلعاتها أقل من ذلك ، أى أقل من أن يروا لهم دولة عربيـة عظمى لا يشوب وحدة حكومتها ولا وحدة جماهيرها تباين فى الأوضاع ، أو اختـلاف فى المبادىء ، أو تنافس داخلى ، أو صراع بين حـكومات وأجزاء وشعوب . هذا من الناحية الفكرية والعاطفية الخالصة. وهذه أيضا هى تقاليدنا العربية الأصيلة فى الوحدة عند ما كانت الدولة العربية دولة واحدة .

أما من ناحية الواقع ، الذى نرى من حقائقـه تفاوت الشعوب العربية فى مستوى الوعى ، ومستوى التقدم الفكرى والمادى ، ومستوى استعداد الطبقات الحاكمة والأحزاب السياسية الموجودة فعلا فى بعض الحالات للتنازل عن السلطة التى فى أيديها ، فان من الخير أن نأخذ بالصورة الثانية « الاتحاد » ، على اعتبار أنها الصورة التى تستطيع أن توفق بين هذه المستويات المختلفة كلها . وأن تمهد للأقطار العربية النامية طريق التطور واللحاق بركب الوعى السياسى الناضج . ثم بعد أن تتم هذه الخطوة ، وتتقارب الشعوب العربية فى درجة التقدم ، وتزول بالتدريج مخلفات الاستعمار الفكرية والعاطفية ، يستطيع العـرب أن يطوروا « الاتحاد » الى « وحدة » شاملة ، وهى المثل الأعلى للوحدة العربية .

وبعد الاختيار بين احدى هاتين الصورتين يكون المهم فى موضوع الوحـدة هو جوهرها وروحها والطريقة التى تتم بها كما سبق القول .

وقد عبر الميثاق الوطنى عن ذلك بقوله :

« وليست الوحدة العربية صورة دستورية واحدة لا منـاص من تطبيقها ، ولكن الوحدة العربية طريق طويل قد تتعدد عليه الأشكال والمراحل وصـولا الى الهـدف الأخـير » .

وعبر الرئيس جمال عبد الناصر عن هذا المعنى أيضا فى رده على خطاب من الملك حسين فى مارس سنة ١٩٦١ اذ قال :

« فنحن نؤمن بالقومية العربية تيارا حقيقيا وأصيلا ، يتجه الى وحدة عربية شاملة ، لا تعنينا أشكالها الدستورية بقدر ما تعنينا فيها ارادة الشعوب العربية » .

ويبقى بعد ذلك أن نحدد نظرية الوحدة العربيـة ، أى مجموعة الأصـول والقواعد التى يجب أن تتوافر فيها لتقوم بوظيفتها فى مستقبل الأمة العربيـة وقد عبر عن هذه النظرية فى ثلاث وثائق تاريخية هامة هى :

١ — بيان الوحدة بين مصر وسورية ، الذى أعلن بالقاهرة فى أول فبـراير سـنة ١٩٥٨ .

٢ — الميثاق الوطنى الذى أعلنه الرئيس جمال عبد الناصر فى المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية فى ٢١ مايو سنة ١٩٦٢ .

٣ — اتفاق الوحدة بين مصر والعراق وسورية ، الذى أعلن بالقاهرة فى ١٧ ابريل سـنة ١٩٦٣ .

ويضاف اليها أحاديث وخطب الرئيس جمال عبد الناصر فهى مجموعة من الوثائق قائمة بذاتها . ومن هذه الوثائق كلها نستخلص الأصول الآتية :

طبيعة الوحـدة :

تختلف الوحدات السياسية من حيث طبيعتها ، فهناك وحدات تقـوم عفو الساعة لمصلحة طارئة ، كتلك الأحلاف التى يقيمها الاستعمار ثم يسقطها حسب مصالحه الوقتية ، وهناك وحدات لا يمكن أن تختفى أو تتجزأ حتى ولو أريد لها ذلك . وهناك وحدات تقدمية ووحدات رجعية ، وهناك وحدات شعبية ووحدات

حكومية ، وهناك وحدات تلقائية ووحدات قسرية • والوحدة العربية لها طبيعتها الخاصة التى تميزها عن غيرها من الوحدات وان اتفقت مع كل منها فى وجه أو بعض وجـــه •

١ ــ فالوحدة العربية وحدة حتميـــة ، لابد متحققة مهما طال الزمن لأنهـا تقوم على مقومات تاريخية ثابتة • وقد سبق شرح هذا المعنى فى عدة مواضع • وفى هذا يقول اتفاق الوحدة الثلاثيـــة :

« لقد استلهمت الوفود فى كل مباحثاتها الايمان بأن الوحدة العربيـــة هدف حتمى يستمد مقوماته من وحدة اللغة ••• ووحـــدة التاريخ ••• ووحدة القيم الروحية والانسانية ••• ووحدة المفاهيم الاجتماعية والاقتصادية » •

٢ ــ والوحدة العربية يجب أن تصدر عن ارادة شـعبية فلا قسر فيهـا ولا ضغط ولا ارغام ولا موضع للعمليات العسكرية • ثم ان هذه الارادة الشعبية لا يمكن أن تقوم على أغلبية أو أقلية وانما يشترط فيها الاجماع • وربمـا كان اهمال هذه النقطة هو سبب فشل الوحدة العربية التى أراد أن يقيمها محمد على باشا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر بمعارك حربية يكسبها من السلطان ، كما كان سبب فشل الوحدة التى أراد أن يحققها الحسين بن على فى ســنة ١٩١٥ بمجرد الاتفاق مع الحكومة البريطانية •

وفى ذلك يقـــول الميثـــاق :

« ان الوحدة لا يمكن بل ولا ينبغى أن تكون فرضا ، فان الأهداف العظيمة للأمم يجب أن تتكافأ أساليبها شرفا مع غاياتها •

« ومن ثم فان القسر بأى وسيلة من الوسائل عمل مضاد للوحدة » •

وقال جمال عبد الناصر غداة حركة الانفصال الغادرة ، وهو من أعظم الأقوال السـياسية فى كل العصـــور :

« اليوم أعلن اليكم جميعـا أننى اذا كنت قد رفضت أن تكون الحـرب العسكرية وسيلة لتدعيم الوحدة ، فانى أرفض الآن أن تكون الحرب الأهليـة بديلا لذلك • ولعلكم تذكرون أن الاجماع الكامل كان من شروطى الأســاسية لقبول قيام الوحدة بين مصر وسورية فى فبراير ١٩٥٨ » •

وبهذه الخاصة تتميز الوحدة العربية عن الوحدات التى عرفها التاريخ ، ولعل أشهرها الوحدة الايطالية ، والوحدة الألمانية ، والوحدة الأمريكية . والمتتبع لتاريخ هذه الوحدات يجد أنها قامت فى الغالب على القوة والقهر . فهى ولاية تضم ولاية ، أو مجموعة من الولايات تضم مجموعة أخرى بالقوة والارغام .

ففى ايطاليا ضمت ولاية بيدمنت بقية الولايات الايطالية بالعنف ، وحدثت مواقع عديدة بين الايطاليين بعضهم وبعض . وفى ألمانيا اصطنع بسمارك سياسة « الدم والحديد » حتى أخضع الولايات الألمانية لبروسيا ، وفى أمريكا اصطنع واشنجطن كثيرا من الحزم والعنف ضد الولايات حتى وحدها ، ثم اشترى الاتحاد بقية الولايات بما تحتوى عليه من قطعان الماشية والشعوب ، فولاية لويزيانا اشترتها الولايات المتحدة بناسها بمبلغ ١٥ مليون ريال ، وكذلك اشترت ولاية فلوريدا ، ودخل الشعبان الوحدة الأمريكية بطريق البيع والشراء بلا ارادة ولا وعى .

وأين هذا من الوحدة العربية حيث لا ضام ولا مضموم ، ولا قوة ولا مقاومة، وانما هى تحقيق لاتجاه تاريخى موجود دائما ويقوم دائما على أساس الرغبة التلقائية فى استئناف لون طبيعى من ألوان الالتئام .

٣ — والوحدة العربية ثورة جماهيرية قبل كل شىء . فهى ليست منحة من حاكم ، وليست تدرجا بطيئا يتم بحكم الزمن . ولكن الوحدة انتفاضة ويقظة وحركة ثورية تدفع العملية التاريخية الى نهايتها المحتومة . وفى ذلك يقول اتفاق الوحدة :

« ان الوحدة عمل ثورى يستمد مفاهيمه من ايمان الجماهير ، وقوته من ارادتها ، وأهدافه من أمانيها فى الحرية والاشتراكية . ان الوحدة ثورة ، ثورة لأنها شعبية ، وثورة تقدمية . وثورة لأنها اندفاع فى تيار الحضارة » .

وليست مصادفة أن بيان الوحدة الثلاثية الأخير صدر نتيجة لعمل ثورى قامت به جماهير العراق فى ثورة ٨ فبراير سنة ١٩٦٣ ، وعمل ثورى قامت به جماهير سوريا فى ثورة ٨ مارس سنة ١٩٦٣ . والتقت الثورتان مع الثورة الأم — ثورة ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢ فى مصر ، وأذعن حزب البعث الحاكم فى العراق وفى سورية لارادة الجماهير . فالوحدة طريقها الثورة — ثورة الجماهير ضد

الاستعمار ، وثورتها ضد الاستبداد ، وثورتها ضـد الرجعيـة ، وثورتها ضد الحزبية ، وبذلك تحقق نفسها العربية فتكون الوحدة . وفى ذلك يقول الرئيس جمـال عبـد النـاصر .

« كنا نؤمن بضرورة الثورة السياسية حتى تتحرر من الاستعمار ، وتتحرر من الاستغلال ، ثم تنطلق قوانا من عقالها لتستطيع أن تنطلق الى الثورة العربية ، ثورة القومية العربية والوحدة العربيـة .

ومن خصائص هذه الثورة أنها واحدة مهما تعددت أماكنها من الوطن العربى ، فالثورة العربية ، العربية التقدمية وحدة لا تتجزأ ، وسلامتها فى كل مكان عملية واحدة . وقد أعلن هذا المبدأ الرئيس جمال عبـد الناصر فى اسـتقبال القوات العائدة من اليمن فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٦٣ اذ قال : « ان سـلامة الثورة العربية لا تتجزأ ، وسلامة الاشتراكية أيضا لا تتجزأ ، وسلامة الحرية لا تتجزأ » .

٤ — والوحدة العربية تتكون من شعوب تقدمية لا من حكومات رجعية ، فكل قطر من الأقطار التى تكون الجمهورية العربية المتحدة ذات النجـوم الثلاثة بدأ بثورة تفض بها عن أكتافه غبار القرون ، وغسل بها عن نفسه عفن الرجعية . وبعبارة أخرى فان الشعب يحتاج الى عملية استفاقة وزحف يحقق فيها درجة معقولة من التقدم والوعى قبل أن يصلح لأن يكون جزءا من الوحدة العربية .

وفى ذلك يقول بيان الوحدة الثلاثية :

« ان نواة الوحـدة الصلبة تكون من توحيد أجـزاء الوطن التى امتلكت حريتها واستقلالها وقامت فيها حكومات قومية تقدمية عقدت عزمها على القضاء على تحالف الاقطاع ورأس المال والرجعية والاسـتعمار ، وتحرير القوى العاملة من أبناء الشعب لتقيم تحالفها وتعبر عن ارادتها الحقيقية » .

ولذلك اشترط البيان نفسه « التقدمية » كشرط من شروط انضمام أى قطر عربى الى الجمهورية ، واصطنع البيان الحرص الشديد فى هذه النقطة ، فاشترط « الجمهورية » ، على اعتبار أن الجمهورية هى الصورة التقدمية العربية المقبولة من صور الحكم ، وعلى اعتبار أن النظام الملكى قد فسد وعشش فيه القـوى الرجعية وباضت وأفرخت بشـكل يعز على الاصلاح .

يقـول البيـان :

« يكون لكل جمهورية عربية مستقلة تؤمن بمبـادىء الحرية ، والاشتراكية

والوحدة ، الحق فى أن تنضم الى هذه الدولة بارادة شعبية حرة ، ويتم الانضمام بعد موافقة السلطة الدستورية فى الدولة الاتحـادية » •

٥ ــ وأخيرا فان الوحـدة العربيـة هـدف ووسـيلة فى نفس الوقت فهى هدف تسعى اليه الجماهير العربية حتى يتحقق ، ويوم يتحقق يجب ألا ينسى أو يطمأن الى مجرد تحقيقه ، بل يجب أن تتخذ الوحدة وسـيلة لتحقيق أهداف أخرى عربية • ومعنى هذا أن الوحدة وظيفة للوجود العربى يجب أن يؤول هذا الوجود اليها ، كما أن لها وظيفة فى الوجود العربى كنقطة انطلاق له نحـو أهدافه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وفى ذلك يقول بيان الوحدة الثلاثية :

« لئن كانت الوحدة هدفا مقدسا ، فانها أيضا عدة النضال الشعبى ووسيلته لتحقيق أهدافه الكبرى فى الحرية والأمن ، وفى تحرير جميع أجزاء الوطن العربى ، وفى ارساء مجتمع الكفاية والعدل ، مجتمع الاشتراكية ، وفى اسـتمرار التيـار الثورى فى اندفاعه دون انحراف أو انتكاس ، وامتداده ليشـمل الوطن العربى الكبير ، وفى الاسهام فى تقدم الحضارة الانسانية ودعم السلام العالمى » •

هذه هى طبيعة الوحدة العربية ، وهـذه هى خصائصها المميزة لهـا • وكل انحراف فى هذه المبادىء يعيب الوحدة التى تقوم عليه •

خطوات الوحـدة :

الوحدة التى هـذه خصـائصها عمل كبير وبناء ضـخم ، يجب أن يتم على خطوات وفى زمن • ويوجب هذا الأمر حقيقتان :

الأولى : أن العرب لم يتركوا لأنفسهم القرون الأربعة الماضية ، بل تدخـل الاستعمار ، وتدخلت الرجعية فى حياتهم حتى أتلفتها وجعلتها متخلفة عن ركب الانسانية الذى يتحرك أمام أعيننا فى النصف الثانى من القرن العشرين• ومن ثم كانوا فى حاجة الى زمن يتمكنون فيه من اقالة هذه العثرات •

والثانية : أن الوقت والظروف الآن لا يتسـعان للتجربة والخطأ ، وانما يجب أن تقوم الوحدة على أساس متين تؤمن معه العاقبة •

ولذلك كانت هناك خطوات يجب أن تتحقق بالترتيب حتى يقوم بناء الوحدة كما يجب أن يكون • ويمكن استخلاص هذه الخطوات من الفصـل الخاص بالوحـدة العربية من الميثاق على النحو الآتى :

١ ــ قيادة عربية مستنيرة ومخلصة تتمثل الآن فى الجمهورية العربية المتحدة التى ترى من أهم مسئولياتها فى الوقت الحاضر أن تتقدم النضال العربى وتقوده وتوجهه وتدفعه بامكانياتها الضخمة الفكرية والسياسية الى الأمام • على أن وسيلة الجمهورية فى القيام بهذه المسئولية هى الدعوة السلمية ، « ومساندة الحركات الشعبية الوطنية فى اطار المبادىء الأساسية ، تاركة مناورات الصراع ذاته للعناصر المحلية ، تجمع له الطاقات الوطنية وتدفعه الى أهدافه وفق التطور المحلى وامكانياته » •

٢ ــ تطبيق البلاد العربية المتحررة للمضمون الاقتصادى والاجتماعى الذى تشتمل عليه هذه الدعوة تطبيقا عمليا فى حياتها القومية ، حتى تملأ الفجوات الاقتصادية والاجتماعية التى أوجدتها القوى الرجعية والاستعمارية ، وحتى تعبر هوة التخلف التى عزلت وراءها فى الماضى • وبذلك تتقارب مراحل التطور فى البلاد العربية ، وتكون الوحدة أمرا ممكنا وعمليا بين أكفاء متفاهمين ، وحتى لا توجد فيها فجوات من التخلف تستغلها العناصر الاستعمارية والرجعية المعادية للوحدة •

٣ ــ قيام حكومة وطنية تمثل ارادة شعبها ونضاله فى اطار من الاستقلال الوطنى • وبذلك تنمحى أسباب التناقض فى داخل القطر بين الشعب وبين الحكومة ، كما تنمحى أسباب التناقض فى داخل الاتحاد بين السلطات الموجوده فى أقطاره المتعددة • وبذلك تتحقق الآمال النهائية فى وحدة مستقرة مندفعة نحو أهدافها بلا معوقات •

٤ ــ قيام وحدة جزئية بين شعبين أو أكثر من الشعوب العربية ، وبين قطرين أو أكثر من الأقطار العربية تكون نموذجا يحتذى ونواة للوحدة العربية الشاملة • ومثل ذلك وحدة مصر وسورية فى سنة ١٩٥٨ ، فقد كانت حقيقة ونموذجا ونواة ــ بالرغم من نكسة الانفصال المؤقتة ــ قامت عليها الوحدة الثلاثية بين مصر وسورية والعراق فى سنة ١٩٦٣ • وتحاول اليمن المتحررة الآن أن تلحق بالركب وتنضم الى الوحدة • ومن أمثلته الممكنة أيضا أن تقوم وحدة بين أقطار المغرب العربى كنواة أخرى للوحدة العربية • على شرط أن تكون الوحدة المغربية وحدة عربية من أهدافها الأصلية أن تكون خطوة مرحلية فى سبيل الوحدة العربية الشاملة •

٥ — وأخيرا يقوم اتحاد شامل بين جميع الحركات الوحـدوية ، يضم كل الوطن العربى من أقصاه الى أقصاه ، وبذلك تقوم دولة العرب العظمى القادرة على أن تعيد للعرب سيرتهم الأولى فى تاريخ الانسانية •

اسس الوحـدة :

وللوحدة العربية أسس يجب أن تقوم عليها ، ومفاهيم يجب أن تتضح عند الجميع حتى تسمى المسميات بأسمائها ، وتقام المعلومات بعللها ، ويبطل الزيف ، وينفضح الدجل ، ولا يصح فى مجال الوحدة أمام الجماهير الا الصحيح •

ونستنبط هذه الأسس من الوثائق التى سبقت الاشارة اليها كما يلى :

١ — الوحدة العربية تقوم على أساس وحدة الهدف قبل وحـدة الصف ، فليست الوحدة زينة أو حلية ولكنها وظيفة ووسيلة ، وما دامت وظيفة ووسيلة ، فيجب أن تحدد مقدما الوظائف والأهداف التى يمكن أن تستخدم الوحدة فى تحقيقها ، اذ من البديهيات أن كل أداة يمكن أن تستخدم لأكثر من هـدف ، فمبضع الجراح يمكن أن يشفى ، ويمكن أن يقتل ، وهما أمران يتوقفان على اليد التى تمسك به ، والهدف الذى يحرك هذه اليد •

وأساس وحدة الهدف يضع حدا لتزييف الشعارات ، وركوب متن النفاق فى مواكب الوطنية ، ويكفى الركب العـربى شر الانتهازيين الذين ينتظمون فى الصف ريثما يتحقق أغراضهم ، ثم يتخاذلون •

وبالأمس زيف الملكان فيصل وحسين شعار الوحدة ووقفا فى الصف وأقاما الاتحاد الهاشمى ، لا ليحققا وحدة عربية ، ولكن ليحولا الأنظار عن وحـدة الجمهورية العربية ، طبقا لخطة استعمارية كانا من أدواتها ، ولكن هيهات •

وبالأمس القريب أيضـا وقف الملك حسين فى الصف وزيف شعار القومية العربية فى خطابات أرسلها الى الرئيس جمال عبد الناصر ، لا ليحقق هدفا من أهداف هذه القومية ، بل ليخدع الناس عما كان مقدما عليـه من زواج امرأة انجليزية لينجبمنها ولى عهد انجليزى لدولة عربية ، ولكنه لم يخدع الا نفسه•

وأول من أمس وقف أباه عبد الله فى الصف العربى وزيف الشعارات ، حتى عينه العرب قائدا لذلك الصف فى معركة فلسطين • ولم يستمر وقوفه فى الصف

الا ريثما وعــده الاستعمار بضم الضفة الغربية للأردن الى مملكته ، فقنع من القومية العربية بهذا الغنم وتخاذل •

من هنا كانت وحدة الهدف هى أساس الوحــدة العربية لا وحدة الصف ، وفى هذا يقول الميثاق الوطنى اننا فى مرحلة « أصبحت فيها وحدة الهــدف هى صورة الوحدة» ويقول : «ان وحدة الهدف لا بد أن تكون شعار الوحدة العربية فى تقدمها من مرحلة الثورة السياسية الى الثورة الاجتماعية » •

ويقول الرئيس جمال عبد الناصر فى مؤتمر صحفى فى أول أكتوبر سنة ١٩٦٣ « الاتحاد بيننا هو وحدة الهدف وليس وحدة الصف • لأنه اذا تناقضت الأهداف لا يمكن للنظام التقدمى أن يتحد مع النظام الرجعى » •

٢ ــ وضع ميثاق للعمل القومى تلتقى عليــه القوى الشــعبية التقدميــة الوحدوية يحدد لها المبادىء والأهداف والفلسفة الاجتماعية ، ويكون أساسا لتعاونها واتحادها ، وبذلك لا يكون الارتجال سبيل الوحدة ، ولا يكون التأويل والتفسير سلاحا مسلطا على قيمها ومثلها •

٣ ــ تكوين جبهة سياسية متحــدة تعمل فى اطارها كل المنظمات الشعبية• وبذلك تتبلور الارادة الشعبية الحرة ، وتستطيع التعبير بحرية عن هذه الارادة تعبيرا منظما• وهذه الجبهة هى البديل الوحيد عن الأحزاب السياسية ، وفى ظلها يصبح التعاون فى العمل الوطنى هو الأسلوب بدلا من التناحر ، والاتحاد هو البديل من المعارضة ، والنقد البناء بدلا من الهدم • وبذلك يسير العمل السياسى فى اتجاه واحد ، هو الاتجاه الذى تختاره الجماهير •

٤ ــ توحيــد القيادات السياسية ضمانا لوحدة العمل السياسى ، وتوجيه النضال الشعبى • وهذا هو طريق حماية الوحدة • وبذلك يغلق البــاب أمام محترفى الســياسة وتجارها ، ويخفت صــــوت الديماجوجيــة ، ولا يجــد الاستعمار والرجعية من تساومه ضد مصالح الوطن والأمة • وليس معنى هذا اغلاق باب الاجتهاد فى مجال السياسة ، ولكن معناه تنسيقه ووضع اطار قومى له • ففى ضوء القيادة السياسية الرشيدة يستطيع كل مجتهد أو مجموعة منظمة من المجتهدين أن يفكر ويقترح ويعمــل وهو واثق أنه يسير فى طريق خــدمة المصلحة العامة لا ضدها ، ويكون فى يد الجمــاهير معيار يميزون به بين الغث والسمين فى مجال العمل الوطنى •

٥ — دعم الأجهزة الاتحـادية حتى تستطيع فى اطار ميثاق العمل الوطنى أن تضع الخطط ، وتنسق الجهد ، وتنفذ السياسات . وبذلك تتحقق فاعليـة هـذه الأجهزة وتكون قوتها دليلا على جـدية الوحدة . وقد سبق أن قلنـا أن الأصل فى الوحدة العربية هو صورة الوحدة الكاملة التى تتميز بقوة الحكومة المركزية التى تمثل الأمة العربية وتنطق باسـمها . واننا اذا كنـا نختار طريق الاتحـاد ، فانما نفعل ذلك مراعاة لبعض حقائق الحاضر التى هى من مخلفات الرجعية والاستعمار ، وأن الاتحاد يجب أن يسير نحو الوحدة أو يشـاركها مزاياها .

٦ — توحيـد الشخصية الدوليـة والسياسة الخارجية للدولة الاتحادية ، لتصبح قوة واحدة تواجه الاستعمار داخل الوطن العربى وخارجه ، وجهـدا واحدا ينتصر لحرية الشـعوب ويدعم السلام العالمى ، وكلمة واحدة لا يسمع أصدقاء العرب وأعداؤهم غيرها فى كل مكان .

٧ — توحيـد القوة العسكرية حتى تكون قبضة واحدة قوية تستطيع أن تطبق على أعـداء العروبة — الصهيونية والاستعمار — فى كل مكان ، مع حسن التوقيت وتنسيق الجهد ، واختيار زمان المعركة ومكانها ، وكل هذا لا يتحقق الا بوحدة القيادة ، ووحدة القوات ، ووحدة الأسلحة .

٨ — توحيـد أجهزة التخطيط حتى يمكن توجيه امكانيات الدولة الاتحادية نحو التنمية الاقتصادية ، وتحقيق العدالة الاجتماعية ، واستغلال جميع الطاقات والقوى خير استغلال لبناء مجتمع يقوم على الكفاية والعدل .

٩ — توحيـد الفلسفة الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع ، وهو نتيجـة طبيعية للروح التقدمية التى جعلناها أساسا من أسس طبيعة الوحدة.والصورة المقبولة لهذه الفلسفة هى الصورة الاشتراكية الديمقراطية . وأهمية هذا المقوم هو أن هذه الفلسفة الاشتراكية هى الطريق الى القـوة الداخلية والتماسـك الاجتماعى القومى .

١٠ — الاهتمام بالتربية والتعليم وما تقوم عليه وما تؤدى اليـه من البحث العلمى . ويدخل فى التربية والتعليم أجهزة الثقافة العامة ووسائل الاعـلام ، وكل ما يذهب الغفلة بالوعى ، وكل ما يمحو الجهالة بالعـلم ، وكل ما يقضى

على السطحية بالعمق ، وكل ما يغير التقليد بالقدرة على التفكير المنطقى • وقد سبق أن قلنا ان الأداة الفعالة فى الوحدة هى الشعب بوعيه ، وتنوره وايجابيته وارادته ، والتربية والتعليم هما وسيلة هـذا كله ، وربما كان هذا الأساس من أهم أسس الوحدة ، لأن ميدان التربيـة والتعليم من أسـوأ المبادىء حظا فى حياتنا العربيـة ، نظرا لطول ما حاربهما الاستعمار ، وطول ما سيطر عليهمـا الجهـلاء •

١١ ـ ولا بد لحماية كل هـذه الأسس المـادية من أن تحاط بسياج من الدين يوجهها ويسدد خطاها • ويقصد بالدين هنـا القيم الروحية المنبعثة من رسالات السماء التى نزلت بمختلف الأسماء•ولا يقلل من أهميته الأديان الأخرى أن يكون الاسلام دين الدولة الرسـمى لأنه دين الغالبية ، ثم لأنه الدين الذى أبرز العروبة كقوة عالمية وكحضارة انسانية • واذا قلنا القيم الروحية فاننا نقصد أيضا أن تترجم القيم الى قوة من ضمير يوجه ويزع ، والى سلوك يجعل لهـا أثرا فى الحياة العربية العامة •

ايديولوجية الوحـدة :

قلنا ان الوحـدة العربية يجب أن تتكون أولا من شعوب عربية تقدميـة ، ومن أقطار عربية متحررة • والذى يحدد التحرر والتقدمية هى الايديولوجية ، أى الفلسفة الاقتصادية والاجتماعية والسـياسية التى تسير الحياة القوميـة بمقتضـاها •

وقد سبق أن تكلمنا عن هذه الايديولوجية الاشتراكية الديموقراطية العربية عند الكلام عن القوميـة العربية • والنظرية واحدة فى الحالتين لأن الوحـدة العربية هى المظهر العملى التطبيقى للقومية العربية • ومن ثم فالفلسفة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية واحدة فيهما •

لذلك نص اتفاق الوحدة على ذلك فى وضوح قال :

« ان دعائم المجتمع العربى هما الديموقراطية والاشتراكية •

« والعمل السياسى ليس فقط هو قيادة الجماهير ، بل هو أيضـا تثبيت لدعائم مجتمعنا على أسـاس من الديمقراطيـة والاشـتراكية التى تنبعث من واقعنا ، وأصبحت تعبيرا عن مستقبلنا •

« ان الديموقراطية هى الحرية السياسية ، والاشتراكية هى الحرية وتكريسها لتحقيق أهدافه » .

والاشتراكية هى الترجمة الصحيحة لكون الوحدة عملا تقدميا وهى اقامة مجتمع الكفاية والعدل ، مجتمع العمل وتكافؤ الفرص ، مجتمع الانتاج ومجتمع الخدمات .

« ان الديموقراطية هى الحرية السياسية ، والاشتراكية هى الحرية الاجتماعية ، ولا يمكن الفصل بينهما . انهما جناحا الحرية الحقيقية وبدونهما أو بدون أى منهما لا تستطيع الحرية أن تحلق الى آفاق الغد المرتقب » .

وأشار البيان الى وسائل تحقيق الديموقراطية والاشتراكية ، وهى ابعاد الرجعية ، والقضاء على سيطرة الطبقة الواحدة ، والاعتماد على قوى الشعب العاملة . قال البيان :

« ان الديموقراطية السياسية يمكن أن تتحقق فى ظل الرجعية ، كما أنها لا يمكن أن تتحقق فى ظل ديكتاتورية الطبقة الواحدة .

« لذلك يجب أن يسقط تحالف الاقطاع ورأس المال ، وأن يحل محله التحالف الديمقراطى بين قوى الشعب العاملة من الفلاحين والعمال والمثقفين والجنود والرأسمالية الوطنية ، باعتبار أن هذا التحالف هو البديل الشرعى لذلك التحالف الرجعى . وهو القادر على احلال الديموقراطية السليمة محل الديموقراطية الرجعية » .

وضمانا لتحقيق هذه النظرية الاجتماعية قرر لبيان بعض المبادىء العملية الأساسية أهمها :

١ ــ السيادة فى الاتحاد تكون للشعب ، والحرية له أيضا .

٢ ــ عزل أعداء الشعب ، وهم من ثبتت عليهم تهم الرجعية أو الاستغلال أو التآمر ضد الوطن ، أو كانوا عملاء لسلطة أجنبية ، أو عملوا لفرض سيطرة الطبقة الواحدة على المجتمع .

٣ ــ نصف مقاعد التنظيمات الشعبية والسياسية تكون للعمال والفلاحين تحقيقا لمبدأ جماعة القيادة وشعبية التوجيه .

٤ ـ ضمان الحريات فى حدود القانون ـ حرية الرأى والتعبير ، حرية النقد ، حرية الصحافة ، حرية الاجتماع وتكوين الجمعيات ، حرية تكوين النقابات والتنظيمات التعاونية ، حرية العلم ، حرية العقيدة ... الخ .

٥ ـ المساواة أمام القانون ، ويتصل بها حرية التقاضى ، وحرية القضاء .

٦ ـ الانتخابات العامة حق للمواطنين وواجب أيضا .

٧ ـ تكافؤ الفرص أمام المواطنين على أسس اقتصادية وعن طريق توسع قاعدة الثروة القومية ، ووضع تخطيط شامل لعملية الانتاج والتوزيع ، بحيث يكون لكل فرد موضع فى هذا التخطيط .

٨ ـ سيطرة الشعب على وسائل الانتاج ومصادر الثروة عن طريق جعل رأس المال مشاركة بين القطاع العام والقطاع الخاص البرىء من الاستغلال والاحتكار .

٩ ـ الملك الخاص ، والميراث جزء منه ، حق المواطن ، على ألا يتخذ صفة تمكنه من الاحتكار أو ممارسة الاقطاع والاستغلال .

١٠ ـ تحرير المواطنين من الفقر والمرض والاستغلال والسيطرة عن طريق تحديد حد أعلى للملكية الزراعية ، وتقرير القطاع العام فى ميدان الصناعة ، مع العمل على زيادة الانتاج وعدالة التوزيع .

بنـاء الدولـة :

قلنا ان شكل الوحدة غير مهم وانما هو دائما خاضع للظروف ، ولدرجة الوعى العربى ؛ طالما تتوافر فى الوحدة الأسس التى سبق بيانها . وعندنا شكل للوحدة قرره اتفاق الوحدة بين مصر وسورية والعراق فى ١٧ أبريل سنة ١٩٦٣ نلخصه فيما يلى ؛ لا على أنه الشكل الذى لا شكل غيره ، ولا على أنه النموذج المثالى ، ولكن على أنه الحد الأدنى للبناء الوحدوى للدولة بحيث يكون مجديا ومحققا للأهداف القومية العربية بعض التحقيق ، وهو لا يخلو من أوجه النقد نبينها فيما بعد .

تقوم الدولة الاتحادية على أساس الاتحاد الحر بين الأقطار المكونة لها ، والحرية والتقدمية والجمهورية أساس الانضمام اليها من بقية الأقطار العربية

وللدولة الاتحادية السيادة الدولية الكاملة دون الأقطار الداخلة فيها.ولها جنسية واحدة هى الجنسية العربية ولها علم واحد، وشعار واحد، ونشيد وطنى واحد. وعاصمة واحدة.والسيادة فيها للشعب يمارسها وفقا للدستور، ودينها الرسمى الاسلام، ولغتها الرسمية العربية .

وتختص الدولة الاتحادية بالسيادة الخارجية، والدفاع، والأمن القومى والتخطيط الاقتصادى والتنمية، والاعلام، والارشاد القومى على المستوى الاتحادى، والتخطيط الثقافى والتربوى والعلمى، وتنسيق القوانين . والمواصلات الاتحادية، وكل ما يجد فى ضوء الحاجة القومية بما يحدده الدستور الاتحادى. وتوضع الأجهزة والنظم الاتحادية التى تفى بكل هذه الاختصاصات والوظائف .

وتختص الأقطار المكونة للدولة الاتحادية بكل السلطات التى لا تدخل فى اختصاص الدولة الاتحادية، وتمارس سلطة لا مركزية فى هذه الاختصاصات، فى اطار الفلسفة العامة للاتحاد، وفى اطار دستوره .

وتتكون سلطة الدولة الاتحادية من المؤسسات الآتية :

١ – مجلس أمة يكون أعلى هيئة لسلطة الدولة ويتكون من مجلسين : مجلس النواب، ويتكون من عدد من الأعضاء بنسبة عدد سكان كل قطر، ومجلس الاتحاد، ويتكون من عدد متساو من الأعضاء من كل قطر وينتخب المجلسان انتخابا حرا مباشرا بالاقتراع السرى، ومدة العضوية فيهما أربع سنوات، ولا يجوز الجمع بين عضوية المجلسين أو بينها وبين عضوية المجالس التشريعية فى الأقطار. وينعقد المجلسان فى عاصمة الاتحاد. والمجلسان يكونان السلطة التشريعية . ولرئيس الجمهورية ولكل عضو فيهما حق اقتراح القوانين، ويصدر الرئيس القوانين بعد اقرارها من المجلسين بالأغلبية .

٢ – رئيس الجمهورية، وينتخبه مجلس الأمة ليمثل سلطة الدولة، ويكون انتخابه بأغلبية ثلثى أصوات جميع أعضاء المجلس . واذا أعيد الانتخاب فى حالة عدم حصوله على هذه الأغلبية فيكون انتخابه بالأغلبية المطلقة. ومدة الرياسة أربع سنوات . والرئيس هو القائد الأعلى للقوات المسلحة، ويدعو ويفض دورات انعقاد مجلس الأمة، ويعين رئيس

الوزراء والوزراء ، ويقترح القوانين ويعتمدها ، ويعترض عليها ، ويعين الضباط ويعزلهم ، ويعلن الحرب ، ويعين قضاة المحكمة الاتحادية ... الخ . ، ويكون له نائب عن كل قطر ينتخب بنفس الطريقة . ومجلس الوزراء الاتحادى والوزراء الاتحاديون مسئولون أمام مجلس الأمة.

٣ — محكمة عليا تسمى « المحكمة الاتحادية » ينظم الدستور اختصاصاتها ويختار مجلس الأمة أعضاءها بناء على ترشيح رئيس الجمهورية من بين رجال القضاء والقانون .

وتتكون حكومة الأقطار من الأجهزة الآتية :

١ — رئيس القطر ، وينتخبه المجلس التشريعى للقطر لمدة أربع سنوات ويوافق عليه رئيس الجمهورية.وهو الذى يعين وزراء القطر ويقبل استقالاتهم، ويحدد اختصاصاته الدستور الاتحادى ودستور القطر .

٢ — مجلس تشريعى ينتخب انتخابا حرا مباشرا وسريا ، ويصدر التشريعات الخاصة بالقطر .

٣ — وزارة مكونة من رئيس ووزراء وتكون مسئولة أمام المجلس التشريعى للقطر .

وينظم الدستور الاتحادى ودساتير الأقطار الاختصاصات والمسئوليات لكل ما تقدم من الأجهزة والمؤسسات .

وهكذا نرى أن نظام الوحدة الذى أخذ به هذا الاتفاق بين مصر وسورية والعراق هو الشكل « الاتحادى » أى الشكل الثانى من الأشكال التى سبق بيانها . وهو مقبول فقط على أساس أنه مرحلة انتقالية ، الى أن تزول الفوارق بين الأقطار العربية وتتجانس أحوالها ، وتتماسك عناصرها وتذهب مخلفات الرجعية والاستعمار . وهذا هو الذى أراده الرئيس جمال عبد الناصر عندما قامت الوحدة بين مصر وسورية فى سنة ١٩٥٨ كما قال الرئيس لمحرر مجلة « ساترداى ايفننج بوست » الأمريكية من حديث نشرته المجلة فى عدد ١٨ مايو سنة ١٩٦٣ .

« ان خطوة الوحدة فى المرة الأولى كانت واسعة أكثر من اللازم . فقد كنا بلدين مختلفين ، وأصبحنا بلدا واحدا فى خمسة عشرة يوما.وكان رأيى فى عام ١٩٥٧

البدء بانشاء اتحاد فيدرالى ، ولكن السوريين ألحوا فى المطالبة بجعل البلدين بلدا واحـدا ذا سـيادة » .

وكل شكل ترتضيه الأمة العربية هو أصلح الأشكال .

نقد إتفاقية الوحـدة الثلاثية

عرضنا أهم ما جاء فى اتفاقية الوحدة الثلاثية بين مصر والعراق وسـورية فى ١٧ أبريل سـنة ١٩٦٣ . وقلنا انه أضـعف الايمـان . والآن نعرض لنقط الضعف فى هـذه الاتفاقيـة (١) :

١ — انها اتفاقية على اتحاد لا وحدة . وقد قلنا ان أمل العرب لا يمكن أن يقصر عن وحدة كاملة شاملة لوطنهم . وكل ما هو دون الوحدة من أشكال التوحيد انما هو شكل معيب يحقق بعض آمال العرب ويوفى ببعض مصلحة العرب ولكنه أيضا يحقق سياسة أعدائهم .

٢ — ان الاتفاقية تركت الجيوش تابعة للحـكومات القطرية وليس للحكومة الاتحادية . أى أن الوحدة لم تشمل الجيش . وهو أمر على جانب عظيم من الخطورة لأنه يمس قوة الدولة الجديدة وصلابتها وقدرتها على الوقوف أمام أعداء العرب وأمام أعداء الوحدة .

٣ — ان الاتفاقيـة لم تحتم قيام حكومات ديمقراطيـة برلمـانية فى كل من العراق وسورية ، وان كانت مصر قد أعلنت فى مفاوضات الوحـدة وقبلها أنها ستقيم برلمانا قطريا قبل نهاية هذا العام (١٩٦٣) . ومعنى هذا أن السلطتين التشريعية والتنفيذية بقيتا للحكومة القطرية فى كل

---

(١) — راجع فى نقد اتفاقية الوحدة الثلاثية :

(ا) محاضر محادثات الوحدة ، دار الاهرام ، أغسطس ١٩٦٣

(ب) بيان الاتحاد الاشتراكى العربى فى ذكرى الانفصال ، الصحف المصرية فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٦٢

(جـ) بيان الاتحاد الاشتراكى العربى بمناسبة مرور يوم ١٧ سبتمبر ١٩٦٣ دون اجراء الاستفتاء على الاتفاقيـة .

(د) حديث الرئيس جمال عبد الناصر فى المؤتمر الصحفى فى ١ أكتوبر ١٩٦٣

(هـ) خطاب الرئيس فى الفوج القادم من اليمن من القوات المسلحة فى يوم ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٦٢

(و) الصحافة المصرية فى هذه الفترة .

من سورية والعراق وهو افتئات على حقوق الشعبين العراقى والسورى فى حكم أنفسهم وفى الرقابة على الحكومة . وكذلك لم تنص الاتفاقيه على قيام البرلمان المركزى الاتحادى . ووضعت أجلا لذلك خمس سنوات ، وما هو بالقليل .

يكفى هذه العيوب الثلاثة فى هذه الاتفاقية لتجعلها مشروعا ضعيفا ، لا ينجم عنه الا دولة اتحادية ضعيفة أمام القوى الخارجية لعدم توحيد جيشها ، معرضة لهزات فى داخلها لعدم قيام حكومة ديمقراطية ، ولقد ذكرنا فيما تقدم من أسس الوحدة ، توحيد الجيش ، وقيام حكم ديمقراطى . وقد نقضت الاتفاقية هذين الأساسيين على أهميتهما .

ولم يغب ذلك عن الرئيس جمال عبد الناصر وهو على رأس المفاوضين عن الجمهورية العربية المتحدة ، ولذلك رفض هذه الوحدة الشكلية بشدة ، كما هو واضح فى محاضر المحادثات ، ولكن وفد العراق تدخل وقال ان الخروج بدون اتفاق معناه تهديد ثورة ٨ فبراير ، وثورة ٨ مارس فى سورية واحراجها أمام الجماهير الراغبة فى الوحدة المندفعة فى ركب الثورتين من أجل تحقيق الوحدة لا غير .. وأمام هذا الاعتبار قبل الرئيس جمال عبد الناصر الاتفاقية معلنا ما فيها من عيوب ، تاركا تصحيحها ليتم بالتدريج فى أثناء فترة الانتقال . ووصفها بأنها وحدة ضعيفة ، كما ورد فى محاضر الجلسة الختامية من المحادثات .

ما قبل الاتفاقية وما بعدها

وهذا الضعف فى الاتفاقية لا يفسره الا تصرفات حزب البعث الحاكم فى كل من سورية والعراق ، قبل المحادثات وبعدها . وهذه التصرفات صريحة الدلالة على أن حزب البعث الذى سرق ثورة ٨ مارس من الشعب السورى لم يكن يريد الوحدة ، ولكنه كان يريد أن يستولى على الحكم ويقيم دولة الحزب المتعطش للسلطان .

والدليل على ذلك أن « على صالح السعدى » الذى كان نائب رئيس وزارة العراق البعثية ، لما زار دمشق بعد أيام من قيام ثورة ٨ مارس قال فى خطابه : ان هدف حزب البعث هو اقامة اتفاق عسكرى بين الدول العربية المتحررة — مصر

وسورية والجزائر والعراق واليمن — وعمل اتفاق سياسى ، واتفاق آخر على أن تدخل جيوش هذه الدول فى حالة تعرض أى منها لأزمة داخلية • ووافقه صلاح البيطار رئيس وزراء سوريا البعثى على ذلك وقال ان هذه الأهداف تتفق مع أهداف مجلس الثورة فى سورية • ووصل الى القاهرة ، طالب شبيب ، وزير خارجية العراق طالبا أن توافق القاهرة على هذا المشروع ، فرفضت القاهرة لأن المشروع لم يكن وحدة ولا اتحادا ولكنه مؤامرة من حزب البعث ليبقى فى الحكم •

ثم قالها حزب البعث السورى صراحة فى سبتمبر سنة ١٩٦٣ « ان خطة الحزب الآن هى اقامة وحدة بين العراق وسورية لتكون الدولة الوحدوية الصحيحة التى يقودها حزبنا » • وهكذا لم تزد أهداف حزب البعث عن اقامة وحدة مبتورة ضعيفة لا تختلف عن وحدة الأسرة الهاشمية ، فى كل من العراق والأردن سنة ١٩٥٨ •

وهكذا لم تكن محادثات الوحدة عند حزب البعث الا مناورة حزبية لمواجهة الضغط الشعبى الجماهيرى فى كل من العراق وسورية ، حتى يخدع الجماهير ويمتص نقمتها على الحركات الانفصالية ، ويخدر أعصابها المشدودة الى قيام وحدة عربية حقيقية ، وهو الهدف الذى من أجله قامت بثورتى ٨ فبراير فى العراق و٨ مارس فى سورية •

ان عقدة حزب البعث الكبرى أنه يريد أن يحكم ، فهو بحكم هذه العقدة لا يريد الدولة العربية المتحدة ، ولكن يريد دولة لنفسه ولرجاله المتعطشين للسلطان • ولكن حزب البعث لا يملك عقيدة سياسية اجتماعية تضمن له سندا شعبيا جماهيريا ، ومن ثم لجأ الى الخداع والتآمر والكذب ، وأتى بهذه الأقنعة ليفاوض من أجل الوحدة فى أبريل سنة ١٩٦٣ •

ولئن كان كلام حزب البعث قد فضحه فى أثناء محادثات الوحدة ، فقد فضحته أعماله بعدها • فبعد توقيع الاتفاقية بأسبوعين بدأ حزب البعث ينقض الاتفاقية فسرح العناصر القومية الوحدوية فى الجيش السورى ، وترتب على ذلك صراع بين المنظمات السياسية هناك استحال معه قيام الجبهة القومية

المتحدة التى نصت عليها الاتفاقيــة وانفرد حزب البعث بالحــكم ، وانفــرد بالتصرف فى الجيش ، وأبعــد من الجيش والحــكومة كــل من كــان ينتــمى للجبهة القومية الوحدوية ، واتبع سـياسة فاشستية ، وبذلك انعــدمت وحــدة العمل السياسى ، ووحدة القيادة السياسية ، بعــد أن اتخــذ البعثيــون موقفــا انعزاليا قائمــا على الاســتئثــار •

ولم تسكت القــاهرة على هــذا الانحــراف البعثى ، فأبلغت حزب البعث الحاكم فى سوريا فى أوائل شهر مايو ســنة ١٩٦٣ أن هــذه التصرفات تعتبــر نقضــا لاتفاقية الوحدة ، وأنه اذا لم تصحح هذه الأوضاع فان القــاهرة تعتبر ان حزب البعث قد نقض الاتفاقيــة ، وعادت القــاهرة فأبلغت حــزب البعث بضرورة تصحيح الأوضاع فى أوائــل يوليــه •

ولمــا لم يرعو حزب البعث عن غيه الحــزبى أعلن الرئيس جمال عبد الناصر فى يوم ٢٣ يولية أن حزب البعث المنحــرف قد نقض اتفاقية الوحدة الثلاثيــة وان الاتفاقية قائمة لا زالت مع الشعب الســورى المناضــل ولكن لا اتفاقيــة ولا وحــدة مــع حــزب البعث •

نظرة واقعية

مع كل ما تقــدم من الأسس القوية التى تقوم عليهــا الوحدة العربيــة فان الطريق ليس معبدا أمامها تماما • وربما كان من مقتضيات قوتهــا وأصالتها أن تقوم ضدها تيارات مضادة لا يســتهان بهــا ، وكما أن الوحدة العربية تاريخية فلها أعداء تاريخيين أيضا • ولا يزال هؤلاء الأعــداء يعملون ضــدها باصرار ويقاومونها بعنف ، ومن ذلك :

الاســتعمار ــ فالاستعمار لم يبسط نفوذه على الأمة العربيــة الا بعــد ما تفككت ، ولم يحكم أرضــها الا بعد أن جزأها ، وأعــدى أعدائه الوحــدة العربية ، لأنها منبع قوة العــرب المقاومة له ، ومن ثم كان ما ترى من مؤامرات الاستعمار حول الوطن العربى ، وسعيه بالوقيعة والدس بين حكامه ، وبالعــزل بين شــعوبه ، وبايجاد نقطة انفصال بين شرقه وغربه باحتــلال العصــابات الصــهيونية لفلســطين •

طلاب العروش — فبين العرب أسر متلكئة من الماضى ، مصابة بعقدة الحكم ، أصابها هذا الداء بالوراثة ، وهذه الأسر أهون على العرب من أن يروهم كفئا للصدارة ، وهمتهم أعجز من أن تبوئهم مقعد حكم فى أى دولة عربية كبيرة ، أو أى شعب عربى متنور . ولذلك فان هذه الأسر ذات مصلحة فى تفكك وحدة العرب ، حتى تستطيع أن تعزل قطاعا ضعيفا منه . وتفرض عليه حكمها مسنودة بسلاح أجنبى ، أو برجعية محلية . ومن أمثلة ذلك الأسرة الهاشمية فى الأردن وقد مرت لمحات من تاريخها من أيام الحسين ابن على الى أيام حسين بن طلال .

الرجعية — فبين العرب من الرجعيين الذين يستغلون الشعوب وينهبون ثرواتها ، ويستبدون بمصالحها ، ومن مصلحة هؤلاء الرجعيين عزل شعوبهم عن بقية الشعوب العربية ، ابعادا لها عن تيار التنور ، ومنعا لها من أن تقف على مزايا الحركات الثورية والتقدمية التى رفعت من مستوى الحياة فى الأقطار العربية الأخرى . وهؤلاء من أخطر القوى التى تعمل ضد الوحدة العربية باصرار . وكلنا نعرف مؤامرات سعود ضد الجمهورية العربية المتحدة ، وعداءه لفكرة الوحدة .

الأحزاب السياسية — ويمكن أن تسلك الأحزاب السياسية ضمن معسكر الرجعية ، فأصحاب بعض هذه الأحزاب من طلاب السلطان والحكم لأنهم لا يريدون فى الحكم الا وسيلة للمغانم ، وكثير منهم من طبقة الرجعيين الذين تسللوا الى الأحزاب السياسية لتكون عدتهم فى الاستغلال ، وكثير منهم من طبقة العملاء والمرتزقة الذين يتخذون خدمة المصالح الاستعمارية أو الأسرية طالبة العروش وسيلة لتحقيق المصالح الذاتية ، وبعضهم من الشعوبيين الذين استضعفوا فدخلوا تحت لواء العروبة دون أن يخلصوا لها فهم يطعنونها من الداخل تسللا ونفاقا ، ومثل هذه الأحزاب تقاوم الوحدة بطرق عديدة . فأصحابها تقل فرص الاستغلال أمامهم فى ظل طريقة الحياة الاشتراكية الديمقراطية ويجرفهم تيار الثورة المرافق للوحدة ، ويقصيهم عن مقاعد الحكم الذى لا يكون الا للشعب فى هذه الثورة . وخطر هذه الأحزاب أنها

كثيرا ما تزيف شعارات الوحدة ، وتخدع بها بعض الناس ثم تستغلهم فى ضرب الوحدة ، أو تحطيم قيمها .

هذه القوى كلها تعمل ضد الوحدة العربية فى الوقت الحاضر ، وكانت تعمل فى الماضى وفيه حققت بعض الانتصارات الوقتية ، والمعركة مستمرة بين الوحدة وبين أعدائها ، ومن ثم وجب أن تكون الشعوب العربية على حذر .

على أن قانون التاريخ هو أن تنتصر الارادة الشعبية ، وتتم العملية التاريخية ، وتتحقق حتمية التاريخ ، والوحدة العربية هى ارادة الشعب العربى ، وهى اتجاه التاريخ .

الفصل السادس

الأمة العربية والاستعمار

ما هو الاستعمار

الاستعمار هو حكم أمة لأمة أخرى رغم ارادتها .

ويفرق أصحاب علم السياسة بين نوعين من الاستعمار : الأول هو الاستعمار التوسعى أو Imperialism ، والثانى هو الاستعمار الاستيطانى Colonization

أما الاستعمار التوسعى فهو سياسة وممارسة استيلاء دولة بالقوة أو نحوها على أراضى دولة أخرى وضمها اليها على شكل مستعمرة ، أو احتلال ، أو حماية أو انتداب ، فكلها واحد وان اختلفت الأسماء . وقد تختلف الدوافع الاستعمارية من مجرد اظهار العظمة الحربية والتماس المجد الشخصى أو القومى كالاستعمار الرومانى قديما ، الى الرغبة فى الاستغلال الاقتصادى ، أما للحصول على المواد الخام اللازمة لمصانع الأمم الصناعية ، أو فتح أسواق جديدة لمنتجاتها كالاستعمار الغربى الحديث . وأيا ما كان الدافع فان أمر الاستعمار لا بد وأن ينتهى الى الاستغلال الاقتصادى الذى تحميه قدة السلاح والسيطرة على الحكم . ومثله الاستعمار الغربى المنهار فى الوطن العربى .

أما الاستعمار الاستيطانى فهو انتقال أعداد كبيرة من أهل البلاد الاستعمارية الى أراضى الدولة المحتلة واستيطانهم فيها ، وغلبتهم على أهلها مكونين طبقة ممتازة من السكان يستغلون السكان الأصليين . ومن أمثلة ذلك استعمار الأوربيين لجنوب أفريقيا واستراليا ، والاستعمار السابق للفرنسيين فى الجزائر ، واستعمار العصابات الصهيونية لأجزاء من فلسطين العربية ، وعادة ينتهى الاستعمار الاستيطانى باستقلال المستعمرة عن الدولة المحتلة ، ولكنه استقلال لصالح رعاياها المستوطنين لا لصالح أصحاب البلاد .

ولما كان الاستعمار يتم رغما عن أهل البلاد الأصليين ، فان العامل الأساسي فيه هو القوة المادية . فالدول التي تملك أقوى الأسلحة وأرقى الصناعات تستعمر الدول الضعيفة . ولذلك استقر الاستعمار في الدول الأوربية لأنها منذ أربعمائة سنة كانت قد أخذت تنشيء حضارة صناعية حربية بحرية تقوم على العلوم الطبيعية واختراع الأسلحة الحديثة . ولذلك وقعت أقطار القارتين الأسيوية والأفريقية في قبضة الاستعمار لأنها منذ ذلك الوقت كانت قد انصرفت عن العلوم وأسباب القوة المادية فضعفت وعجزت عن الدفاع عن نفسها أمام غزو الدول الاستعمارية .

وعلى هذا الأساس استقر الوضع العالمي بين الاستعمار والدول المغلوبة على أمرها الى سنة ١٩٤٥ ، أي الى نهاية الحرب العالمية الثانية حين بدأت هزيمة الاستعمار واتخذ طريقه نحو التصفية . واذا أردنا أن نتصور الوضع الاستعماري على حقيقته يجب أن نرجع بذاكرتنا الى ما قبل ذلك التاريخ ، أي الى ما قبل تصفية الاستعمار تحت ضغط يقظة الشعوب . فالى الحرب العالمية الثانية كان ثلث مساحة الأرض المسكونة مستعمرات تحتلها دول استعمارية . وكان ٧٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة من سكان العالم البالغ عددهم ٢ بليون نسمة ، رعايا مستغلين تحتل بلادهم دول استعمارية ، أي أكثر من ثلث البشر . وكانت سبع دول استعمارية تستعبد هذا العدد الهائل من الناس ، اذا استثنينا اسبانيا لأن سكان مستعمراتها لا يزيدون على مليون نسمة ، كما يتضح من الجدول الآتي :

الدول الاستعمارية وشعوب مستعمراتها
قبل تصفية الاستعمار أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها

رقم	الدولة الاستعمارية	عدد سكانها (مع التقريب) ١٩٤٥	عدد سكان مستعمراتها
١	انجلترا	٤٨ مليون	٥٠٠ مليون (منها ٣٥٠ مليون في الهند)
٢	فرنسا	٣٨ مليون	٧٠ مليون
٣	هولندة	٩ مليون	٧٠ مليون
٤	اليابان	٧٢ مليون	٣٠ مليون
٥	بلجيكا		١٥ مليون
٦	الولايات المتحدة	١٣١ مليون	١٥
٧	البرتغال	٨ مليون	١٠ مليون

خصائص الاستعمار

أيا ما كان نوع الاستعمار ، ومهما اختلفت أحوال الدولة الاستعمارية أو القطر المستعمر ، فهناك خصائص عامة يتفق فيها الجميع . واليك أهم هذه الخصائص :

١ ـ الاعتماد على العنف وقوة السلاح :

فالشعوب لا تقبل أن تستعبد ، والمواطنون مهما كانت درجتهم من الوعي والثقافة لا يقبلون أن تحتل بلادهم دولة أجنبية . ومن ثم كان القهر وكانت قوة السلاح هي العامل المحدد للاستعمار . وقد تدخل دولة أراضي دولة أخرى بالحيلة والاتفاق ، كما فعلت البرتغال في الهند يوم أنشأت أول مراكزها الاستعمارية التجارية هناك في القرن الخامس عشر ، بناء على اتفاق مع الزامرين ملك قاليقوط . وقد تدخل دولة أراضي دولة أخرى عن طريق تسلل الشركات التجارية كما فعلت انجلترا في الهند يوم اوعزت الى بعض رعاياها بانشاء شركة الهند الشرقية للتجارة مع الهند وأنشأت هذه الشركة لنفسها مكاتب وبوليس يحرسها في الهند . ولكن النهاية هي أن تضطر الدولة الاستعمارية الى التدخل بالسلاح وشن الحرب واحتلال القطر بالقوة . وهذا هو ما فعلته كل من البرتغال وانجلترا في الهند بعد تلك المقدمة السلمية . ودخل الاستعمار البريطاني مصر في أول الأمر على هيئة لجان تحقيق في مالية الخديوي اسماعيل ، وصندوق دين لقبض فوائد الديون ، ثم ما لبثت الأساطيل البريطانية أن قدمت وضربت الاسكندرية واستولت على البلاد بالقوة . وبقوة السلاح يستمر استعمار قطر من الأقطار لأنه يوم يضعف جيش الاحتلال يثور أهل البلاد ويطردون الأجانب .

ويحاول الاستعمار عادة أن يغطي وجه القوة فيتخذ له أنواعا من الذرائع ، كحماية رعاياه ، أو حماية أموال الدائنين منهم ، أو حماية العرش من الشعب الثائر عليه ؛ أو الدفاع عن الكرامة ورد اهانة أصابت القنصل ؛ وعندما لم يجد نابليون بونابرت حيلة من هذه قال انه استخدم السلاح وقاد الحملة الفرنسية على مصر لتمدين المصريين ! !

٢٢ ـ السيطرة السياسية على ادوات الحكم :

فالاستعمار يحكم القطر المحتل ، ويستولى على الوظائف الادارية ، ولا يترك لأهل البلاد الا أصغر الوظائف وأحقرها ، ويأتى توجيه الحكومة من عاصمة الدولة الاستعمارية • ويوم احتلت انجلترا مصر أعلنت الخديوى أنه « يجب أن يعتبر نصائح المعتمد البريطانى أوامر واجبة التنفيذ » • وقد توضع الحكومة فى أيدى بعض الوطنيين ، ولكنهم عادة من عملاء الاستعمار الذين ينفذون رغباته ، حتى دون أن يطلبها • وقد تشكل منظمات دستورية كبرلمان أو نحوه ، ولكن بطريقة ما حتى تكون غالبية أعضائه من العملاء والخونة والانتهازيين والمغفلين وغيرهم من الطوائف التى تكون طوع ارادة المستعمر ، كمعظم الأحزاب السياسية عندنا فى الماضى • ومثل الفلكسراد Volksroad أو المجلس النيابى الذى عملته هولندة فى اندونيسيا فى سنة ١٩١٦ ووضعت من الشروط المالية والتعليمية ما منع غالبية الوطنيين من حق التصويت فى الانتخاب له وأقصائهم عن عضويته •

ويعمل الاستعمار عادة على خلق طبقة اجتماعية تصلح لهذا النوع من الحكم • وكلما ظهر زعيم وطنى يحاول مقاومة الاستعمار ، حاولت الحكومة أن ترشوه أو تشتريه بالمال أو بالمنصب فاذا رفض وصمته بأنه متعصب ومتطرف ومهيج وديماجوجى ، وخلقت الذرائع لتقبض عليه وتسجنه أو تنفيه • وفعل الاستعمار البريطانى ذلك مع سعد زغلول فى مصر ، ومع غاندى ونهرو فى الهند ، وفعلته فرنسا مع الملك محمد الخامس فى المغرب وعرفت انجلترا بذلك حتى أنه عندما أرادت أن تمنح الهند استقلالا ذاتيا فى سنة ١٩٤٢ بناء على تقرير لجنة كربس Cripps ، رفض زعماء الهنود ذلك العرض لأنهم كانوا لا يثقون فى صدق نية بريطانيا • ولم يقبلوا الا الانفصال عن تلك الدولة الاستعمارية اللعينة •

وتدخل السيطرة الحربية فى باب السيطرة السياسية • فان الدولة الاستعمارية تحتل كل الأماكن الاستراتيجية فى القطر المحتل ، كما تضع يدها على كل المواد ذات الأهمية الحربية ، ولا تسمح لأحد من الوطنيين أن يتعلم الفن الحربى الى درجة مجدية • ويدخل فى هذا الباب أيضا سيطرة الدولة

الحاكمة على العلاقات الخارجية للبلد المحتل ، فالاتصال بالخارج محرم على الوطنيين والتمثيل الخارجي ليس من حقهم .

ولكى تتمكن الدولة الاستعمارية من هذا كله ، تتبع سياسة تضعف بها الأمة المحتلة ، ومن هذه الأساليب تصفية الجيش واضعافه وتحويله الى قوة بوليسية ، أو حملة قماقم فى الأفراح والمآتم . والقضاء على الصناعة وحصر الشعب فى ميدان الرعى والزراعة . والاعتماد على هيئة من البوليس السياسى تراقب الوطنيين وتتعقبهم وتتجسس عليهم . وايقاع الفرقة بين عناصر الأمة من أصحاب الأديان والمذاهب المختلفة كما فعلت انجلترا فى الهند . أو خلق الأحزاب السياسية الصورية المتنافرة باسم الديموقراطية كما عملت فى مصر .

ويبرر الاستعمار هذه السيطرة السياسية بأن أهل البلاد لا يستطيعون حكم أنفسهم ، أو أنهم لا يريدون أن يحكموا أنفسهم ، أو أنهم اختاروا حكم الأجنبى بمحض ارادتهم ، الى آخر ذلك من تزييف ارادة الشعوب . وكلها دعاوى باطلة لأن الشعوب كانت تحكم نفسها قبل قدوم المستعمر بآلاف السنين . فاذا طالب الشعب بأن يحكم نفسه قالت حكومة الاستعمار لا بأس ولكن بعد فترة تدربهم فيها على حكم أنفسهم ، ويستمر التدريب الى ما شاء الله . فاذا أصر الشعب على الاستقلال خلق الاستعمار ذريعة أخرى ، كالخوف عليه من أن يقع فريسة فى يد دكتاتور وطنى ، أو من أن يترك الجلاء فراغا تبادر دولة أخرى كروسيا مثلا ، الى شغله ، ومن ثم يبقى الاحتلال لحماية الشعب المسكين من زعمائه أو من قوة أجنبية خارجية ، أو لغير ذلك من الذرائع الزائفة .

٣ — الاستغلال الاقتصادى :

واذا لم يستغل القطر اقتصاديا فلماذا اذن تتحمل الدولة الاستعمارية مسئولية الاعتداء على الناس وحكمهم رغم أنوفهم ؟ ! . فالدولة المستعمرة تستغل القطر المحتل كمورد للمواد الخام التى تزود بها مصانعها ، وكسوق تصرف فيها بضائعها الزائدة . والفرق بين ثمن قنطار القطن المصرى الخام وبين القنطار من المنسوجات القطنية الرقيقة المصنوعة منه فى مصانع لانكشير يبين مدى الاستغلال . والفرق بين ثمن طن البترول الأسود من العراق وطن البنزين ، أو بين طن زيت الزيتون الخام من تونس وبينه مكررا ومعبأ فى علب صغيرة

سعتها نصف كيلو أو كيلو كامل ، يبين أيضـا مدى الاستغلال . وقديما استخدم الاستعمار الرومانى مصر لتكون موردا للقمح ، وحديثا استخدمها الاستعمار البريطانى لتكون مزرعة للقطن . وحاليا يستخدم الاستعمار الوطن العربى كمورد للبترول الخام . ولذلك يقاوم الاستعمار قيام الصناعة فى المستعمرات ، ويبقيهـا محصورة فى دائرة زراعة الحاصلات التى يمكن تصنيعها كالبترول والقطن ، أو مناجم لاستخراج المعادن التى تصنع فى الدول الاستعمارية . ولذلك لا يفيد أهل البلاد من ثروات بلادهم ، وغاية ما يحصلون عليه هو أجـور منخفضة جدا فى الحقول أو المناجم وأحيانا يعملون بالسخرة تحت سياط المستعمر وأذنابه ، وحتى البيوت المالية التى تسوق الحاصـلات الخام أو تستخرجها تكون أجنبيـة من جنسية القوة المسـتعمرة ، حتى لا يخرج الوطنيون الا بمجرد الأجور عن عملهم اليدوى ، طالما أن رؤوس أموال هذه البيوت أجنبية اسـتعمارية ، وكذلك كبـار موظفيها والفنيين من العاملين بهـا . وحتى العمليات المتوسطة بين هذه البيوت وبين الفـلاحين ونحوهم يضعها الاسـتعمار فى يد سماسرة وعملاء من الأجانب كاليـونانيين فى مصر . وهـذا النمـط تجـده فى عمليـة القطن فى مصر ، وعملية المطاط فى أفريقيا وجزر الهند ، وعملية زيت الزيتون فى المغرب العربى . والقاعدة الاستعمارية العامة هى أنه لا وظيفة راقية ولا مرتب كبـير ولا ربـح مناسب لمواطن . فاذا سمح بشىء من ذلك فقط لطبقة العمـلاء من الاقطـاعيين ورجال الصناعة القلائل الذين ينفعون كدمى للمستعمر يضعها فى كراسى الحكم . ويبلغ الاستغلال الاقتصادى مداه فى اعتبار المستعمرات مسئولة عن دفع نفقات حكومة الاحتلال ، وقد كانت مصر أيام الاحتلال تدفع نفقات جيش الاحتلال البريطانى ومرتباته من ميزانيتهـا ! ! .

ويخلق الاسـتعمار مبرراته لذلك . فيـدعى أن الوطنيين لا يسـتطيعون استغلال موارد بلادهم لنقص كفايتهم أو انحطاط مهارتهم أو عـدم قدرتهم على اكتساب المهارة الصناعية والتجارية ، أو عدم وجود رؤوس الأموال الوطنيـة اللازمة لعملية الاسـتغلال . وفى نفس الوقت يحول الاستعمار دون اكتسـاب المواطنين لهذه القدرات ، أو تجميع رؤوس الأموال هـذه .

٤ ـ ندرة الخدمات العامة :

فالاستعمار لا يسمح بخدمات عامة من نوع راق لأهل البلاد ، سواء أكانت هذه الخدمات صحية أو اجتماعية أو ثقافية . ولعل أول خدمة يحاربها الاستعمار هى التعليم ، فهو يضيق من فرصة ويحصره فى مجال الألفاظ ويحارب التعليم الفنى والصناعى ، ويحارب الجامعات . كل ذلك ليبعد الناس عن التنور فلا يفهمون معنى الحرية ولا يطالبون بها . ويوم دخل الاستعمار البريطانى فى مصر ألغى احدى وعشرين مدرسة ، بحجة الاقتصاد ، وفرض المصروفات المدرسية حتى فى المدارس الأولية ، وحصر التعليم فى تواهات من الألفاظ دون مهارة عملية ، وصعب الامتحانات على الطلبة حتى لا يتخرج أحد ، وكان لا يقبل فى المدارس العالية كالطب والهندسة كل عام الا طالبين أو ثلاثة طلاب ، ولم يقبل أحد فى بعض السنوات ـ وكانت أكبر مدرسة عالية فى مصر هى مدرسة الزراعة وكان بها أربعون طالبا فى أربع فرق ، أى أن فى كل فرقة عشرة طلاب .

وفى سنة ١٨٨٧ دخل السنة الأولى بالدراسة الثانوية بمصر ٢٠١ تلميذا ووصلوا الى السنة الرابعة وهم ٧٠ تلميذا والباقى فصل أو يئس وترك المدرسة ، ولم يتخرج من هؤلاء فى امتحان البكالوريا الا أقل من النصف .

وهذه هى نفس السياسة التى أتبعها الاستعمار البريطانى فى الهند . واذا كان الاستعمار الفرنسى يعطى بعض الفرص التعليمية فهى فى مدارس فرنسية تنسى المواطنين دينهم ولغتهم وتحاول أن تجعل منهم فرنسيين أو على الأصح خداما للفرنسيين كما حاول أن يعمل فى تونس والجزائر . أما هولنده فقد منعت تعليم الأندونيسيين أى لغة أوربية حتى ولا اللغة الهولندية ، وجعلت لغة جزيرة مالى هى اللغة الرسمية ، وبذلك عزلتهم عن العالم . والاستعمار يهمل الخدمات الصحية والاجتماعية أيضا ، عن قصد ، حتى تنحط معنويات الناس تحت وطأة الفقر والمرض فيلهيهم ذلك عن المطالبة بالاستقلال ، لأن الجرى وراء الرغيف وملعقة الدواء مع الجهل لا يترك فرصة أمام الناس ليطالبوا بحريتهم . والجامعات هى عدو الاستعمار اللدود لأنها معقل الأفكار الحرة ، ولذلك قاوم الاستعمار البريطانى فكرة انشاء الجامعة من سنة ١٩٠٧ الى سنة ١٩٢٥ . وكل ما يسمح الاستعمار به من الخدمات العامة هى ما كان متعلقا بمصالحه الاقتصادية ، كمشروعات الرى فى مصر لأنها تزيد محصول القطن فتنتعش مصانع لانكشير .

ويتذرع الاستعمار لاهمال هذه الخدمات الضرورية ، بسوء الأحوال الاقتصادية ، وعدم كفاية الميزانية . وفيما يختص بالعلم يدعى الاستعمار دائما أن الوطنيين غير قابلين للتعلم كما حدث من الاستعمار فى افريقيا ، أو أن التعليم يسبب البؤس للأهليين لأنه يفتح عيونهم على تطلعات وآمال لا تمكنهم مواردهم من تحقيقها فاذا قيل لحكومة الاستعمار انه يمكن مواجهة ذلك بفرض ضرائب على الدخول الكبيرة ، تذرعت بأن هذا لا يشجع رؤوس الأموال الأجنبية ويطرد ما هو موجود منها فيرتطم الاقتصاد . واذا اضطرت حكومة استعمارية الى تقديم بعض الخدمات ، قصرتها على الصحة ونحوها ، ورفضت تماما أن تحسن التعليم لأنه عدو الاستعمار . وفى جزر الهند الشرقية لم يزد ما أنفقته هولندة على التعليم عن ٥٪ من الميزانية . وفى مصر كانت ميزانية التعليم فى سنة ١٨٩٠ تحت الادارة البريطانية ٨١٫٠٠٠ جنيه ، ولم يكن هناك أزمة مالية ، ويقدر جورج ينج Georges Young الكاتب الانجليزى المعاصر أن الميزانية كانت تسمح فى تلك السنة بتخصيص ٢ مليون جنيه للتعليم . وفى سنة ١٩٢٠ — ١٩٢١ م ، وهى تحدد أواخر فترة سيطرة الادارة البريطانية على التعليم فى مصر كانت ميزانية التعليم ١٫٠١٣٫٥٠٣ جنيها أى بنسبة ٢٫٥٪ من ميزانية الدولة . هذا كان يحدث فى الوقت الذى يقرر فيه سنوك هيرجرونج Snouk Hurgronje « أن الأندونسيين بحت أصواتهم فى المطالبة بفرص أوسع للتعليم » . ويقرر لورد كرومر فى تقريره عن مصر « أنه زار فى سنة ١٨٨٩ م قرى نائية فى صعيد مصر حيث لم ير الأهلون وجه أوربى الا نادرا ، ولم يلحف الأهالى فى شىء طلب قدر ما ألحفوا فى المطالبة بانشاء مدارس لأبنائهم » .

وفى الوقت الذى يتذرع فيه الاستعمار بسوء الأحوال المالية وعدم وجود فرص أمام المتعلمين ، تعمل الادارة الاستعمارية فى المستعمرات دائما على افقار البلاد ، وتحتكر الوظائف لمواطنيها من المستعمرين .

٥ — الاستعلاء والتعصب :

وهنا يصل الاستعمار الى آخر مراحل التجرد من الانسانية ، اذ أنه ينظر الى أهل البلاد المحتلة نظرة استعلاء وازدراء ، يقيمها على أسس غير انسانية كلون البشرة ، أو الدم . فالعلاقات الانسانية الملازمة للاستعمار تقوم على التفريق العنصرى بين المستعمر وبين أهل البلاد ، كما تقوم على السيادة والتبعية ،

ومن هنا تنعدم المساواة ، وقد يصل الأمر الى عزل الوطنيين . ثم أنه لا أمل فى تحطيم هذه الحواجز طالما أنها تقوم على اللون وشكل الشعر ، ولن يصبح الوجه الأسود فى مثل بياض اللبن ، ولن يصبح الشعر الأسود المموج أصفر كأسلاك الذهب أو مسترسلا كأذناب الخيل . وهكذا ينقسم المجتمع فى المستعمرات الى طبقتين لا توجد أى وسيلة لاذابة احداهما فى الأخرى . طبقة مستعلية سيدة متغطرسة متحكمة تحتكر الامتيازات ، وطبقة منخفضة مستعبدة ذليلة محرومة من أبسط الحقوق ، وعلى أديم وطنها . وهكذا تهدر آدمية الآدمى تحت نظام الاستعمار . بل وقد يتجاوز الأمر حد الاستعلاء والازدراء الى حد البغض والكراهية ، فيحاول الشعب الاستعمارى استئصال شأفة أهل البلاد ، فيعمل على أن ينقرضوا ، كما فعل الأمريكيون بالهنود الحمر فى أمريكا ، وكما يفعل البيض فى جنوب أفريقية بالزنوج .

ويتذرع الاستعمار فى هذا كله بنظريات أثبت العلم خطأها ؛ كالقول بأن الشعوب البيضاء قد اصطفاها الله فميزها على الشعوب السوداء بالذكاء والقدرة والعبقرية . وواقع الأمر أن الأوربيين احتكوا بالعرب منذ القرن الحادى عشر الى القرن الرابع عشر ، وأخذوا عنهم حضارتهم العلمية ، وأثمرت عندهم هذه الحضارة فأخترعوا الأسلحة والآلات والصنائع فى الأربعمائة سنة الأخيرة . وانتصروا حربيا على الشعوب الملونة ، فاستنتجوا خطأ أن المسألة هى مسألة تفوق جنس على جنس ولون على لون . ونسوا أنهم أخذوا حضارتهم من شعوب ليست شقراء كالمصريين القدامى والبابليين والاغريق والعرب . ونسوا كذلك أن اليابان قد تفوقت فى ميادين السلاح والصناعة وأهلها ليسوا من البيض بل هم من الملونين بالصفرة . ونسوا أن هتلر اجتاح بلادهم وأذلهم فى وقت من الأوقات ولولا لطف الله لمحاهم من الوجود ، بحجة كهذه ؛ فقد كان يعتقد أن الجنس الجرمانى هو سيد الشعوب ، وأنه يجب أن يحكم حتى الشعوب البيضاء الأخرى . وعقيدة الجنس واللون والدم ليست الا ذريعة ، بدليل تمسكهم بها بعد أن أثبت علماء الأجناس وعلم النفس عندهم أنها ليست الا خرافة ، وبدليل أنهم ينادون بخطئها فى داخل جدران الأمم المتحدة ثم يعاملون الناس بها فى المستعمرات . وبلغ من عمى بصيرتهم أن المبشرين منهم يدعون الناس الى اعتناق الكاثوليكية أو البروتستانتية بحجة أنها دين الأجناس البيضاء الراقية المتمدنة .

وبذلك يهدمون أساس الدين ، وهو المساواة واحترام آدمية الانسان ، من حيث يريدون أن يقيموه .

٦ ـ الانفصال بين الحاكم والمحكوم :

فما دامت الحكومة أجنبية عن البلاد وما دام يسيطر عليها أجنبى ، فالانفصال العاطفى أمر طبيعى وعدم التعاون هو القاعدة وانعدام الثقة هو الأساس . وحتى عند ما يحكم وطنى أو مجموعة من الوطنيين تحت سيطرة المستعمر فان هـذه الأسس تنتقل اليـه أو اليهم أيضا لأنه لن يكون فى مفهوم الناس الا صـدى لذلك الصوت فى الجو ، وظلاله على الأرض ، ومخلب قط طوع ذلك البنان .

وفى هـذه الحالة يكون للحكام وظائفهم ومجتمعاتهم ونواديهم ودوائرهم ، ولا يسمح لأحـد من المواطنين المشاركة فيها أو دخـولها ، وحتى عندما تكون القوانين ضد مثل هذا النوع من الانفصال ، تتحايل عليـه السلطات الحاكمـة والمستعمرة بالمبالغـة فى رفع رسـوم الاتسـاب والاشتراك . وينظر الى كل شخص من المستعمرين أو عملائهم من الوطنيين ، يخالط الوطنيين نظرة احتقـار أو ريبة ويبعد عن دوائرهم الخاصة . والتزاوج بين أولئك وهؤلاء أمر محـذور أيضا وغير مستساغ .

ولذلك فهناك دائما كرة شـديدة بين أهل البلاد وبين الدولة المحتلة . حتى مستعمرة مثـل بورما بالرغم مما أعطتها بريطانيا من حقوق الحكم الذاتى بقيت تمقتها ، ولما غزاها اليابانيـون فى الحرب العالميـة الثانية انضم أهلها الى اليابان ضد بريطانيا وقاتلوها .

ويبرر الاسـتعماريون انعزالهم بأن أهل البـلاد الأصـليين تنتشر بينهم الأمراض المتوطنة والعـادات القذرة ، أو أنهم هم الذين لا يرغبون فى الاختلاط وكلها ادعاءات باطلة ، وان صحت فهى ليست من طبائع شعب من الشعوب بقدر ما هى من نتائج سياسة الاستعمار التى تفرض عليهم الفقر والتخلف . وربمـا كان أصـدق تعليل لذلك هو خوف المستعمرين من أن يفقدوا هيبتهم فى أعـين الوطنيين ، وان كان وجـه الحق فى هذا التعليل هو أنه لا ينصب على فقـدان الهيبة بقـدر ما ينصب على الرغبة فى أن يخافهم الناس فلا يجرؤون على المطالبة

بحقوقهم • وقد كانت سياسة الاحتـلال البريطانى فى مصر أن تتغافل السلطات الاستعمارية عن كل هفوات الموظفين الانجليز هنـا الا أن يبـدو منهم ما يمس احترام المصريين لهم وخوفهم منهم • وقـد كان جهل المدرس الانجليزى يغتفر ولكن عدم قدرته على ضبط الفصل فانه جرم لا يغتفر فكان يعاد الى بـلاده ، لأنه يعود الوطنيين على عدم احترام الرجل الانجليزى ، أو عدم الخوف منـه •

٧ ـ التستر وراء الاسماء :

كان الاسـتعمار نظاما معتـرفا به فى العـالم فى وقت من الأوقات ، وكانت الدول تفتخر بما تملكه من مسـتعمرات بلا حياء ولا خجل • وكان غاية ما تفتخر به انجلترا هو أنها تملك امبراطورية لا تغرب عنها الشمس ؛ وكان التنافس بين الدول على أشده على امتلاك المسـتعمرات والاعتداء على الشـعوب وكأنهم يتنافسون فى حلبة سـباق أو فى مباراة • وكان الاستعمار حينئذ يعرف باسمه الحقيقى • فهو استعمار أو احتلال أو حماية • ومهما اختلفت مفاهيم هـذه المصطلحات فانها تحمل طابع الاعتداء والاسـتغلال والالتجاء للقـوة رغم ارادة الشـعوب •

فلما انتشر الوعى بين الشعوب وظهـرت الحركات القوميـة ، وارتفعت أصوات الأحرار فى كل مكان تقول للاستعمار أخرج من بلادنا ، وكان ذلك بعد الحرب العالمية الأولى ، ونشأت منظمة دولية هى عصبة الأمم لمنـع الاعتداء ، حول الاستعمار اسمه واتخذ اسما جديدا هو الانتداب • وبذلك اختفى وراء اسم له صفة قانونية اذ أن الانتداب كان يستند على قرار من عصبة الأمم التى كانت تحركها الدول الاستعمارية نفسها واستخدمتها لتغطية نفسـها واخفـاء اعتدائها باسم مستتر جديد • وكان وراء الانتداب أطماع استغلالية وادعاءات اسـتعمارية ظاهرة • ويكفى أن نعلم أن سعى انجلترا لتنتدب فى العـراق كان الدافع له أن تضع يدها على بترول الموصل الذى كان قد اكتشف قبيل الحرب • ولما طالبها العراقيون فى سنة ١٩٢٠ بانهاء الانتداب وثاروا عليها هددت بأن تسلم الموصل لتركيـا اذا هى اضـطرت الى انهـاء انتدابها ، فلما سمح لها بالبقـاء استصدرت من عصبة الأمم قرار بأن الموصل جزء من العراق •

وزاد الوعى القومى بين الشعوب لدرجة كبيرة بعد الحرب العالمية الثانية ، وحدث تطور فى القيم الانسانية فى المحيط الدولى ، حتى أصبح الاستعمار السافر

والاحتلال الصريح والحماية المعلنة ، أشياء لا تستسيغها روح العصر ، ولا تجيزها الأمم المتحدة ، وهنا ظهرت أسماء جديدة أخذ الاستعمار يختفى وراءها ومن ذلك الأحلاف ، والمساعدات المشروطة ، ومناطق النفوذ ، والدول المتخلفة . والى هذه المحاولات اليائسة يمكن أن نرجع كل ما حدث بعد الحرب العالمية الثانية من الأحلاف التى تضم دولا قوية ودولا ضعيفة مما يجعل التحالف على أساس غير متكافىء ، ويمكن للدول الاستعمارية القديمة من أن تسيطر على عدد من الدول الصغرى التى جرتها الى الحلف بالوعد أو الضغط أو الاغراء . وما حلف بغداد وحلف جنوب شرقى آسيا والحلف المركزى ونحوها الا أمثلة لهذا النوع الجديد من الاستعمار .

ويدخل فى هذه المحاولات أيضا كل مساعدة مالية أو عينية تقدمها دولة قوية لدولة ضعيفة بشروط تقبلها الدولة الضعيفة . لأن هذه الشروط لن تكون الا امتيازات اقتصادية أو استراتيجية تكتسبها الدولة القوية فى نظير المساعدة ، ومن هنا يأتى الاستغلال وتأتى السيطرة دون أن تستطيع الدولة الصغيرة أن تحتج أو تمانع طالما أنها وقعت على شرط مكتوب .

ويدخل فيها أيضا مناطق النفوذ والتكتلات التى تجمع دولة كبرى مع عدد من الدول الصغرى على أساس من الأسس . فهنا لا يكون للدول الصغرى حرية الرأى ، أو حرية الارادة وانما عليها أن تساير الدولة المسيطرة فى أى اتجاه تذهب اليه ، وتلتزم بالتصويت معها فى الهيئات الدولية ، ومتى سلبت ارادة الدولة كانت واقعة تحت السيطرة الأجنبية ، وهو الاستعمار بعينه .

ويدخل فيها أيضا مساعدة عصابة الصهيونيين على احتلال جزء من فلسطين وادعاء دولة عليه . ولم يكن لذلك من سبب الا مطالبة الدول العربية بالاستقلال التام بعد الحرب العالمية الثانية فأراد الاستعمار أن يستعمر جزءا من هذا الوطن تكون ركيزة له فى هذا الموقع ، وتستر الاستعمار وراء دولة مفتعلة تدعى حقوقا لا يسلم أحد بها .

وليس القصد أن نتتبع تطور الاستعمار ولكن القصد هو أن نبين احدى خصائصه المميزة ، وهى خاصية القدرة على التستر وراء عدد كبير من الأسماء تختلف ولكن المسمى واحد يعرف بسماته ونتائجه . وفى ضوء هذه الخاصة

يمكن أن نقدر حق التقدير سياسة جمهوريتنا فى الحياد الايجابى ومقاومة الأحلاف ورفض المساعدات المشروطة ، فكل هذه السياسات تقوم على الوعى بقدرة الاستعمار على التشكل كما تتضمن القدرة على كشف حيله وفضحها .

* * *

وهكذا نرى أن الاستعمار ليس عملية عشوائية ، وانما هو نظام محكم له أصوله ، وله تبريراته ، وله حيله ، وله أيديولوجيته . وقد حاولنا فيما سبق أن نكشف لك عن هذا كله حتى تكون على بينة من طبيعة الاستعمار من آثاره التى يتركها فى الشعوب التى تبتلى به .

ومع ذلك فالاستعمار كما هو نظام وأيديولوجية وأسماء فانه كذلك أساليب . ومهما اختلفت أساليبه فان طبيعته لا تختلف ، ونتائجه لا تتغير . فمثلا سياسة انجلترا فى مسألة التعليم فى مستعمراتها تختلف جذريا عن سياسة فرنسا ولكن الحكمة واحدة والنتائج واحدة .

فانجلترا لا تشجع انتشار التعليم الحديث فى مستعمراتها ، وانما تحصر أهالى المستعمرات فى دائرة ثقافتهم العتيقة .

وفرنسا تقاوم الثقافة القديمة فى مستعمراتها وتفرض على أهلها اللغة الفرنسية والتعليم الفرنسى والمدنية الفرنسية . فبينما كادت انجلترا تقصر التعليم فى مصر فى أيام الاحتلال على الكتاتيب والأزهر وأغلقت المدارس الحديثة وقيدت الالتحاق بها ، نجد أن فرنسا كادت تنسى أهل تونس وأهل الجزائر لغتهم العربية . ومع اختلاف الأسلوبين فالحكمة واحدة والهدف واحد فانجلترا تريد أن تضمن بقاء الشعوب تحت سيطرتها وفى ظل استعمارها عن طريق ابعادهم عن المعرفة والتنور والتيارات الحديثة ، على حين أن فرنسا تريد أن تصل الى نفس الهدف بجعل أهل مستعمراتها فرنسيين لحما ودما حتى يندمجوا فيها ويكونوا جزءا من فرنسا الكبرى .

وعلى نفس الطريقة يختلف الاستعمار الانجليزى عن الاستعمار الفرنسى فى الاتجاه نحو اللون . فالانجليز يتعصبون ضد السود ويعزلونهم ولا يتعاملون معهم ، ولا يختلطون معهم بالزواج ويعتبرونهم مرتبة هابطة من الانسانية ، على حين أن الفرنسيين يخالطون السود ويقبلونهم فى نواديهم ولا يشعرون بمسألة

اللون ولا غبار على المرأة الباريسية لو أنها تزوجت من زنجى أسود • ومع اختلاف الأسلوبين فى الاستعمار ، فالهدف واحد وان اختلفت الطريقة • الانجليز يريدون أن يقنعوا السود بالتخلف وبأنهم ليسوا أهلا للمساواة معهم ، أو الاقتراب منهم ، وأن موضعهم الطبيعى هو أن يستعبدوا ، والفرنسيون يريدون أن يلتهموا السود بالاختلاط ويقنعوهم أن فى بقاء الفرنسيين معهم بعض الفوائد منها زيارة باريس ومخالطة الفرنسيين والتمتع بمزايا مدنية من أعظم المدنيات المعاصرة •

* * *

ومع كل ما سبق بيانه من خبث الاستعمار وحيله وألاعيبه واختلاف أسمائه ومحاولة ستر أحواله ، فقد انفضح وساءت سمعته ، وأصبح لا يخفى على أكثر الناس سذاجة وأقلهم خبرة • ولذلك قامت كل الشعوب المغلوبة على أمرها فى أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها قومة رجل واحد وطالبت بالاستقلال ونادت بتصفية الاستعمار • وقد استقلت كثير من المستعمرات وانهارت كل الامبراطوريات تقريبا • ومن ثم فاستقلال الشعوب وتصفية الاستعمار هى من حتميات التاريخ • وكثير مما بقى من الاستعمار الآن راجع الى غفلة بعض الحكام وانعدام وعى بعض الشعوب ، ولو أنهم عقلوا وصحت عزائمهم على التخلص منه واتبعوا الأسلوب الذى اتبعناه نحن فى الجمهورية العربية المتحدة أو الذى اتبعه شعب الجزائر من الوحدة القومية والاصرار ، على التخلص من الملوك الرجعيين ، والقضاء على الأحزاب السياسية وعلى الاختلافات الداخلية ، ومواجهة الاستعمار صفا واحدا ، وقلبا واحدا ، ثم بقوة السلاح اذا احتاج الأمر ، لتخلصت هذه الشعوب من الاستعمار كما تخلصنا وكما تخلص شعب الجزائر •

الاستعمار فى الوطن العربى

لقد قاسى الوطن العربى من الاستعمار ، وقاست الأمة العربية من المستعمرين ولقد طال ما قاسته منه ومنهم • وكان الاستعمار فى الوطن العربى من نوعين : الاستعمار الغربى الذى مارسته دول أوربا فى عصور مختلفة من التاريخ ،

والاستعمار التركى الذى جثم على صدر الأمة العربية زهاء أربعة قرون من سنة ١٥١٦ الى ١٩١٤ م ٠

على أن الاستعمار التركى قد زال من الوجود الى الأبد ٠ بل أن تركيا نفسها هى ضحية الاستعمار الغربى فى الوقت الحاضر ٠ فهى تقبل حمايته ، وتضع نفسها فى دائرة نفوذه ، وتوقع الأحلاف معه ، وتقبل منه المعونات المشروطة ، وتسمح له باحتلال المواقع العسكرية فى بلادها ، وهى ذنب من أذناب الدول الغربية فى الشرق بحكم الموقع ، وفى المحافل الدولية بحكم التبعية والتصويت ، وتركيا بذلك قد تنكرت للعرب ، وخانت الاسلام ، وباعت نفسها للشيطان ٠

وقبل أن تترك تركيا لحالها ننبه الى أنه لم يبق من استعمارها فى الوطن العربى الا احتلالها للواء الاسكندرونة من أعمال سوريا ، وهى فيه ذنب للاستعمار الغربى اذ هو الذى منحها اياه ، ولا بد من طردها منه عاجلا أو آجلا ٠

أما الاستعمار الغربى فما زال شبحه موجودا فى العالم ، وما زال يحتل بعض أجزاء الوطن العربى فى فلسطين ، وفى بنزرت من أعمال تونس ، وفى جنوبى الجزيرة العربية ٠ وهو دائما يتربص بالوطن العربى ويتلمس الذرائع ، ومن ثم وجب أن نكون على بينة من أمره وعلى يقظة من مفاجآته ٠

وقد اعتدى الاستعمار الغربى على الوطن العربى فى كل عصور التاريخ ، القديمة والوسطى والحديثة ، وما زال ، ولذلك نتحدث عنه هنا على الترتيب الآتى :

١ ــ الاستعمار الرومانى　　من ٣٠ ق ٠ م ٠ الى ٦٤١ م
٢ ــ الاستعمار الصليبى　　من ١٠٩٧ م الى ١٢٩١ م
٣ ــ الاستعمار التجارى　　من ١٤٩٨ م الى ١٧٠٠ م
٤ ــ الاستعمار الفرنسى الانجليزى　　من ١٧٩٨ م الى ١٨٠٧ م
٥ ــ الاستعمار الحديث　　من ١٨٣٠

ولن نتتبع فيما يلى أحداث هذا الاستعمار ولكنا سنعرض أطواره عرضا يبين طبيعة الاستعمار وأساليبه ٠ ويبرز الدرس الذى يستقى منه ٠

اولا ـ الاستعمار الرومانى (٣٠ ق ٠ م ـ ٦٤١ م) :

قبل ميلاد السيد المسيح بنصف قرن تقريبا كان هـذا الجـزء من العـالم الذى نسميه الآن الوطن العربى قد وقع كله فى قبضة الاسـتعمار الرومانى • وقد بدأ الرومان بالاعتداء على قرطاجنة وهى دولة كان قد أسسـها الفينيقيون العرب فى القرن التاسع قبل الميلاد واتسعت حتى شملت كل شمال أفريقية أو ما يسمى الآن تونس والجزائر والمغرب • ولم يتمكن الرومان من هزيمة الفينيقيين الا بعد قتال دار أكثر من مائة عام (من ٢٦٤ الى ١٤٦ ق ٠ م) دوخهم فى أثنـائه القائد الفينيقى هانيبال واحتل شمال ايطاليا فى أثنائه وحاصر روما خمس عشرة سنة •

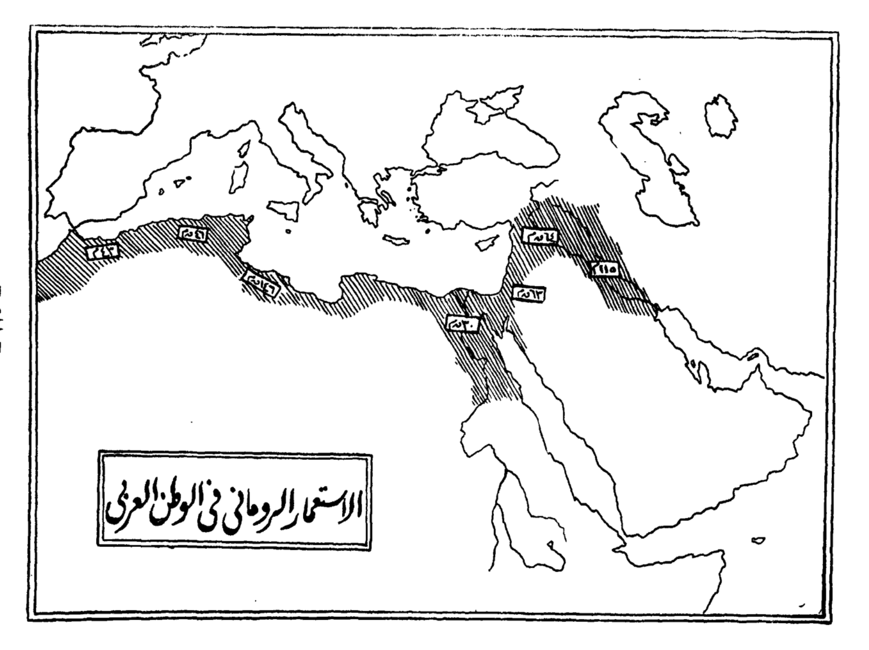
وبعد الاسـتيلاء على شمال أفريقية اتجه الرومان شرقا فاسـتولوا على كل بلاد الشـام فى سنة ٦٣ ق ٠ م ، ثم انقضوا على مصر فاسـتولوا عليهـا فى سنة ٥١ ق ٠ م • وبذلك تم للرومان احتلال ما يعرف الآن بالوطن العربى كله •

وليس نجاح الرومان فى هذا الاحتلال بالشىء الغريب اذا عرفنـا أن مصر والشام كان يحكمهما ملوك أجانب هم من الاغريق خلفاء الاسكندر الأكبر ، فلم يكن أحد منهم يشعر أنه يدافع عن وطنه ، خصوصا وأن بلاد الاغريق موطنهم الأصلى كانت قد وقعت فى يد الرومان قبل ذلك •

ثم كان الخـلاف سائدا فى جميع هذه الأقطار • فأهل قرطاجنة ثارت بينهم الفتن والنزاع على الحكم • والبطالمة فى مصر كانوا مختلفين متنـافرين ولجـأ بعضهم الى روما يستعدونها على بعضـهم الآخر ، وقتل بعضهم اخوتهم وأقاربهم حماية لعرشهم ، وتولت كليوبطرة الملك بعد أن كانت الدولة قد ضعفت • وكان أغارقة الشام يحاربون أغارقة مصر بدلا من أن يتحـدوا جميعا ضـد الرومان عـدوهم المشـترك •

وهنا نلمح الصورة القديمة التى تنتهى عادة بسـيطرة قوة خارجية على أى بلد ينقسم أهله على أنفسهم أو يتركون وطنهم للتخلف والضعف •

وقد قام الحكم الرومانى فى هـذه البلاد على الظـلم والاسـتبداد وابتزاز الأموال والاستغلال الاقتصـادى وكلها من السـمات الأصيلة للاستعمار • وزاد الرومان الاضطهاد الدينى للأهلين • فمصر كانت مخزن غلال لروما • وسـاد فيها الصراع بين عناصر سكانها المختلفين بتشـجيع من الحكام الرومان ، حتى يسهل


الاستعمار الرومانى فى الوطن العربى
٤٢ م
٤٦ ق م
٦٤ ق م
١١٥ م
٦٣ ق م
٣٠ ق م

عليهم أمر الحكم . ولما اعتنق المصريون المسيحية ورفضوا أن يعبدوا الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ م) اضطهدهم وذبح شهداءهم . فلما دخل الرومان فى الدين المسيحى فى عهد قسطنطين لم يتورعوا عن اتخاذ المسيحية ذريعة لايقاع الفرقة بين المصريين . فقد وجد مذهبان بين المصريين ، مذهب الأقلية وهو المذهب الملكانى ، ومذهب الغالبية العظمى وهو المذهب اليعقوبى . ولكن الرومان انتصروا للأقلية على الأغلبية ليقعوا الفرقة بين المواطنين ، وهو من أساليب الاستعمار أيضا .

ومع ظلم الرومان وعنفهم لم يستكن أهل البلاد لحكمهم ومن ذلك الثورة التى قام بها المصريون فى جميع أنحاء البلاد فى عهد الامبراطور مارك أوريل فى سنة ١٧٢ م ، ولم يتمكن الرومان من قمعها الا بعد جهد عنيف ومقاومة استغرقت عدة سنوات . وتجددت ثورات أهل الاسكندرية ضد الحكم الرومانى فى عهد الامبراطور كركلا (٢١١ م) ، وجعلوه موضوعا لسخريتهم ونكاتهم ، مما اضطره الى أعمال الاضطهاد والقتل ، واقامة جدار وسط المدينة قسمها به الى قسمين ومنع الاتصال بينهما . وثاروا ثالثة فى عهد دقلديانوس احتجاجا على اضطهاده الدينى لأهل البلاد .

وفى نفس الوقت كان العرب متنبهين لهذا الاحتلال الرومانى لوطنهم فحين استطاعوا لم يترددوا فى الهجوم عليهم . ومن ذلك هجوم زنوبيا أو الزباء (أو زينب) ملكة مملكة تدمر العربية فى شمال الجزيرة العربية ، على الرومان فى سنة (٢٦٨ م) ، ومقابلتها اياهم بضراوة وعنف حتى هزمتهم . وساعدها فى قتال الرومان قبائل البجة العربية وكانوا ينزلون بأعلى صعيد مصر . وانتهى الأمر بانتصار الزباء واستيلائها على مصر من يد الرومان لمدة سنتين أو أكثر قليلا . الى أن تمكن الرومان من استرداد مصر منها . وعاودت قبائل البجة العربية الهجوم على الرومان فى مصر فى عهد دقلديانوس .

وظل العرب يتربصون الدوائر بالرومان حتى ظهر الاسلام . وانقضت الجيوش العربية فى عهدى أبى بكر وعمر فاستخلصت الوطن العربى من الرومان وطردتهم فى القرن السابع كما سبق القول .

ومع ذلك فقد عاود الرومان الكرة على الوطن العربى وحاولوا أن ينتهزوا فرص النزاع الداخلى فى الدولة العربية لاعادة احتلاله . فعلوا ذلك فى أثناء

فتنة عثمان بن عفان ، وفعلوه فى أثناء النزاع بين على ومعاوية ، وفى غير ذلك من الفرص . وهذا الاصرار ، وهذا الاستغلال لفرص الضعف من خصائص الاستعمار أيضا . ولكن العرب كانوا يهزمونهم ويردونهم على أعقابهم ، الى أن هددوا عاصمتهم وأرغموهم على دفع الجزية عن وطنهم وعن رأس الامبراطور .

ولم تكن روما محتاجة الى كل هذا الغزو وهذا التوسع ، ولكنها شهوة الغلبة ، ورغبة الدولة فى اظهار عظمتها ، وتنافس الملوك فى اثبات عظمتهم ومجدهم الحربى فهو اعتداء من أجل أوهام . وقد عبر فرجيل الشاعر الاستعمارى الرومانى ، المعاصر لفتح الرومان لمصر ، عن ذلك حين قال :

ايه يا روما ، لك وحدك حق السيطرة الرادعة .

التى بها تحكمين الدنيا ، وتخضعين العالمين ؛

تفرضين السلم والحرب ، متعالية فوق رقاب البشر ،

ترغمين أنف المتكبر ، وتحررين الرقيق من القيد .

انها الفنون الامبراطورية ، وانها أنت يا روما العظيمة .

ولكن المتأمل فى تاريخ الاستعمار يعرف أنها ليست فنون الامبراطورية عند المستعمر ، بقدر ما هى فنون الضعف والتخلف والانقسام والتخاذل فى الآخرين .

ثانيا ـ الاستعمار الصليبى (١٠٩٧ ـ ١٢٩١) :

فى أواخر القرن الحادى عشر هجمت جموع من أهل أوربا الغربية على الوطن العربى بقصد الاستيلاء عليه . وقد بدأوا بالرغبة فى الاستيلاء على بلاد الشام ومنها فلسطين ، ثم زادت أطماعهم ، فأرادوا الاستيلاء على بقية هذا الوطن ، فهاجموا مصر وشمالى أفريقية .

ففى سنة ١٠٩٧ م عبر الصليبيون أوربا من الشرق الى الغرب ومن القسطنطينية تقدموا فى آسيا الصغرى ، ثم الى شمالى الشام وأعالى الفرات ، فاستولوا على الرها وأنطاكية ، ثم تقدموا فاستولوا على بيت المقدس (١٠٩٩ م) وسرعان ما وقعت كل مدن الشام فى أيديهم . وأسسوا لأنفسهم أربع امارات

(٢٢)

صليبية مركزها الرها ، وأنطاكية ، وبيت المقدس ، وطرابلس كل هـذا تم بعـد معارك عنيفة اتسمت بتخاذل العرب ، وأتى فيها الصليبيون من أعمال التوحش والعنف ما يحتل مكانا فريدا فى تاريخ الانسانية ، وقتلوا كل مسلم صـادفوه ، حتى لقـد قتلوا ٧٠٫٠٠٠ من أهل بيت المقدس وحدها .

وتوالت الحملات الصليبية على بلاد الشام لتقوية مركز الصليبيين من جهـة ولاستعادة ما كان العرب المسلمون ينتزعونه من أيديهم من البـلاد من جهـة أخرى . وأخيرا اتجهت الحملات الصليبية الى مصر . وكان نصيبها ثلاث حملات لعل أشهرها حملة لويس التاسع (١٢٤٨ م) التى هزم فيها وأسر ثم دفع فـدية قدرها ٨٠٠٫٠٠٠ قطعة من الذهب . ثم اتجه الصـليبيون الى تونس فى سـنة ١٢٦٩ م وهاجموها ، وفيها مات لويس التاسع نفسه . وبالرغم من الانتصـارات والهزائم ، والنجاح والفشل ، والهجوم والانسحاب ، فقد بقى الصليبيون فى بلاد الشام مائتى سنة قبـل أن يستطيع العرب طردهم نهائيا من البلاد وانهـاء اسـتعمارهم الوضـيع .

ولكن لمـاذا حدثت تلك الحروب الصـليبية ؟ لقد وصـفها أهل أوربا فى حينها والى الآن بأنها حروب دينية اضطرهم اليها تعصب الأتراك السـلاجقة ، الذين انتزعوا السلطة من يد الخليفة العباسى ثم استولوا على الشـام وآسـيا الصغرى ، وهددوا الدولة الرومانية فى القسطنطينية كما اضـطهدوا الحجـاج الأوربيين فى بيت المقـدس . ولاشك أن الأتراك اعتدوا على القيم الاسـلامية طول تاريخهم بسبب تعصـبهم الأعمى الذى يقوم على الجهل بروح الاسـلام . ولقد اضطهد الأتراك المسلمين والمسيحيين على السـواء . ولكن هل فرض بعض الاتاوات على الحجـاج الأوربيين يبرر القيـام بعدد من الحـروب خسر فيهـا الأوربيون أنفسهم الآلاف من الأنفس ، حتى قبل أن يصلوا الى بيت المقدس ؟

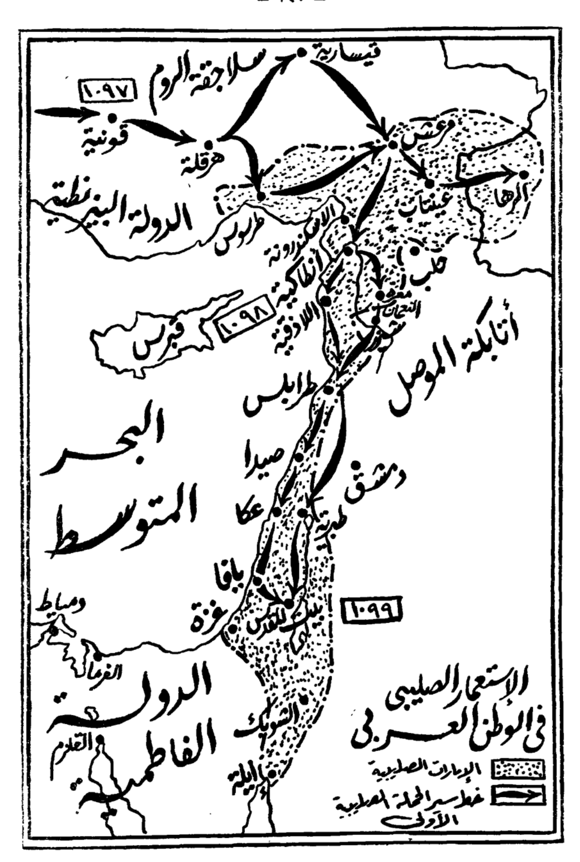
الواقع أن السبب الدينى لم يكن الا ذريعة اتخذها الأوربيون لغزو الوطن العربى ، ولو لم يجدوا مبررا من اضطهاد السـلاجقة للحجاج بمحض المصـادفة لمـا تأخر غزوهم للشرق العربى . وتاريخ الحروب الصليبية يثبت بجـلاء أن الحملات الصليبية لم تكن الا استعمارا سـياسيا واقتصاديا تنطبق عليـه كل خصائص الاستعمار التى سبق بيانها فى صدر هذا الفصل . وكل ما يلى من بيان

ذلك ليس من اجتهادنا وانما هو مأخوذ من المؤرخين الأوربيين اعترفوا به بعد أن غلبت الروح العلمية نزوات التعصب فى عقولهم ٠

وأول سبب ذكره هؤلاء المؤرخون هو سياسة أوربا نفسها ٠ فقد كان الأوربيون من قرن سابق يحاربون المسلمين فى المغرب — فى أسبانيا وصقلية وجنوب ايطاليا — وينتزعون منهم مدينة تلو أخرى ٠ ولم تكن الحروب الصليبية الا امتدادا لهذه السياسة ، على أمل اضعاف المسلمين فى الشرق وفى الغرب فى وقت واحد ٠ وقال المؤرخون أيضا أن التنافس الشديد بين البابا وامبراطور الدولة الرومانية الغربية على الزعامة فى أوربا ، جعل البابا يستغل التعصب الدينى الشائع فى الناس حينئذ فى أن يقودهم الى حرب يتزعمها هو فيقرر بذلك سلطته الزمنية أو السياسية ، أو يتابعه فيها الملوك والأمراء فيكونون من أتباعه وتتقرر زعامته عليهم ٠

ولم يقل المؤرخون ذلك اعتباطا بل ان فى حوادث الحملات الصليبية ما يثبته ٠ فقد بدأت الحروب الصليبية بدعوة من البابا ، فتزعم الحركة ٠ ثم ذهب يدعو لها راهب فصيح من أتباعه هو بطرس الناسك ، ثم قاد هذا الراهب أول جموع أوربية ذهبت الى الشرق ، وان كانت هلكت كلها فى الطريق ٠ وقام بالحملة الأولى فرسان ورهبان وغوغاء ، ثم تحرك الملوك فى الحرب الصليبية الثانية فى سنة ١١٤٧ م بعد أن احجموا عن السير فى ركاب البابا فى الحملة الأولى ، فكانت الحملة الثانية بقيادة لويس السابع ملك فرنسا وكنراد الثالث امبراطور ألمانيا ٠ وقام ملوك أوربا فردريك الأول امبراطور ألمانيا ، وريتشارد الأول (قلب الأسد) ملك انجلترا ، وفيليب الثانى ملك فرنسا — بالحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩) من تلقاء أنفسهم محاولين انتزاع الزعامة من البابا ٠ ولما دعا البابا الى الحرب الصليبية الخامسة تمارض الامبراطور فردريك الثانى ورفض أن يصاحبها أو يسهم فيها فحرمه البابا من البركة فى الدنيا ومن الجنة فى الآخرة ، فاضطر الى أن يقود الحملة الصليبية السادسة ٠ فالصراع السياسى فى أوربا واضح أثره فى اثارة تلك الحروب الاستعمارية ٠

وكان للحروب الصليبية دوافعها الاقتصادية القوية وأول هذه الدوافع الاقتصادية هو مشكلة تزاحم أمراء الاقطاع فى غرب أوربا على امتلاك الأراضى ٠ وقد نفدت الأراضى الأوربية فى وقت تكاثر فيه الأمراء وأبناؤهم ولم يبق لأحد



١٠٩٧
سلاجقة الروم
قيسارية
قونية
هرقلة
مرعش
عينتاب
الرها
الدولة البيزنطية
طرسوس
الاسكندرونة
أنطاكية
حلب
معرة النعمان
١٠٩٨
قبرص
اللاذقية
أتابكة الموصل
طرابلس
البحر المتوسط
صيدا
دمشق
عكا
طبرية
يافا
١٠٩٩
دمياط
غزة
بيت المقدس
الفرما
الاستعمار الصليبي في الوطن العربي
الدولة الفاطمية
الشوبك
القلزم
أيلة
الإمارات الصليبية
خط سير الحملة الصليبية الأولى

منهم أمل فى أن يجد شبرا من الأرض يمتلكه . ووقعت الحروب بين الأمراء من أجل الأرض . ولذلك كان أسرع الناس الى تلبية دعوة البابا هم أمراء الاقطاع بحثا وراء أرض جديدة تصلح للامتلاك . وفى نفس الوقت كان الحجاج يعودون بأقاصيص خيالية حلى غنى الشرق وثروته وبذخه بما حرك أطماع هؤلاء الأمراء للسلب والنهب والغنيمة . وكانا البابا اربان الثانى يعلم فاقة أرقاء الأرض هم الملايين من أهل أوربا الذين ولدوا فى الفقر والظلم فى خدمة أمراء الاقطاع . ولذلك أشار البابا فى خطابه الأول الى تلك الأرض التى تفيض لبنا وعسلا ، قالها للملايين من الجياع المحرومين ، فى وقت اجتاحت أوربا فيه المجاعة والجدب كل أوربا ، وزاد البابا أن أعلن المشاركة فى الحروب الصليبية تكفى فى الدنيا والآخرة لاسقاط دين المديونين ، وبراءة ذمة المفلسين ، وبطلان القضايا عن كل واقف أمام العدالة ، وسقوط أحكام المحاكم مدنيا وجنائيا ، حتى الذنوب غفرها البابا نيابة عن الله للقتلة والسفاكين .

كان هذا من أهم الأسباب ولا شك . فقد بدأ الأمراء بعد انتصارهم بتوزيع بلاد الشام بينهم واقطاع أراضيها لأتباعهم وفرضوا رق الأرض والسخرة على من كان معهم من الجنود ومن أخطأه القتل من العرب ؛ وهكذا حققوا الغرض الذى من أجله أتوا . وفى الحرب الصليبية الثالثة خرج فيليب الثانى (أغسطس) ملك فرنسا مدعيا الجهاد وسار مع ريتشارد قلب الأسد حتى فتح الله عليهما عكا ، وعلى أبواب يافا بلغه أن أمير الفلاندرز قد مات ، وكان فيليب يطمع فى هذا الاقطاع وعجز عن انتزاعه من أميره ، وهنا تمارض وعاد أدراجه فقد أغناه الله باقطاع بلاده عما كان بصدده من البحث وراء اقطاع جديد .

ومن الأسباب الاقتصادية أيضا اطماع المدن التجارية الايطالية كجنوة وبيزا والبندقية فى الحصول على تجارة الشرق والقرب من مواردها . كما طمع ملاحو هذه المدن فى أرباح نقل الصليبيين الى موانى الشام ، وطمع تجارها فى أرباحهم من تزويد هؤلاء الشراذم بالمؤن والمعدات ـ ونستطيع أن نقول بكثير من الاطمئنان أن هذا العامل كان أهم العوامل جميعا . بحيث كانت الأسباب الأخرى مجرد تبريرات ودوافع .

وفى حوادث الحروب الصليبية ما يوضح ذلك . فالحملة الصليبية الأولى لم تكن الا تحالفا وعملا مشتركا بين الاقطاعيين الفرنسيين وتجار المدن الايطالية

فقد نقل تجار هذه المدن الصليبيين على سفنهم الى موانى الشام • وكان أول ما عمله الأمراء الصليبيون بعد استيلاءهم على مدن الشام أن أعطوا امتيازات تجارية لتجار المدن الايطالية وفاء بحقوقهم نظير نقلهم للجند • وأسس هؤلاء التجار لهم مراكز فى كل موانى الشام ، وتركوا الصليبيين يتناحرون على حكم الولايات اللاتينية وتوغلوا هم فى قلب آسيا بحثا وراء السلع والمتاجر • واشتغل ملاحو هذه المدن الايطالية بنقل الحجاج والجنود طول مدة الحروب الصليبية ونظموا رحلات مخفضة الأجر على سفنهم بين أوربا وفلسطين فى عيد الميلاد وعيد القيامة • ولم يقف الأمر عند حد التجارة بل ان منظمات الرهبان الفرسان التى أنشئت خصيصا من أجل الجهاد ومساعدة الحجاج ، كفرسان المعبد والاخوان الاسبتارية تحولوا الى بيوت تجارية وأنشأوا لهم الوكالات فى الشرق والغرب وأخذوا يتعاطون العمليات المالية والتجارية بالاشتراك مع البنادقة والجنوبيين •

وليس أدل على بعد الاستعمار الصليبى عن الأغراض الدينية ، وعلى بيان حقيقته كاستعمار سياسى واقتصادى من حوادث الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٢ — ١٢٠٤) • فقد حاول أمراؤها أن يتفقوا مع دوق البندقية على أن يقوم تجارها بتزويدهم بالمؤن ونقلهم بسفنهم الى الشرق • وقبل الدوق على شرط أن تحصل البندقية على نصف غنائم الحملة وأسلابها • ولما عجز الصليبيون عن دفع مقدم الاتفاق أعفاهم الدوق منها اذا ساعدوه فى غزو زارا وهى مدينة تجارية على ساحل بحر الأدرياتيك كانت تنافس البندقية • وقبل الفرسان والجند الذين خرجوا يجاهدون فى سبيل الصليب ضد المسلمين ذلك العرض واقضوا على المدينة الأوربية واستولوا عليها وذبحوا كل أهلها المجريين المسيحيين • وهنا تحولت الحملة الصليبية الرابعة الى حرب تجارية وجهت الى القسطنطينية نفسها فقد كان للتجار البنادقة امتيازات فى القسطنطينية ، ولكنهم طلبوا من الامبراطور أن يطرد منافسيهم تجار جنوة • ولما رفض وجه البنادقة الحملة الصليبية الرابعة الى القسطنطينية واستولوا عليها فى سنة ١٢٠٤ م ، ونهبوا المدينة وأعملوا الذبح فى أهلها بما يكون « أسود فصل فى تاريخ البشرية » كما يقول مؤرخ غربى • واعتدوا على مذبح كنيسة أيا صوفيا وجردوه من الصلبان الذهبية والجواهر • أما البابا فقد أعلن حرمان البنادقة وجنودهم المرتزقة من

الصليبين ، واتهمهم بأنهم لم يحترموا « الدين ولا السن ولا النساء » وأنهم « أباحوا العذارى لوحشية الجنود » . ثم أعلن هؤلاء المذنبون توحيد الكنيسة الشرقية مع الكنيسة الغربية تحت زعامة البابا ، فعفا وصفح ؛ وأعلن أن ذلك الذى حدث كان « معجزة قدرها الله من أجل مجد الكنيسة الرومانية وسيادة المسيحية » ! ! فهل بعد اعتداء الصليبيين على المسيحيين والمسلمين على السواء ، وتخريبهم العالم المسيحى بأقسى مما خربوا العالم الاسلامى ، وذبحهم المسيحيين بأفظع مما ذبحوا المسلمين ، يكون للحروب الصليبية أى صفة دينية ؟ .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل أن الصليبيين هبطوا الى أسفل درجات الهمجية والتوحش فاتجروا بالرقيق باسم الصليب . ففى سنة ١٢١٢ زين بعض شياطينهم لغلام فرنسى اسمه ستيفن أن يعلن أن الوحى قد هبط عليه وأمره بأن يقود حملة صليبية من الصبيان الى بيت المقدس ، فاجتمع حوله آلاف من الغلمان أمثاله ، فأعلن فيهم أنه سيقودهم الى مرسيليا ، وهناك سيجف البحر أمامهم — كما قال الوحى الشيطانى الصليبى الذى هبط عليه — ومن ثم يقودهم الى الأراضى المقدسة دون أن يبتلوا . وفى مرسيليا قابلهم الصليبيون وأسروهم ونقلوهم على سفنهم الى مصر حيث باعوهم كأرقاء .

وكان القرن الثالث عشر مليئا بالحملات الصليبية التى « ذهبت الى كل مكان ما عدا فلسطين — الأراضى المقدسة » ، كما يقول مؤرخ انجليزى . ففى ذلك القرن تحول الاقطاعيون الفرنسيون الى بلاد اليونان ، وتحول تجار ايطاليا الى شبه جزيرة القرم وبحر أزوف ينشئون المراكز التجارية هناك ، وترك الصليبيون بيت المقدس وتحولوا الى محاربة المسيحيين فى كل مكان . وقد وصف « ارنست باركر » Ernest Barker مؤرخ الحروب الصليبيه فى مقاله عن تلك الحروب فى دائرة المعارف البريطانية أولئك الذين اشتركوا فى تلك الحروب قال : « خرجت جحافل المهاجرين والمقاتلين متجهة نحو الشرق كما يهرع الدهماء نحو منجم ذهب الآن — تيار قذر من الناس يحمل بين أمواجه أنواعا عديدة من القمامات البشرية : الأفاقين والمفلسين ، واللصوص ، والباعة الجائلين ؛ والخدم والرهبان الهاربين ، والرقيق الآبقين ، والمجرمين الفارين ؛ يسيطر على الجمع المتنافر حمى الخوف على الحياة ، والاختيار بين الاثراء والشحاذة ، الى آخر ما يتميز به قطيع من البشر يهرع لنهب منجم ذهب فى عصرنا

الحـــديث » • وهـــذه القمامة البشرية التى يتحـــدث عنهـــا المـــؤرخ الكبير هى التى كنت تراها فى كل مكان فى أوربا يحمل بعضهم الصليب على صـــدره اشـــارة الى أنه خارج للجهاد ، ويحمله بعضهم على ظهره اشارة الى أنه قـــادم مـــن هنـــاك ! !

ويصـــف باركـــر الولايات الصليبية فى الشـــام قائلا : « كانت مملكة بيت المقدس اللاتينية مستعمرة حربية متوحشة ، لا يمتلك أصحابها الرغبة ، وليس لديهم الوقت ، لكى يقيموا حضـــارة أو يمارســـوا أى مظهر من مظاهرها » • ولكن كيف تمكنت شراذم مثل تلك من الانتصـــار على العـــرب ؟ والجواب هو التفكك • فلولا تفرق كلمة العـــرب وانقســـامهم على أنفســـهم ما تمكن هؤلاء المستعمرون الصليبيون من احتلال جزء من وطنهم •

وهنـــاك نوعان من التفكك فى العالم العربى يعزى اليهمـــا نجـــاح الاستعمار الصـــليبى :

النوع الأول : هو التفكك الســـياسى والتنافس على الحـــكم • فقبيل قدوم الصليبيين كان الأتراك السلاجقة قد استولوا على السلطة من الخليفة العبـــاسى ، واضعفوا دولتـــه واستولوا على بلاد الشـــام كلها ، كمـــا استولوا على آســـيا الصـــغرى من الدولة البيزنطية • وبذلك تحطمت وحـــدة الدولة العربية • التى تستطيع أن تقف فى وجه الغـــزو • وفى نفس الوقت كان الفاطميون يحـــكمون مصر ، ووقع التنافس بينهم وبين الســـلاجقة ، ووقعت الحروب بينهما ووقف كل منهمـــا يتربص الفرص بالآخر • ثم كان التنافس على أشـــده بين الأمـــراء أنفســـهم مما أضـــعفهم أمام الغـــزو •

النـــوع الثـــانى : هو التفكك المذهبى • فقد كان للاختلاف فى المذاهب بين السلاجقة السنيين والفاطميين الشـــيعة أثر كبير فى العـــداء بين الدولتين • وفى نفس الوقت كانت جماعات أخرى من غلاة الشيعة يعيثون فى العـــالم الاســـلامى فســـادا •

فبينما كان الصليبيون يتقدمون نحـــو بلاد الشـــام كان الأخـــوان دقاق ورضـــوان من أمراء الســـلاجقة يحارب أحدهما الآخر لينفرد دونه بالحكم • وانتهز الفاطميون فرصـــة اشتباك السلاجقـــة مع الصليبيين واقضوا على بيت

المقدس وحاربوا بها السلاجقة واستولوا عليها ، ثم تركوها عنوة للصليبيين • وبينما كان الصليبيون يحاصرون بيت المقدس كان محمد بن ملكشاه يحارب أخاه لأبيه من أجل الحكم • وحينما هاجم الصليبيون عكا كان ملوك الشام يحارب بعضهم بعضا ، وبلغ الأمر بالسلاجقة والفاطميين أن أخذت كل جماعة منهم تستنجد بالصليبيين ضد الأخرى • وتوجه أمراء الى بغداد يطلبون النجدة ضد الصليبيين فتحمس الشعب واجتمع الناس فى المساجد يطلبون الخروج للجهاد وكان الوقت رمضان « فأفطروا من عظم ما جرى عليهم » ، ولكن الخليفة تخاذل واختلف مع السلطان محمود « ولم يحصل منهما غرض » وقد عبر عن هذا التخاذل أبو المظفر الأبيوردى الشاعر حين قال يبكت القوم :

أتهويمة فى ظل أمن وغبطة ... وعيش كنوار الخميلة ناعم
وكيف تنام العين ملء جفونها ... على هفوات أيقظت كل نائم
واخوانكم بالشام يضحى مقيلهم ... ظهور المذاكى أو بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان ، وانتم ... تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
أترضى صناديد الأعاريب بالأذى ... ويغضى على ذل كماة الأعاجم !
فليتهم اذ لم يزودوا حمية ... عن الدين ، ضنوا غيرة بالمحارم
وان زهدوا فى الأجر اذ حمى الوغى ... فهلا أتوه رغبة فى الغنائم ؟

وكان أتباع الفرق من غلاة الشيعة حربا على العرب مع الصليبيين • ومن أخطر هؤلاء فرقة الحشاشين أتباع الحسن الصباح ، ومنهم من قتل جناح الدولة صاحب حمص وهو يتأهب لقتال الصليبيين ومكن من انتصارهم • ومنهم أبو الوفا الذى حاول تسليم دمشق للصليبيين ، ثم قتلوا أميرها فسلمت لهم • ومن هؤلاء أيضا من سلم حصن بانياس للصليبيين وسار فى ركبهم • بل ومنهم من حاول اغتيال صلاح الدين الأيوبى لولا أن حمته منهم دروعه المنيعة •

ومع ذلك لم يفتر العرب لحظة واحدة عن قتال الصليبيين • ولما لم تفلح الشجاعة والاصرار مع تفرق الكلمة ، توصل العرب الى حقيقة الحقائق فى التاريخ العربى ، وهى أن الوحدة خير سلاح ضد أعداء العروبة • فترك العرب الصليبيين بعض الوقت ووحد صلاح الدين مصر والشام بعد أن قضى على

الفاطميين وحصر الصليبيين بين شـقى الرحى ، أى الدولة الموحدة ، وطردهم من معظـم البـلاد .

حاربهم عماد الدين زنكى صاحب الموصل ، وانتزع من أيديهم منطقة حلب وبعلبك والرها وكانت أولى هزائمهم منذ قدموا . وحاربهم بعده ابنه نور الدين فقضى على الفاطميين بواسطة قائده صـلاح الدين ، واستولى على دمشق . ثم توحدت الدولة بزعامة صـلاح الدين بعد أن انتصر فى عدة مواضع على طلاب الحكم من فلول السـلاجقة ، وانقض على الصـليبيين فهزمهم فى حطين ، ثم استولى منهم على عسقلان وبيت المقدس (١٢٨٧ م) ، وحصن الكـرك ، وكل الموانى مما يلى صور شمالا . ولم يبق فى أيديهم الا صـور ويافا . على أنهم استعادوا بعض المواقع فى أثنـاء تنازع خلفاء صلاح الدين على الحكم . وأصر سلاطين مصر على طردهم نهائيا . فاستولى السلطان بيبرس على دمشق وأنطاكية (١٢٦٠ و ١٢٦٨ م) ، وطـردهم السـلطان قلاوون من طرابلس (١٢٨٩ م) ، وطردهم ابنه السـلطان خليل من آخـر معاقلهم ، عكا (١٢٩١ م) . وبذلك انتهى تاريخ هذا الاستعمار الأسود من الوطن العربى .

وهكذا ترى أنه كان لنـا سـياسة عربية واضحة فى فلسطين ، وهى حمايتها من كل غزو أو احتلال أجنبى ، وأن امكانياتنا الحربيـة والروحيـة مكنتنـا من تحقيق هـذه السياسة ، ولكن بالوحدة العربيـة التى قضت على الخـلافات السياسـية والمذهبية ، وبالاصرار الذى دام قرنين من الزمان .

ثالثا ــ الاستعمار التجـارى (١٤٩٨ ــ ١٧٠٠ م) :

هـذا النوع الثالث من الاستعمار الأوربى لم يمس أرض الوطن العـربى نفسه باحتـلال أو نحـوه . ولكنه مع ذلك كان موجها ضد المصالح الاقتصادية العربية فى الصميم . وقد تأثر الوطن العربى ، وتأثرت الأمة العربية تأثرا عميقـا بهذا الاستعمار الذى بدأ فى أواخر القرن الخامس عشر وقضى على كل المراكـز التجـارية التى كانت للعرب فى بحـار الشرق ، ويكفى أن تعلم أن الاسـتعمار العثمانى للوطن العربى سنة ١٥١٦ م كان نتيجة غير مباشرة لهذا الاستعمار .

عرفت فيما تقـدم أن الحروب الصـليبية ، والاحتـلال الصليبى ، لم يكونا الا استعمارا اقتصاديا فى الصميم وان اتشح أصحابه بالصليب .

وقد قلبت الحـروب الصليبية الموقف التجـارى العالمى من ناحيتين . فهى أولا أخرجت البيزنطيين من الحقـل التجـارى لصـالح المدن الايطالية ، وثانيـا زادت العـلاقات التجارية بين أوربا وبين الشرق العربى . ومع هاتين النتيجتـين صعب على أوربا أن تعود فتنكمش تجارتهـا مع الشرق بعد الحروب الصليبية فى وقت زادت فيه حاجتها الى سلعة وحاصلاته ، كما صعب على دول أوربا أن تترك تجـارة القـارة احتكارا فى أيدى العرب من جهة وتجار المدن الايطالية من جهـة أخـرى .

ولقد كانت التجـارة العالميـة قبل الحروب الصـليبية تحتكرها ثلاث أمم : أهل الشـمال (سكان اسكنديناوة) ، والبيزنطيون ، والعـرب ، وهؤلاء هم الذين حملوا لواء التجـارة العالميـة بعـد أن سقط من يد المصريين القـدماء والفينيقيين والاغريق . فأهل الشـمال تخصصوا فى خامات الشـمال كالفراء والخشب والنحـاس والحديد والجلود ، وأهم من هـذا كله الرنجة المجففة التى كانت غـذاء أساسيا خصـوصا عند الكاثوليك فى بعض المواسم . ومن الشرق كانت تأتى بضائع مثل العاج والذهب من شمالى أفريقية ، والحبوب من مصر ، والتوابل والعطـور والبخور ، والحـرير والعقاقير والحلى الدقيقـة من الشرق مقابل الرنجة من الشمال . وكان العرب يحتكرون هذه البضـائع ، اما ينقلونها بقوافلهم الى القسطنطينية حيث كان لهم مراكز تجارية هامة ، ومن هناك يوصلها البيزنطيون الى أوربا ، واما بسـفنهم بحـرا الى القلزم (السـويس) ثم الى الاسكندرية بالقوافل حيث يأخذها تجـار ايطاليـا ، ويكونون بهـا طبقة من الرأسمالية القوميـة فى كل أوربا وعلى كل حال فقـد اتسمت التجـارة حينئذ بضآلة الكميات وتراخى الواردات .

وبعد الحـروب الصليبية خرج البيزنطيون من ميـدان التجـارة العالمية ، وزادت أهمية المدن الايطالية خصوصا البنادقة الذين خرجوا بنصيب الأسد بعد الحملة الصليبية الرابعـة التى استولت فيهـا على القسـطنطينية . وقـد تعلم الايطاليون من خبرة الحـروب الصليبية الأصول التجـارية الصميمة من العرب ،

فتعلموا التعامل بالنقود وضربوا عملة ذهبية خاصة بهم وعالجوا تجارة الجملة من المنابع الأصلية للسلع ، وكانوا قبل ذلك تجار تجزئة أو تجارا وسطاء ، واتسع أفقهم العقلى فاكتسبوا المهارة التجارية والعقلية التجارية . وهكذا تخرج التجارة الأوربية من عزلة العصور الوسطى ، تجارة الحاصلات الزراعية بين الريف والمدن ، أو تجارة التبادل فى أسواق المدن بالمتاجر المحدودة القادمة من وراء الحدود ، أو تجارة النقابات المقيدة لحرية التجارة ، الى ميدان التجارة العالمية الرحيب ، الذى يتميز بالأساطيل التجارية ، والأدوات المالية كالنقود وطرق المعاملات القائمة على السندات والصكوك والنقود والأوراق والمصارف ، والسلع الكثيرة المتعددة ، وضبط الدولة وحمايتها ، وهذا هو ما يعبر عنه بالثورة التجارية التى حدثت فى أوربا من سنة ١٤٠٠ الى ١٧٠٠ م .

وصحب هذه الثورة التجارية انتعاش اقتصادى كبير ، وارتفاع فى مستوى المعيشة . لقد كان الغذاء الرئيسى لأهل أوربا طول العصور الوسطى لا يخرج عن العصيدة والخضروات القفار المسلوقة . أما الأمراء والاقطاعيون فيأكلون الطعام المطهو المتبل بالتوابل . وفى الشتاء تقل اللحوم ولم تكن وسائل التبريد الصناعية قد اخترعت بعد ، فكانوا يحتاجون الى البهار والفلفل والقرفة والزنجبيل والقرنفل وجوز الطيب ليحفظوا بها اللحوم صيفا فيجدونها شتاء . وكانت هذه تأتى بكميات قليلة وتباع بأغلى الأثمان . فلما ارتفع مستوى المعيشة فى أثناء الثورة التجارية عقب الحروب الصليبية ، انتقلت تلك المواد الشرقية من حيز الكماليات الى حيز الضروريات . وانضم اليها القهوة والكاكاو والعسل والرنجة والأرز ، ويضاف الى قائمة الضروريات البخور وهو من مستلزمات الكنائس .

وبعد أن استؤصلت شأفة الصليبيين من المشرق فى سنة ١٢٩١ م عادت هذه التجارة الى احتكار العرب ، وهبط مركز الايطاليين الى المرتبة الثانية من جديد ، بسبب استرجاع البيزنطيين للقسطنطينية وطردهم البنادقة منها فى سنة ١٢٦١ م . ثم استيلاء الاتراك العثمانيين عليها نهائيا فى سنة ١٤٥٣ م . وهكذا عاد العرب الى احتكار التجارة العالمية ، وعاد الايطاليون الى احتكار التجارة الأوربية ، فى وقت زادت فيه الحاجة الى حاصلات الشرق وسلع تجارته . وجنى العرب والايطاليون أرباحا خيالية من هذه التجارة . والى تلك الأرباح

ترجع قوة دولة المماليك البحرية الموحدة بمصر والشام ، كما ترجع عظمة المدن الايطالية فى عصر النهضة وقبيل ذلك العصر .

وفى نفس الوقت كانت دول أوربا الغربيـة قد أخذت فى الظهور كقوميات مستقلة وكدول : البرتغال وأسبانيا ، وفرنسا ، وانجلترة . وصعب على هذه الدول الناشئة أن تسلم بسيادة المدن الايطالية : البندقية ، وجنوة ، وفلورنسا ، واحتكارها للتجارة . كما عز عليها أن يقتسم العرب ثروتهم مع الايطاليين ، ويفوزوا منها بنصيب الأسد ، فى وقت كانت نفوس الأوربيين مملوءة بالمرارة من العرب بعد صراع طويل فى بحر المشرق أيام الحركة الصليبية ، وفى الأندلس أيام حركة النضال ضد العرب هناك .

وفى نفس الوقت كانت المعلومات الجغرافية قد انتقلت من العرب الى الأوربيين . فقد كان مفهوم الأوربيين عن العالم فى العصور الوسطى هو أن سطح الأرض عبارة عن قرص مستو مركزه بيت المقدس . وكانوا يعرفون بعض الجزر القريبة من سواحل أوربا ولكنهم كانوا يحجمون عن الرحلة اليها خوفا من غيلان البحر . وتبدد كل هذا باتصالهم بعلم العرب فعرفوا منهم أن الأرض كروية ، وأن السير فى أى اتجاه منها يعيد الانسان الى نقطة البدء بالمسير . وتعلموا معلوماتهم الجغرافية الصحيحة عن افريقية والهند والصين والبحار والمحيطات ، وحصلوا على خرائط الادريسى وغيره من الجغرافيين العرب .

وفى نفس الوقت أيضا تعلم الأوربيون فن الملاحة وحصلوا على الآلات البحرية من العرب . فأخذوا عن العرب البوصلة المغنطة فتمكنوا بها من الضرب فى أعالى البحار والسرى البحرى فى الليالى الخالية من النجوم . وكانوا من قبل يتحسسون طريقهم فى البحر قرب الشواطىء . وتعلموا الأسطرلاب أو آلة قياس ارتفاع الشمس ، وبواسطته أمكنهم معرفة خطوط العرض فى البحار . وتعلموا من العرب آلة قياس الزمن على شكل زجاجة تقيس الساعة وزجاجة تقيس الدقيقة ، وتعلموا المزولة منهم ، وكلها أدوات ملاحية مفيدة . وزادت معلوماتهم عن الرياح والتيارات والفلك ؛ وبذلك تمكنوا من مواجهة البحار الواسعة بسفن جديدة لها ساريتان أو ثلاث سوار ، ولها أشرعة مثلثة الشكل تستطيع أن تمخر عباب المحيط .

واستخدم الأوربيون كل هذا الذى تعلموا أكثره من العرب ضد مصالح العرب • لماذا لا تتجه جنوبا حول ساحل افريقية تبعا لخرائط العرب فنصل الى الهند ونحضر من هناك التوابل والسلع الثمينة ونحطم احتكار العرب للتجارة ، ومعه احتكار الايطاليين ؟

وكانت البرتغال أسبق الدول الأوربية فى مجال الاستعمار ، وبفضل العرب أيضا • فقد سبقت البرتغال غيرها الى الوحدة القومية ، وكان فى موانيها الغربية المطلة على المحيط الأطلسى تقاليد البحارة العرب ومغامراتهم فى ذلك المحيط ، أيام الأندلس المجيدة • ثم كان فى تعقبهم للعرب فى أفريقية بعد طردهم من البرتغال نفسها مشجعا لهم على ركوب البحر •

وصلت بعثات هنرى الملاح ملك البرتغال الى جزر ماديرا وأزورس فى المحيط الأطلسى • وفى سنة ١٤١٩ أنشأ مدرسة جغرافية بحرية فى ميناء شريش (Sogres) جمع فيها عددا من الجغرافيين والفلكيين والملاحين العرب واليهود ، وألحق بهم عددا من ملاحيه فتعلموا فنون الملاحة ورسم الخرائط وصناعة الآلات البحرية • وأرسل بعثات وصلت الى بلاد غانة •

وفى سنة ١٤٨٨ وصل برثلميودياز — بعد موت هنرى — الى رأس الرجاء الصالح فى جنوبى أفريقية • وفى سنة ١٤٩٨ وصل فاسكو دى جاما الى ساحل أفريقية الشرقى ، وتتفق المصادر البرتغالية والعربية على أنه استصحب معه من هناك ملاحا عربيا معه خريطة ملاحية كبيرة فقاد سفنه الى قاليقوط على ساحل الهند الغربى ، وبذلك وصل الى بلاد التوابل والبهار ، وفتح باب الاستعمار الغربى فى الشرق •

وهنا يبدأ الصراع بين الاستعمار البرتغالى وبين العرب • فقد كان للعرب مركزان تجاريان هامان بالشرق • قاليقوط على ساحل الهند الغربى وهى مركز تجارتهم مع الهند ، وملقا مركز تجارتهم مع الصين واليابان • يضاف الى ذلك عدد من المراكز التجارية العربية الهامة على الساحل الشرقى لافريقية وهى كلوة وموزنبيق فى مقابل جزيرة مدغشقر ، وهرمز على الخليج العربى ، وعدن عند مدخل البحر الأحمر • وبين هذه المراكز تسير أعدادا ضخمة من السفن العربية بين الصين والسويس •

وقد عزم الاســتعماريون البرتغاليون من أول الأمر على تصفية هذه المراكز العربيــة ومطاردة العرب فى المحيط الهندى والقضاء على ملاحتهم فيه • وتنبــه العرب الى ذلك ، فنصحوا الزامرين سلطان قاليقوط بأن يرد البرتغاليين ، ولكنه لم ينتصح وعقد معهم معاهدة تجارية كانت ســببا فى ضياع سلطنته • ووصل كبرال البرتغالى بعد فاسكو دى جاما واشتبك مع العرب فى عدة مواقع بحرية ، دمر العرب فى أثنائها مركز تجارة البرتغال وقضوا على حاميته ، وحرق هو بعض السفن العربية • ثم وجد أن الزامرين يميل الى العرب ، فاتفق مع بعض أمــراء الهند ضده ، واضطر فاسكو دى جاما الى أن يعود بنفسه الى الهند مرة ثانية ، واشتبك مع الزامرين فى عدة مواقع وهزمه وقضى عليه •

واستنجد خليفة الزامرين بالسلطان الغــورى سلطان مصر انقــاذا لتجــارة العرب • ولكن الغورى كان يستعد لملاقاة الجيش العثمانى الزاحف على الشام ، فلم يستطع ارسال حملة لتأديب البرتغاليين • واكتفى الغورى بأن أرسل الى البابا يهدده بتخريب الأماكن المقدسة فى بيت المقدس اذا لم يخــرج البرتغاليون من الهند ، ولكنــا عرفنا ماذا كانت قيمة هذه الأماكن عنــد الأوربيين بجــانب التجــارة والمــــال •

ونواجه هنا نفس القصة الخالدة بيننا وبين الاســتعمار • عملت كل جماعة من العرب لحسابها ولم يتحدوا ضد عدوهم الذى أصر على طردهم من بحار الشرق • وصرف العثمانيون همهم لفتح الشام ومصر فأضعفوا المصريين أمام البرتغــاليين • وبدلا من أن يتحد العثمانيون مع البندقية ، المنافس الطبيعى للبرتغال ، هاجموا أملاكها فى البحر المتوسط وقضوا عليها ، وأمام هذا التخاذل أخذت البرتغــال ترسل الحملة تلو الحملة للقضــاء على العرب فى الشرق •

وسقطت المراكز العربية الواحد تلو الآخر • هاجم الميدا مدينة كلوة العربيــة العظيمة على الساحل الشرقى لأفريقية ، ودافع أهلهــا العرب عن كل شــبر فى مدينتهم ، حتى هزموا • ونهب البرتغاليون المدينة وأشعلوا فيها النار •

وانتقل الميدا الى مدينة موزنبيق العربيــة وهزم أهلهــا وفتك بهم ونهبهــا ثم أحرقهـــا •

ثم اشتبك الميدا مع الأسطول المصرى بالقرب من جزيرة ديو أمام بمباى ، وانتصر الأسطول المصرى فى أول الأمر ثم عاد البرتغاليون فكروا عليه ودمروه (١٥٠٩ م) .

وأرسلت البرتغال البوكرك فدأب كسلفه على محاربة العرب . قاد حملة بحرية الى ملقا فاستولت عليها . وطارد سفن العرب من المحيط الهندى حتى اختفت منه . ثم اتجه الى هرمز على الخليج العربى فاستولى عليها من يد أصحابها العرب . ثم الى عدن فاستولى عليها فى سنة ١٥١٥ م . وبذلك انتهت تجارة العرب بين الشرق والغرب نهائيا وتخلت عنها للاستعمار الغربى .

ولم تنفرد البرتغال بهذا الغنم ، بل نافستها فيه أسبانيا ، ثم هولندة ، ثم فرنسا ثم انجلترة . وعملت انجلترة من أول الأمر على أن تستولى على منافذ البحار الى منابع التجارة وركزت همها على سوقطره وعدن ثم واصلت ضغطها حتى سيطرت على الجنوب العربى فيما بعد . ويشتد تنافس هذه الدول على الميراث التجارى العربى فى المشرق ، وعلى غيره فى الغرب — (أمريكا) ، الى سنة ١٧٠٠ م . أما العرب فان ضياع تجارتهم كان خسارة لم يمكنهم تعويضها ، وتأثرت بها أحوالهم ، فضعفوا أمام العثمانيين حتى وقعوا فى قبضتهم .

رابعا — الاستعمار الفرنسى الانجليزى (١٧٩٨ — ١٨٠٧ م) :

أشرنا فيما سبق الى التنافس الاستعمارى بين الدول التى اشتركت فى الكشوف الجغرافية أو استغلتها ، ولم تكن الكشوف قليلة فقد اشتملت على طريق رأس الرجاء الصالح الى الهند والأمريكتين وجزائر الهند الغربية ، ولكن جشع الاستعمار كان أوسع من كل تلك الكشوف . وقد تجاورت مستعمرات فرنسا ومستعمرات انجلترا فى الهند وفى أمريكا الشمالية ، تجاور المتنافسين الطامعين . وقع الصراع بين فرنسا وانجلترا على المستعمرات ، وكان من مراحله الحاسمة معاهدة باريس سنة ١٧٦٣ ، وفيها تنازلت فرنسا لانجلترا عن كل مستعمراتها تقريبا فى كندا وأمريكا وجزائر الهند الغربية والهند .

وبعد ذلك بقليل (١٧٨٩ م) قامت الثورة الفرنسية الكبرى بقصد القضاء على الاقطاع ، ووضع حد لاستبداد الملوك ، وتحقيق مبادىء الحرية والاخاء

والمساواة . ونجحت الثورة ، وخلع الشعب لويس السادس عشر ، وأعلن الجمهورية . وخافت الملكيات الرجعية فى أوربا أن تنتقل عدوى الثورة الى شعوبها ، فكونت تحالفا دوليا لقمع الثورة . ولكن فرنسا تغلبت عليها جميعا ، ما عدا انجلترا فقد اعتصمت منها بالبحر .

وأرادت فرنسا أن تعوض نفسها عما فقدته من المستعمرات ، كما أرادت أن تلحق ضررا بانجلترا فى مستعمراتها الشرقية ما دامت قد عجزت عن ضربها فى بلادها . وقررت فرنسا أن تغزو مصر . فتكسب مستعمرة جديدة ، تجر وراءها غيرها من أقطار الشرق العربى . ومن هنا تستطيع أن تحول التجارة من طريق رأس الرجاء الصالح الذى تسيطر انجلترا عليه ، الى برزخ السويس والبحر المتوسط كما كان الأمر قبل حركة الكشوف ، وبذلك ترث فرنسا العرب والمماليك والمدن الايطالية جميعا من على التجارة الانجليزية . وهكذا نجد عملية استعمارية كاملة المعالم توجه نحو مصر وبلاد الشام على الأخص ، فيها استعمال القوة ، وفيها الاحتلال العسكرى ، وفيها الاستغلال الاقتصادى .

والواقع أن فرنسا كانت تفكر فى احتلال مصر من زمن بعيد . وكانت قد نسيت الدرس الذى تعلمه ملكها لويس التاسع ومعاصروه ، والذى عبر عنه شاعرنا الصعيدى جمال الدين بن مطروح فى حينه ، اذ قال موجها الحديث للفرنسيين :

خمسون ألفا لا ترى منهم	الا قتيلا أو أسيرا جريح
فقل لهم أن أضمروا عودة	لأخذ ثأر أو لعقد صحيح
« دار ابن لقمان على حالها	والقيد باق والطواشى صبيح»

وفكر لويس الخامس عشر (١٧١٥ — ١٧٧٤) فى غزو مصر عندما فقد مستعمراته الأمريكية والهندية كما سبق القول . وكانت فرنسا دائما ترسل جواسيسها الى مصر والشرق العربى يأتون اليها على شكل تجار أو رحالة . ومن هؤلاء فلنى Volney الذى زار مصر ونشر رحلته فى ١٧٨٧ فى كتاب ذكر فيه أن فتح مصر من أيسر الأمور نظرا لضعف المماليك وجهلهم بطرق الحرب الحديثة . ومن معلوماته التجسسية ما كتبه من أن الاسكندرية ليس بها الا أربعة

مدافع تصلح للانطلاق ، وأن حاميتها تتكون من خمسمائة جندى يحسنون تدخين الشيك أكثر مما يحسنون اصابة الأهداف . وفى فبراير سنة ١٧٩٨ كتب ما جالون قنصل فرنسا فى الاسكندرية الى حكومته يؤكد أهمية فتح مصر . ويقول : « ان احتلال مصر خير وسيلة لتحطيم قوة انجلترا فى الشرق » . وكانت فرنسا تريد أن تنتقم من انجلترا كما سبق القول فأرسلت حملة نابليون بونابرت التى غادرت موانى فرنسا فى مايو سنة ١٧٩٨ .

ونزلت الحملة بالاسكندرية فى ٣ يولية سنة ١٧٩٨ ، وسارت الى دمنهور ومنها الى القاهرة فدخلتها فى ٢٧ يولية . ثم أرسل نابليون فرقة لاحتلال الشرقية ، وفرقة أخرى لاحتلال الصعيد. وما أن استقر أمره فى مصر حتى قاد حملة لغزو الشام (فبراير ١٧٩٩) ، وسقطت غزة ، ويافا ، وأمام أسوار عكا عجز فنه الحربى فرفع عنها الحصار وعاد الى القاهرة . وبعد فترة احتضار حمل الفرنسيون أمتعتهم ورحلوا يجرون آذيال الفشل فى سبتمبر ١٨٠١ ، أى بعد ثلاث سنوات من قدومهم .

مهما يكن من قصر مدة اقامة الاستعمار الفرنسى فقد نجحوا فى احتلال البلاد . أما عن السبب فهو أن الحكام كانوا من الأجانب ـ المماليك ، وكانوا منقسمين على أنفسهم فرقا وأحزابا ، وكانوا فى جانب ، والمصريون فى جانب آخر فلا تعاون . وقد وصف هذه الظروف التى تخدم الاستعمار دائما المؤرخ المعاصر عبد الرحمن الجبرتى قال : وكانت « الأجناد متنافرة قلوبهم ، منحلة عزائمهم مختلفة آراؤهم ، حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم ، مختالون فى ريشهم ، ويتكلمون فى رويتهم مغمورون فى غفلتهم ، وهذا كله من أسباب ما وقع من خذلانهم وهزيمتهم » . ويقول الجبرتى أن الحمار الأعرج أو البغل الضعيف بيع بأضعاف ثمنه ، ليس لأن المماليك كانوا محتاجين الى هذه الدواب فى المعركة ، ولكن لأنهم كانوا محتاجين اليها فى الهرب من القاهرة من غير قتال .

وسبب آخر هو التخلف والتأخر فى أحوال الأمة المصرية ، بسبب سيادة الرجعية . فلم يكن عندنا جيش حديث ، ولا أسلحة حديثة ، ولكن السيف والرمح قابلنا بهما مدافع الفرنسيين وبارودهم . ثم علوم اللغة والدين لا غير قابلنا بها العلوم الطبيعية والرياضية والصناعة والاختراعات . ثم الجهل والخرافة

التى ضربها الأتراك على الشعب العربى فى كل مكان من الوطن العربى ، حتى خرجنا نقابل الفرنسيين ببيارق الطرق الصوفية والدعاء على الأعداء .

وأخيرا تفكك العالم العربى تحت حكم الأتراك ، تفكك ولو من الناحية العاطفية وعدم الاجتماع على سياسة واحدة أو أهداف واحدة . فلم يتقدم أحد من خارج مصر ليدافع عنها ضد نابليون ، ولا أحد من خارج الشام عندما قصد اليهما العدو .

أما الشعب العربى فى مصر والشام فقد وقف من المستعمرين موقفه التقليدى الذى عرفناه فى أثناء الحروب الصليبية . ففى الوقت الذى فر فيه الحكام المماليك من البلاد ، تجمع الفلاحون المصريون فى طريق الجيش الفرنسى وقاوموه فى كل قرية مر بها . وكانت مقاومة الاسكندرية بزعامة السيد محمد كريم مما يشرف اى أمة فى أى عصر من العصور . وكانت ثورات أهل القاهرة ضد الفرنسيين نموذجا عالميا فى الثورات الشعبية ضد المستعمر . فهذا الشعب الذى أبعده الأتراك عن كل تعليم حربى وحرموه من كل مهارة حربية لمدة قرون ، انقض بفطرته وحماسته على مراكز الحراسة وقتل الحراس الفرنسيين ، واحتلت جموعه أبواب المدينة وهدموا مصاطب الحوانيت « وبنوا من أحجارها متاريس للكرنكة ، لتعوق العدو فى وقت المعركة ، ووقف دون كل متراس جمع عظيم من الناس » . وتتجلى الصفة العربية للمقاومة من أن الذى قتل كليبر ، قائد الحملة بعد عودة نابليون الى فرنسا ، كان شابا سوريا من حلب هو سليمان الحلبى الطالب بالأزهر .

على أن الحملة الفرنسية على مصر كان لها مغزى أبعد بكثير مما يدل عليها ظاهرها . فقد كانت فاتحة الاستعمار الغربى الحديث فى الوطن العربى . فانجلترا لم تكن تفكر فى مصر ولا فى غيرها من الأقطار العربية ، وانما كانت قانعة بمستعمراتها فى الهند وأمريكا . فلما غزت فرنسا مصر والشام تنبهت انجلترا لأهمية هذا الموقع لسلامة أملاكها فى الهند ، وأخذت منذ ذلك الحين تعمل على احتلال مصر ، وبدأ التنافس بينها وبين فرنسا .

وما كادت انجلترا تعلم بخروج الحملة من فرنسا حتى تعقبها أسطولها فى البحر ، وأرسلت عدة حملات اشتركت مع الجيش التركى فى طرد الفرنسيين . وعندما تم طرد الفرنسيين فى سبتمبر سنة ١٨٠١ بقى الأسطول الانجليزى

يحاصر شواطىء مصر الى سنة ١٨٠٣ . وأخذت انجلترا تعمل على توطيد نفوذها فى مصر بالطرق الدبلوماسية ، فلما لم تفلح أرسلت حملة انجليزية للاستيلاء عليها فى سنة ١٨٠٧ .

نزلت الحملة الانجليزية بالاسكندرية فى أوائل العام ، وأرسلت فرقة منها لاحتلال رشيد فدخلوها . ولكن الأهالى كانوا « منتبهين ومستعدين بالأزقة والعطف وطبقات البيوت » ، كما يقول المؤرخ الجبرتى .. « ودهموا الانجليز من كل ناحية ، وصدقوا فى الحملة عليهم ، وألقوا أنفسهم فى النيران ولم يبالوا برميهم ، وهجموا عليهم ، واختلطوا بهم ، وأدهشوهم بالتكبير والصياح ، حتى ألقوا سلاحهم ، وقبضوا عليهم ، وذبحوا الكثير منهم ، وأرسلوا الأسرى ورؤوس القتلى الى القاهرة ، وفر الباقون الى الاسكندرية » . وحدث مثل ذلك عند قرية الحماد بالقرب من رشيد ، فقابلهم الأهالى الذين قدموا من القاهرة مع أهل رشيد وكانت مذبحة طلب الانجليز بعدها الصلح والجلاء .

يقول الجبرتى : أما محمد على فقد « انحلت عزائمه » وأخذ يستعد للهرب الى الشام ، ولم يجرؤ على السفر الى الاسكندرية الا بعد أن شجعه أهل رشيد فأرسلوا اليه الأسرى ورؤوس القتلى ، وتسهيلا لمهمة النقل كانوا يقطعون أذان القتلى من الانجليز ويملحونها فى صفائح ويرسلونها الى محمد على ليثبتوا له أن من الممكن الانتصار على العدو . وأخيرا وصلت اليه رسالة من قائد الحملة يطلب فيها الصلح ، فسافر محمد على الى الاسكندرية ورحل الانجليز .

وهكذا تخلت انجلترا مرغمة عن مطامعها فى مصر الى حين .

خامسا ـ الاستعمار الغربى الحديث :

لم يكن الاستعمار الغربى الحديث فى الوطن العربى حركة قائمة بذاتها ، أو سياسة جزئية خاصة بهذا الغرض ، ولكنه كان جزءا من حركة كبيرة وموضوعا من سياسة عامة ، وهما حركة التوسع الغربى فى العالم كله ، وسياسة السيطرة على كل شعوب آسيا وافريقية . وبهذه النظرة الشاملة تستطيع أن تفهم الاستعمار الحديث على حقيقته وأن تفسر كثيرا من حوادثه ومؤامراته ومعاهداته واجراءاته .

الاستعمار القديم :

عرفنا فيما تقدم كيف انكمشت أوربا وراء حدودها منذ خرجت من بلاد الشام عقب انتهاء حركة الاستعمار باسم الصليب فى القرن الثالث عشر ، وشغل أهلها أنفسهم بدراسة حضارة العرب ونقل علومهم واحداث نهضتهم المشهورة فى القرن الخامس عشر ، وكيف اقترن هذا بانبثاق الدول الأوربية الحديثة على أسس قومية من ظلام العصور الوسطى وفوضاها • ثم عرفنا كيف أن أول وسيلة رأت هذه الدول الأوربية أن تعبر بها عن نفسها كانت الاعتداء الاستعمارى على الشرق الأسيوى ، والاعتداء الاقتصادى على العرب ، والاعتداء الحربى على مراكزهم التجارية فى ذلك الشرق البعيد •

فقد انقض الاستعمار الغربى على آسيا • فاستولت البرتغال على أجزاء من الهند ، وعلى مدخل الخليج العربى ، ووضعوا أيديهم على سوقطره ، وكذلك على عدن ، كل ذلك فى القرن السادس عشر • ثم استولت هولندة على مواقع كثيرة من آسيا لعل أهمها جزر الهند الشرقية أو ما يعرف الآن بأندونيسيا ، ثم ركزت انجلترا جهدها على الهند وجعلتها قاعدة لمد نفوذها فى كل أنحاء الشرق • ثم دخلت فرنسا واحتلت أجزاء من الهند ، ثم انفردت انجلترا بالهند بعد أن طردت فرنسا من مستعمراتها هناك •

ومعنى هذا أن الوطن العربى أصبح مطوقا بالخطر الأوربى من جميع الجهات • فالدول الاستعمارية نفسها تمتد أمامه عبر البحر المتوسط ، ولا تبعد عنه الا بضع مئات من الأميال فى بعض المواضع كذلك الذى بين صقلية وتونس ، والمستعمرات الأوربية تطوق الوطن العربى فى جنوب آسيا وشرقها ، وتقترب منه جدا فى مواضع كمدخل الخليج العربى ومدخل البحر الأحمر •

وأثار الطريق الموصل بين المستعمرات وبين أوربا طمع الدول الاستعمارية فى الوطن العربى • فما دامت هذه الدول أقامت لها مستعمرات فى الهند ، وأخذت تتنافس هناك ، فلماذا لا تضمن لنفسها طريقا مختصرا الى الهند عبر الشام والعراق ، أو عبر مصر • ورأينا كيف أن حملة ١٧٩٨ الفرنسية على مصر لم تكن الا وسيلة لاقتراب فرنسا من الهند لتتمكن من منافسة الانجليز

هناك . وأدرك الانجليز ذلك ، فكتب نلسن أمير البحر الانجليزى الذى تعقب الحملة الفرنسية الى حكومته يقول ان غرض فرنسا من غزو مصر هو « انشاء مستعمرة فيها وفتح علاقات تجارية مع الهند عن طريق البحر الأحمر » . وكتب فى خطاب آخر يقول لحكومته : « لئن كانت مصر هى غرض الحملة الفرنسية ، فان الهند هى المقصودة من غير شك » . وكتب دنداس وزير الحربية البريطانية وقت الحملة يقول : « ان احتلال مصر بأى دولة أوربية مهما كانت معناه خطر داهم على المصالح الانجليزية فى الهند » .

وهكذا يدخل الوطن العربى ضمن دائرة تخطيط الاستعمار الأوربى كجزء من الخطة الاستعمارية الكبرى . وبدلا من أن تكون سياسة انجلترا نحو الحملة الفرنسية على مصر هى مجرد اغراق الحملة فى البحر ، وهو ما حاوله نلسن ، أو حبسها فى مصر دون أن تمكنها من الخروج من الباب الآخر ، باب البحر الأحمر ، أو طرد الفرنسيين نهائيا من مصر ، نجد أن سياسة انجلترا تصبح احتلال مصر ذاتها . وكان الفرنسيون ما يزالون فى مصر عندما كتب دنداس وزير الحربية الانجليزى يقول من تقرير له : « أصبح من المؤكد عندى الآن أن احتلال انجلترا لمصر احتلالا فعليا هو أمر أساسى للمحافظة على الامبراطورية الانجليزية فى الشرق . وهذا الأمر مقترنا بسيادة انجلترا البحرية هو أنجح الوسائل لمنع فرنسا من اقلاق هذه الامبراطورية .. »

وعلى هذا الأساس سيرت انجلترا جيشين لطرد الفرنسيين من مصر ، وعليه أيضا حاولت أن تضع مصر فى منطقة نفوذها من غير حرب بعد أن تم طرد الفرنسيين . فأخذت توجد لها حزبا مواليا من المماليك بزعامة محمد بك الألفى ، أو تحاول الاتفاق مع السلطان ، وأبقت أسطولها يحاصر الشواطىء المصرية ويراقبها فلما مات محمد بك الألفى رئيس الحزب الموالى لها فى مصر ، وولى الشعب محمد على ، ووافق السلطان على ولايته ، وأخذ السلطان يميل سياسيا نحو فرنسا ، لم تجد انجلترا بدا من أن تفصح عن سياستها وترسل حملة انجليزية لاحتلال مصر فى سنة ١٨٠٧ كمامر بك .

اسباب جديدة لاستعمار جديد :

الى هذا الحد عند نهاية القرن الثامن عشر كان الاستعمار يتم بدافع التجارة ، للحصول على مواردها ، والتنافس على هذه الموارد . حتى الحملة

الفرنسية على مصر لم تكن الا فصلا من فصول هذا التنافس وبعد ذلك نجد فترة ركود فى الحركة الاستعمارية تستغرق النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ثم يعود الاستعمار من جديد ، بشكل جديد ولأسباب جديدة •

فقد أدى تنافس الدول الاستعمارية فى المستعمرات الى فقدان كل منها لكثير من مستعمراتها • فقدت البرتغال وفرنسا كل مستعمراتها تقريبا ، كما فقدت انجلترا أهم مستعمراتها فى الدنيا الجديدة باستقلال الولايات المتحدة فى سنة ١٧٨٣ م وبسبب هذا فترت همة هذه الدول عن الاستعمار طوال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وضعف « المبدأ التجارى » وظهر مبدأ « حرية التجارة » وهو مبدأ يقول بأن اقتناء المستعمرات لا يساوى نفقات ادارتها والدفاع عنها • وان العالم يجب أن يكون كله مفتوحا للتجارة الحرة ، واستدل أصحابه على صحة رأيهم بأن تجارة انجلترا مع الولايات المتحدة زادت بعد استقلال تلك الولايات عما كانت وهى مستعمرة انجليزية • وبسبب التسليم بهذا المبدأ لا نجد حركة استعمارية تذكر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر •

وابتداء من النصف الثانى من ذلك القرن تظهر عوامل تسبب عودة الاستعمار الى أشد مما كان عليه ، وذلك هو الاستعمار الغربى الحديث وهذه العوامل هى :

١ ـ الثورة الصناعية والحاجة الى الأسواق :

فقد أدى تقدم العلوم الطبيعية والاختراع الى تقدم الصناعة الحديثة التى تقوم على الآلات والانتاج الضخم وهو ما يعرف بالثورة الصناعية • ولقد سبقت انجلترا غيرها فى مضمار التقدم الصناعى الحديث ، واستغلت تخلف الدول الأوربية فى توزيع مصنوعاتها فى كل بلاد أوربا • ولكن فى سنة ١٨٨٠ ، كانت كل من المانيا وايطاليا قد تم توحيدها ، وتنبهت الدولتان كما تنبهت الدول الأخرى الى تسرب ثرواتها الى انجلترا بسبب توزيعها لمنتجات مصانعها فى تلك الدول بدون ضرائب على أساس مبدأ « حرية التجارة » وهنا فرضت كل من ألمانيا وايطاليا وفرنسا وروسيا والولايات المتحدة الحواجز الجمركية فى وجه البضائع الانجليزية ، وفرضت عليها الضرائب حماية لثرواتها ، وهكذا فقدت انجلترا أسواقها فى الغرب وكسدت تجارتها ووجدت انجلترا أن

الاســتعمار هو الوســيلة الوحيــدة التى تستطيع بها تعويض تلك الأســواق المفقــودة •

وفى نفس الوقت انتشرت الصناعة الحــديثة فى كل أوربا وعمت الثــورة الصناعية وأصبح لكل دولة أوربية منتجاتها الفائضة التى لا تســتطيع توزيعها فى أوربا بسبب الحماية الجمركية ، ولا تستطيع توزيعها فى داخل حدودها نظرا لانخفاض الأجور الذى تميز به النظام الرأسمالى ، وعدم قدرة عامة الشــعوب على الشراء والاستهلاك • وهكذا رأت هذه الدول ما رأته انجلترا من قبــل وهو أن الاستعمار هو الطريق الوحيد لفتح أســواق جديدة أمام البضائع التى كانت تتدفق من المصــانع الحديثــة ، ودخلت الدول الأوربية الاســتعمارية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فى دور جديد من حمى التنافس على اقتناء المســتعمرات •

٢ ــ الحاجة الى المواد الخام :

وفى نفس الوقت زادت حاجة المصــانع الى المواد الخام • لقــد كانت تلك المصــانع فى حاجة الى كميات ضــخمة من القطن والمطــاط ، وزيت جوز الهنــد والصــفيح ، والقهوة ، والسكر ، والقنب ، والبترول • وقوت هــذه الحاجة الرغبة فى الحصول على مستعمرات تنتج هذه المواد الخام اللازمة للمصانع •

٣ ــ تكدس رءوس الأموال :

ثمة عامل آخر وهو أن الصناعة الكبيرة الحديثة كدست رءوس الأمــوال فى المصارف وعند الرأسماليين من أصحاب المصانع • ولم تكن الصــناعة تنمو بدرجة نمو رءوس الأموال ، فلم تستغرق الصناعة مكدسات رأس المال وكان لزاما أن يبحث الرأسماليون عن أماكن فى الخارج لتوظيف أموالهم واستثمارها • واتجه هؤلاء الرأسماليون الى بلاد آسيا وافريقية ــ التى كانت متخلفــة ــ لهذا الاستثمار • ولقد كانت أرباح رأس المال تبلغ ٢٠٪ فى الصين والهند وافريقية على حين أنهــا لم تكن تزيد على ٤٪ فى أوربا • وكان هــذا عاملا ثالثــا دفع الدول الأوربية الى الاستعمار • ففى سنة ١٨٧٥ لم يكن لهذه الدول رأســمال يذكر فى الخارج ، على حين ارتفعت رءوس أموالها المستثمرة فى المســتعمرات فى سنة ١٩١٤ الى أربعة بلايين من الجنيهات فى حالة انجلترا ، وخمسين بليــون فرنك فى حالة فرنسا ، وثمانية وعشرين بليون مارك فى حالة ألمانيا •

٤ ـ مشكلة تزايد السكان فى أوربا :

وزادت أعداد السكان فى كل الدول الغربية زيادة عظيمة ، وكان لا بد من ايجاد أماكن تنزح اليها هذه الزيادة . ففى منتصف القرن الثامن عشر كان تعداد أوربا ١٤٠ مليون نسمة ، على حين ارتفع فى سنة ١٩١٤ الى ٤٦٣ مليونا . وفى مدى قرن من الزمان ، من سنة ١٨٠٠ الى ١٩٠٠ زاد عدد سكان انجلترا من ١٦ مليونا الى ٤١ مليونا نسمة ، وزاد عدد سكان ألمانيا من ٢١ مليونا الى ٥٦ مليون نسمة ، وزاد عدد سكان ايطاليا من ١٨ مليونا الى ٣٢ مليون نسمة . ولقد هرعت ملايين من هؤلاء الى المستعمرات حيث فرص العمل أوفر وحيث الأعمال والوظائف أيسر . وكان المهاجرون تنقطع صلاتهم بأوطانهم الأولى وأسرهم هناك . وهذا جعل الدول الأوربية تسعى فى الحصول على مستعمرات حتى يهاجر فيها من يريد دون أن تنقطع صلته بوطنه ، بسبب التبعية السياسية المفروضة على المستعمرات .

٥ ـ المجد القومى :

واتخذت الدول الأوربية من اتساع المستعمرات دليلا على قوة الدولة وعظمتها ، فألمانيا وايطاليا بعد أن تم توحيد كل منهما خرجتا للغزو والتوسع اظهارا لقوتهما . وانتابت انجلترا حمى الاستعمار حتى لقد خرجت تحارب وتستعمر ذات اليمين وذات الشمال بدون وعى وبروح لا تعرف القناعة . وكان فخر الانجليز أن انجلترا سيدة البحار ، وأنها تمتلك امبراطورية لا تغيب عنها الشمس . وكانت أشهر أغنية تردد فى مسارح انجلترا فى أواخر القرن التاسع عشر (نظمت فى سنة ١٨٧٨ م) أغنية استعمارية تقول :

انا لا نريد أن نحارب .
ولكنا نعملها بالمخاطرة .
نحن نملك السفن ، ونحن نملك الرجال .
ونحن نملك المال أيضا .

حتى أهل الولايات المتحدة الذين قاسوا من الاستعمار أصابتهم حمى الاستعمار فى ذلك الوقت ؛ حتى لقد قال أحد كتابهم حينئذ :

« يظهر أن روحا جديدة قد غمرتنا ؛ وهى الشعور بالقوة ، والرغبة فى

اظهارها . ان احساسا جديدا من الجشع ، وحب التملك ، والجوع من أجل الأرض ، والكبرياء ، والقتال من أجل حب القتال ، يتنابنا الآن . ان طعم الامبراطورية ، فى أفواهنا كما يكون طعم الدم فى أفواه سكان الغابة » .

وهذا تعبير صادق عن روح الاستعمار .

٦ ـ العامل الحربى :

فى مثل هذا الجو من التوسع والتنافس على المستعمرات ، كان لا بد من تكوين جيوش جرارة للدفاع عن الامبراطوريات . وقد استخدمت المستعمرات كموارد للجند ، ومصانع لاعداد الجيوش ، ومخازن للاحتفاظ بها ، وزيادة القوة الحربية كانت تغرى الدول بالاعتداء والتوسع ... وتميزت فرنسا بأنها طبقت التجنيد الاجبارى على أهل المستعمرات ، كما فرضته انجلترا على الهنود .

٧ ـ العامل الدينى والثقافى :

وكما تخلق المبررات دائما ، ادعت الدول الاستعمارية أنها انما تستعمر الناس وتعتدى عليهم بقصد تمدينهم ونشر الدين السماوى بينهم . وهذا مجرد تبرير ، اذ الحق أن حركة التبشير كانت هى فى حد ذاتها حركة استعمارية . وكانت وسيلة من وسائل الاستعمار ، ولم تكن غاية فى ذاتها . وحركة ادخال المدنية الحديثة لم تكن غاية أيضا بدليل أن انجلترا كانت تقاومها فى مستعمراتها على حين أن فرنسا كانت تشجعها لتمحو شخصيات الشعوب وتبتلعها فى النهاية .

أساليب الاستعمار :

واتبع الاستعمار الغربى الحديث أساليب كثيرة . ففى كثير من الحالات كان الاستعمار يلجأ الى أسلوب « التدخل السلمى » ثم لا يلبث أن يبتلع القطر الذى رحب به سلميا فى أول الأمر ومنحه المراكز التجارية . وهكذا دخلت انجلترا جنوب الجزيرة العربية .

وحيث كانت توجد حكومات صديقة أو ضعيفة أو فى حاجة الى المساعدة كان الاستعمار يلجأ الى المعاهدات التى تمنح رعايا الدولة الاستعمارية بعض الامتيازات الاقتصادية او القضائية أو الدينية ، ثم لا تلبث أن تنقض على الدولة وتحتلها أو تقتطع أجزاء منها . ومن أمثلة ذلك معاهدات الامتيازات

التى عقدتها فرنسا وغيرها مع الدولة العثمانية . وأولى هـذه المعاهدات عقدتها فرنسا مع تركيا فى فبراير سنة ١٥٣٦ وبها اكتسبت فرنسا حق التجـارة المطلق فى أراضى الدولة ، وأعفت رعاياها من الخضـوع لنظـام الضرائب التركى أو للقضاء الوطنى . وأصبحت حامية المسيحيين فى أقطار الدولة . وبهـذه الوسيلة عشش الاستعمار فى الوطن العـربى أيام تبعيته للدولة العثمانية ، ثم حـدث الاحتـلال .

وحيث كانت توجـد حكومات ضعيفة كانت الدول الاسـتعمارية تبـدأ باتفاقات وعقـود تجـارية أو صناعية كمد السـكك الحـديدية أو التجـارة أو التعدين ، أو استغلال الموارد الطبيعية ؛ وهكذا دخل الاستعمار بلاد الصين . فبدأ هناك بتقسيمها الى مناطق نفوذ . ثم لا تلبث الدولة الاستعمارية أن تخلق المشاكل والذرائع لتستولى على البلاد . ولهـذا السبب يسرت انجلترا وسائل الاستدانة والقروض للخديوى اسماعيل .

وحيث توجد مناسبة محلية فى قطر من الأقطـار يمكن أن تستغلها الدولة الاستعمارية للتدخل ، يكون هذا بداية الاسـتعمار . وقد دخلت انجلترا الى مصر لحماية عرش الخديوى من الثورة الشعبية الدستورية .

وآخر هذه الطرق هى الاعتـداء السافر المفـاجىء المدبر والضم الصريح كما فعلت فرنسا فى الجزائر وانجلترا فى سيلان .

وحتى عندما قامت المنظمات الدولية لتقـاوم الاعتداء ، وجد الاسـتعمار منفذا داخل بعض البلاد باسم « الانتداب » من قبل المنظمة الدولية . وهـذه هى الطـريقة التى احتلت بهـا فرنسـا سوريا ولبنان ، واحتلت بهـا انجلترا العراق وفلسطين .

وكل هذه الوسائل اتبعها الاستعمار الغربى فى الوطن العربى ، فقد استولى على كل قطر بطريقة ، وكانت النتيجة النهائية هى استعمار الوطن العربى .

وكل هذه الأساليب تظهر الفـرق بين الاستعمار الغـربى الحـديث وبين الاستعمار التجارى السابق له . فالاستعمار التجارى كان غرضه مجرد الاستيلاء على مراكز بحرية على سواحل البلاد لتكون مراكز تموين للسفن الاسـتعمارية ، ومراكز تجميع للبضائع ، ولذلك لم يهتم ذلك الاستعمار باحتلال داخل البلاد .

أما الاستعمار الحديث فهو استعمار استغلالى عنى باحتـــلال البلاد كلها ليتمكن من مواردها الطبيعية ويسيطر على حركتها التجارية وأسواقها .

الاستعمار الغربى فى الوطن العربى :

منذ أحاط الاستعمار الغربى بالوطن العربى عن طريق احتلال شرق آســيا وجنوبها ، أصبح هذا الوطن من أهم المحاور التى تدور عليها السياسة الأوربية، وأصبح احتلاله ومد نفوذ الاستعمار اليه أهم أهداف تلك السياسة .

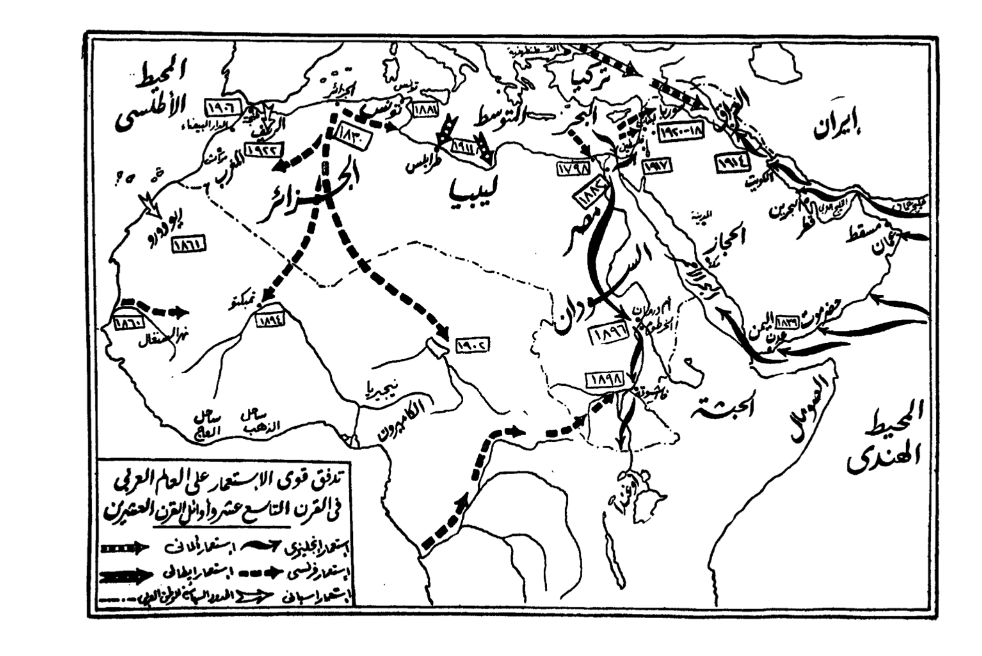
الجزائر (١٨٣٠ م) :

بعد أن فشلت فرنسا فى الاستيلاء على مصر فى سنة ١٨٧٩ ، اتجهت نحــو الاستيلاء على الساحل الافريقى المقابل لها . وبدأت بالجزائر . وكانت ذريعــة استيلائها عليها هى أن الداى لطم قنصل فرنسا بمــذبة كانت فى يده ، على أثر وقاحته وهو يطالبــه بثمن قمح كانت فرنسا قد اشترته من الجــزائر وماطلت فى دفع ثمنــه .

وبدأت فرنسا بمظاهرات بحرية أمام ثغر الجــزائر فى ســنة ١٨٢٧ ، ثم أرسلت أســـطولا كبيرا وجيشا مكونا من ٤٠ ألف جندى واحتلت به الجــزائر فى سنة ١٨٣٠ م . وقد قاوم الشعب الجزائرى جيش الاحتـــلال مقاومة مجيــدة بزعامة الأمير عبد القادر الجزائرى حتى طلبت فرنسا الهــدنة مــرة ، وعقــدت معــه معاهدتين بعد أن هزم جيشـــها أمامه . ولكن تونس والمغــرب لم تخفــا لمعاونة الجزائريين وقد استنجد بهمـــا الأمير عبد القادر ، وظلت مقــاومة الشعب الجزائرى ، ولم تتمكن فرنسا من احتلال البلاد نهائيا الا فى سنة ١٨٤٧ م .

الجنوب العربى (١٨٣٩ م) :

بدأ اهتمام الانجليز بالجنــوب العربى من مدخــل الخليج العربى وسواحله الى مدخــل البحــر الأحمر منذ حركة الاستعمار التجارى فى القرن الســادس عشر . وزاد اهتمامهم بهـــا عنــدما احتل الفرنسيون مصر فى سنة ١٧٩٨ . ولذلك اســتولى الانجليز على جزيرة بريم عند مدخل بوغاز باب المندب فى سنة ١٧٩٩ ، ثم أخـــذوا يضغطون على ســلاطين الامارات الجنوبية وأرغموهم على عقــد معاهـــدات تحالف وصداقة وحماية مع بريطانيا كمعاهدة أمير مسقط (١٨٠٠ م)



تدفق قوى الاستعمار على العالم العربي
في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين
استعمار إنجليزي
استعمار ألماني
استعمار فرنسي
استعمار إيطالي
استعمار إسباني
الحدود السياسية للوطن العربي
المحيط الأطلسي
المحيط الهندي
الجزائر
تونس
ليبيا
مصر
السودان
الحجاز
الحبشة
الصومال
تركيا
إيران
العراق
البحر المتوسط
المغرب
الريف
ريو دي أورو
نهر السنغال
تمبكتو
ساحل الذهب
ساحل العاج
نيجيريا
الكاميرون
أوغندا
فاشودة
الخرطوم
أم درمان
طرابلس
الجزائر
الدار البيضاء
الكويت
البحرين
قطر
مسقط
عمان
حضرموت
اليمن
عدن
المدينة
مكة
البحر الأحمر
الخليج العربي
خليج عمان
١٨٣٠
١٨٨١
١٩١١
١٧٩٨
١٨٨٢
١٩١٧
١٩١٤
١٩٠٦
١٩٢٢
١٨٦١
١٨٦٠
١٨٩٤
١٩٠٢
١٨٩٦
١٨٩٨
١٨٣٩
١٩١٨-١٩٢٠

ومعاهدة أمير لحج (١٨٠٢ م) ، ومعاهدة أمير البحرين وأمير مسقط وهى معاهدة حماية (١٨٢٠ م) ٠

وفى سنة ١٨٢٩ كانت مصر قد وطدت حكمها فى الجزيرة العربية بعد اخماد ثورة الوهابيين ، وأرادت الحكومة المصرية أن تنقذ امارات الجنوب والشرق العربيين من يد الانجليز ٠ وبدأت بالشرق — بالبحرين ، فعقدت مع شيخها معاهدة صداقة ، فأنذرت انجلترا محمد على باشا ، وأرسلت أسطولها الى البحرين وهددت بضربها ، واضطرت مصر الى التخلى عن سياسة تحرير الامارات العربية ٠

ثم اتجهت انجلترا الى عدن لأهمية موقعها من الناحية الاستراتيجية ، وبدأت تتحرش بأميرها ، وانتهزت فرصة غرق سفينة لها بالميناء فطالبت الأمير بتعويض كبير ، ولما رفض تقدمت بأغرب طلب تتقدم به دولة لدولة أخرى أو لشعب ، طلبت من الأمير أن يبيعها عدن فلما رفض الشعب العدنى ، ضربت عدن بأسطولها واستولت عليها عنوة فى سنة ١٨٣٩ ٠

ثم واصلت انجلترا سياسة الضغط على السلاطين والأمراء والمشايخ فى كل الجنوب العربى فعقدت عدة معاهدات مع الواحد منهم تلو الآخر ، حتى فرضت حمايتها عليها جميعا ، حتى الكويت وضعت نفسها تحت الحماية بمقتضى معاهدة فى سنة ١٨٩٩ ٠

وهنا نلمح أيضا تفكك العرب واختلاف كلمتهم أمام الاستعمار ، وغفلة بعضهم أيضا بقبول المعاهدات المفروضة والمساعدات المشروطة ٠

تونس (١٨٨١م) :

كانت فرنسا تعتزم ضم الشمال الأفريقى كله بعد أن نجحت فى احتلال الجزائر ٠ ورأت أن لايطاليا جالية كبيرة تعيش فى تونس ، وأن تونس قد تقدمت بطلب قرض من ايطاليا لتغطى بعض العجز فى ميزانيتها ، فخافت أن تسبقها ايطاليا الى ضمها ، وكانت انجلترا تعتزم ضم جزيرة قبرص فتم الاتفاق بين الدولتين الاستعماريتين على أن تترك فرنسا قبرص لانجلترا فى نظير أن تسكت انجلترا عن احتلال فرنسا لتونس ، وكذلك شجعتها ألمانيا على احتلال

تونس حتى تلهيهـا عن المطالبـة بالالزاس واللورين ولتوجه نشاطها بعيـدا عن الحدود الألمانية الفرنسية .

وكان أن تذرعت فرنسـا بأن احـدى القبائل التونسية ساعدت الجزائريين ضـد قوات الاحتـلال الفرنسية ، وتحركت قوات فرنسية كبيرة واستولت على مدينة تونس فى سنة ١٨٨١ ، واسـتولى الأسطول الفرنسى على ميناء بنزرت . وأرغم الباى على قبـول معاهدة اعترف فيها باحتلال فرنسا لبلاده ، وبأن الرعايا التونسيين يكونون فى أى مكان تحت حمـاية القناصل الفرنسيين ، وأخـيرا على ألا يتم جلاء الفرنسيين عن تونس الا باتفاق الطرفين .

واذا كان البـاى قد قبـل ذلك خوفا على عرشـه فان الشعب التونسى لم يقبـل ، بل قـام بحركة مقاومة عنيفة فى الجنـوب ، ولكن فرنسـا اسـتعملت القسوة المتناهية فى قمع هذه الحـركة . وأرغمـت البـاى (١٨٨٣) على توقيع اتفاقيـة المرسى ، وبمقتضاها قبـل وضـع تونس تحت الوصـاية الفرنسية فى الناحيتين السـياسية والماليـة ، وتعهـد بقبـول كل ما تقترحه السـلطات الفرنسية عليـه .

مصر (١٨٨٢ م) :

كانت انجلترا تعتزم احتـلال مصر منـذ نجحت فى اخراج الفرنسيين منهـا فى سنة ١٨٠١ . فلمـا افتتحت قنـاة السويس فى سنة ١٨٦٨ م أصبحت مصر ضرورية لانجلترا أولا لحمـاية مركزها فى الهنـد وسهولة مواصلاتها معهـا ، وثانيـا بحكم كون انجلترا دولة بحرية كبيرة تريد أن تضع يدها على هذا الطريق المائى العالمى الهام فى حالتى السلم والحرب .

ولم تتعب انجلترا فى خـلق الذرائع لاحتـلال مصر ، فقـد أمدها الخديوى اسماعيل بهـذه الذرائع متطوعا عن غفلة دون أن يقصـد . فقد أسرف اسماعيل على نفسه وعلى مشروعاته وعلى قصوره وعلى نسائه ، حتى اضطر الى الاستدانة وشجعته انجلترا ، وأخـذت عليه المصارف الانجليزية والفرنسية السندات بملايين الجنيهات قروضا لم يقبض منها فى الواقع الا القليـل . ويكفى أن تعـرف أن دينـا انجليزيا بمبلغ ٣٢ مليون جنيه لم يتسلم اسماعيل منه الا ١١ مليون ، والباقى خصمت كفوائد ومصاريف اصـدار . فلمـا تكدست الديون اسماعيل وعجز

عن دفع الفوائد ، تدخلت انجلترا سلميا لمراقبة المالية ، على هيئة بعثات للتحقيق ، ثم صندوق للدين ليضمن الحصول على الفوائد ، ثم مراقبة ثنائية — انجليزية وفرنسية — على مالية البلاد ، ثم وزيرين فى الوزارة المصرية أحدهما انجليزى والآخر فرنسى . وكانت الطامة الكبرى أن ضحكت انجلترا على اسماعيل واشترت منه ما كان لمصر من أسهم قناة السويس ، فأصبحت صاحبة مصلحة وكلمة قوية فى شئون القناة . وأخيرا عزلت اسماعيل .

وثار الشعب ضد هذا التدخل الأجنبى فى شئون البلاد وضد استبداد الخديوى الذى كان سببا فى هذه الكوارث . وقام زعيم الشعب أحمد عرابى ، على رأس حركة وطنية اشترك فيها الشعب والجيش ، يطالب بوقف هذا التدخل ، وتكوين مجلس نواب تام السلطة . وتذرعت انجلترا بأن هذا المجلس سيتدخل من غير شك فى مسائل الديون والفوائد ، وحاصرت الشواطىء المصرية بأسطولها ، وانتهزت فرصة قيام بعض المظاهرات فى الاسكندرية وضربتها فى يولية سنة ١٨٨٢ . وتآمرت شركة قناة السويس مع الجيش المحتل فرفضت أن يقوم عرابى بتحصينها وادعت أنها قناة دولية وتعهدت بمنع الانجليز من النزول فيها . ثم تركتهم يعبرونها ، ودخلت الجيوش الانجليزية من ناحية الشرق ، ووصلت الى القاهرة فى سبتمبر سنة ١٨٨٢ .

السودان وافريقية العربية (١٧٧٥ — ١٨٩٩) :

وكان احتلال مصر مقدمة لاحتلال السودان . فقد كانتا دولة واحدة . وكان أحد المتصوفة وهو محمد بن أحمد المهدى قد قام بثورة هناك يساعده تجار الرقيق من السودانيين الذين غضبوا على الحكومة المصرية لتحريمها تجارة الرقيق . وانتهزت انجلترا هذه الثورة وطلبت من مصر الانسحاب من السودان . ورفضت مصر ، وأصرت انجلترا بما لها من حق الوصاية على مصر . واستقال الوزير الوطنى شريف باشا ، وقبل الوزير نوبار . وأخلت مصر السودان . وذهب ليقوم بمهمة اخلاء السودان ضابط انجليزى هو غوردن فلما وصل الى الخرطوم أعلن انفصال السودان عن مصر نهائيا ، وكافأ الثائر محمد المهدى فمنحه لقب سلطان كردفان ، وأرسل اليه هدية مع خطاب التعيين ، رفض المهدى تسلمها وردها اليه باحتقار ، وتقدم الى الخرطوم واستولى عليها وقتل

غوردن . وأخلى السودان . وأرغمت انجلترا مصر على جعل حدود مصر الجنوبية عند وادى حلفا تأييدا لفكرة فصل السودان عن مصر . وتم ذلك فى يونية ١٨٨٥ .

وما كادت مصر تخلى السـودان حتى تآمرت الدول الاستعمارية على تقسيم افريقية العربية التى كانت جزءا من الدولة المصرية السودانية .

احتلت ايطاليا مصـوع وارتريا والصومال وكسلا وماجاورها (١٨٨٥) ، واسـتولت انجلترا على زيلع وبربرة (١٨٨٤) وبذلك أصبحت تحتـل جانبى بوغاز باب المندب ، وتتحكم فى مدخل البحر الأحمر وقناة السويس من ناحيـة الجنوب . كما استولت انجلترا على مديرية خط الاسـتواء ، وكانت ما تزال تحت الحكم المصرى بقيادة أمين باشا . فأرسلت حملـة اضـطرته الى اخـلاء المديرية (١٨٨٩) .

واستولت فرنسـا على تاجورة وجيبوتى (١٨٨٤) . وزحفت على السودان الغربى واستولت على فاشـوده على النيل الأبيض (١٨٩٨) .

وهنا خافت انجلترا من زحف فرنسـا على السـودان ، فنصحت الحكومة المصرية بتجهيز حملة مصرية لاسـتعادة السـودان وسارت الحملة الى فاشودة ، وطلب قائدها كتشنر من الفرنسـيين انزال علمهم لرفع العلم المصرى ، وذلك احتمـاء فى حق مصر الشرعى فى تلك البـلاد . وفى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ ، أرغمت انجلترا الحكومة المصرية على قبول اتفاقية السـودان التى جعلت حكم السودان مشـاركة بين مصر وانجلترا . ولما كانت مصر محتلة فقد جرى على السـودان ما جـرى عليها من سيطرة الاحتلال البريطانى .

المغرب ـ مراكش (١٩١٢ م):

عملت فرنسـا على الاستيلاء على المغرب بعد أن استقر لها الأمر فى تونس ، وفى نفس الوقت كانت أسـبانيا ترمى الى نفس الغاية ، كما كانت انجلترا تعمل على الاسـتيلاء على طنجة لأنها تقابل حصن جبل طارق البريطانى ، وكانت مركزا لجواسيسها وعملائها . وكانت المانيا تعمـل على مد نفوذها فى المغـرب وتضغط على سلطانها لكى يتخذ مستشاريه من الألمان .

وبدأت فرنسـا بعقد اتفاق سنة ١٩٠٤ مع انجلترا ، وفيـه أطلقت فرنسـا

يد انجلترا فى مصر وتعهـدت بالكف عن مطالبتها بالجلاء عنهـا ، فى نظير اعتراف، انجلترا بأنها لا تمانع فى استيلاء فرنسـا على المغرب . وفى نفس السنة عقدت فرنسـا اتفاقا مشابها مع أسـبانيا اعترفت فيه أسبانيا بمصالح فرنسا فى المغرب ، واعترفت فرنسـا بمصـالح أسبانيا فى اقليم الريف المغربى ، وبقيت ألمانيا منفردة تحـذر سلطان المغرب مما يدبر لوطنه . ولكن الدول الاستعمارية عقدت مؤتمرا فى بلدة الجزيرة بالقرب من جبل طارق وقـررت فيه انشـاء قوة بوليسية فرنسية وأسبانية ، كل فى منطقة نفوذه من مراكش ، وبقيت الدولتان تتربصان .

وفى سنة ١٩١١ ثار المغاربة على سلطانهم مـولاى عبد الحفيظ واسـتنجد السلطان بفرنسـا فأرسلت جيشـا لحماية عرش السلطان ، واحتلت مدينة فاس ، وبعد أقل من عام وقع عبد الحفيظ معاهدة الحماية مع فرنسـا فى مارس ١٩١٢ . وثار المغاربة وبطشت بهم فرنسـا .

وفى نفس العام (١٩١٢) اتفقت فرنسـا وأسـبانيا على تقسيم المغرب ، على أسـاس أن تأخذ أسـبانيا منطقة الريف ، على حين جعلت طنجة منطقـة دولية فى سنة ١٩٢٣ . وقاوم المغاربة بقيـادة الأمير عبد الكريم الخطابى ولكنـه استسلم أمام تحالف فرنسـا وأسـبانيا ضـده .

ليبيـا (١٩١٢) :

كان الايطاليون قد هاجروا بأعداد كبيرة الى ليبيا واشتغلوا بالتجـارة هناك وعزمت ايطاليا على احتـلالها ، ولكن انهيار الـدولة المصرية الافريقية حـول الاسـتعمار الايطالى الى افريقية . فلما انهزمت أمام الأحباش ، عادت الى البحر الأبيض المتوسط تحـاول أن تجـد لنفسها مجالا فيه . وكانت ايطاليا قد مهدت لاحتلال ليبيا من زمن بانشاء المدارس والمستشفيات والبيوت التجـارية ، كمـا أنشأت فرعا لبنك روما أقرض الأهالى بأرباح فاحشة وانتزع أملاكهم .

وأحس الشعب الليبى بما يدبر ضـده ، فطالبوا الدولة التركيـة بحمايتهم قبـل فوات الأوان . ولكن تركيا عجزت عن أن تعمـل شيئا . وبادرت ايطاليا بارسال أسـطول حاصر الشاطىء الليبى فى سبتمبر سنة ١٩١١ م . وهاج الرأى العـام العربى وجمعت الأموال من أنحاء الوطن العربى وأعـدت فرق المتطوعين للجهـاد فى ليبيا ، ولم تتمكن ايطاليا من احتلال البلاد بالسرعة التى كانت تريدها

وانهزم جيشها المرة بعد المرة كلما تقدمت فى داخل البلاد وأخيرا عمدت ايطاليا الى توسيع نطاق الحرب فهاجم الأسطول الايطالى بوغاز الدردنيل وميناء بيروت، وسواحل اليمن ، وحرضت ايطاليا رعايا السلطان فى البانيا واليونان على الثورة . وأمام هذا الضغط عقد السلطان معاهدة مع ايطاليا (أكتوبر ١٩١٢) سلم فيها باختلال ايطاليا لليبيا وسحب الحاميات التركية من البلاد . ولكن مقاومة الليبيين للاحتلال الايطالى لم تتوقف لحظة حتى نالت استقلالها .

العـراق (١٩١٧) :

بدأ اهتمام بريطانيا بالعراق من أيام الاستعمار التجارى فى القرن السـادس عشر . فأنشأت شركة الهند الشرقية الانجليزية مركزا تجاريا لهـا فى البصرة (١٧٤٣) ، ثم عينت لها قنصلا فى بغداد (١٧٥٥) ، ثم نائب قنصل فى الموصل . وفى أثناء القرن التاسع عشر ، أنشأ الانجليز شركات لهم فى العـراق احتكرت الملاحة النهرية ، ومد خطوط البريد والبرق ، وأرسلت انجلترا ارسـاليات للكشف عن الآثار . وعندما كشف البترول حول الموصل فى أوائل القرن العشرين حرصت انجلترا على أن تسـتولى على العراق .

والواقع أن الدول الاسـتعمارية كانت قد تفاهمت على تقسـيم الوطن العربى منذ ظهر لها ضعف الدولة العثمانية . فبعد أن استولت فرنسا على الجزائر وتونس ، واستولت انجلترا على قبرص ومصر ، والنمسـا على بعض ولايات البلقان ، لم يبق للسلطان الا أن يتحالف مع ألمانيا ، وأعطاها امتيـازات كثيرة فى الدولة ، خصوصا امتيـاز مد سكة حديد بغداد من قونية فى آسـيا الصغرى الى حلب ، الى الموصل ، الى بغداد ، الى البصرة ، الى الكويت . ويخـرج منه فرع من حلب الى اسكندرونة . وعارضت انجلترا فى المشروع ، على اعتبـار أنه يهدد مواصلاتها الى الهند من ناحية جنوب العراق ، وعارضت فرنسا لأن الفرع بين حلب واسكندرونة يهدد مصالحها فى سوريا ولبنان . وأخيرا اتفقت الدول الاستعمارية على تقسـيم الخط بين شركات تختلف جنسيتها وتبعيتها باختلاف مناطق النفوذ الاستعمارى فى ذلك الجزء من الوطن العربى ،وتبعالهذه المناورات أصبح من المفهوم أن انجلترا تختص بجنـوب العراق ، وفرنسا تختص بسوريا ولبنان ، وألمانيا بشمال العراق والأناضول .

وقامت الحرب العالمية الأولى فاتهزتها الدول الاستعمارية لتحقيق هذا المخطط الاستعمارى • فما كادت الحرب تبدأ حتى أرسلت انجلترا جيشا استولى على البصرة ، ثم اتجه شمالا حتى احتل كل العراق • وبعد الحرب طالب العرب بانهاء الاحتلال البريطانى للعراق ، ولكن الدول الاستعمارية اجتمعت فى ابريل سنة ١٩٢٠ وقسمت الشام والعراق فيما بينها على أساس ما عرف « بالانتداب » ، وتقرر وضع العراق تحت الانتداب البريطانى •

بلاد الشام (١٩١٥ – ١٩٢٠) :

لم تفتر أطماع فرنسا فى بلاد الشام منذ الحروب الصليبية ، وان كانت أطماعها تركزت على الجهات الساحلية فى لبنان وسوريا • ولذلك ظلت تعمل على زيادة نفوذها عن طريق المعاهدات مع السلطان العثمانى من جهة ، وعن طريق ارسالياتها التبشيرية من جهة أخرى • ولم يخل الأمر من التنافس بين انجلترا وفرنسا • وقد اتخذ هذا التنافس طريقا خطيرا فى جبل لبنان حيث أخذت الدولتان الاستعماريتان تشجعان الصراع بين العصبيات الطائفية •

فالانجليز أخذوا يتقربون من الدروز ويمدونهم بالأسلحة ، والفرنسيون أخذوا يتقربون من الموارنة ويمدونهم بالأسلحة،كما أخذ عملاء الدولتين يوقعون الخلاف ويثيرون الفتن بين الطائفتين ، حتى انتهى الأمر الى مذابح سنة ١٨٦٠ م بين الفريقين • وهنا قام نابليون الثالث مدعيا أن من حق فرنسا أن تقوم باخماد هذه الفتن • وفعلا أرسلت فرنسا حملة الى لبنان بموافقة الدول واحتلتها ، ولكن الاحتلال لم يدم طويلا •

وظلت فرنسا الى قبيل الحرب العالمية الأولى تدعم مركزها فى سوريا ولبنان عن طريق التغلغل الثقافى والنشاط الاقتصادى ، حتى سلمت لها الدول بمصالحها فى القطرين • وفى أثناء الحرب أرادت انجلترا أن تبسط نفوذها على الشرق العربى فبحثت عن بعض طلاب العروش وذوى الأطماع وعثرت على الحسين بن على أمير مكة ، وأخذت تفاوضه (١٩١٥ – ١٩١٦) فى شأن مساعدته على اقامة دولة عربية يكون له عرشها • وفى أثناء هذه المفاوضات اعترفت انجلترا بمصالح فرنسا فى سوريا ولبنان ، كما أكدت مصالحها فى العراق • وعارض الحسين ، ولكن تلهفه على العرش جعله لا يحرص على أخذ الضمانات الكافية من الانجليز ضد هذه الأطماع •

وفى الوقت الذى كانت انجلترا تفاوض فيه العـرب على أساس تحريرهم من الاستعمار العثمانى واقامة دولة عربية لهم ، فى نظير مساعدتهم لهـا ضـد تركيا ، كانت هذه الدولة الاستعمارية تفاوض فرنسا فى اقتسـام أملاك الدولة العثمانية ومنها الوطن العربى • وعقدت معاهـدة سايكس بيكو (١٩١٦) بين الدولتين ، وفيها تقرر أن تسـتولى فرنسـا على بلاد الشام ومنطقة الموصـل فى العراق ، وانجلترا على جنوب العـراق الى شمالى بغداد ، وعلى شرقى نهر الأردن ، وثغرى حيفا وعكا ، وأن تقام ادارة دولية فى فلسـطين حتى لا تنفرد دولة بالاستيلاء على الأراضى المقدسة • وهكذا وضع أساس تحطيم وحدة بلاد الشـام •

وأمعنت انجلترا فى الغدر والنفـاق فأخذت تفاوض الصهيونيين وقدمت لهم وعدا غامضا بمساعدتهم على اغتصاب فلسطين ليقيموا فيها دولة لهم ، وذلك هو وعد بلفور (نوفمبر ١٩١٧) • وبذلك تضمن انجلترا تأييد اليهود لاحتلالها فلسطين كدرع تحمى منه مصالحها فى قنـاة السويس ، وتلغى قرار تـدويل فلسطين الوارد فى معـاهدة سايكس ــ بيكو • وثار العـرب ضد هذا الوعد ولكن الحسين بن على فضل طريق الغفلة للمرة الثانية أو الثالثـة ، وصـدق تأكيد انجلترا بأن مصالح العرب لن تضار ، وذهب فى تأييد بريطانيا الى النهاية •

واضطرت انجلترا وفرنسا تحت ضغط الرأى العـام العربى أن تصـدرا تصريحا مشـتركا فى نوفمبر سـنة ١٩١٨ أى قبل انتهاء الحرب بأيام أكدتا فيه أن هدفهما هو تحرير الشعوب العربية من الاستعمار التركى ، واقامة حكومات وطنية يختارها الأهلون بمحض ارادتهم •

وذهب العرب الى مؤتمر الصـلح عقب انتهاء الحرب ، وأخذوا يناضلون ضد كل تلك الاتفاقيات الدولية الاستعمارية وضد تقسيم بلاد الشام واجتمع المجلس الوطنى أو المؤتمر السورى العام فى دمشق ، وقرر بطلان كل اتفاق سابق على تقسيم بلاد الشام أو احتلال جزء من الوطن العربى وأعلنوا قيام دولة مستقلة تشمل كل بلاد الشام ــ سوريا ولبنان وفلسطين كما أعلنوا استقلال العراق ؛ كل ذلك وجيوش الحلفاء تحتل كل هذه البلاد •

وفى نفس الأثناء كان ممثلو انجلترا وفرنسـا يجتمعـون فى سـان ريمو

ويقـــررون (ابريل سنة ١٩٢٠) فرض الانتـــداب الانجليزى على العـــراق ، وتقسيم بلاد الشـــام الى قسمين : سورية وفلسطين : وتوضع فلســـطين تحت الانتداب الانجليزى ، وسورية تحت الانتداب الفرنسى • وتقـــدم الجيش الفرنسى فاحتل دمشـــق عقب موقعـــة ميسلون المشـــهورة (يوليـــة ١٩٢٠) ، وقبضت بريطانيا على زمام الحكم فى فلسطين ، وأخـــذت تعمـــل على تنفيـــذ وعد بلفور من البداية • وهكذا قسم الاستعمار بلاد الشـــام الى قســـمين مع أنه دولة واحـــدة على طول تاريخـــه •

ولم تكتف الدولتان الاستعماريتان بهـــذا التقسيم فقد أرادتا اضـــعاف القطر السورى الى أقصى حد لمـــا رأوه من اصراره على مقـــاومة الانتداب • أما فرنسا فقد أخذت تمزق وحدة سورية ، فأقامت دولة لبنـــان بعد أن ضـــموا الى جبل لبنان بيروت وبعض المناطق السورية كطرابلس وســـهل البقـــاع • وفصلوا منطقة العلويين ـــ وقاعدتها اللاذقيـــة ـــ وجعلوها دولة قائمة بذاتها (١٩٢١) • وفصلوا جبل الدروز وجعلوا منه دولة • وذهبوا فى تفتيت القطر السورى الى أبعد مدى فقســـموا ما بقى منه الى دولتين : دولة دمشق ، ودولة حلب • ثم تحت ضغط هياج الرأى العـــام ، ولما رأوه من ضـــياع الاقتصاد السورى بهذا التفتيت ، عادوا فاكتفـــوا بتقسيم القطر الســـورى الى قسمين كبيرين : دولة ســـورية ، ودولة لبنـــان •

أما انجلترا فلكى تتمـــكن من تنفيـــذ وعد بلفور وتضـــعف فلسطين ، فانها أتت بأحد طلاب العروش وهـــو عبد الله بن الحسين فنصـــبته أميرا على شرق الأردن بعد أن اقتطعته من فلســـطين ، على أن يكون أميرا صـــوريا تحت الانتداب البريطانى • وقبل عبد الله وأخذ هذا العرش الصغير من يد الانجليز ، وســـكت عن معارضـــة الانتـــداب •

وهكذا انقسمت بلاد الشـــام الى أربعة أقسام وأربع دول ، بعد أن كانت دولة واحـــدة ـــ انفصـــلت الأقســـام الأربعة فما يجمـــع بينهما الا مصـــيبة الاســـــتعمار •

ولم يقف الأمر عند هـــذا الحـــد ، بل ان فرنســـا اقتطعت من سورية لواء الاسكندرونة وتنازلت عنه لتركيـــا ، وهو جزء من صميم بلاد الشام • وبذلك

خالفت فرنسا وثيقة الانتداب وهى تقضى بأن الدولة المنتدبة لا يحق لهـا أن تتنازل عن أى جزء من أراضى البلاد التى ندبت لادارتها .

وتبع هذا التقسيم بقية أساليب الاستعمار فى حكم البلاد . فوضعت فرنسا يدها على جميع الادارات والمصالح ووضعت فيهـا الموظفين الفرنسـيين بدلا من الوطنيين . وأدار هؤلاء الفرنسيون مصالحهم على أساس الفساد والرشوة وفساد الذمة . وأدير الاقتصاد السورى لصـالح فرنسا ، فربط بالاقتصـاد الفرنسى ، وربطت العملة السـورية بالفرنك الفرنسى ، وملأت فرنسـا البلاد بالمدارس الفرنسية ، وغمرتها بالارساليات التبشيرية . واصطفت لها بطانة من العملاء على حين شردت الوطنيين من أهل البلاد .

وهذا الذى حدث فى بلاد الشام على يد الاسـتعمار نموذج لمـا حدث فى كل مكان ولذلك اكتفيا بهذا المثال .

* * *

وهكذا وقع الوطن العربى بجميع أجزائه ، ووقعت الأمة العربيـة بكافة شعوبها فى قبضة الاستعمار فى مدى نصف قرن تقريبا . لتبدأ مرحلة جـديدة شاقة هى مرحلة تصفية ذلك الاستعمار .

تصفية الاستعمار فى الوطن العربى

منذ بسط الاستعمار نفوذه على الوطن العربى ، لم تستكن شعوب الأمة العربية لحظة لهذا الاستعمار . بل اتصلت مقاومتها له وحربها ضـده بـكافة الأساليب . بحيث نستطيع أن نقول ان حياة الاستعمار فى الوطن العربى كانت حياة كفاح مستمر . انتصر الاستعمار فيها الى حين ــ الى سـنة ١٩٤٥ ، ثم انهزم على طول الخط بعـد الحـرب العالمية الثانية فترنح ، ثم عاجلته ثورة ٢٣ يولية سـنة ١٩٥٢ فى مصر فقضت عليـه ونجحت فى تصـفيته فى الوطن العربى ، وكانت من عوامل تصفيته فى جميع أنحاء العالم .

فمنذ احتلت الدول الاستعمارية أقطار الوطن العربى فى النصـف الثـانى من القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين ، أخـذت تجرب كل الحيل الاستعمارية فى السيطرة على هذه الأقطار ، وأحـدثت فى الوطن كل

ما يمكن تصوره من النتائج . وقد مر بك نموذج عند كلامنا عن الاستعمار فى بلاد الشام . واليك نتائج الاستعمار فى الوطن العربى :

١ ـ قطع الاستعمار أوصال الوطن العربى ، فقسمه الى أقطار منفصلة متجزئة ، لا يكاد يعرف كل منها الآخر ، وفرض بينها الحواجز المصطنعة والحدود المفتعلة ، ووضع الحواجز الجمركية ، وقيد حرية الانتقال . أى أنه صنع من الوطن جملة أوطان .

٢ ـ وقطع الاستعمار أوصال كل قطر من أقطار الوطن العربى . ففصل الدولة المصرية السودانية واحتل كلا منهما على حدة . وقسم الشام الى أربعة أقطار منفصلة .

٣ ـ وسرح الاستعمار الجيوش العربية كلها ، سرحت انجلترا الجيش المصرى عقب الانتصار على أحمد عرابى . وسرحت فرنسا الجيش التونسى ، وحلت الجيش السورى . وأصبح العرب بلا جيش ، وحرموا حق الدفاع عن وطنهم كما حرموا شرف هذا الدفاع . وحلت محل هذه الجيوش العربية جيوش الاحتلال ، تقمع المواطنين وتقضى على الحركات الوطنية .

٤ ـ واستغل الاستعمار الاقتصاد العربى أسوأ استغلال ، فحصره فى دائرة انتاج المواد الخام وتصديرها الى الدول الاستعمارية ، بأزهد الأثمان . وقضى على الصناعة فى كل مكان من الوطن العربى . ووضع التجارة والنقل وكل عملية اقتصادية رابحة فى أيدى الأجانب .

٥ ـ وأشاع الاستعمار نظام الاقطاع فى أنحاء الوطن العربى ، فخلق طبقة من المنتفعين به يدافعون عنه وينشرون روح الهزيمة بين العرب .

٦ ـ وقضى الاستعمار على الحركة العلمية فى البلاد ، فمنع العرب من مسايرة ركب التقدم العلمى الحديث ، وأبعدهم عن علوم الهندسة والصناعة والاختراع ، وقاوم التعليم الجيد فى كل مكان ، وانحصر التعليم حيث ساد الاستعمار الانجليزى فى دائرة الثقافة القديمة ، الدينية واللغوية ، وفرضت على العرب الثقافة الأوربية حيث ساد الاستعمار الفرنسى حتى كاد بعض العرب ينسون لغتهم .

٧ ـ وألهى الاستعمار العرب عن مقاومته بادخال بعض النظم الديمقراطية

أو التى سماها كذلك ــ وكان من أهمها اختلاق الأحزاب السياسية التى انشغلت بتناحرها واقتسام عامة الشعب بينها وتعبئتهم لمحاربة بعضهم البعض ، عن مقاومة الاستعمار .

٨ ــ وخلق الاستعمار له بعض العملاء فى كل وطن عربى . اما على شكل أسر طائفية فى عروش صورية كالأسرة الهاشمية فى الأردن ، أو على شكل منتفعين فى المجال الاقتصادى من الاقطاعيين وكبار الرأسماليين (وقد نشرت الصحف أسماء كثير من هؤلاء عقب اعلان القوانين الاشتراكية فى يوليه ١٩٦١) ، أو على شكل مثقفين ملأ أدمغتهم الخاوية باحترام الثقافة الاستعمارية واحتقار الثقافة العربية الأصلية ، وما أكثر هؤلاء فى تونس والمغرب بوجه خاص ، ووجد فى مصر طائفة منهم أنكرت الثقافة العربية كاسماعيل مظهر وسلامة موسى ، أو نشرت راية الالحاد مثل غيرهما حينا من الدهر ثم استفاقوا وعاد معظمهم الى حظيرة العروبة والاسلام .

٩ ــ وأثار الاستعمار النعرات القبلية والطائفية ، وأقام كلا منها تحارب الأخرى ، كما حاول بين الدروز والموارنة فى لبنان ، وبين العرب والبربر فى المغرب ، وبين سودان الشمال وسودان الجنوب فى السودان ، وبين الأقباط والمسلمين فى مصر . ولكنه فشل فى هذا الأسلوب فشلا ذريعا فى الوطن العربى بفضل وحدة الأمة العربية الأصيلة .

وباختصار خلق الاستعمار من الوطن العربى وطنا فقيرا ، ومن الأمة العربية أمة متخلفة ضمانا لمصالحه فى هذا الجزء الهام من العالم . ولكن هل استكان العرب ؟

ان حيل الاستعمار واغراءاته لم تنفع الا فى عدد قليل نسبيا من الطامعين والرجعيين والمنتفعين والعملاء والمثقفين ، ولكن عامة المواطنين العرب حمتهم من هذه الحيل فطرهم السليمة وعروبتهم الأصيلة ووعيهم القوى . فوقفوا بالمرصاد للاستعمار ، يقاومونه ويحاربونه ويردون كيده . وتتبين أصالة الأمة العربية من أن هذا النضال استمر عشرات السنين لم يضعف ولم يفتر ، حتى انتصرت الأمة العربية وأزاحت كابوس الاستعمار فى آخر الأمر .

وظهر فى الأمة العربية زعماء وقادة نجحوا فى ابقاء شعلة الوطنية متقدة على

طول السنين . ظهر مفكرون كالشيخ محمد عبده وخير الدين باشا وعبد الرحمن الكواكبى . وظهر ساسة كسعد زغلول ومصطفى كامل ، وظهر قواد كأحمد عرابى ويوسف العظمة ، وظهر كتاب مثل على يوسف وأحمد لطفى السيد وأمين الرافعى .

وانتشرت روح القومية ومعانى الوطنية مع انتشار التعليم ونشاط الصناعة وتقدم وسائل المواصلات ونمو الصحافة الحرة ، ونهضة التمثيل والموسيقى والغناء .

وأخيرا ظهر رائد القومية العربية الرئيس جمال عبد الناصر ، فكشف أساليب الاستعمار وعبأ الأفكار والمشاعر ضده فى كل مكان . وقاد الطريق وضرب المثل ، وأوضح طرق العمل ، وقدم المساعدة لكل شعب عربى ، وكانت نهاية الاستعمار .

وقصة مقاومة الاستعمار فى الوطن العربى طويلة ، لأنها تمتد على طول ما امتد الاستعمار نفسه ، وما زالت الى الآن .

وبعد انتهاء الحرب الثانية أخذت حركات مقاومة الاستعمار تتبلور فى الوطن العربى ، وكانت الظروف العالمية مهيأة فقد خرجت منها الدول الاستعمارية ضعيفة منهارة ذليلة ، ولم يكن من الممكن أن تبقى على سياستها القديمة . وكانت منظمة الأمم المتحدة قد قامت ووقفت فى كثير من المناسبات ضد الاستعمار .

فبعد الحرب العالمية الثانية حاولت فرنسا أن تبقى سوريا ولبنان ضمن دائرة نفوذها ، فأعلن العرب السوريون واللبنانيون الثورة ، وقابلتها فرنسا بالعنف وأطلقت مدافعها على دمشق وحمص وحماه ، وأخيرا اضطرت الى الاعتراف باستقلالهما فى سنة ١٩٤٦ ، وانتهى الاستعمار الفرنسى هناك .

أما ليبيا فقد تحررت من الاستعمار الايطالى بعد هزيمة ايطاليا فى الحرب العالمية الثانية فى سنة ١٩٤٣ ، وقسمت الى مناطق نفوذ ثلاث : برقة وطرابلس – ووضعت تحت الحكم العسكرى البريطانى – وفزان ووضعت تحت الحكم الفرنسى ، وأعطيت لأمريكا بعض القواعد الجوية فى طرابلس . وطالب الليبيون بالاستقلال ولكن الدول الاستعمارية تلكأت ، وأخيرا أصدرت الأمم المتحدة

قرارا بأن تكون ليبيا بأقسامها الثلاثة دولة مستقلة واحدة على أن يتم ذلك فى أول يناير سنة ١٩٥٢ ، وتم ذلك بالفعل . وان كانت انجلترا وأمريكا لا تزالان تحتفظان ببعض القواعد العسكرية فيها .

وفى سنة ١٩٤٦ اجتمع مؤتمر وطنى فى تونس وقرر عزم الشعب على الحصول على استقلال تونس . وقاومت فرنسا ، وحاولت أن تثنى التونسيين عن عزمهم فقامت ببعض الاصلاحات ، ولكن تونس تقدمت بشكوى لمجلس الأمن ، وأخيرا سلمت فرنسا باستقلال تونس فى يونية سنة ١٩٥٥ .

وأصرت فرنسا على التمسك بمعاهدة الحماية فى المغرب . واندلعت الثورة وأخمدتها فرنسا بوحشية زائدة فى سنة ١٩٤٧ ، وحاولت فرنسا أن تهدىء من ثائرة المغاربة فقامت ببعض الاصطلاحات المسمومة فقد قررت انشاء مجلس شورى نصف أعضائه من المغاربة ونصفهم من الفرنسيين . وتجددت المقاومة من جديد ، وعرضت القضية على الأمم المتحدة فى سنة ١٩٥٢ ، وركبت فرنسا حماقتها فنفت الملك محمد الخامس ، ولكن الثورة لم تهدأ وأخيرا وقعت فرنسا معاهدة استقلال المغرب فى سنة ١٩٥٥ .

أما السودان فقد كانت بريطانيا قد استقلت بادارته منذ سنة ١٩٢٤ ، ثم عاد الحكم الثنائى بمقتضى معاهدة سنة ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا . فلما قامت ثورة ١٩٥٢ ، وكانت سياستها اجلاء الانجليز عن وادى النيل كله ، توصلت الى عقد اتفاقية السودان مع بريطانيا فى فبراير سنة ١٩٥٢ ، وفيها منح السودان فترة انتقال مدتها ثلاث سنوات يحكم فى خلالها حكما ذاتيا ثم يستقل . وقد انتهى ذلك باعلان استقلال السودان فى يناير سنة ١٩٥٦ .

ولم يكن لمصر أمل فى الاستقلال على نحو ما كان عليه الحال قبل قيام ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ . فعلى الرغم من المقاومة العنيفة التى قام بها الشعب المصرى ، كانت انجلترا تجد دائما من اختلاف الأحزاب السياسية وتنافسها ذريعة تمكنها من المماطلة فى الجلاء . حتى قامت ثورة ١٩٥٢ ، وألغت الأحزاب السياسية واتحدت الأمة تحت زعامة الرئيس جمال عبد الناصر ، فيئست انجلترا ووقعت اتفاقية الجلاء فى أكتوبر سنة ١٩٥٤ . وتم الجلاء فعلا فى يونية سنة ١٩٥٦ ،

ولكن الدولتان الاستعماريتان ما لبثتا أن تذرعتا بتأميم شركة قناة السويس ، فعاودتا الكرة وحاولتا غزو مصر بالاشتراك مع شراذم الصهيونية المحتلين لفلسطين . وصمد الجيش مع الشعب وحميت المقاومة ، وقام العرب فى كل مكان يسهمون فى هذه المقاومة فتعطل تدفق البترول وتعطلت مصانع أوربا ، وارتد المعتدون على أعقابهم .

والعراق تنازلت انجلترا عن احتلاله فى سنة ١٩٥٥ فى نظير انضمامه الى حلف بغداد وبذلك كان استقلال العراق منقوصا الى أن قامت ثورة ١٤ يوليه سنة ١٩٥٨ وانسحبت العراق من حلف بغداد .

وفى الجزائر اندلعت ثورة التحرير فى سنة ١٩٥٤ وبقى الجزائريون الأحرار يناضلون سبع سنوات حتى يئست فرنسا ووقعت اتفاقية ايفيان فى مارس سنة ١٩٦٢ ، واعترفت باستقلال الجزائر .

وهكذا انهار الاستعمار وصفى فى الوطن العربى . ولم يبق من ذيوله الا الاستعمار الانجليزى للجنوب العربى ، واستعمار العصابات الصهيونية لجزء من فلسطين ، واستعمار تركيا للواء اسكندرونة ، وكلها فى طريق التحرير أمام اصرار العرب على تصفية الاستعمار نهائيا ، والمعركة ما زالت قائمة تتزعمها الجمهورية العربية المتحدة بزعامة الرئيس جمال عبد الناصر ، الذى يعمل على تصفية الاستعمار فى كل مكان .

درس الاستعمار

هذا هو تاريخ الأمة العربية مع الاستعمار ، ولا بد من أن نخرج بدرس من هذا التاريخ ، فما هو مغزاه ؟

١ـ ان الاستعمار انتصر بسبب التقدم العلمى والتكنولوجى والتفوق الثقافى والحضارى ، يقابل هذا التقدم تخلف الدول التى غلبها الاستعمار على أمرها فى النواحى العلمية والحضارية والتكنولوجية ، ويوم تلحق الشعوب العربية بركب هذا التقدم لا يمكن أن يهددها الاستعمار .

٢ – ان الاستعمار فى العالم العـربى لم يكن ظاهرة قائمة بذاتها ، وانمـا كان جزءا من حركة كبيرة ، بدأت بالاستيلاء على ما يحيط بالوطن العربى من الأقطار العربية • ومعنى هذا أن الاستعمار وحدة ، ووجوده فى أى مكان هو خطر على الأماكن الأخرى ، ولذلك لا نسـتطيع أن نقنع بطـرد الاسـتعمار من جمهوريتنا ما دام موجودا فى أى بلد آخر ، لأن مصالحه متصلة • ولذلك فالسياسة المثلى هى تصفية الاستعمار فى كل مكان على ظهر الأرض ، ليسـلم كل مكان على ظهـر الأرض •

٣ – ان الاستعمار سـياسة عامة فهو لا يتجـزأ الى اسـتعمار انجليزى وآخر ايطالى وثالث فرنسى • وقد رأينا تحالف الدول المتعادية بطبيعتهـا فى ميدان النشاط الاستعمارى • وأغراضه واحـدة ونتائجه واحدة كذلك • وكل ذلك لأن فلسـفته واحدة وأيديولوجيته واحـدة •

٤ – ان الاسـتعمار وان كان خطرا فى حد ذاته وبطبيعة أسـاليبه ، الا أن العوامل الداخلية فى الأقطار التى تبتلى به قد تكون أهم من عوامل القوة فيه ، فالضعف الداخلى فى الأمم المتخلفة أقوى أثرا من قوة الأمم الاسـتعمارية ، وبعبارة أخرى أن ضعف الأمم الضعيفة هو أقوى نقط القوة فى الأمم المعتدية •

٥ – ان تفكك الوطن العـربى واهتزاز وحـدته كان من أهـم العـوامل التى مكنت للاستعمار فيه فى جميع أدوار الاستعمار •

٦ – ان الاسـتعمار كان دائمـا يعتمـد على الرجعيـة وعلى العمـلاء فى تثبيت مراكزه فى البـلاد المعتـدى عليهـا •

٧ – ان الأحزاب السـياسية والتنافس على الحكم كان من أهم وسـائل الاستعمار فى احكام السـيطرة على الوطن العربى •

٨ – ان خير وسـيلة للتخلص من الاستعمار هى الأخذ بأضـداد هـذه الحالات كلها • فالتقدم العلمى والتكنولوجى ، والوحدة العربيـة ، والقضـاء على الأحزاب السياسية لتحقيق الوحدة القومية ، والقضـاء عـلى الرجعـيين والعملاء وطلاب العروش – كلهـا من وسـائل التغلب على الاسـتعمار ودفـع خطـره •

وأما النموذج الذى تتضح فيه هذه الحقائق ، هذ النموذج هو الجمهورية العربية المتحدة ، وهذه هى سـياستها ، ومن أجل هذا انتصرت فى كل معارك الاستعمار على اختلاف أساليبه انتصرت على الاحتلال العسـكرى ، وعلى الاعتداء المسلح ، وعلى الحصار الاقتصادى ، وعلى احتـكار السـلاح ، وعلى الضغط الدبلوماسى ، وعلى ما نعلم ومالا نعلم من أساليب الاسـتعمار • كـل ذلك بفضل ما انتجته من سـياسة رشيدة تقوم على التقـدم العلمى ، والقـوة المادية ، والوحدة الوطنية ، ومواجهة قراصـنة الاسـتعمار وجهـا لوجه دون تهيب وكشف مؤامراتهم وألاعيبهم للنـاس •

الفصل السابع

خلاصة عن الصهيونية

الصهيونية ذنب من اذناب الاستعمار :

تعلقت أطماع اليهود بالعودة الى فلسطين منذ زمن بعيد على أنها « أرض الميعاد » . ونمت الحركة الصهيونية التى تبنت هذه الغاية فى القرن التاسع عشر ، وتزعمها تيودور هرتزل صاحب كتاب « دولة اليهود » (١٨٩٦) ومع ذلك فقد فشل اليهود والصهيونيون فى تحقيق غرضهم بكل الوسائل ، بل انهم حتى أخفقوا فى مجرد الحصول على اذن من الدولة العثمانية بهجرة اليهود الى فلسطين .

حتى سنة ١٩١٧ لم يكن الصهيونيون قد أحرزوا أى تقدم نحو تحقيق هدفهم . فقد كانوا اذ ذاك أقلية ضئيلة فى فلسطين ، ليس لهم أى نفوذ سياسى . ومع ذلك فقد كانوا يتمتعون فى فلسطين بكامل حريتهم على قدم المساواة مع المسلمين والمسيحيين على حين كانوا يلقون فى أوربا أنواعا شتى من الاضطهاد .

وبقى الفشل يحالف الأطماع الصهيونية فى فلسطين حتى التقت مقاصد الاستعمار الغربى بمقاصد الصهيونيين فبدأوا بفضل هذا التآمر يحرزون النجاح فى تنفيذ خططهم حتى تمكنوا فى النهاية من اقامة دولتهم على جزء من أرض فلسطين .

وعندما قامت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) كانت انجلترا وفرنسا تحتل أجزاء كبيرة من الوطن العربى (مصر والسودان وأطراف الجزيرة العربية وشمال افريقية) وانتهزتا فرصة دخول تركيا ضدهما فى تلك الحرب لتثبيت أقدامهما فى هذه الأجزاء واحتلال مزيد من الأرض العربية . هذا على حين أخذ العرب يطالبون بالاستقلال عن تركيا وعن الدولتين الاستعماريتين ،

مما جعـل انجلترا بالذات تفكر فى وسيلة تستطيع بها أن تحتفظ بقاعدة هامة لها فى الوطن العربى فيما لو نجح العرب فى تحقيــق استقلالهم . وهكذا فكرت انجلترا فى استغلال الأطماع الصهيونية فى فلسطين لتحقيــق هـذا الغرض . وفكر الصهيونيون فى استغلال هذه الأطماع الاستعمارية فضغطوا على انجلترا لتســاعدهم على اقامــة وطن يهودى فى فلســطين ، وهكذا التقت مقاصــد الاستعمار مع مقاصد الصهيونية .

وفى الوقت الذى كانت انجلترا قد وعــدت العرب بزعامة الشريف حســين بأن تحقق لهم الاستقلال والوحــدة اذا انتصرت فى الحرب ارضاء لهم وضمانا لمساعدتهم لهــا فى الحرب ضــد تركيا ، كانت تفاوض فرنســا فى شأن تقسيم الوطن العربى بينهما بمقتضى مشروع اتفاق سايكس بيكو (١٩١٦) تحقيقــا لأطماعها الاستعمارية ، وكانت أيضا تفاوض زعمــاء الصهيونيين وتصــدر لهم وعــد بلفــور (١٩١٧) وتعدهم فيــه بمساعدتهم على انشاء وطن يهودى فى فلسطين ، ضمانا لمساعدتهم لها على احتلال فلسطين وقبــولهم أن تكون دولتهم الموعود بها ركيزة للاستعمار الغربى فى المنطقــة حتى بعد أن يحصــل العــرب على استقلالهم .

وقد بالغت انجلترا وفرنسا فى خــداع العرب والغدر بهم فردتا على قلقهم بسبب وعد بلفور واحتجاجهم على اصــداره بأن أصدرت انجلترا فى ســنة ١٩١٨ بيانا أكدت فيــه سابق تعهداتها للعرب وعزمهــا على تحقيق الســيادة والاستقلال التام لهم . كما أصدرت انجلترا وفرنسا بعد ذلك فى نفس السنة وقبيل انتهاء الحرب تصريحا مشتركا أعلنا فيه عزمهما على العمــل على تحقيق الحرية والاستقلال لكافة الشعوب الواقعة تحت الاستعمار العثمانى ، واقامة حكومات وطنيــة يرضى عنها المحــكومين فى تلك البــلاد . ولم تكن هــذه التصريحات الا مبالغة فى النفاق اخفاء للنــوايا الحقيقية للدولتين الاستعماريتين .

اثر الاستعمار فى قيام الدولة الصهيونية :

وضعت فلسطين فى أثناء الحرب العالميــة الأولى تحت الحــكم العسكرى البريطانى ، ثم استبدلت بالادارة العسكرية ادارة مدنية يرأسها مندوب ســام بريطانى ، وأختير لشغل هــذه الوظيفة رجل انجليزى يهودى ليخلص فى تنفيذ

المخطط الاستعمارى الصهيونى فى فلسطين • ثم فى أبريل ١٩٢٠ وضعت فلسطين تحت الانتداب الانجليزى وأضيف الى وثيقة الانتداب عبارة تجعل انجلترا ملتزمة بتنفيذ وعد بلفور •

وقامت سياسة ادارة الانتداب البريطانية فى فلسطين على أساس أمرين كانا وسيلتها الى تنفيذ وعد بلفور وهما :

(ا) تشجيع هجرة اليهود الى فلسطين دون حدود أو قيود أو مراعاة لمصالح العرب أو تقدير لسعة البلاد وقدرتها على الاستيعاب •

(ب) تشجيع انتقال الأراضى من ملكية العرب الى ملكية اليهود بكافة الوسائل كالقرض والرهن والشراء واقامة المستعمرات •

وبهاتين الوسيلتين تم لليهود فى المدة من ١٩٢٠ الى ١٩٤٨ تحويل فلسطين الى بلد غالبية أهلة من اليهود مع ما يستتبعه هذا من تغير فى مركز الثقل والقوة فى البلاد •

ثم سمحت الادارة البريطانية بانشاء « الوكالة اليهودية » التى كانت بمثابة دولة صهيونية داخل فلسطين • وقد عملت هذه الدولة على تشجيع هجرة اليهود الى فلسطين وتنظيم شئونهم المدنية كانشاء المدارس والجامعات اليهودية ، وانشاء تشكيلات عسكرية ارهابية كانت نواة الجيش الاسرائيلى فى المستقبل • وكانت الحكومة البريطانية تشجع هذه الدولة وتمدها بالسلاح وتستشيرها فى كل ما يخص اليهود •

وفى الوقت نفسه قمعت الادارة البريطانية كل الثورات التى قام بها عرب فلسطين ضد تغلغل اليهود فى فلسطين ، أو ساعدت العصابات الصهيونية الارهابية على قمعها والتنكيل بالعرب • حدث هذا فى ثورات ١٩٢٠ و ١٩٢٩ و ١٩٣٦ و ١٩٣٩ حتى لقد قبضت على زعماء العرب ونفتهم الى جزيرة سيشل•

ولم تنفذ الادارة البريطانية شيئا من قرارات لجان التحقيق المتتالية التى كان كثير منها فى مصلحة العرب كتحديد هجرة اليهود وتقييد شرائهم للأراضى ، على حين تحمست لاقتراح لجنة ١٩٣٧ بانشاء دولة يهودية فى جزء من فلسطين واستخدمت الضغط السياسى حتى وافق مجلس عصبة الأمم على هذا الاقتراح وكان هذا أول اعتراف رسمى باقامة دولة يهودية •

وقد زاد التعاون بين الاستعمار والصهيونية فى أثناء الحرب العالمية الثانية فمن جهة سمحت الادارة البريطانية بانشاء كتائب عسكرية صهيونية فى فلسطين وزودتها بالسلاح والتدريب وأشركتها فى العمليات الحربية تمرينا لها وتدريبا حتى أصبح للصهيونيين جيش منظم مسلح استخدموه فيما بعد فى اقامة دولتهم بالقوة • ومن جهة أخرى انضمت الولايات المتحدة تحت ضغط اليهود الأمريكيين الى انجلترا فى مساعدة الصهيونيين ، فتحمس روزفلت لقضيتهم ، كما تحمس ترومان الى درجة أنه ضغط على انجلترا بأن تسمح بهجرة مائة ألف يهودى دفعة واحدة حلا لمشكلة اليهود المشردين فى أوربا وبذلك يصبح اليهود أغلبية فى فلسطين •

بعد الحرب العالمية الثانية دخلت أمريكا صراحة وبكل ثقلها فى مصلحة الصهيونيين •

(ا) قررت لجنة التحقيق الانجليزية الأمريكية المشتركة (١٩٤٦) فتح باب فلسطين لهجرة كل راغب من اليهود دون قيد أو شرط ، وأعادت التوصية بما كان اقترحه ترومان من قبل — بهجرة مائة ألف يهودى فورا ، وأوصت برفع أى حظر على انتقال الأراضى من العرب الى اليهود •

(ب) لم تحاول الادارة البريطانية بايعاز من الولايات المتحدة قمع الحركات الارهابية الاجرامية التى قام بها الصهيونيون (١٩٤٥ — ١٩٤٦) وقد تضمنت نسف السكك الحديدية وتدمير الجسور وبث الألغام والاعتداء على العرب بالقتل والذبح ، بل والاعتداء على البريطانيين أنفسهم •

(جـ) استخدمت الولايات المتحدة نفوذها فى الأمم المتحدة عند عرض القضية عليها (أبريل ومايو ١٩٤٧) فصدر قرار من الهيئة بتقسيم فلسطين واقامة دولة يهودية على جزء منها ، على حين وقفت انجلترا موقفا سلبيا فامتنعت عن التصويت وأصدرت قرارا بانهاء انتدابها على فلسطين فى مايو ١٩٤٨ بعد أن كانت قد استوثقت من قدرة العصابات الصهيونية المسلحة على اقامة دولتهم بالقوة •

ولم يبق من هذا كله الا أن يعلن الصهيونيون قيام دولتهم بعد أن مهدوا لذلك بفظائع ومذابح تجل عن الوصف • وما كادوا يعلنون قيام دولتهم فى فلسطين حتى بادر ترومان رئيس جمهورية الولايات المتحدة بالاعتراف بها •

مسئولية العرب فى قيام الدولة الصهيونية:

١ ـ انخدع بعض الزعماء العرب عن نوايا الاستعمار فمهدوا منذ البداية لقيام المشكلة ، ومن ذلك قبول الشريف حسين وعود مكماهون الغامضة التى لم يرد فيها اسم فلسطين • ومثل قبوله تفسير انجلترا المضلل لاتفاقية سايكس بيكو ومواصلة مساعدتها ضد الأتراك دون ضغط للحصول على نفى قاطع لها • ومثل قبوله تفسير انجلترا المضلل لوعد بلفور ومواصلة مساعدتها حتى بعد صدوره •

٢ ـ عدم وعى عرب فلسطين أنفسهم وقبولهم بيع أراضيهم لليهود فى نظير مغريات كالأثمان الكبيرة دون أن تقوم أجهزة قومية لمقاومة هذه الحركة فى مقابل الأجهزة الصهيونية الجماعية التى أنشئت لشراء أرض العرب •

٣ ـ تفكك العرب ؛ فلم تتفق الدول العربية فى شأن قضية فلسطين ولم تقف صفا • احدا أمام الصهيونية • وانقسام عرب فلسطين الى أحزاب متنافرة •

٤ ـ تخلف العرب عسكريا وعلميا وتكنولوجيا مما هزمهم مدنيا وعسكريا أمام العصابات الصهيونية وعالميا أمام العالم الذى بهره ما استطاعت العصابات الصهيونية أن تأتيه من وجوه التعمير فى بلاد بقيت فى يد العرب مئات السنين دون استغلال ، علاوة على ما أحرزته من انتصارات عسكرية ولا يخفى أن كل ما كسبته الصهيونية انما كان نتيجة لاعتراف العالم بالأمر الواقع لا بالحق •

٥ ـ تخلف العرب سياسيا ودبلوماسيا ففقدوا الرأى العالمى ، وعجزوا عن الضغط على الدول الاستعمارية التى ساعدت الصهيونيين ، على حين نجح اليهود فى ذلك •

٦ ـ انسياق العرب وراء العواطف وعجزهم عن النظرة الواقعية للأمور ومن

ذلك رفضهم للكتاب الأبيض (١٩٣٩) بالرغم مما احتـوى عليه من المزايا كالاعتراف باستقلال فلسـطين بعد عشر سنوات ، والتمهيد لقيام حكم ديمقراطى ، وتحـديد هجرة اليهود ، والحد من تملك اليهود للأراضى الزراعية وغير ذلك .

الصراع مع الصهيونية :

(١) حرب ١٩٤٨ :

لم يكن أمام الدول العربية مناص من التدخل العسـكرى لحمـاية عـرب فلسطين من بطش العصابات الصهيونية ومساعدتهم على تكوين حكومة وطنية.

وقد حققت الجيوش العربية انتصارات كبيرة ؛ فقد تقدمت القوات المصرية من العريش فوصلت الى أسدود على مقربة من تل أبيب كما وصلت الى مشارف القدس . ووصل الجيش العراقى الى طولكرم على مقربة من الساحل . وتقدمت القوات السورية فى الشمال ، واستولى الجيش الأردنى على منطقة غرب الأردن وحاصر القوات الصهيونية فى القدس .

وبالرغم من هـذه الانتصارات الكبيرة فإن العرب لم يكونوا — عسكريا وسياسيا — فى حالة تسمح لهم بالاحتفاظ بهذا النصر بل احراز مزيد منه :

(ا) فقـد كانت الدول العربيـة مهلهلة من الداخـل تحكمها حكومات ارستقراطية عميلة على أساس من الفسـاد والفوضى حتى لقد تاجـر الملك فاروق وبطانته فى مصر فى الأسلحة الفاسدة .

(ب) ولم يكن لدى الحـكومات العربية جيوش قوية ولا مدربة تصـلح لأن تخوض حربا بنجاح كما كانت أسلحتها ناقصة وعتيقة وفاسدة .

(جـ) وكانت الحكومات العربية واقعة تحت النفوذ الغربى خصوصا ضغط الولايات المتحدة التى ما فتئت تمد اليهود بالسلاح والمعونات المالية .

(د) وكانت الدول العربية مفككة متخاذلة تنقصها وحدة الغرض والتماسك ومن أبرز الأمثلة على ذلك أن أمير الأردن وجيشه لم يكونوا يحاربون من أجل تحرير فلسطين بقدر ما كانوا يحاربون لأجل كسب قطعة من فلسطين تنضم الى المارة شرق الأردن .

(هـ) هذا الى جهل بالتيارات الدولية وبدائية فى السياسة وعزلة فى المجال الدولى وانعدام الصلات والصداقات فى المنظمة الدولية .

لهـذا كله ، فبالرغم من الانتصارات ، قبلت الدول العربية قرار وقف اطلاق النار لمدة شهر ، الذى أصدره مجلس الأمن بناء على اقتراح الولايات المتحدة بعد أيام قليلة من بدء القتـال . وقد كانت هذه المدة فاصلة فى نتيجة الحرب اذ تمكن اليهود فى خلالهـا من استقبال أعـداد ضخمة من المهاجرين والمتطوعين وتدريبهم كما تلقوا مقادير كبيرة من الأسلحة الثقيلة مخالفين فى كل هذا شروط القرار . كل هذا والعرب لا يحركون ساكنا ولا يشترون سلاحا ولا يوحدون خططهم ولا ينهون خلافاتهم .

وتجدد القتال ، وبعد عشرة أيام فرضت الهدنة الثانية من مجلس الأمن وكان اليهود قد كسبوا من أراضى فلسطين أضعاف ما كان فى يدهم عنـدما فرضـت الهدنة الأولى . وبالرغم من ذلك فقد خرقت العصابات الصهيونية الهدنة فى كل الجبهات وتحدت مجلس الأمن فى كل القرارات ، فتقدمت بالرغم من الهدنة الى غزة ودخلت سيناء وتوغلت فى الأراضى المصرية . وتقدمت جنوبا فاستولت على النقب ووصلت الى العقبة وأنشأت ميناء ايلات ، وتوغلوا فى شـمال فلسطين ودخلوا الحـدود اللبنانية واستولوا على بعض قرى لبنـان ، وبذلك استطاع اليهود الاستيلاء على كل فلسطين ما عدا قطاع غزة ومنطقة غرب الأردن والقدس القديمة . وفى نفس الوقت كان نحو مليون من أهالى فلسـطين قد فـروا من وطنهم وتركوه لليهود ضعفا وتخاذلا .

(ب) العدوان الثلاثى فى ١٩٥٦ :

كانت اسرائيل مطمئنة الى بعض الدول العربية اما لأنها بعيدة عن حدودها أو لوقوعها تحت نفوذ الدول الموالية لاسرائيل أو لعدم قدرتهـا عسكريا على التصدى لها ، ولكنها كانت تعتقد أن مصر بعـد قيام ثورة ١٩٥٢ هى العقبـة الحقيقة فى طريق أطماعها .

لذلك انتهزت الفرصة عندما تلاقت مقاصد الاستعمار الغربى مع مقاصدها بمناسبة تأميم حكومة الثورة لشركة قناة السويس فى يولية ١٩٥٦ واتفقت على

مؤامرة العدوان مع كل من انجلترا وفرنســا وبدأت القوات الاسرائيلية تهاجم الحدود المصرية •

وأنذرت الدولتان الاستعماريتان كلا من مصر واسرائيل بوقف القتال على أن تقف قوات كل منهما على بعد أميال قليلا من جانبى قناةالسويس ولما رفضت مصر الانذار هاجمت القوات الاستعمارية منطقة القنال لتطويق الجيش المصرى فى سيناء ولكن القيادة المصرية فوتت عليهم هذا الغرض فارتدت وأخلت سيناء حيث تقدم الجيش الاسرائيلى واحتلها •

استمر الفدائيون من رجال الجيش بالاشتراك مع الشعب فى قتال القــوات الاستعمارية فى بورسعيد ، وتدخلت الأمم المتحدة وضغطت الولايات المتحــدة على كل من انجلترا وفرنسا ، وثار العمال المتعطلون فى انجلترا وفرنســا ضد حكومتهما بسبب ما تعرضوا له من التعطل حين قطعت الدول العربية البترول عنهما ، وبذلك فشل الاعتــداء •

(جـ) العدوان الاستعمارى الصهيونى (١٩٦٧) :

لثالث مرة تلتقى أغراض الصهيونية مع مقاصــد الاســتعمار • فللصهيونية مخططاتها التوسعية التى تعبر عنها بعبارة من « النيل الى الفرات » مع برنامج زمنى محسوب ينتهى فى آخر القرن العشرين • وللدول الاستعمارية خصوصا الولايات المتحــدة أغراضها فى القضــاء على الحــركات التقدمية فى المنــاطق الاستراتيجية من العــالم وأهمهــا فى نظرها المنطقة العربيــة حتى يستقيم لهــا ما تريده من السيطرة العالميــة وتطويق الاتحاد السوفيتى من ناحية الجنــوب حيث تقدم الجيش الاسرائيلى واحتلها •

ترتب على هذا الالتقاء تدبير مؤامرة صهيونية استعمارية ــ أمريكية هذه المرة • فأخذت اسرائيل تهدد البلاد العربيــة المجاورة خصوصا سورية لتستدرج الدول العربية الى حرب تعلم تماما أن الولايات المتحدة متضامنة معها فى كسبها فلما هبت الجمهورية العربية المتحدة لتنفيذ التزاماتها بمقتضى اتفاقيات الضمان الجماعى والدفاع المشترك ضغطت الولايات المتحدة على مصر بألا تبدأ باطلاق النار ولم يكن هــذا الا خداعا حتى تستعد اسرائيل وتتم وصــول الأســلحة

الأمريكية والمتطـوعين اليهـا ، ثم تمت المفاجأة العدوانية فى صباح ٥ يونيـة سـنة ١٩٦٧ .

لم تكن اسرائيل وحـدها فى المعركة ، ولكن كان معها قوات جوية ضخمة من الأسطول السادس الأمريكى والقواعد الأمريكية فىقبرص وليبيا ، وكان معها مئات المتطوعين والطيارين والقواد العسكريين ، وكان معها أجهزة تجسس علمية أمريكية من أحدث طراز ، صورت لها المواقع المصرية ، وأبطلت لصالحها عمل أجهزة الدفاع المصرية ونقلت اليها تعليمات القيادة المصرية . وباختصـار كانت الحرب فى واقع الأمر بين الدول العربية بامكانياتها المـادية والعلمية المحـدودة وبين الولايات المتحدة أقوى وأغنى دولة فى العالم ، وهذا حدد مستقبل المعركة بعـد ساعات .

وقد عرضت القضية على مجلس الأمن ثم على الجمعيـة العموميـة للأمم المتحدة فاستخدمت الولايات المتحدة نفوذها ومارست ضغطها على كثير من الدول الأعضاء حتى عجزت المنظمة الدوليـة عن اصـدار قرارات تدين المعتـدين أو توصيات تزيل آثار العدوان .

تريد العصابات الصهيونية أن تنتهز فرصة هـذا الانتصار الرخيص لترغم الدول العربية على الاعتراف بها والتفاوض معها وهو أكبر كسب تريد أن تحصل عليه بالاضافة الى مكاسب أخرى ثانوية كتعديل حدودها أو الحصول على حق مرور سفنها فى خليج العقبة وقناة السويس . وتساعدها الولايات المتحدة فى ذلك كوسيلة للقضاء على الحركات التقدمية فى المنطقة العربية وعلى الأخص ثورة مصر التحررية الاشتراكية حتى يخلو لها الميـدان لتمارس وضع المنطقة كلها فى دائرة نفوذها ، على نحو ما فعلت وتفعل فى أندونيسيا وغانا وفيتنام والكنغو ونيجيريا وان تعددت الوسائل والأساليب .

وأمام وضع الولايات المتحـدة لقواتها وامكانياتها فى خدمة اسرائيل ليس أمام الدول العربية الا :

(ا) التصميم على الكفاح والمقاومة حتى النصر .

(ب) استخدام كل الوسائل الدبلوماسية الممكنة .

(جـ) استخدام كل أسلحة العــرب اساسيا واقتصاديا كالبترول وقنــاة السـويس •

(د) دعم القوة العسكرية العربية •

(هـ) تحقيق الوحــدة العربيــة أو على الأقل وحــدة العمــل العربى لخدمة القضيــة •

وقد تحقق كثير من هذا فى مؤتمر وزراء الخارجية العرب فى الخــرطوم ، ومؤتمر وزراء الاقتصاد والبترول العرب فى بغداد (أغسطس ١٩٦٧) ، ومؤتمر القمة العربى فى الخرطوم (٢٩ أغسطس ــ ٢ سبتمبر ١٩٦٧) ، أو على الأقل وضعت أسس تحقيقه •

لا شك أن التاريخ فى قضيتنا مع الصهيونية يعيد نفسه فما زال أقوى نقط القوى فى أيدى الصهيونيين هــو تفكك العــرب وتخــاذلهم وتخلفهم العلمى والتكنولوجى واهتزاز النظم الديمقراطيــة والشعبية فى كثير من بلادهم وعدم استقرار كثير من نظمهم الداخلية •

مراجع

١ ــ ابن سعيد ، على بن موسى : كتاب المغرب فى حلى المغرب ، ليدن ١٩١٨ .

٢ ــ ابن خلدون ، عبد الرحمن : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ٧ اجزاء القاهرة ١٢٨٤ هـ .
المقدمة ، بيروت ــ ١٩٠٠ .

٣ ــ ابن خلكان ، شمس الدين : وفيات الأعيان وانباء ابناء الزمان . جزءان ، بولاق ١٣٨٣ هـ .

٤ ــ ابن اياس : بدائع الزهور ، ٣ أجزاء ، القاهرة ١٣١٢ هـ

٥ ــ ابن بطوطة ، أبو عبد الله : تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، جزءان ، القاهرة ١٩٣٨ .

٦ ــ ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب .

٧ ــ أبو الفداء ، عماد الدين اسماعيل : كتاب المختصر فى اخبار البشر ، ٤ أجزاء ، المطبعة الحسينية ١٣٢٥ هـ .

٨ ــ ابن الأثير ، على بن احمد : الكامل فى التاريخ ، ١٢ جزءا ، بولاق ١٢٧٤ هـ .

٩ ــ ابراهيم رزقانة : المغرب العربى ، القاهرة ١٩٦١ م .

١٠ ــ ابو الفتوح رضوان وآخرون : تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، القاهرة ١٩٦٣ م .

١١ ــ أبو الفتوح رضوان : « استقلالنا الثقافى » ، مجلة الرائد ، يونيو ١٩٥٩ م .

١٢ ــ أبو الفتوح رضوان : « عبد الرحمن الكواكبى » مجلة مرآة العلوم الاجتماعية ، يناير ١٩٦٠ م .

١٣ ــ أبو الفتوح رضوان : « السياسة العربية لثورة ٢٣ يوليو » ، احاديث فى التوجيه القومى ، وزارة التربية .

١٤ ــ أبو الفتوح رضوان : « العوامل الاجتماعية فى بناء القومية العربية » ، برنامج المدرسين المعارين ، وزارة التربية ، ١٩٦٢ .

١٥ — ابو الفتوح رضوان : « الاشـتراكية العربيـة » ، صحيفة التربية ، يناير ١٩٦٢ .

١٦ — ابو الفتوح رضوان : « وحدة الأمة العربية حقيقة تاريخية » ، مؤتمر المعلمين العرب ، نقابة المعلمين ، ١٩٥٦ .

١٧ — ابو الفتوح رضوان : « وحدة العرب ضرورة فى العالم الحديث» ، مؤتمـر المعلمين العـرب ، نقابة المعلمين ١٩٥٦ .

١٨ — ابو الفتوح رضوان : « العيـد الأول للجمهـورية » ، مجـلة الرائد ، مارس ١٩٥٩ .

١٩ — أبو الفتوح رضوان : تاريخ مطبعة بولاق ، القاهرة ١٩٥٣ .

٢٠ — ابو المحاسن ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . القاهرة ١٩٣٠ — ١٩٤٨ .

٢١ — ابو يوسف يعقوب : كتاب الخراج ، السلفية ١٣٤٦ هـ .

٢٢ — اتفاق الوحدة : ١٧ ابريل ١٩٦٣ ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٣ .

٢٣ — احمد أمين : فجر الاسلام ، القاهرة ، لجنة التاليف ، ١٩٥٥ .

٢٤ — احمد أمين : ضحى الاسـلام ، ثلاثة اجـزاء ، لجنـة التاليف ١٩٤٦ — ١٩٤٩ .

٢٥ — احمد امين : ظهر الاسلام ، اربعـة اجزاء ، النهضـة ١٩٤٥ — ١٩٥٥ .

٢٦ — احمد أمين : « الفتوة فى الاسلام » مجلة كلية الآداب مايو ١٩٤١ .

٢٧ — احمد أمين : « عكاظ والمربد » مجلة كليـة الآداب ، مايو ١٩٣٣ .

٢٨ — احمد أمين : زعمـاء الاصـلاح فى العصر الحـديث ، القاهرة ١٩٤٨ .

٢٩ — احمد السمان : محـاضرات فى اقتصـاديات سـوريا ، القاهرة ١٩٥٥ .

٣٠ — احمد فخرى : اليمن ماضـيها وحاضرهـا ، القـاهرة ١٩٥٥ .

٣١ — أحمد عزت عبدالكريم وآخرون : دراسات فى تاريخ النهضة العربية ، القاهرة .

٣٢ — أحمد عزت عبد الكريم : « المقاومات التاريخية للقومية العربية » أحاديث فى التوجيه القومى ، وزارة التربية ، ١٩٦٠ .

٣٣ — احمد عيسى : تاريخ البيمارستانات فى الاسلام ، القاهرة ١٩٣٩ .

٣٤ — آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، (مترجم) جزءان القاهرة ، لجنة التاليف ١٩٤٧ — ١٩٤٨

٣٥ — أرنولد ، توماس : الدعوة الى الاسلام (مترجم) ، ١٩٥٧ .

٣٦ — اسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى الجاهلية وصدر الاسلام ، القاهرة ١٩٣٧ .

٣٧ — اسعد داغر : حضارة العرب ، القاهرة ١٩١٨ .

٣٨ — الاصطخرى ، أبو القاسم ابن محمد الفارسى : مسالك الممالك ليدن ١٨٧٣ .

٣٩ — الألوسى ، السيد محمود شكرى : بلوغ الأرب فى معرفة احوال العرب ، ٣ اجزاء ١٩٢٤ .

٤٠ — البرت بدر : محاضرات فى الاقتصاد اللبنانى ، القاهرة ١٩٥٥ .

٤١ البلاذرى ، أحمد بن يحيى : فتوح البلدان ، القاهرة ١٣١٨ هـ .

٤٢ — البيرونى ، أبو الريحان : الآثار الباقية عن القرون الخالية ، ليبزج ، ١٨٧٨ .

٤٣ — الجبرتى ، عبد الرحمن : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، ٤ أجزاء ، بولاق ١٢٩٧ هـ .

٤٤ — الحزب الوطنى « القضية المصرية » : تقرير الحزب لمؤتمر اسلام ، القاهرة .

٤٥ — الحلبى ، على بن برهان الدين : انسان العيون فى سيرة الأمين والمأمون ، القاهرة ١٣٢٠ هـ .

٤٦ — الخطيب البغدادى ، الحافظ : تاريخ بغداد أو مدينة السلام ، ٤ أجزاء القاهرة ١٩٣٦ .

٤٧ ـ القلقشندى ، ابو العباس	: صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، ٤ أجزاء القاهرة ١٩١٣ ـ ١٩١٩ .
٤٨ ـ الكندى ، ابو عمر	: كتاب ولاة مصر .
٤٩ ـ اللجنة العليا لحزب اللامركزية بمصر	: المؤتمر العربى الأول مطبعة البوسفور ١٩١٣ .
٥٠ ـ الماوردى ، ابو الحسن على	: الأحكام السلطانية ، القاهرة ١٩٢٨ .
٥١ ـ المسعودى ، ابو الحسن على	: مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جزءان القاهرة ١٣٠٣ هـ .
٥٢ ـ المقريزى ، تقى الدين	: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ٤ أجزاء . مطبعة النيل ، ١٣٢٤ هـ .
٥٣ ـ المقريزى ، تقى الدين	: البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، مطبعة المعارف ، ١٩١٦ م .
٥٤ ـ الواقدى ، ابو عبد الله	: فتوح الشام ، القاهرة ١٣٠٢ هـ .
٥٥ ـ امام ابراهيم احمد	: تاريخ الفلك عند العرب ، القاهرة ١٩٦٠
٥٦ ـ انيس صايغ	: تطور المفهوم القومى عند العرب ، بيروت ١٩٦١ .
٥٧ ـ بارتولد ، ف .	: تاريخ الحضارة الاسلامية (مترجم) دار المعارف ، ١٩٥٨ .
٥٨ ـ باركر ، ارنست	: الحروب الصليبية (ترجمة السيد الباز العرينى) النهضة ١٩٦٠ .
٥٩ ـ برنارد لويس	: العرب فى التاريخ (مترجم) بيروت ١٩٥٤ .
٦٠ ـ بطرس غالى	: الاستعمار ـ الراسمالية ـ الشيوعية ، القاهرة .
٦١ ـ بوليه ، جاك	: مع القومية العربية (مترجم) ، بيروت ١٩٥٩ .
٦٢ ـ تشارلز آدمز	: الاسلام والتجديد (مترجم) ، القاهرة ١٩٣٥ .
٦٣ ـ توفيق البكرى	: جامعة الدول العربية والقضايا التى عالجتها ، جامعة الدول العربية ، ١٩٥٨ .

٦٤ ـ توينبى ، أرنولد : محاضراته فى القاهرة ، الدار القوميــة ، ١٩٦١ .

٦٥ ـ جاسم محمد الخلف : جغرافية العراق ، القاهرة ١٩٥٦ .

٦٦ ـ جامعة الدول العربية : الوثائق الرئيسية فى قضــية فلسطين ، مطبعة جريدة الصباح .

٦٧ ـ جامعة الدول العربية : اتفاقية انشــاء المؤسسة المالية العربيــة للانماء الاقتصادى ، القاهرة ١٩٥٨ .

٦٨ ـ جامعة الدول العربية : مشروع اتفاقية الوحدة الاقتصــادية بين دول الجامعة العربية ، ١٩٥٨ .

٦٩ ـ جروهمان ، أدولف : أوراق البردى العربية (مترجم) القاهرة ١٩٣٥ .

٧٠ ـ جلال مظهر : مآثر العرب على الحضــارة الأوربية ـ القاهرة .

٧١ ـ جمــال الدين الأفغــانى ومحمد عبده : العروة الوثقى والثورة التحررية الكبرى ، دار العرب ، ١٩٥٧ .

٧٢ ـ جمال الدين الشيال : الأسس التاريخيــة لوحــدة العــرب ، أحاديث فى التوجيه القومى القاهرة ، ١٩٦٠ .

٧٣ ـ جمال حمدان : دراســات فى العالم العــربى ، القــاهرة ١٩٥٨ .

٧٤ ـ جمال عبد الناصر : رده على خطاب الملك حســـين ، وزارة الخارجية ، ١٩٦١ .

٧٥ ـ جمال عبد الناصر : الميثاق الوطنى ، مصلحة الاســتعلامات ١٩٦٢ .

٧٦ ـ جمال عبد الناصر : فلسفة الثــورة ، مصــلحة الاستعلامات ١٩٥٣ .

٧٧ ـ جمال عبد الناصر : مجمــوعات خطب الرئيس وتصريحاته (عدة مجلدات) القاهرة .

٧٨ ـ جمال عبد الناصر : خطاب الى الشــعب العــربى فى مصر ، الأهرام ١٧ أكتوبر ١٩٦١ .

٧٩ ـ جورج انطونيوس : يقظة العرب (مترجم) دمشق ، ١٩٤٦ .

٨٠ ـ جورجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ، ٥ أجزاء ، دار الهلال . طبعة حديثة ، جزءان بدون تاريخ .

٨١ ـ جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربيــة ، ٤ اجــزاء ، دار الهلال ، طبعة حديثة جدا ، بدون تاريخ .

٨٢ ـ جورجى زيدان : انساب العرب ، القاهرة ، ١٩٢١ .

٨٣ ـ جورجى زيدان : تاريخ العــرب قبل الاســلام ، القاهرة ، ١٩٢٢ .

٨٤ ـ جوستان جرونيباوم : حضارة الاسلام ، القاهرة ، ١٩٥٦ .

٨٥ ـ حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقيــة ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

٨٦ ـ حسن ابراهيم حسن : عمرو بن العاص ، القاهرة ، ١٩٢٦ .

٨٧ ـ حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ، القاهرة ١٩٣٢ .

٨٨ ـ حسين خلاف : « تطور اقتصاد الشرق العربى فى العصر الحـــديث » احـاديث فى التوجيـــه القومى ، وزارة التربية ، ١٩٦٠ .

٨٩ ـ حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ، القاهرة ، ١٩٤٧ .

٩٠ ـ خيرى حماد : قضايانا فى الأمم المتحدة ، بيروت .

٩١ ـ رشـاد ابـو الســـعود وعبد الحميد هويس مختصر تاريخ العرب القديم ، ١٢٩٠ هـ

٩٢ ـ زكى الرشيدى : التكامل الاقتصـــادى للوطن العــربى ، مرآة العــلوم الاجتماعيــة ، نوفمبــر ١٩٥٩ .

٩٣ ـ زكى محمد حسن : مصر والحضارة الاسلامية .

٩٤ ـ زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوســطى ، القاهرة ١٩٤٥ .

٩٥ ـ رسائل مصرى لسياسى انكليزى كبير فى سنة ١٩٠٥ ، القاهرة ١٩٠٨

٩٦ ـ رئاسة مجلس الوزراء : وحدة وادى النيل ، اسسها الجغرافية ومظاهرها فى التاريخ ، القاهرة ١٩٤٧ .

٩٧ ـ ساطع الحصرى : حول القومية العربية ، بيروت ١٩٦١ .

٩٨ — ساطع الحصرى : آراء واحاديث فى القومية العربية ، بيروت ١٩٥٨ .

٩٩ — ساطع الحصرى : دفاع عن العروبة ، بيروت ١٩٥٧ .

١٠٠ — سليمان حزين : « الاستعمار والمذاهب الاستعمارية » . احاديث فى التوجيه القومى ، وزارة التربية ١٩٦٠ .

١٠١ — سليمان حزين : « القومية العربيةوالصهيونية» ، احاديث فى التوجيه القومى ، وزارة التربية ١٩٦٠ .

١٠٢ — سنى اللقانى : الاقليم السورى واقتصادياته ، القاهرة ١٩٥٨ .

١٠٣ — سيد امير على : مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامى (مترجم) القاهرة ١٩٣٨ .

١٠٤ — طه باقر : مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة ، جزءان ، بغداد ١٩٥٥ .

١٠٥ — عباس عمار : المدخل الشرقى لمصر ، مطبعة المعهد العلمى القاهرة ١٩٤٦ .

١٠٦ — عباس محمود العقاد : الفلسفة القرآنية ، دار الهلال .

١٠٧ عباس محمود العقاد : الاسلام فى القرن العشرين ، دار الهلال .

١٠٨ — عبد الحميد البطريق : الأمة العربية ، سلسلة اخترنا لك ، العدد ١٩ .

١٠٩ — عبد الرازق حسن : «الوحدة الاقتصادية بين البلاد العربية» مرآة العلوم الاجتماعية، يونيو ، ١٩٥٨

١١٠ — عبد الرحمن البزاز : الدولة الموحدة والدولة الاتحادية ، القاهرة ١٩٦٠ .

١١١ — عبد الرحمن الجليلى : محاضرات فى اقتصاديات العراق ، القاهرة ١٩٥٥ .

١١٢ — عبد الرحمن الكواكبى : أم القرى ، حلب ، ١٩٥٩ .

١١٣ — عبد الرحمن الكواكبى : طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، حلب ١٩٥٧ .

١١٤ — عبد العزيز جاويش : الاسلام دين الفطرة .

١١٥ — عبد العزيز مرعى وعيسى عبده ابراهيم } المشكلات الاقتصادية المعاصرة فى الاقليم المصرى . القاهرة ١٩٦٠ .

١١٦ ـ عبد الغنى سعيد : الاسلام والأصول الفكرية للاشتراكية العربية ، القاهرة .

١١٧ ـ عثمان خليل عثمان : « الدولة الحديثة بين الوحدة والاتحاد » مجلة العربى مايو ١٩٦٣ .

١١٨ ـ على حسن الخربوطلى : القومية العربية من الفجر الى الظهر ، القاهرة .

١١٩ ـ فلهوزن ، يوليوس : تاريخ الدولة العربية (ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده) ، لجنة التأليف ١٩٥٨ .

١٢٠ ـ فيليب حتى : تاريخ العرب (مترجم) ، القاهرة ، ١٩٤٩

١٢١ ـ كيرك ، جورج : موجز تاريخ الشرق الأوسط ، (مترجم) القاهرة ١٩٥٧ .

١٢٢ ـ ليفى بروفنسال : الاسلام فى المغرب والأندلس ، (مترجم) القاهرة ١٩٥٦ .

١٢٣ ـ محب الدين الخطيب : اتجاهات الموجات البشرية فى جزيرة العرب ، المطبعة الفلسفية ١٣٤٤ هـ .

١٢٤ ـ محمد ابراهيم الصيحى : من المحيط الى الخليج ، القاهرة ١٩٦٠ .

١٢٥ ـ محمد البهى : الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ، القاهرة ١٩٥٧ .

١٢٦ ـ محمد البهى : « الاشتراكية التعاونية الديمقراطية » احاديث فى التوجيه القومى ، وزارة التربية ١٩٦٠ .

١٢٧ ـ محمد بن تاويت : محاضرات فى تاريخ التشريع الاسلامى ، تطوان ، ١٩٦١ .

١٢٨ ـ محمد الخضرى : تاريخ الأمم الاسلامية ، ٣ أجزاء .

١٢٩ ـ محمد الخضرى : تاريخ التشريع الاسلامى ، القاهرة ١٩٢٦ م .

١٣٠ ـ محمد العروسى المطوى : الحروب الصليبية فى الشرق والغرب ، تونس ١٩٥٤ .

١٣١ ـ محمد جمال الدين سرور : قيام الدولة العربية الاسلامية ، القاهرة ١٩٥٢ .

١٣٢ — محمد جواد العبوسى : البترول فى البلاد العربية ، القاهرة ١٩٥٥

١٣٣ — محمد خلف الله أحمد : « الشرق العربى مهد التراث الروحى » مؤتمر المعلمين نقابة المعلمين ، ١٩٥٦

١٣٤ — محمد سعيد العريان : « سياسة الحياد الايجابى » أحاديث فى التوجيه القومى ، وزارة التربية ١٩٦٠.

١٣٥ — محمد سيد نصر : « وحـــدة الجغرافية الطبيعية للوطـن العربى » أحاديث فى التوجيه القومى ، وزارة التربية ، ١٩٦٠ .

١٣٦ — محمد شفيق غربال : العوامل التاريخية فى بناء الأمة العربية ، معهد الدراسات العربية ١٩٦١ .

١٣٧ — محمد شفيق غربال : « القومية العربية قوة جديدة فى المحيط العالمى » أحاديث فى التوجيه القومى ، وزارة التربية ١٩٦١ .

١٣٨ — محمد صبحى عبد الحكيم : موارد الثروة الاقتصـادية ، جـزءان ، القاهرة ، ١٩٦١ .

١٣٩ — محمد صفى الدين وآخرون : دراســات فى جغرافية مصر ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

١٤٠ — محمد حافظ غانم : محاضرات عن جامعة الدول العربيـة ، معهد الدراسات العربية ، ١٩٦٠ .

١٤١ — محمد حبيب أحمد : نهضـة الشـعوب الاسلامية فى العصر الحديث ، القاهرة ١٩٥١ .

١٤٢ — محمد عبده : الاسلام بين العلم والمدنية ، دار الهلال .

١٤٣ — محمد عزة دروزة : حول الحركة العربية الحديثة ، ٦ أجزاء المكتبة العصرية ، صـيدا ، ١٩٥٠ . ١٩٥١ .

١٤٤ — محمد عزة دروزة : الوحدة العربية — بيروت ١٩٥٧ .

١٤٥ — محمد عوض محمد : السودان الشمالى — سـكانه وقبائله ، القاهرة ، ١٩٥١ .

١٤٦ — محمد عبد المنعم الشرقاوى ومحمد محمود الصياد } ملامح المغرب العـربى ، الاسـكندرية ، ١٩٥٩ .

١٤٧ — محمد فريد أبو حديد : « القومية العربية والاستعمار » ، أحاديث فى التوجيه القومى ، ١٩٦٠ .

١٤٨ — محمد فريد أبو حديد : فتح العرب لمصر (مترجم عن بتلر) ، القاهرة ، ١٩٣٢ .

١٤٩ — محمد فريد أبو حديد : أمتنا العربية ، دار المعارف ، ١٩٦١ .

١٥٠ — محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، القاهرة ١٨٩٦ .

١٥١ — محمد فريد وجدى : الاسلام دين الهداية والاصلاح .

١٥٢ — محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية ، جزءان ، القاهرة ١٩٣٤ — ١٩٣٦ .

١٥٣ — محمد لبيب شقير : العلاقات الاقتصادية بين البلاد العربية ، القاهرة ١٩٥٨ .

١٥٤ — محمد لبيب شقير : الجوانب الاقتصادية للوحدة المصرية السورية ، القاهرة ١٩٥٩ .

١٥٥ — محمد متولى : الجغرافية السياسية ، القاهرة ، ١٩٥٧

١٥٦ — محمد محمود الصياد : اقتصاديات السودان ، القاهرة ، ١٩٥٧

١٥٧ — محمد محمود الصياد : النقل فى البلاد العربية ، معهد الدراسات العربية ، ١٩٥٦ .

١٥٨ — محمد مصطفى زيادة : مصر والحروب الصليبية .

١٥٩ — محمد مفيد الشوباشى : العرب والحضارة الأوربيه ، وزارة الثقافة ، ١٩٦١ .

١٦٠ — مصطفى السباعى : الاشتراكية فى الاسلام ، القاهرة ، ١٩٦١

١٦١ — مصطفى عامر : « المقومات الجغرافية للعالم العربى » أحاديث فى التوجيه القومى ، وزارة التربية ، ١٩٦٠.

١٦٢ — مصطفى عبد الرازق : تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٤٤ .

١٦٣ — مؤتمر البترول العربى الأول : مجموعة البحوث المقدمة للمؤتمر القاهر ١٩٥٩ .

١٦٤ — نجلاء عز الدين : العالم العربى (مترجم) القاهرة ، ١٩٥٣

١٦٥ — نصر السيد نصر : « البترول فى الشرق الأوسط» محاضرات الجمعية الجغرافية ، ١٩٥٧ .

١٦٦ — نصر السيد نصر : دراسة فى الجغرافية الاقتصادية للجمهورية العربية المتحدة ، القاهرة ١٩٦٠ .

١٦٧ — نعوم شقير : تاريخ السـودان القـديم والحـديث ، القاهرة ١٩٥٦ .

١٦٨ — نفيس احمد : جهـود المسلمين فى الجغرافيا (مترجم) القاهرة .

١٦٩ — همايون كبير : العلم والديمقراطية والاسلام ، (مترجم)، دار الهلال ١٩٦٢ .

١٧٠ — يوسف أبو الحجاج : « العـالم الاسلامى فى دنيـا المواصلات العالمية وفى محيط السياسة الدولية»، مجلة معهـد الدراسـات الاسلامية مايو ١٩٥٨ .

١٧١ — يوسف أبو الحجاج : « العالم الاسلامى ومكانته فى الاقتصاد العالمى وارتباطها بالأطماع الاستعمارية»، حولية كلية الآداب بجامعة عين شمس جـ ٥ — ١٩٥٩ .

١٧٢ — يوسف أبو الحجاج : وحدة الوطن العربى ، القاهرة ١٩٦٠ .

١٧٣ — يوسف أحمد : الاسلام فى الحبشة . القاهرة ١٩٣٥ .

١٧٤ — بنج . ت كويلر : الشرق الأدنى ، مجتمعـه وثقـافته ، (مترجم) القاهرة .

REFERENCES

1. Ali, Ameer, The Spirit of Islam, London, 1955.
2. Arnold, Tomas (Ed.) The Legacy of Islam, Oxford, 1931.
3. Atiya, Edward, The Arabs, Edinburgh, 1958.
4. Blunt, Secret History of British Occupation of Egypt.
5. Bovill, F. W., Caravans of the Old Sahara, Oxford, 1933.
6. Bullard (Ed.) The Middle East, A. Political and Economic Survey, London, 1959.
7. Draper, John Wiliam, History of the Conflict between Religion and Science, New York, 1898.
8. Europa poblications (Ed.) The Middle East, London, 1961.
9. Farchild, H. P., Dictionary of Sociology, 1961.
10. Fisher, W. B., The Middle East, London, 1958.
11. Hoskins, H. L., The Middle East, Problem Area in World Politics, New York, 1954.
12. Issawi, Charles, Egypt at Mid-Century, London, 1953.
13. Lenezowski G., The Middle East in World Affairs, New York, 1952.
14. Lenezowski, G., Oil and State in the Middle East, New York, 1956.
15. Nuseibeh, H. Z., The Ideas of Arab Nationalism, New York, 1956.
16. Radwan, Abul-Futouh, Old and New Forces in Egyptian Education, New York, 1951.
17. Smith, C. W., Islam in Modern History, U. S. A., 1957.
18. Statesman's Yearbook, Since, 1950.
19. Trimingham, J. S., Islam in the Sudan, Oxford, 1949.
20. Volney, C. F., Voyage en Syrie et en Egypte, Pendent les Années 1784—1785, 2 Vols., Paris, 1787.
21. White, A. D., A History of the Warfare of Science with Theology in Christendom, New York, 1898.

رقم الايداع بدار الكتب ٤٥١٧ سنة ١٩٦٩

تم طبــع كتاب القوميــة العربية
بالهيئــة العــامة للكتب والأجهــزة
العلمية ـ مطبعة جامعــة القاهرة ـ
فى يوم الخميس الموافق ٢٧ من نوفمبر
سنة ١٩٦٩ .

مدير المطبعة
أحمد سلامه

(مطبعة جامعة القاهرة ٤٨٣/١٩٦٩/٣٠٠٠)



مطبعة جامعة القاهرة

